

تأليف

محمد أحمد جاد المولى بك

مفتش أول للغة العربية بوزارة المعارف

الـتزام



الجزء الرابع

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الثمن
ص
١٥

(الطبعة الأولى)

١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م

(يطلب من مكتبتنا بالصنادقية بجوار الأزهر ومن عموم المكتبات الشهيرة)

المطبعة العثمانية المصرية — تليفون رقم ٥٥٧٧٣

التقدير والتقريظ

ا - التقدير السامى لكتاب الخلق الكامل

نشرت صحيفة الأهرام فى ٢٣ - ٩ - ١٩٣٦ ما يلى :

تشرف حضرة صاحب العزة المربى الجليل الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك المراقب الادارى لمجمع اللغة العربية الملكى برفع مؤلفاته إلى العتبات الملكية فورده التعطف التالى :

رفعت إلى الأنظار العلية الملكية الأسفار الأربعة التى قدمتموها إلى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم من مؤلفاتكم وهى « محمد صلى الله عليه وسلم المثل الكامل » وثلاثة أجزاء « الخلق الكامل » فنالت حسن القبول وإنى أتشرف بابلاغ ذلك إلى عزتكم مع الشكر السامى وتقبلوا وافر الاحترام

كبير الأمناء

ب - تقاريظ الجزء الثالث

تواتر علينا على إثر ظهور الجزء الثالث كثير من تقاريظ الأدباء الأجلاء فلهم منا جميعا موصول الشكر ودائم الثناء ، وإنا نستميحهم معذرة إذا اضطرنا المقام إلى الاجتذاء بما يأتى :

(١)

كلمة صحيفة المقطم الغراء

جولة فى كتاب الخلق الكامل

للأستاذ محمد صادق عنبر

al Organization Of the Alexandria Library (GOAL)
Bibliotheca Alexandrina

الأستاذ الجليل محمد أحمد جاد المولى بك مراقب مجمع اللغة العربية الملكى

ملح خلق سمت به إنسانيته إلى الفضيلة وتأدت به فضيلته إلى الأدب اللباب ورفعه أدبه إلى مقام من الحكمة أشرف منه على عصره برسالته التى أداها موفقا

تلك رسالة الخلق الكامل استملاها من وحى وجدانه فهى صدى وجدانه واستمدها من إيمانه فهى مرآة إيمانه ثم أذن بها فى الناس داعيا إلى الخلق الذى يجعل الطفل بمخايله رجلا والرجل بشمائله أكبر من رجل ويكون به الفرد من معانى إنسانيته كأنه جماعة والجماعة من مادة وحدتها كأنها فرد ويكون به الوطن جنة أرضية يدور عليها من الأخلاق سياج لا يطمع فيه ولا يقتحم عليه

فهى رسالة إصلاح وصلاح من مصلح أخلاقى بعث بها على حين فترة من المصلحين. ومن آية رسالته أن خلقه هو من آيتها لأنه من مسلكه استوحاها ثم أرسلها دعوة جهيرة إلى طبع أبناء العصر بطابع قوى من خلق السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين ذلك الخلق الذى يذكر المتصف به كل حين أن فى روحه أشعة سماوية من دينه تتضوأ فى روحه فلا يكدر لمحتها بهفوة ولا يعكر لمعتها بنزوة وتدعه يحس قبل كل شىء وبعده أنه لم يخلق فى هذه الحياة ليكون أداة من أدواتها لغيره ولكن الحياة خلقت فيه لتكون أداته لنفسه وتكون نفسه لأمته كما أنها له وأمته لوطنها كما أنها لنفسها

فهى رسالة الفكرة القدسية التى تحبب إلى النفس الفضيلة والفضيلة التى تطبع النفس على الجمال والجمال الذى تخرج إنسانية المستجيب له وهى متكاملة لأن عليها ظلا من جلال الألوهية

وقد خرجت هذه الرسالة فى ثلاثة أسفار ضخمة بين أيدينا الساعة ثالثها وقد تنفست به المطبعة أمس. نجيل النظر فيه وكأنا نجيل الفكر فى نفس منشيه فهما حقيقة واحدة فى صورتين

وقد دار هذا السفر على مجموعة شائقة ممتعة من البحوث الضافية فى الواجب والحق وهما أول مادة فى الشريعة الأدبية وقد توسع الأستاذ المؤلف فى هذه المادة وشقق بعض الكلام عن بعض وأتى فى أثنائه بما لم يسبق إليه

وقد أفاض فى ذكر الشواهد المعددة من القرآن الكريم والحديث الشريف وضروب المثل العليا وعرض لآراء بعض الفلاسفة والحكماء من العرب والفرنجة فى جزئيات من هذه المباحث وكليات من هذه الموضوعات عروض من علك التجريح والتعديل ولم يكن ناقلا راويا ، ولكنه كان ناقدا محققا

وليس يسع منصفا يحب الخير لأمته جهده إلا أن يوجه نظر وزارة المعارف وعلى رأسها الوزير المصلح العامل صاحب المعالى الأستاذ على زكى العرابى باشا إلى تقدير دراسة هذا الكتاب فإنه من خير ما تقرر دراسته فى مدارسها الخصوصية والعليا ومدارس معلميها ومعلماتها ولقد نشطت الوزارة فى هذا العهد السعيد إلى إحياء المراجع الأدبية والعلمية القديمة لتعميم نفعها ومن البر الذى درج عليه معالى الوزير أن يتشفع ذلك بمثل هذا الصنيع توخيا لمنفعة أبنائها النابتة المصرية ورغبة فى تنشئتهم على الخلق الذى يرفع وينفع فى العاجلة والآجلة

جزى الله المؤلف الجليل وأحسن إليه بما أحسن إلى أمته وبلاده

(محمد صادق عنبر)

(٢)

كلمة كاتب كبير

الخلق الكامل

كتاب الأخلاق والسياسة العامة والإرشاد

هذه نهضة الوضع والتأليف قد أينعت ثمراتها ودنت فى مصر من أهلها حتى اقتطفها المتعلمون الكاملون وأنصاف المتعلمين ومن هم فى المرحلة الأولى من التعليم

بحيث أصبح كل فريق من هؤلاء وفى متناول أيديه مايشبع نهمه ويسد حاجته يرده شبعان ريان .

وهذا السفر الثالث من كتاب « الخلق الكامل » الذى وضعه العلامة الكبير الأستاذ محمد أحمد جاد المولى بك المراقب الادارى لمجمع اللغة العربية الملكى أنضج ثمرات نهضة التأليف وأطيبها ريحا وطعما ولونا ، فهو إذا مقتطف الفريق الأول الذى يحمل أفراده ألوية فروع الحياة المختلفة فى وادى النيل علمية كانت أوسياسية أواجتماعية أو غيرها ، بل هوسراجهم المنير الذى يكشف لهم أوجه الحياة الصحيحة ويبصرهم بما فيها من خيروشر وسعادة وشقاء ، هودليل كل سائس يبتغى فى سياسته أقوم السبل وكل قاض يطلب فى قضائه وجه العدل وكل مرب يحب أن يشرب تلامذته روح الفضيلة وكل إنسان يود أن يرتفع بنفسه إلى مرتبة الانسانية الصادقة ، بل هو أستاذ من قعدت به نفسه أوماله عن مخالطة العلماء والحكماء وذوى الفطنة يغنيه عن هؤلاء جميعا بما أفرغ فيه من عرفان وتجارب ووصف صادق لواجب الأفراد والجماعات وحقوق الجماعات والأفراد .

وليس فى وسعى أن ألم بما جاء فى هذا السفر العظيم مما ينفع الانسان فى دنياه وآخرته فى عجالة قصيرة كهذه لاتروى ظمأ ولا تنقع غلة ، وكل مافى الامكان أن أقول إن « الخلق الكامل » أثر خلقى عظيم من آثار الثقافة العربية الدينية الأدبية والثقافة الغربية المدنية يضاف إليهما إبداع فى الفصاحة والبيان ولمس للحقائق فى رفق ولين وربط لمسالك الحياة وأسبابها فى تجربة ودراسة واسعتين ، وخبر بنزعات النفوس وعرفان بأهوائها .

وبعد فإن يكن أكثر مايطالع الناس من المؤلفات فى هذه الأيام زبدا رابيا لايكاد يبدو حتى يختفى فإن فى « الخلق الكامل » ماينفع الناس فى أنفسهم وفيما بين بعضهم وبعض من روابط وأسباب ، فهو غاية الأدباء والمتأدبين وبغية المربين والساسة وغنية العلماء والمتعلمين وقنيتهم ، فإن تكن لى أمنية فى الكتب بعد ذلك فأمنيتى أن أقتنى السفرين الأول والثانى من هذا المؤلف العظيم .

(٣)

كلمة صحيفة البلاغ الغراء فى ٢١ - ٩ - ١٩٣٦

الخلق الكامل

الأدب المصرى أو التأليف المصرى فى حاجة دائما إلى الكتب ذات البحوث الشائقة والدراسات العالية والأخلاقية القيمة التى يقصد منها الفائدة العلمية البحتة وتغذية طلاب الدراسة والاطلاع بخير ما أنتجته القرائح المصرية .

وكتاب « الخلق الكامل » للأستاذ الفاضل محمد أحمد جاد المولى بك من هذه الكتب الموفقة التى أخذت منها الشىء الكثير ورأيت فيها غذاء عقليا وأخلاقيا ، نحن اليوم فى مسيس الحاجة إليه بعد أن امتاز هذا العصر بالتدهور الأخلاقى والتفكك الأسرى وانصراف الناس إلى مايشبع شهواتهم ويهيئ لهم عيشهم بأى سبيل ولو كان فيه ازدراء بالكرامة والضمير وإغفالهم واجباتهم نحو أنفسهم وعن مجتمعهم ووطنهم .

فمن الواجب فى هذه الحالة أن يعرف الفرد واجباته وحدوده وأن يلتفت إلى تعاليم دينه لتكون منهاجه فى حياته وفى تصرفاته فهى العاصم له والحافظ من هذه الفوضى الأخلاقية المنتشرة المتزايدة .

أعود إلى هذا الكتاب فأقول إنه تحدث عن الواجب وعن معانيه المختلفة ثم حقوق الفرد على نفسه وعلى غيره وعلاقة الحاكمين بالمحكومين والواجب على الإنسان لله تعالى ثم الواجب عليه للمجتمع وللأسرة وللوطن ومسئوليته والعقوبة المفروضة على الناس دينا وخلقا وقانونا ثم المثل الأعلى للخلق القويم والنصائح الأخلاقية الواجب اتباعها وأمراض الخلق ورأى العلماء فيها وشخصية الإنسان ومظاهرها وضوابطها .

هذا كتاب خدم التأليف المصرى وأفاد البحث الخلقى فائدة جليلة نرجو أن تقدر قدرها وأن نرى من أمثال هذا المؤلف مايكون عدتنا فى هذه الحركة الأدبية

فهرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة



تأليف

محمد أحمد جاد المولى بك

المراقب الاداري لمجمع اللغة العربية الملكي

اهداءات ١٩٩٩
ا/ محمود محمد علي العيس
الإسكندرية

الـتزام

بو حجرة عثمان

الاسكندرية
١٦٩٧/ع

الجزء الرابع

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الثمن
ص
١٥

(الطبعة الأولى)

١٣٥٥ هـ — ١٩٣٦ م

(يطلب من مكتبتنا بالصنادقية ومن عموم المكاتب الشهيرة)

المطبعة العثمانية المصرية — تليفون رقم ٥٥٧٧٣



مقدمة

الحمد لله قد علم السرائر ، وخبر الضمائر ، له الإحاطة بكل شىء ، والقدرة على كل شىء ، والصلاة والسلام على عبده محمد الذى أخرجه من أفضل المعادن منبتا ، وأعز الأرومات مغرسا ؛ فعترته خير العتر ، وشجرته أطيب الشجر ، سيرته القصد ، وسنته الرشد ، وكلامه الفصل ، وحكمه العدل ، وعلى آله وصحبه الذين لم يتولهم الإعجاب ، فيستكثروا ما سلف منهم ، ولم يختلفوا فى ربهم باستحواذ الشيطان عليهم ، بهم عاد الحق فى نصابه ، وانزاح الباطل عن مقامه (وبعد) فقد يسر الله لنا إتمام الجزء الرابع مشتملا على صفوة ما ارتضاه علماء الأخلاق قديما وحديثا ، وأيده الكتاب والسنة الصحيحة ، والله أسأل أن يجعل لنا بجوده الذى هو سبب الوجود نورا يهدينا إلى الإقبال عليه ، ويميل بنا إلى الإصغاء إليه ، ويدلنا على حسن معاملته ، والقوة على النفاذ فى طاعته ؛ إنه سميع مجيب .

المراجع

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ كتب السنة الصحيحة

٣ ـ نهج البلاغة

٤ ـ الأخلاق الدينية لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيرى

٥ ـ الأخلاق والواجبات لحضرة الأستاذ الشيخ عبد القادر المغربى رئيس المجمع العلمى العربى بدمشق

٦ ـ الذخائر والأعلاق للباهلى الاشبيلى

٧ ـ أدب الدنيا والدين للماوردى

٨ ـ العقد الفريد للملك السعيد

٩ ـ علم أدب النفس للأستاذ نقولا الحداد

١٠ ـ الأخلاق للمغفور له الأستاذ عبد الرحمن زغلول

١١ ـ الفلسفة العربية والأخلاق للمغفور له الأستاذ سلطان بك محمد

١٢ ـ الأخلاق لحضرة الأستاذ أحمد أمين

١٣ ـ الجزء الرابع من الأخلاق ومناهج الأدب للمغفور له أمين بك واصف

١٤ ـ غاية الانسان ترجمة الكاتبة وسيلة محمد

١٥ ـ حياتنا الأدبية للمغفور له صالح حمدى

١٦ ـ علاج النفس للمغفور له المويلحى

١٧ ـ جوامع الادب تأليف الشيخ جمال الدين القاسمى الدمشقى

الفضيلة

الناس يختلفون فى ميولهم ومعاملاتهم وشعورهم بالواجب والجنوح إلى الفضائل والكمالات :

فمنهم البخيل الشحيح الذى ملك حب المال مشاعره ، وختم على قلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فأصبح يقتر على نفسه وعياله : تراه ينفطر أمامه قلب البائس الفقير وفؤاده كالحجارة أو أشد قسوة ، وهيهات أن تجد الرحمة منفذاً إلى نفسه أو سبيلا إلى قلبه .

ومنهم من يرى أن يقصر الإنفاق على نفسه وعياله وذوى قرابته .

وخير منهما من يوسع فى حدود القصد على نفسه وأقربائه والفقراء البائسين من أهل بلدته وعشيرته ،

وأفضل من هؤلاء جميعا من يعم فضله ـ فى حدود الاعتدال ـ القريب والبعيد من أهل ملته ووطنه والعالم أجمع ، بل يشعر بأن واجبا عليه أن يحسن إلى كل ذى كبد رطبة من الإنسان والحيوان

ومن ذلك يتبين أن الناس ليسوا سواء فى جنوحهم إلى الفضائل وشعورهم بالواجب وما رسخ فى نفوسهم من الميول والأخلاق : فمنهم الطيب والخبيث ، والخير والشرير .

ومن ذلك افترق الحكماء فى تعريف الفضيلة فرقا شتى : عرفها أرسطو : بأنها اعتياد الخير .

وعرفها بعضهم : بأنها القيام بالواجبات الأدبية إلفا وعادة قياما منتظما ، وهى تقتضى من طالبها مجاهدة ومراقبة واحتمالا وصبرا ، حتى تنتظم له كل الأحوال الفاضلة ، لتوافق أعماله القانون الأدبى ، وتصفو له موارد الحياة من أكدار الشهوات واللذات التى لا تلائم الخير ، ولا تسوغها الحكمة العملية ،

وقال آخرون : الفضيلة التوجه بعزم ثابت وإرادة صحيحة إلى الأعمال

السامية واختيارها ، وهى لذلك كانت مصدر الإحساس الشريف ، والعاطفة النبيلة ، والأعمال الجيدة المتجددة .

ويرى فريق آخر أن الفضيلة بذل العزيمة الثابتة فى الطاعة على هدى ، وعن محبة ورغبة لما أمر به العقل الرشيد . وقال شاعر فرنسى :

لا يُعد الإنسان فاضلا إلا إذا وُفق إلى الاعتصام بالفضيلة ، مسترشدا بالعقل ، مرضيا للضمير ، مؤديا واجبه ، مجتنبا اقتحام الرذائل والانغماس فى الشرور .

وجمهور علماء الأخلاق على أنها عواطف الخير الراسخة فى النفس التى تجعلها ميالة إلى فعل الخير ، واجتناب الشر دائما . والرجل الفاضل هو من تغلبت عليه الميول الطيبة باستمرار ، فأصبح يختار العمل الطيب رغبة فيه ؛ حتى يصير عادة له ، فتجرى أعماله كلها بلا تكلف على مقتضى قانون الأخلاق ، ويصير مستعدا لتأدية واجبه على أكمل الوجود ،

والذى يحرك المرء نحو الواجب عاملان : عامل داخل مصدره الشعور بالواجب ، وعامل خارج مستمد من العرف والنظم الاجتماعية . وسبيل قيام المرء بالواجب أن يعرفه ويقصد فعله ، وأن يوفق بين الشخصيتين الذاتية والاجتماعية ؛

إذ للشخصية الذاتية غرائز وميول نفسية ، وفى الشخصية الاجتماعية شعور بإرادة الخير للمجتمع ، ولا يتعذر على ذى النية الصالحة أن يهذب ميوله ، ويسيرها على النهج الخلقى القويم ؛ ليكون ذا شخصية فاضلة .

لذلك كانت الفضيلة صفة توجه الإرادة الحسنة إلى السلوك الحسن ، وتقضى على الغرائز والميول والعادات السيئة المنبعثة عن الأثرة . وهى كثيرة الأنواع ، مختلفة باختلاف الذوات والمجتمعات .

أصول الفضائل

من الجلى أنه يتعذر حصر الفضائل وتفصيلها من جهة الشخصية الفردية أو من جهة الشخصية الاجتماعية ، ولا سيما أن الفضائل تختلف باختلاف الأزمنة

والأمكنة والجماعات . على أن أفلاطون رد الفضائل إلى أربعة أصول رئيسة هي أمهات الفضائل ، وهي : العفة ، والشجاعة ، والحكمة ، والاعتدال الذي هو أصل عام يربطها جميعا .

وجلي أن هذه الأصول منغرسة في المجتمع بنظمه التي تربط أفراده بعضهم ببعض ، وقد جرى معظم الكتاب الخلقيين على تقسيم أفلاطون هذا ، إذ أمكنهم أن يستخرجوا هذه الأصول من سائر الفضائل الأخرى بوصفها فروعا لها ، وبذلك أمكنهم التوصل إلى منشئها ، ونسبة بعضها إلى بعض ، ووظيفتها في السلوك الإنساني ، وهاك إجمالها :

(١) الاعتدال

للاعتدال ركنان : التعفف والشجاعة:

قلنا آنفا : إن في الشخصية الفردية ميولا وغرائز وعواطف ، وهي أداة اللذة والألم ، فإذا أطلق للغرائز والأهواء العنان اندفعت في أقرب سبيل إلى السرور من غير نظر إلى العواقب القصوى ، ولا سيما أن غرائز الإنسان ليست كغرائز الحيوان ، تستقل وحدها بإرشاده في سبيل الحياة الأمين ، بل هي متهورة طائشة ، ولا بد من إرشاد التعقل لها وتدريبه إياها ، لذلك كان لا بد من فضيلتي الشجاعة والتعفف؛ لتدربا تلك الأهواء والغرائز في السبيل المؤدي إلى اللذة أو السعادة العظمى : (والتعفف في اللغة هو الكف عما يحل ولا يجمل قولا أو فعلا ، والامتناع عنه)

وقد تقرر أن السرور والألم نقيضان متعاقبان ، بمعنى أن وجود الواحد ينفي الآخر ، أو أن انتفاء الواحد وجود للآخر ، وتقرر أيضا أن الطريق إلى لذة عظيمة قد يستلزم التجاوز عن لذة قليلة

وفي السلوك إلى تلك الغاية القصوى المقرونة باللذة العظمى تكون وظيفة الشجاعة الإقدام على الألم العارض أو تحمله في السبيل إلى الغاية ، ووظيفة

التعفف ضد اللذة الصغيرة الحائلة دون الوصول إلى الغاية .

فكلا الشجاعة والتعفف إذا يقضيان باطراح اللذة ، وتلقى الألم في السبيل إلى الغاية الأوفر لذة ، فكأنهما فضيلة واحدة هي مقاومة الأهواء والميول والعواطف والشهوات التي تغرى النفس باللذة الوقتية أو القليلة ، فتحرمها لذة أعظم وأدوم ، ولكنها فضيلة ذات وجهين : أحدهما إيجابى ، وهو الشجاعة ، والآخر سلبي، وهو التعفف .وقد مثلها بعض العلماء بقوتين:

الواحدة منفذة ، وهي الشجاعة ، والأخرى منظمة ، وهي التعفف

ومما تقدم يتجلى أنهما وجهان لفضيلة واحدة مختلفا الوظيفة على هذاالنحو : وذلك لأنهما متصاحبان فى كل سلوك إلى غاية معينة : ففى كل فعل تجد داعيا للكثير أو القليل من التعفف، وهو قمع الشهوة ، ومن الشجاعة ، وهو تحمل ألم هذا القمع : فالسكير التائب عن الكأس متعفف لأنه قمع شهوته للكأس ، وشجاع لأنه تحمل غصص الشوق إلى الكأس ، والمحسن الذى جاد بقدر من المال لعمل خيرى متعفف لأنه قمع الشهوة للمال ، وشجاع لأنه تحمل ألم الفراق ؛ومنقذ الغريق متعفف لأنه قمع أثرته ، وشجاع لأنه عرض نفسه للخطر ،

وترى من هذين المثلين الأخيرين أن قدر كل من الشجاعة والتعفف مختلف، والشجاعة فى إنقاذ الغريق أعظم من الشجاعة فى احتمال ألم فراق المال ، ولكن التعفف في قمع الأثرة أضعف من التعفف فى قمع شهوة المال .

فمن ذلك ترى أن طبيعة الميول والغرائزوالشهوات والعواطف من جهة، والملابسات المتضمنة الأفعال من جهة أخرى — تُعيّن القدر المطلوب من كل من الشجاعة والتعفف بحيث يتوازنان فى الفعل، لكى يعتدل في وجهته إلى الغاية الفضلى .

فإذا زاد أحدهما على الآخر انتفى أن يكون فضيلة : كما لو غاص شجاع فى الماء وراء قرش رماه آخر فيه ، أو كما لو هجم على بيت يحترق لكى يستخلص من متاعه شيئا ؛ فشجاعة كهذه بلغت حد التهور لا تعد فضيلة ، وكذلك إذا

تعفف الحريص عن ترويح النفس فى النزهة والملاهى ضنا بالمال إلى حد أن يعتل جسمه ؛ فمثل هذا التعفف يعد بخلا ، ولا يسمى فضيلة .

وعلى ذلك كان التعفف ميزان الفضيلتين ؛ فهو ميزان التوازن بين الشجاعة والتعفف ، وهو الفضيلة المركزية التى تعد الشجاعة والتعفف وجهيها : وجها إيجابيا منفذا ، وآخر سلبيا منظما كما سبق القول ، فهما كالعضلتين إلى جانبى المرفق تحركانه ، فتلين الواحدة بقدر ماتشتد الأخرى ؛ ليصل الساعد إلى الجهة المقصودة ،

من أجل ذلك صح القول بأن الاعتدال فضيلة الفضائل ، وأنه وسط بين طرفى التفريط والإفراط ، وكل منهما رذيلة : فالجسارة فضيلة لأنها وسط بين الجبن والتهور ، والكرم فضيلة لأنه وسط بين البخل والإسراف ، والشمم فضيلة لأنه وسط بين العفة والكبرياء الخ ، ففى كل هذه الفضائل يشتد التعفف والشجاعة من جانبى الفضيلة بقدرين من القوة متكافئين بحيث يجعلانها تعتدل فى المنهج القويم .

أضف إلى ذلك أن التعفف اقتصاد فى القوى الخلقية ؛ لأن معناه الكف عن كل مالا يحل ولا يجمل قولا أو فعلا ، أو الامتناع عنه . وقد أطلقناه هنا على قمع الشهوة ، والامتناع عن الرغبة ، وصد الغرائز .

وبالإجمال هو مقاومة الميل النفسانى ورده إلى نقطة الاعتدال ، فهو بهذا المعنى اقتصاد فى القوى الخلقية ؛ لأنه يحول دون التفريط فيها .

فكل الفضائل السلبية التى تضبط بها شهوات النفس كالصبر والحلم والقناعة والتواضع والدعة مردها فضيلة التعفف ، وإنما تتفاوت قيمتها ويختلف فضلها باختلاف الأحوال التى تتضمنها ، وفى مهد الرقى الخلقى تعد الطهارة فى رأس الفضائل المندرجة فى التعفف ، والمراد بها طهارة النفس من الأدران والآثام ، وهى الطهارة القلبية الخالصة التى لايطلب إثباتها بشهادة شهود غير شهادة الوجدان والضمير ، هذه الفضيلة تضمن حسن

السلوك ، لأن النية الحسنة كفيلة بالفعل الحسن .

وكذلك يتضح أن الشجاعة إسراف في القوى الخلقية : فكما أن التعفف هو الإعراض عن اللذات الكاذبة المغرية ، ومقاومة الفاتنات الغرارة : كذلك الشجاعة هي مقاومة عوامل الألم والخوف . والشجاعة نقيض التعفف من حيث الاقتصاد في القوة ، فالتعفف يضن بالقوى الخلقية ، فلا يفرط فيها ، وأما الشجاعة فتبذلها وتسرف فيها . والشجاعة تظهر في صور مختلفة : أهمها التجلد ، والاحتمال عند الألم ، والمواظبة ، والمثابرة عند المصاعب ، والجسارة ، والإقدام عند المخاطر والمخاوف ، والصراحة بالحق عند مقيدات الحرية الخارجية .

(٢) المحبة

للمحبة ركنان: العدل والحكمة : ذلك بأن العفة والشجاعة اللتين ألممنا بهما فيما تقدم هما فضيلتان تكادان تختصان بالشخصية الفردية ، وقلما يكون لهما تدخل في نظم المجتمع ؛ فهما تعنيان الفرد أكثر مما تعنيان الجماعة إلا متى سلكت الجماعة مسلك الفرد كأمة أو دولة أو جماعة فتنسبان لها .

أما الفضيلتان الأخريان وهما العدل والحكمة فتختصان بعلاقة الفرد مع الجماعة: فالعدل يمنح كل ذي حق حقه ، ويمنع التحيز والتغرض والتشيع ، وأما الحكمة فترشد إلى الحق ، وكلتاهما تجتمعان في المحبة بوصفهما وجهين لها على نحو اجتماع العفة والشجاعة بوصفهما وجهين للاعتدال .

وقد رأى بعض المصلحين من الخلقيين أن المحبة أساس جميع الفضائل ، فالمحب لا يكذب على محبوبه ولا يسرقه ولا يخونه ولا يؤذيه إلخ ، ولكن لا تعد المحبة فضيلة إلا إذا كانت موجهة من الفرد إلى المجتمع ، وأما الحب الموجه من فرد إلى فرد آخر معين فلا يعد فضيلة ؛ لأنه إذا عصم المحبَّ من أذى محبوبه فقد لا يعصمه من أذى غير محبوبه أو أذى المجتمع ، فالمحبة بوصفها فضيلة هي اعتبار الإنسانية حبيبا

للمحب كيفما تمثلت له وتجلت ، ولذلك كانت المحبة تشمل الصدق والأمانة ، وهما ركنا العدل ، فإذا كانت محبة الإنسانيـة صفة للمرء كانت من الجهة الواحـدة حكمة ترشد الضمير إلى الحق ، ومن الجهة الأخرى عدلا يوجه الحق إلى صاحبه؛ فالعدل والحكمة متلازمان فى توجيه السلوك إلى خير المجتمع .

وروح هذه الفضيلة المحبة الحكيمة العادلة ، وهى سيطرة فكرة المجتمع أو الرأى العام على فعل الفرد باعتبار أن طبيعة المجتمع يجب أن تكون الداعى للسلوك وقاعدته الخلقية ، لا أن يكون التغرض والتحيز والتشيع ونحو ذلك مما ينتج عن النزعات النفسية والأهواء الشخصية محركا للسلوك وقاعدة له .

ولا جرم أن العدل يكون فضيلة الفرد حيث لا محاكم توجيه ، وتكون الحكمة فضيلة حيث لا نظام ولا شريعة تحدد الحق وتعينه . والقضاء العادل والقانون المحق الحق والمزهق الباطل هما فضيلتا الجماعة أو الأمة ، ولا سيما إذا كانت الجماعة تخضع للقضاء والقانون الدوليين .

ومما تقدم يتبين أن العدل الخلقى يفضل العدل القضائى : ذلك بأن العدل بوصفه فضيلة فردية إنما هو قضاء وتنفيذ معا ، أما العدل القضائى فهو حكم فقط والتنفيذ منوط بقوة أخرى قد تحسن التنفيذ أو تسيئه ، كما أن القضاء نفسه قد يكون حسنا أو سيئا على الرغم من عدالة القانون : كما وقع فى تركيا العثمانية : حيث كان القانون عادلا ، وكان القضاء والقوة التنفيذية غير عادلين .

أضف إلى ذلك أن العدل بوصفه فضيلة فردية أنقى من العدل المدنى القضائى وأقرب للصواب ، وأضمن للحق منه ؛ فهو مستمد من روح الجماعة على الإطلاق ، وصادر عن محكمة الرأى العام ، ولكن العدل المدنى قلما يخلو من التشوه بالتغرض والتحيز والتشيع لانحصار القوة الاشتراعية فى طبقة أو فئة خاصة من الناس ، فلابد أن تشذ بهم مطامعهم وأغراضهم النفسانية عن جادة الحق .

لذلك تجد الشرائع الوضعية مهما كانت (ديمقراطية) الروح لا تخلو من التحيز والتغرض ، وهى دائما تتطلب التنقيح والتعديل .

مما تقدم يتجلى أن العدل ميزان الحقوق ، وأن الاعتدال ميزان الشجاعة ، فهو بهذا المعنى الانصاف بين خصمين أومختلفين على حق ، وهو ضد التعرض الذى هو اضطراب ميزان الحق .

هذا العدل فى أحسن صورة يسمى رحمة ؛ لأنه قدتبين آنفا أن اليد التى ترفع هذا الميزان إنما هى يد الرأى الاجتماعى العام ، والرأى العام الذى ينظر إلى الفرد بوصفه جزءا من الكل الاجتماعى يوجب على الفرد أن يحرص على العدل ويحبه ويتبعه فى حياته . وإذا بلغ الرأى الاجتماعى درجة حسنة من الرقى كان للعدل عنده صورة أخرى أرق وأجمل ، وهى صورة العطف على الضعيف وإكمال مافيه من نقص بمنحه الزيادة التى يتمتع بها القوى ؛ حتى يصبح هذا الضعيف عضواً صالحا فى المجتمع ، فالعدل إذا ارتقى صار رأفة فرحمة تمنح الفرد الذى حال عجزه دون القيام بواجبه للمجتمع ، ومن الرحمة يتولد الاحسان ، وهو العدل فى أجمل صوره .

والذى حدانا إلى أن نعد الرأفة والرحمة والاحسان صورا من العدل أنها واجبة من الواجبات الاجتماعية فى المجتمع الراقى الذى يبغى الكمال .

وقد ظن كثير من الناس الرحمة والإحسان ضد العدل أو شيئين آخرين غير العدل ؛ لأنهم غفلوا عن أن الرحمة والاحسان سجيتان للانسانية : فحين يطلب المعدم الاحسان يطلبه (باسم الانسانية)، وحين يقدم المحسن الاحسان يقدمه لأجل الانسانية ، وكذلك الرحمة .

وعدالة الاحسان (أو الرحمة) أوأحقيته مؤسسة على تمثيل مايستبطنه المجتمع للفرد من السعادة والهناءة .

ولذلك كان قبول الشكر والثناء لأجل الاحسان مناقضا للناحية الخلقية فى الاحسان ومخرجا إياه من دائرة الاستحقاق الانسانى ، فكأنه أصبح خدمة بأجر ، أو سلعة بثمن .

من أجل ذلك لايكون الاحسان مبدأ خلقيا إلا إذاتم على يد المجتمع وناله

الفرد المحتاج إليه من المجتمع ؛ لأنه حق للفرد الضعيف على المجتمع ، كما أنه حق للمجتمع على الفرد القوى ، لهذا تعددت صور الإحسان فى الأمم الراقية :

فمنها أن الأغنياء الموسرين أنشئوا الجماعات الخيرية والمعاهد والملاجئ بالمجان لكل ضعيف وبائس ومحتاج .

ومنها أن الحكومة حظرت الشحاذة والاستعطاء ؛ لأن المعاهد والملاجئ تسد حاجة المحتاجين ، وعلى هذا المنوال أصبح الإحسان مبدأ خلقيا واجبا على القوى للمجتمع وواجبا على المجتمع للضعيف ، فالقوى يحسن على الضعيف على يد المجتمع .

قد فرغنا من الكلام فى العدل وهو أحد ركنى المحبة ؛ وخليق بنا كشف الغطاء عن الركن الثانى وهو الحكمة فنقول :

أوضحنا عند الكلام آنفا على الفضيلة عامة والعدالة خاصة أن جذور الفضيلة مغروسة فى الروابط بين الكل والجزء ، أى بين المجتمع والفرد ، وأن هذه الرابطة قائمة على التمشى مع سنن الحياة الاجتماعية ، وأن العدالة تتوقف على مبلغ إدراكنا ما يحق للفرد من الحصة فى حياة الجماعة ، وتلك نواة الحكمة : أى أن الحكمة تجعلنا نفهم هذه الحقيقة ، وكلما اتسع علم الإنسان أفضى به علمه إلى إدراك كنه هذه الحقيقة ، ولكن كيف يعرف أن للفرد حقه فى حياة المجتمع ؟ وكيف تعرف قيمتها ؟

لا بد من إمعان النظر لإدراك الرابطة بين الكل والجزء ليعرف نصيب الفرد فيها ، وكذلك لا بد من إدراك أن هذه الرابطة من أجود الغايات الخلقية التى ينبغى أن يتجه إليها سلوك الإنسان الخلق . فالحكمة المكملة للعدل فى فضيلة المحبة مثلا إنما هى إدراك أن سنة الحياة هى وجود هذه الرابطة بين الكل والجزء ، أى الفرد والمجتمع ، وأن هذه الرابطة هى أتم الغايات الخلقية ، ففى كل مسلك من مسالك الإنسان ينبغى تحقيق وجود هذه الرابطة بين الفرد والمجتمع : فإن كانت قائمة على قاعدة إرادة الخير للجماعة والمطابقة لنظم نجاح

المجتمع كانت رابطة جيدة ، وإلا كانت سيئة ، فرعاية هذه النسبة على هذا النحو هي الحكمة بعينها ، وتحقيق لقول سقراط : إن الفضيلة معرفة : (أى أن تعرف الحق فتفعله) وإن فعلك للحق أفضل أساليب معرفتك إياه ، ومتى كانت رعاية هذه النسبة عادة فى الإنسان أو سجية فيه تمت له فضيلة الحكمة ، وكان سداد الحكم فى المواقف الخلقية شنشنته ، وتسنى له أن يدرب سائر ملكاته ، ويخلصها مما علق بها ، ويقومها أحسن تقويم .

ولما كانت الحكمة جليلة الخطر بالغة الأثر فقد حملها سقراط وغيره من الفلاسفة القدماء ومن جرى مجراهم أكثر مما تحتمله من المعنى ؛ إذ أرادوا بها بعد النظر وإصابة كبد الحقيقة ، ولذلك رتبوا عليها كثيرا من المسئولية إلى أن قربوها إلى الضمير ، وكادوا يقربونها إلى وحى الفطرة ، فالحكيم فى نظرهم يكاد يكون معصوما من الخطأ .

ربما كانت الحكمة فى العصور القديمة تحتمل هذه المعانى ؛ إذ كانت مطالب الحياة أبسط وأقل ، وخطط السعى أقصر وأقل التواء ، والرابطة بين الفرد والمجتمع أقل متانة ، أما الآن وهذه الرابطة أشد توثقا ، والعلائق بين الأفراد أكثر اشتباكا ، ومثيرات العواطف والشهوات والانفعالات أكثر تعددا وتعاقبا ، ويضاف إلى ذلك تعاظم قوى الوجدان لوفرة المعارف بحيث أصبحت تتدفق فى منافذها ، وتوافر ضروب التمتع التى لا يتسنى دائما إشباعها — أما الآن والأمر على ما وصفنا — فمهمة الحكمة صعب جدا ، لأنه مهما كان النظر بعيدا ، والبصيرة نافذة — فلا يسلم العقل من الضلال عن العدل .إلا من عصم ربك

(٣) الايمان

بقيت فضيلة لم يشر إليها أحد من علماء الأخلاق فى سياق بحثهم فى الفضائل ، وهى فضيلة الايمان :

إن إيمان الفرد بقوة هذه الرابطة بينه وبين المجتمع يتمثلها فى كل مكان ، ويعتبرها القوة التى يعتصم بها فى جهاد الحياة ، ويستند إليها فى الملمات ، ويستعيذ بها من الكوارث والنكبات ، ويحتمى بها من غارة الأعداء ، ويراها القوة التى يلتمس منها العدل والرحمة والعون ، وبهذا الإيمان ينبرى الفرد للتضحية فى سبيل سلامة المجتمع .

إن إيمان الفرد بهذه القوة فى ارتباطه بالمجتمع يدل دلالة واضحة على أن له شخصية خلقية ، وأن فيه سواها من الفضائل ، فإذا خلا من هذا الإيمان ضعفت فضيلة العدل فيه ، وتضعضعت فضيلة الحكمة منه ، ولم تعد الشجاعة ولا التعفف فضيلتين ، بل تصبحا سجيتين شخصيتين خلوا من كل معنى خلقى .

من ذلك كان الايمان أساس أمهات الفضائل الأربع ، كما كانت المحبة أس فضيلتى العدل والحكمة ، ومنه تفرعت الثقة المتبادلة بين الأفراد ، لأنه متى استقر إيمان الأفراد بمجتمعهم كان كل فرد مطمئنا على حقه ضامنا حمايته ، كما أنه يثق بقيام العدل من تلقاء نفسه بينه وبين جاره .

نتائج تعهد الفضائل النفسية

إن العقل متى تقوى تولد من حسن نظره جودة الفكر ، وجودة الذكر ؛ ومن حسن فعله الفطنة وجزالة الرأى ، وتولد من اجتماع أربعتهما جودة الفهم وجودة الحفظ . والشجاعة متى تقوت تولد منها الجود فى حال النعمة والصبر فى حال المحنة ، والصبر يزيل الجزع ، ويورث الشهامة المختصة بالرجولية كما قال الشاعر :

خلقنا رجالا للتجلد والأسى وتلك الغوانى للبكا والمآتم

والعفة إذا تقوت ولدت القناعة ، والقناعة تمنع الطمع فى مال غيره فولدت الأمانة . والعدالة إذا تقوت تولد الرحمة ، والرحمة هى الإشفاق من أن يفوت ذا الحق حقه ؛ فهى تولد الحلم ، والحلم يفضى إلى العفو ، والانسانية والكرم

يجمعان هذه الفضائل :

وذلك أن الإنسانية هي الفضائل النفسية المختصة بالإنسان ، وبقدر مايكتسبه الإنسان منها تكون درجته :

فمنهم من قد ارتفع حتى لحق أفق الأملاك : فلو تصورنا ملكا جسميا لكان هو إياه لارتفاعه عن الإنسانية إلا بالصورة التخطيطية : وعلى هذا قوله تعالى : « إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ »

ومنهم من اتضع حاله حتى صار فى أفق البهائم : فلو تصورنا ثورا منتصب القامة متكلما لكان هو إياه لانسلاخه عن الإنسانية إلا بالصورة التخطيطية : وعلى هذا قوله تعالى : « إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ »

ومنهم من هو فى وسط هذه فى درجة من درجات لها كثيرة ولهذا صح أن يقال : فلان أكثر إنسانية من فلان . وما يختص به لفظ الإنسانية فهى بالأخلاق والأفعال المحمودة، فأما المذمومات من الأفعال فتشارك الإنسان فيها البهائم .

وأما المروءة فلها اشتقاقان :

فنى أحدهما مايقتضى أن تكون هي والإنسانية متقاربتين :

وهو أن يجعل من قولهم : مرؤ الطعام إذا وافق الطبع ، وكأنها اسم للأخلاق والأفعال التي تقبلها النفوس السليمة ، فعلى هذا يكون اسما للأفعال المستحسنة كالإنسانية .

والآخر أن يكون من المرء فتجعل اسما للمحاسن التي يختص بها الرجل دون المرأة فتكون كالرجولية ، وذلك أخص من الإنسانية ، إذ الإنسانية يشترك فيها الرجال والنساء ، والمروءة أخص ؛ فكثيرا مايكون الذى يعد فضيلة للمرأة رذيلة للرجل : كالسذاجة والخفة والجبن: ولهذا قيل : « أفضل أخلاق الرجل أرذل أخلاق النساء » فالكيس والشجاعة والجود رذيلة لهن .

وقيل لمعاوية : ما المروءة ؟ فقال : « إطعام الطعام وضرب الهام » وسئل الأحنف بن قيس عنها فقال : « ألا يفعل فى السر مايستحيى منه فى العلانية »

وقيل لآخر ، فقال : جماعها فى قول الله عز وجل : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ »

وأما الكرم فاسم لجماعة الأخلاق والأفعال المحمودة إذا ظهرت بالفعل ، والحرية مثله، لكن يقال ذلك فيمن لا تستعبده المطامع والأغراض الدنيوية .

وذكر بعض الحكماء أن الحرية تقال فى المحاسن الصغيرة والكبيرة : كمن ينفق مالا فى تجهيز جيش فى سبيل الله تعالى ، أو يحمل حمالة برقابها دماء قبيلة ، فكل كرم حرية ، وكل حرية كرما .

وأيضا فالحرية تتعلق بالتلطف عن الأخذ ، وأكثر الكرم يتعلق بالإنفاق أكثر . ويضاد الكرم اللؤم ، والحرية العبودية : أعنى المذكورة فى قول الشاعر :

والعبد لا يطلب العلا ولا يعطيك شيئا إلا إذا رهبا

وكما أن الكرم أعم من الجود فاللؤم أعم من البخل .

إن قيل ما حقيقة قول الله تعالى : « إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ » قيل : لما كان الكرم اسما للأفعال المحمودة التى تقدم ذكرها ، وهذه الأفعال إنما تكون فاضلة إذا كانت عن علم وقصد بها أشرف الوجوه ، أى وجه الله تعالى ، وذلك هو التقوى ؛ فليس التقوى إلا العلم وتحرى الأفعال المحمودة — كان كل من اتقى أكرم .

والعزيز الذى يأبى تحمل المذلة ، واشتقاقه من العزاز كالمتظلف فى الامتناع من تناول الشهوات المذلة ، وأصله من الظلف وهى الأرض الصلبة .

وفرق بعض الحكماء بين العزيز والكريم فقال : الكريم يأبى أن يعصى الله ، والعزيز يأبى أن يعصى عليه .

والظرف اسم لحالة تجمع عامة الفضائل النفسية ، والبدنية ، والخارجة تشبيها بالظرف الذى هو الوعاء . ولذلك قال أعرابى : « فلان حاضن الشرف ومقر

الفضل » . ولكونه واقعا على ذلك قيل لمن حصل له علم وشجاعة « ظريف » ولمن حسن لباسه وأثاثه ورياشه « ظريف » ، فالظرف أعم من الحرية والكرم .

وأما الفتوة فكالمروءة اسم لما يختص به الفتى من الفضائل الإنسانية ، لكن هي بالرجولية أشبه .

وأما الحسب فقد يقال فيما يختص الإنسان به فيعده من مآثره ، وقد يقال فيما يؤثر عن آبائه ، والشرف نحوه ، لكن أكثر ما يقال فيما يؤثر عن الآباء .

البواعث على فعل الخير

البواعث على تحرى الخيرات الدنيوية ثلاثة :

أدناها : الترغيب والترهيب ممن يرجى نفعه ويخشى ضره .

والثاني : رجاء الحمد وخوف الذم ممن يعتد بحمده وذمه

والثالث : تحرى الخير وطلب الفضيلة :

فالأولى من مقتضى الشهوة ، وذلك من فعل العامة .

والثانية من مقتضى الحياء ، وهي من فعل السلاطين وكبار أبناء الدنيا .

والثالثة من مقتضى العقل ، وذلك من فعل الحكماء .

ولهذه المنازل الثلاث قيل : خير ما أُعطى الإنسان عقل يردعه ، فإن لم يكن فحياء يمنعه ، فإن لم يكن فخوف يقمعه ، فإن لم يكن فمال يستره ، فإن لم يكن فصاعقة تحرقه تريح منه العباد والبلاد .

وكذا الباعث على الخيرات الأخروية ثلاثة :

الأول : الرغبة في ثواب الله تعالى والمخافة من عقابه ، وذلك منزلة العامة .

والثاني : رجاء حمده ومخافة ذمه ، وذلك منزلة الصالحين .

والثالث : طلب مرضاة الله تعالى ، وذلك منزلة النبيين والصديقين والشهداء ، وهي أعزها وجودا ، ولذلك قال بعضهم : « أفضل ما يتقرب به العبد

إلى الله تعالى أن يعلم أنه لايريد العبد من الدنيا والآخرة غيره » قال تعالى : « وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ »

وقيل لرابعة : ألا تسألين الله فى دعائك الجنة ؟ فقالت: الجار قبل الدار . فبهذا النظر قال بعضهم : من عبد الله تعالى بعوض فهو لئيم . وقال بعض العلماء : المنازل الثلاثة : منازل الظالم ، والمقتصد، والسابق . وأجدر أن تكون هذه المنازل الثلاثة ماروى عنه عليه الصلاة والسلام : « سَائِلِ الْعُلَمَاءَ ، وَخَالِطِ الْحُكَمَاءَ ، وَجَالِسِ الْكُبَرَاءَ » : فقد قال بعض العلماء : مساءلة العلماء ترغبك من الله تعالى فى ثوابه وتخوفك من عقابه ، ومخالطة الحكماء تقربك من الحمد وتبعدك من الذم ، ومجالسة الكبراء تزهدك فيما عدا فضل البارى .

الموانع من عمل الخير

هذه الموانع ضربان : قصور وتقصير :

فأما القصور فقد ينشأ عن مرض أو اشتغال بالسعى فيما يسد به الإنسان جوعته، ويقضى به لبانته ، وهما عدم الوسع المذكور فى قوله تعالى : « لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا » .

ودواء الأمرين الفزع إلى الله تعالى والتضرع إليه بأن يجبر نقصه بتمام جوده وسعة رحمته .

وأما التقصير فأربعة أشياء :

الأول : أن يكون إنسانا لايعرف الحق من الباطل ، ولا الجميل من القبيح ، فبقى غفلا ، فدواؤه سهل ، وهو التعليم الصائب .

والثانى : أن يكون قد عرف ذلك ، ولكن لم يتعود فعل الصالح، وزين له سوء عمله ، فرآه حسنا ، فتعاطاه ، وأمره أصعب من الأول ، لكن يمكن أن

يقهر على العادة الجبلة حتى يتعودها ، وإن كان قد قيل : ترك العادة شديد .

والثالث : أن يعتقد فى الباطل والقبيح أنه حق وجميل ، فتربى على ذلك ، ومداواة ذلك صعب جدا ؛ فقد صار ممن طبع على قلبه إذا تنفس بنفس خسيس: ككاغد كتب فيـه ما يؤدى حذفه منه إلى حرقه وفساده .

والرابع : أن يـكون مع جهله وتربيته على الاعتقاد الفاسد شريرا فى نفسه ، يرى الخلاعة وقهر النفس فضيلة ، وذلك أصعب الوجوه :

فالأول من هؤلاء الأربعة يقال له : « الجاهل »

والثانى يقال له : « الجاهل ، والضال »

والثالث يقال له : « جاهل ، وضال ، وفاسق »

والرابع يقال له : « جاهل ، وضال ، وفاسق ، وشرير »

تربية الفضيلة

الخلق الحسن لا يأتى إلا من طريق الفضيلة التى بينا لك أركانها ورياضة النفس عليها ؛ حتى تصير فيها ملـكة . وإن كل إنسان قادر على مباشرتها والسـير فى طريقها ، وإن بذورها كامنة فى الصدور بفطرة الخالق التى فطر الناس عليها لتنموفيها بالممارسة ، ولـكن من سوء حظ الإنسان أنه تزحزح ، واشتغل بالباطل فى اجتماعه ، وغفل عن حقيقة سعادته ، وضل طريقها ، وظل يبحث عنها من غير وجوهها ، وينشدها ولا يدركها ؛ إذ خرجت النفوس عن أطوارها ، وتسللت من غرائزها ، فأصيبت بالأمراض المختلفة من الأهواء والأطماع والآمال والأمانى ، فـكان لابد للإنسان فى معالجة نفسه أن يرتد إلى حكم الطبيعة ، وأن يبحث ويفـكر ، ويحكم عقله ، ويشحذ إرادته ، ويغلب القوة الحاكمة على القوة الواهمة ، ويـكشف بنور الحقيقة ظلمات الجهل والوهم ، ويروض نفسه على أحكام الفضيلة ، فلا يشحن نفسه بالرغبات ، ولا يضعفها بالرهبات ، ولا يسلمها للهموم والغموم ، ولا يتركها

للجزع والفزع ، ولا يعرضها للوساوس والهواجس ، وأن يعودها ألا تعتبر كل هذه المطالب الطويلة العريضة التى تشغل أطماع الناس فى هـذا العمر القصير إلا أموراً تفهة لا يعنى بها ، ولا يؤبه لها ، ولا يؤثر فيه حرمانه إياها ، وما أحقر أمور الدنيا وأصغرها فى جانب النعيم المقيم !! كما أنه يوطن نفسه ويؤهلها لمصارعة الخطوب ومنازلة النوازل ، فلا يصيبه شىء منها إلا قد أعدله عدته وقدر وقوعه ؛ حتى لا تفاجئه الأيام بأمر جديد لم يكن فى حسبانه ، ولا تباغته بحادث إلا قد اتخذ لنفسه موئلا من الحكمة يأوى إليها ، ويتدرع بحصنه ، وأن يكون هو على كل حال واحدة ، وموقف واحد أمام صروف الدهر وبلائه ، وأيام هنائه وصفائه ، وأن يكون هادئ النفس ساكن البال على كل حال ، وأن يكون هو المعنى بقول الشاعر لممدوحه :

وحالات الزمان عليك شتى وحالك واحد فى كل حال

ومن أجل ذلك يتعين علينا إذن أن نرفع عن النفس أوهامها وأباطيلها ، وأن نبين لها حقيقة الأشياء ، وأن نرفع عنها غشاء الأهواء ، وندفع عنها عدوان الرغبات والشهوات ، ونكشف عنها عوامل الرذيلة التى عارضت نمو الفضيلة ، فنشرح أسـواءها وأدواءها ، ونصور بشاعتها وفظاعتها ، ونبسط أضرارها وشرورها ـ حتى تعافها النفس وتستنكفها ، وتبتعد عنها ، وتنفر منها ، فتطهر من الأدناس والأرجاس ، وتبدو بذور الفضيلة ويربو غرسها ، وهذه الطريقة فى رأينا أدخل على النفس ، وأفعل بها من طريقه مدح الفضيلة وتزيينها ، وتبيين محاسنها : كما جرى عليه السلف :

فلو أنك كررت على الانسان فى كل يوم أن الخير أحسن من الشر ، والحلم أفضل من الغضب ، والصدق خير من الكذب — لأقرك على ذلك كله ، ولكن طول التكرار لهذه الألفاظ لا يترك فى نفسه إلا صورها مجردة دون معانيها مثل ألفاظ الوعظ فى خطب المنابر : يسمعها الجمهور ، ولا يدرك العمل بها .

وصفوة القول أن الفضائل تنمو وتقوى بالرياضـة النفسية والتربيـة والتعليم ،

وتنبت فى القلب الطيب لا فى الدفعة الغرزية التى تكيف الخلق : فالشجاعة فضيلة حين يتحرك بها القلب ، فإذا صدرت لتلبية غريزة الغضب مثلا لا تكون فضيلة ، بل تكون خلقا .

كذلك الإحسان : يُعد فضيلة متى انبعث عن سماحة فى النفس يقصد بها شفاء مرض فى المجتمع ، ولكنه إذا كان الغرض منه دفع ما يجده المحسن فى نفسه من الألم لا يكون فضيلة ، بل يكون خلقا حركه محرك الفعل ، ويسكن عند وقوف هذا المحرك ، فالفضيلة ترتكز على الرأى السديد والنظر الصائب فى الأمور أكثر مما ترتكز على الدوافع الغرزية ، ولهذا تتغذى من التربية والتعليم والرياضة النفسية ، فتزداد قوة ونماء.

الفضيلة والواجب

إذا رأيت بائسا فقيرا فإنك تحس من نفسك الرحمة والحنان ، « وذلك ما يسمى فضيلة الرحمة » ، وترى أن حاله تتطلب منك المساعدة بالمال لتخفف من بلوائه ، فتمد إليه يدك ببعض المال « وذلك ما يسمى واجبا »

فكل عمل من الأعمال الصالحة التى يمارسها الإنسان من حيث ميل النفس إليه واعتياده إياه يسمى خلقا وفضيلة ، ومن حيث وجوب ممارسته والقيام به يسمى واجبا .

فالفضيلة كما تقدم عواطف الخير الراسخة ، أما الواجب فهو عمل خارج يأمر بفعله وجدان الإنسان وضميره : فإغاثة الملهوف وإرشاد الضال وإنقاذ المشرف على هلاك وحفظ الأمانة والودائع وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة كلها واجبات أدبية ، وأعمال خارجة يؤديها الإنسان إرضاء لضميره ووجدانه ودينه، وهى باعتبار ميل النفس إليها وتعلقها بها تسمى أخلاقا وفضائل .

وبعض الخلقيين يطلق الواجبات على الأخلاق والفضائل ويقول : إنه لا قيمة للفضيلة إلا إذا ظهر أثرها الخارجى وقام الإنسان بالواجب نحوها ، فمهما أحس الإنسان من نفسه العطف والحنان على البائس الفقير لا يوصف بالرحمة حتى يمد

إليه يد المساعدة والمعونة . وعلى هذا فالفضيلة والواجب مترادفان .

وبعضهم يطلق الفضيلة على العمل نفسه ، فيسمى عمل الشجاع فى ساحة الوغى فضيلة ، وإنقاذ المشرف على تهلكة فضيلة . وسموا هاتين الفضيلتين وأمثالهما فضائل الأعمال .

الفضيلة كما يصورها الاسلام

ديننا الحنيف جاء لنشر ألوية الفضائل وتهذيب النفوس البشرية وتزكيتها والسير إلى موارد الفلاح وطبع أهله بطابع من مكارم الأخلاق يضمن لهم عز الدنيا وحسن المعاد، وأمهات الفضائل التى قررها الدين القويم فى أروع بيان وأصدق قيل تتجلى فى قول الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم :

«إنَّ مِنْ أخلاَقِ المُؤْمِنِ قُوَّةً فِى دِينٍ ، وحَزْمًا فِى لِينٍ ، وَإيمانًا فِى يَقِينٍ ، وَحِرْصًا فِى عِلمٍ ، وَشَفَقَةً فِى مِقَةٍ ، وَحِلْمًا فِى عِلْمٍ وَقَصْدًا فِى غِنًى وَتَجَمُّلاً فِى فَاقَةٍ وَتَحَرُّجًا عَنْ طَمَعٍ وَكَسْبًا فِى حَلاَلٍ وَبِرًّا فِى استِقَامَةٍ وَنَشَاطًا فِى هُدًى وَنَهْيًا عَنْ شَهْوَةٍ وَرَحْمَةً لِلْمَجْهُودِ» . وقوله:

«وَإنَّ المُؤْمِنَ مِنْ عِبادِ اللهِ لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ وَلاَ يُضَيِّعُ مَا استُودِعَ وَلاَ يَحْسُدُ، وَلاَ يَطعَنُ وَلاَ يَلْعَنُ، وَيَعْتَرِفُ بِالحَقِّ إنْ لَمْ يُشْهَدْ عَلَيْهِ وَلاَ يَتَنَابَزُ بِالأَلْقَابِ فِى الصَّلاَةِ مُتَخَشِّعًا إلَى الزَّكَاةِ مُسْرِعًا فِى الزَّلاَزِلِ وَقُورًا فِى الرَّخَاءِ شَكُورًا قَانِعًا بِالَّذِى لَهُ لاَ يَدَّعِى مَا لَيْسَ لَهُ وَلاَ يَجْمَحُ فِى الغَيْظِ وَلاَ يَغْلِبُهُ الشُّحُّ عَنْ مَعْرُوفٍ يُرِيدُهُ يُخَالِطُ النَّاسَ كَىْ يَعْلَمَ وَيُلاَطِفُهُمْ كَىْ يَفْهَمَ وَإنْ ظُلِمَ وَبُغِىَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ الرَّحْمَنُ هُوَ الَّذِى يَنْتَصِرُ لَهُ»

اختلاط شرح الفضائل الإسلامية بالفلسفة الأدبية

كانت نفوس السابقين من المسلمين لا تمارى فى الخير ، ولا يلتوى عليها فهم الفضيلة ولا تحتاج إلى فضل بيان فى شرح مكارم الأخلاق ، لأن الفطر كانت حينئذ مستقيمة ، والقوم قريبو عهد بالبداوة والصفات الفطرية ، لم يألفوا الحياة المعقدة ، ولم يؤخذوا بالعلوم ذات القواعد والكليات ، قد رزقوا من صفاء الذهن وثقوب الفكر ما يجعل إدراكهم للشىء جامعا مانعا ، ولم ينغمسوا فى حمأة الرذائل انغماسا يكدر صفاء القلوب ويحول بينها وبين الخير ويلقى بها فى مهاوى الشك وبؤر الإلحاد ، فكانت الفضائل الإسلامية إذا قرعت الآذان أسماؤها أشربت القلوب حبها واستيقنتها الأنفس .

وكان من نتائج ذلك أن تنافس القوم فى درك المكرمات واستبقوا إلى الخيرات فاتحدت القلوب وخلصت الأعمال فعز الإسلام وعلا سلطانه ودان الناس لأحكامه وكثرت فتوح المسلمين واندمجت فى الدولة الإسلامية شعوب مختلفة تناول أبناؤها الفضائل الإسلامية تناول المتفهم المستقصى ، وكان من بين تلك الشعوب شعوب لها سابق عهد بالحكمة العالية والآداب الرفيعة وعلوم الاجتماع كالفرس والروم والقبط والهنود والصينيين ، فأخذوا يزاولون الفضائل الإسلامية مزاولة حكمية فلسفية ، فبان لهم أن الشريعة السمحة عنيت بالفلسفة العملية والأدبية فجاءت أحكامها مشتملة على أمهات المسائل الفلسفية من :

بيان أحكام حسن الأعمال وقبيحها وإصلاح قوة النفس الناطقة وتكوين الإرادة الصحيحة وتوجيه الأفكار إلى المسائل العليا وتحرير البشر من استعباد سلطان الشهوات والغرائز وإعداد كل امرئ لأن يحيا للجميع

ومجمل القول فى ذلك أن الفضائل الإسلامية استوعبت أقسام الفلسفة الأدبية

الآتية فى غير ماضجة وإعلان :

(ا) تهذيب أخلاق البشر فى خاصة أنفسهم وعامة أحوالهم

(ب) إحسان تدبير المنزل وإحكام رابطة المرء بأسرته وأمم ممن معه

(ج) السياسة المدنية التى تشتمل على بيان أحوال المرء مع غيره من غير ذوى الأرحام وأفراد الأسرة

وحققت تلك الفضائل أسمى مرامى الفلسفة وهو التخلق بمكارم الأخلاق والعكوف على فضائل الأعمال الإنسانية الاختيارية النافعة لهذا المجتمع

وقد راج أمر الفلسفة فى الدولة الإسلامية أيام المأمون وكثر إقبال الناس عليها وترجم كثير من كتبها من اللغات الفارسية والسريانية واليونانية إلى اللغة العربية

ثم أخذت الفلسفة الإسلامية فى الازدهار فى القرن الرابع الهجرى وأطلعت للناس الفارابى وابن سينا ومن جاء على أثرهم وتناول فلاسفة الإسلام فيما تناولوا من مسائل (الطب والحساب والهندسة والمواقيت) شرح الفضائل شرحا يعلو بالنفوس إلى الأسرار ، وصيغت الفضائل فى قوالب من الفلسفة وطبعت على غرارها

ثم اعتورت الفلسفة أطوار من الهبوط والارتفاع والظهور والانكماش والسعة والضيق إلى أن رأينا الآن طلابها وأساتذتها فى جامعتنا المصرية الأميرية يبحثون فيما يكتبون عنها ويشرحون من مسائلها ضروبا من الفضائل هى بعض ما قبست الفلسفة من مكارم الأخلاق الإسلامية والفضائل التى قررتها الديانة المحمدية وإن كانت تزف إلى القارئين فى غير لبوسها من القرآن والسنة

اختلاط شرح الفضائل الاسلامية بالتصوف

إن الصوفية ليست من الفرق الإسلامية المعهودة بنظام المخصوصة بمعتقدات لا يعتريها التغيير ولا يتناولها التطور ، وإنما هى فلسفة نشأت فى الإسلام تختلف

قواعدها ونظمها باختلاف جنسية التصوف وعصره ومصره

والتصوف فلسفة دينية إسلامية نشأت عن الزهد وتطرق إليها بعض المبادئ الأجنبية فدفعتها إلى التغيير والتحول سنة الله فى خلقه :

قال ابن خلدون فى مقدمته :

(الصوفيــة من العلوم الشرعيــة الحادثة فى الملة وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا والزهد فيما يقبل عليــه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة)

ولمــا انبثت فى الإسلام العناصر الأجنبية وساد قومه فى أخريات بنى أميــة وعصر بنى العباس جو فكرى فلسفى تعددت مناحى النهضات ومجارى النزعات، وكانت الفلسفة الصوفية إحدى تلك النزعات، ثم نحا فريق من المسلمين إلى أنواع من المجاهدات النفسية لم تشرع وسلكوا إلى ما يبتغون من سـعادة واطمئنان مسالك وعرة فيها حرمان للنفوس مما شرع الله التمتع به، وبالغوا فى الزهد مبالغة ممقوتة، والزهد المبالغ فيه ليس من طبيعة الإسلام، فروح الإسلام روح جد وعمل لا روح خمول وكسل، وهو الدين الذى ينادى بالسعى وراء الرزق والأخذ فى الأسباب وطلب الرفعة وسيادة العالم فى حدود العدل وملاحظة الخيرات أنى وجدت واستطابة الحياة الشريفة فى كل ألوانها والاستمتاع بالملاذ المشروعة

وكان التصوف الإسـلامى فى دوره الأول عبارة عن التجمل بالأخـلاق الدينيــة والاجتهاد فى العبادة وأول خطواته التشبث بالفضائل وما كان أهـله حينئذ يتسمون بمسمى خاص ولا يطلق عليهم اسم معروف لأنهـم سواد الأمة

ففى صدر الإسلام وأحضان النبوة ودولة اليقين وأيام الخلفاء الراشـدين كان الإقبال على الدين والزهد فى الدنيا غالبين على المسلمين، والقوم بحكم بداوتهم وعكسهم بدينهم بعيدون عن أسباب الترف وأقرب إلى الفقراء والخشونة فلم تكن هناك ميزة ظاهرة لمسلم على مسلم فى زهد أو عبادة أو فى مجاهـدة للنفس، ولم يدع أفاضل المسلمين بتسمية سوى صحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا أفضلية

فوقها ولا أدل على كمال الدين منها

ولما اتسعت الفتوح الإسلامية وكثرت الغنائم وتمثلت للعرب وسائل الترف والنعيم وبهرتهم زخارف الدنيا وغشيتهم مظاهر الحضارة داخل النفوس حينئذ ميل إلى التوسع فى مرافق العيش، وحلالها الإقبال على الدنيا والتغلغل فى نعيمها وبرمت بحياة الخشونة الأولى، هنالك قيل للخواص ممن لهم شدة عناية بأمر الدين ومراعاة أحكام الشريعة مع اتصاف بالزهادة والفقر وخشونة العيش عباد زهاد صوفية.

ثم اتسعت أنظار الباحثين فى العلوم الدينية والفضائل الإسلامية ولطفت أذواق المراقبين منهم لمعانى العبادات وحركات القلوب فأخذ التصوف يتسامى إلى نظرية خاصة فى المعرفة والسعادة وسبيل الوصول إليهما،

وكان التصوف طريقا من طرق العبادات يتناول الأحكام الشرعية من ناحية معانيها الروحية وآثارها فى القلوب فهو يقابل علم الفقه الذى يتناول ظواهر تلك العبادات ورسومها ثم انتقل التصوف فأصبح طريقا للمعرفة

وقد بان لنا مما تقدم أن المتصوفة أخذوا أنفسهم بما لم يأخذهم به الشرع وساقهم هذا الشذوذ إلى ادعاء العلم ببواطن الأمور فظهر فى فلتات ألسنتهم وفى عقائدهم وأحوالهم شيء غير مألوف زعموا أن له تأويلا خاصا وأسرارا لا يدركها إلا من كابد ما كابدوا وسقى بإناء التصوف وسكر بنشوة المعارف

وقد قدروا الفضائل النفسية حق قدرها وإن كانوا قد حملوها من المعانى فوق طاقتها وتطلبوا منها نتائج تتمشى ونظام حياتهم، فللسخاء مثلا والإحسان والمراقبة والتوبة والصبر والشجاعة والمساعدة والصداقة وما إلى ذلك من الفضائل — حدود خاصة قد تخالف حدودها فى علم الأخلاق البحت

وتحمد الفضائل الإسلامية لطائفة الصوفية عنايتها الخاصة بتطهير النفوس وتهذيب الوجدان وإحياء القلوب وكبح جماح المطامع وكسر حدة الشهوات التى فى محاربتها رواج للخير

تفصيل مادخل بيان الفضائل الاسلامية من تلك العناصر فلسفية وصوفية

الإفاضة فى شرح العناصر الفلسفية والصوفية التى اندمجت فى بيان الفضائل الإسلامية وتوضيحها تحتاج إلى إحاطة تامة بالمسائل الفلسفية ودقة وخبرة فى معالجة المعارف الصوفية وتتبع للنظريات فى هاتين الجهتين قديمها وحديثها ولهذا وقته ووسائله

وتلك طائفة من العناصر التى تعتبر دخيلة فى بيان الفضائل يرجع إلى تفصيلها فى مظانها :

(١) العناية بتحديد أطراف الأخلاق ومناطق الاعتدال فيها

(٢) ربط الأخلاق والفضائل بأحوال النفوس

(٣) بسط الكلام فى المزاج والفطر والعادات وكسب الأخلاق وتنقل المرء فى ساحاتها

(٤) النفس وقواها الثلاث ناطقة سبعية بهمية

(٥) سياسة النفوس وأقسام السعادة

(٦) اللذات الروحية والحسية وعقد الموازنات بينهما

(٧) أسباب الانقطاع عن الله

(٨) درجات المحبة وأنواعها والفوارق الدقيقة

(٩) دواء النفوس ومعالجة أمراض القلوب وسرعة تقلبها ومظاهر ذلك

(١٠) المعرفة

نظرة فى تكوين العقل وعمله

تمهيد

من المسلم به أنك لا تجد اثنين من بنى الإنسان يقطعان رحلة الحياة فى طريق واحدة ، وكذلك لا تجد اثنين يستهلان رحلة الحياة بزاد واحد من قوى الجسد

والعقل : فعلى كل وجه سمة شخصية خاصة عند انبثاقه من الرحم ، وكل طفل حين يُهل على الأرض يهل ببصمة على أنامله خاصة به دون غيره ، وما يصدق على الوجوه وبصمات الأنامل يصدق على الأدمغة كذلك : ففى الدماغ ١٨٠٠٠ مليون خلية عصبية دقيقة لاترى إلا بالمجهر ، وهذه الخلايا مقسمة طوائف كل طائفة منها متصلة بالطوائف الأخرى ، وخطوط الاتصال بينها تزرى بأكبر لوح « تلفون » وأكثرها تعقيداً ، فلست تجد بين هذه الخلايا العصبية خلية واحدة منعزلة عن الأخرى ، وجميعها يشترك فى تناول الرسائل التى تنهال على الدماغ عن طريق العيون والآذان والأصابع والأقدام وغيرها من أعضاء الجسم .

هذا السيل المتدفق من الرسائل يبدأ عند الولادة ، ولا يقف حتى الموت ، وهو أساس اختبارنا ، فإذا تفهمنا هذه الصورة لبناء الدماغ وصلته بخبرة الإنسان وتجاربه سهل علينا أن نفهم كيف أن هذه الصورة الجديدة تؤثر فى معارف العقول قلة وكثرة وجودة ورداءة .

تركيب دماغ الإنسان وعمله :

عنى المشتغلون بالمباحث الطبية عناية خاصة بدماغ الإنسان ، فوجدوا تركيبه مشتبكا كل الاشتباك وطرق تأديته لعمله مبهمة يصعب الكشف عنها ، ومع ذلك ثبتت لهم حقيقة عامة ثبوت الشمس فى رائعة النهار : هى أن اشتباك تركيب الدماغ ومقدرته على تأدية عمله يسيران جنبا إلى جنب : فالعقل له أساس مادى : راقب دماغ الطفل من ولادته إلى المراهقة تر دماغه يكبر حجما ويزداد تركيبه اشتباكا ، وأنه كلما نما كذلك اتسع نطاق عمله ، فإذا أُصيب الدماغ فى مرتبة من مراتب النمو بعلة وقفته عن النمو ظلت مقدرة صاحبه العقلية حيث هى لاتنمو ولاترتقى ؛ وكذلك ترى أن مرضا من الأمراض إذا أصاب هذا الجانب من

الدماغ أو ذاك عطل الملكة العقلية التى مركزها فى ذلك الجانب المريض : فالتهاب الدماغ السحائى إذا أصاب دماغ طالب فى المدرسة وقف نموه العقلى وترك فى خلقه أثرا باقيا هو داء أنما أترسي ولن يكون أثرا صالحا قط ، فانتظام العقل لا يمكن أن يتم إلا إذا كان الدماغ صحيحاً فى بنائه سليما من الأمراض والآفات .

وفى إمكان الأطباء أن يسبتوا الدماغ فيضعفوا عمل بعض أجزائه ، فتضعف الملكات المتصلة بها ، وأن يحقنوا بعض الأجزاء الأخرى بمواد مختلفة ، فيغيروا بذلك عقل الرجل وتصرفه ، وبعبارة أخرى : إن الدماغ آلة حية تحرق الوقود وتحول القوة التى تنشأ عن ذلك إلى شعور وفكر وذاكرة وغيرها من الملكات العقلية والنفسية :

فإذا أمسكنا عن الدماغ مصادر الوقود الذى يحرقه ـ أى الأكسيجين ـ وقف الدماغ عن العمل كما تخمد النار إذا حبس عنها الهواء أو نفذ الوقود ، ولذلك لا يرى المشتغلون بالمباحث الطبية سبيلا إلى الاعتقاد بأن الدماغ عضو مزدوج التركيب مؤلف من مادة وروح ، لأن كل حقيقة تمكنوا من امتحانها وإثباتها تحتم عليهم القول بأن العقل والروح إنما هما مظهران من مظاهر دماغ حى : كما أن اللهيب مظهر من مظاهر شمعة تحترق :

فإذا أصاب الدماغ والشمعة ما ردهما إلى عناصرهما المستقلة بطل وجود العقل واللهب وجوداً مستقلا . ورجال الطب لا يستطيعون أن يروا غير هذا الرأى إذا صدقوا ما تثبته حواسهم . ولولا ذلك ما كان فى إمكانهم أن يشخصوا الأمراض العقلية وغيرها ويضعوا لها طرق العلاج والوقاية ، فالروح إذاً فى نظر رجال الطب تتمشى فى الدماغ ، والجهاز العصبى المعقد التركيب ، ولا يمكن فصلها عنهما .

على أن هذا الرأى لا تسلم به طائفة من رجال العلم الذين اشتهروا ببراعتهم فى الكشف عن أسرار المادة وبنائها وعلاقتها بالطاقة ، وفى مقدمة هؤلاء السر ألفرلدج ؛ فإن نظره إلى دماغ الإنسان قائم على الاعتقاد بأن الدماغ أداة مادية

لوحدة غير مادية يسميها الروح ، والروح فى رأيه متميزة تميز الموسيقى عن القيثار الذى يعزف عليه ، وهو مسوق إلى هـذا الاعتقاد ؛ لأنه يسـتطيع أن يفسر به أكثر المظاهر التى يعتقد فى صحتها أصحاب المذهب الروحانى : فالروحانيون يعتقدون أن العقل أو الروح يجىء من الفضاء ، فيأخذ بتلابيب الجبلة (البروتوبلاسمة) الحية ، ويجعل منها جسدا حيا ؛ ثم يستعمل هـذا الجسد أداة لمظاهره ، ثم لا يلبث أن يتجرد عن هيكله المـادى ويرجع إلى الفضاء ، والفرق بين الرأيين أن العالم المشتغل بعلم الحياة يقدم الجسم والشمعة على الرووح واللهب ، والروحانى يعكس الأمر ، ويقـدم الروح على الجسد واللهب على الشمعة .

استمرار الحياة

إن الحياة نسيج مستمر ، وجميع المخلوقات البشرية على الأرض لا تـكاد تُرى لصغرها فى هـذا النسيج الفسيح ، فنسيج الحياة الذى نراه الآن على نول الزمان إنمـا هو القطعة الأخيرة من ثوب سابق متصـل الأجزاء بدأ فى جوف الزمان المتغلغل فى المضى ، وهو كذلك القطعة الأولى فى ثوب لاحق متصـل به لا نـكاد ندرك نهايته .

هذه الحياة تنتهى بالموت

وهو عبارة عن وقف الدم بمـا فيـه من الأكسجين عن الدوران وانتقال (ملايين) الخلايا التى يتألف منها الجسم إلى هوة الموت السحيقة من غير أمل فى العودة منها .

نعم قد يبقى القلب حيا بعد موت الدماغ ساعتين أو أربع ساعات أو أكثر من ذلك ، وقد يؤخذ قلب من جسد ميت ، وتعاد إليه الحياة بوسائل صناعية ، فيعود ينبض كأنه فى صدر صاحبه الحى ، كذلك تبقى أغشية الشرايين تبـدى دلائل الحياة أربعين ساعة بعد موت صاحبها ، والجسم الحى كما لا يخفى مؤلف من ألوف الخلايا الدقيقة التى لا ترى إلا بالمجهر ، وقد أزال علماء الطب بعض هـذه

الخلايا من فتى ميت ، وحفظوها حية فى معاملهم الطبية زمنا كان فيه الجسم الذى أخذت منه قد عاد إلى التراب ، فالموت لا يحدث فى لحظة كخطف البرق ، والجسم عادة يموت تدريجيا كما يفنى شعب من الجوع فى مدينة محصورة : الضعاف يموتون أولا ثم يموت الباقون بحسب ضعفهم وقوتهم على مقاومة الجوع :

وسر ذلك أن أساس الحياة يغـذى الإنسان بأشياء مادية كالهواء والماء والغذاء لحفظ هـذه الحياة ، هـذا هو المبـدأ الذى يبنى عليه المشتغل بعلم الحياة نظره إلى حياة الجسد البشرى ؛ فهو يرى أنه يحتاج إلى غذاء مادى ، وأنه يجب أن ينفق المـادة ويحول القوة ، وأن الوعى والشعور والذاكرة والإرادة وكل المدارك التى يجملها لفظة العقل تزول من الدماغ الحى إذا حبسنا عنـه الأكسجين فالحياة كما نعرفها لها أساس مادى ، والعالم بوظائف الأعضاء لا يستطيع أن يتصور كيف يمـكن وجود الحياة منفصلة عن المـادة ، فحياة العقل مرتبطة بالجسد .

لقد مر قرن واحد فقط منـذ رأى الإنسان المرة الأولى فى التاريخ دقيقة من الجبـلة (بروتو بلاسمة) تدعى البيضة التى منها تنشأ كل حياة إنسانيـة ، والعلم يستطيع الآن أن يتتبع كل درجة من الدرجات التى تمر بها هـذه البيضة حتى تصير رجلا أو امرأة ، فقد تتبع فى رحم المرأة كل تغيير طارئ يطرأ على جسم الجنين من بنائه البسيط بعيد التلقيح إلى هـذه الأجسام التى تحير اللب فى تعقيد بنائها وغموض الأسرار التى تحتجب وراء أفعالها ووظائفها .

كل إنسان يبدأ خلية من الجبـلة (بروتو بلاسمة) لا تـكاد ترى بالمجهر لصغرها ، وكل منا ينتهى بجسم مؤلف من ألوف ألوف الخلايا ، وفى استطاعة العلم أن يرى جماهير من هذه الخلايا مسوقة لتقوم بعمل الجهاز العصبى وجماهير أخرى بنات عم لهاتين : منها الآلات العضلية الحية ، وأخرى تبنى منها العظام ، وأخرى يتركب منها الدم والجلد وغير ذلك من أنسجة الجسم وأعضائه . كذلك يستطيع العـلم أن يراقب نشوء عضوى الحس الدقيقين فى تركيبهما ووظيفتهما : أعنى العين والأذن حتى فى ساعة الموت تـكون بعض الخلايا قد أشرفت على الولادة ، وبعضها قد

أشرف على الموت ، والخلايا الأخرى فيما بين هذين الطرفين فى مراحل مختلفة بين الولادة والموت ، فكأن جسد الإنسان يولد ويموت كل يوم ، وفى كل ساعة ترى روح الحياة أوقوة الحياة تتحول أعمالا صالحة أو طالحة .

فكيف نستطيع أن نعلل هذه التغييرات العجيبة التى تطرأ على خلية واحدة من المادة الحية فتحولها إلى رجل عاقل ؟ يقول بعض العلماء : إن وحدة أثيرية دخلت هذه الذرة من الجبلة (البروتوبلاسمة) وحركت دقائقها وجعلتها تمر فى أدوار النمو والنشوء المعقدة لكى تبتنى لها داراً أرضية زائلة ؛ غير أن الواقع يشهد بأنها لاتكاد تشرع فى تكوين هذه الدار حتى تدخل عناصر الانحلال تفسد عليها عملها عاجلاً أو آجلا ، ومن أجل ذلك فالأسهل والأقرب للعقل أن نعلل الحقائق المعروفة عن الحياة بأنها أفعال وتفاعلات حيوية تؤيدها الأدلة العلمية الناطقة بقدرة المبدع الحكيم : وأظهر هذه الأدلة أن كل إنسان يبدأ حياته فى بطن أمه نتيجة لاتحاد خلية الأنثى بخلية الذكر ، ثم يأخذ جسم الجنين فى النمو مقتفيا خطوات الإنسان منذ ظهور الحياة على الأرض .

وخلاصة القول أن علماء الأحياء يعتدون نوع الإنسان جزءاً من نسيج الحياة الذى تغلغلت أوائله فى جوف الزمان ، فما يصح على الإنسان يجب أن يطبق على الأحياء الأخرى التى تتكون منها أجزاء هذا النسيج .

شرف العقول ولذاتها

امتاز الإنسان على الحيوان بالعقل الذى عليه تستند واجباتنا كلها : فالحيوان لايشعر إلا باللذات الحسية ، فهو يتهافت عليها دون تدبر أوتفكير ، أما الإنسان فله من عقله حارس وسلطان ؛ فهو بطبيعته يخفى عورة شهواته ومعايبه ، ولا يستطيع أن يسقط الصون والحياء من حسابه ، اللهم إلا إذا كان ينقاد إلى شهواته ، ويصم أذنيه عن نداء العقل وأوامره ، فيسهل عليه الهوان ، ويتردى فى حضيض العار .

وهـذا الحياء الممدوح دليل على أن الإسراف فى اللذات الحسية لا يشرف الإنسان ، فالإنسان الكامل يحتقر منها ماهو أهل للاحتقار ، وينال ماهو حق له فى رزانة وحياء واعتدال : فهو مثلا يأكل ليحفظ لبدنه صحته وسلامته ، لا لقصد النهم والشره واللذات الفاسدة . وإنه ليكفى المرء أن يفكر فيما منحه الله جل شأنه من شرف ونعم كبيرة ، كى يتعفف عن الدنايا . ولئن كان الله جل شأنه قد أودع الجنس البشرى صفته العامة التى يشترك فيها أبناء الجنس — قد أودع كل إنسان مايميزه عن سواه ، فإذا كان الناس مختلفين فى الصور والأشكال والألوان فلاشك أنهم أيضا مختلفون فى العقول ومنازعها وميولها وأذواقها .

ومن أحسن مظاهر الأدب النفسى تجنب التكلف ، فيظهر الإنسان كما هو بلا إخلال بالصفة العامة للإنسان ، أو خروج عن الطبع الخاص ، أو ادعاء ماليس فيه ، فلنحرص دائما على مواهبنا ، ولنعلم أن من العبث الإخلال بالفطرة التى فطر الله الناس عليها . وكما أن من الجنون أن يترك الإنسان لغته التى يجيد التعبير بها ليتكلم بلغة لا يفهمها ولا يعرف منها إلا قشورا تافهة تجعله سخرية بين الناس : كذلك لا ينبغى للإنسان أن يترك ماألف واعتاد ، ويتعلق بأهداب مالا يحسنه أو لا يصح له الأخذ به .

والواجب يقضى على المرء أن يحتاط لنفسه وأن ينظم حاله ، ولا يجعل همه تقليد غيره دون تفكير أو ترو ؛ فليس هناك أفضل من أن يعرف كل إنسان قدر نفسه ويجتهد فى إصلاح مافسد منها . إن الممثلين يجتهدون فى إتقان أدوارهم ، ونحن الذين نمثل على مسرح الحياة أجدر بالحرص على إتقان أدوارنا ؛ فللصناعة رجالها ، وللتجارة أفرادها ، وللدولتى السيف والقلم أبطالهما وهكذا ؛ والطفرة مستحيلة أو محفوفة بالأخطار ، وطريق السلامة بذل المجهود على قدر الاستعداد .

نضيف الآن إلى حالتى الإنسان العامة والخاصة اللتين أشرنا إليهما حالة ثالثة هى الملابسات التى تسنح للإنسان ، ثم طريق التصرف فيها ؛ فالعروش والمناصب والثروة والفقر وما إلى ذلك كله دول كالأيام ذاتها ، وليس لثباتها ضامن أو كفيل .

بعكس الأحوال الذاتية التى تلازم أصحابها لأنها ليست عارية تفارقهم : كالاتصاف بالعلم والحكمة والفصاحة وكمال الأخلاق .

وكثيراً ماقد ترث الفروع الأصولَ ، وكثيراً ماتزيد عليها أو تنقص عنها ، ومن جهة أخرى يحدث أن يخالف الفرد آباءه فى المهنة ، وهنا يبدو مظهر من مظاهر الكفايات الصحيحة ، كما أنه موضع الفوق على الأقران على الرغم من ضعة الاصل مثلا ، وهذه الملاحظات جديرة بالالتفات إليها فى باب ذلك الادب المطلوب من نفوسنا ولها .

فقبل كل شىء يجب أن نعتنى بتحديد مهنتنا ، وليس هناك ماهو أصعب من أمر هذا الاختيار ، فالشاب فى حداثة سنه ، وضعف تقديره ، ونقص تجاربه — قد يميل إلى اختيار مايهوى دون اهتمام بما هو الأوفق والأنسب له . ولقد يشاهد الشاب عمل إنسان غيره فتدفع نفسه إلى تقليده ومحاكاته دون روية أو تفكير ؛ وهذا شأن جمهور من يحتذى صفات آبائه وذوى قرابته ويتشرب بأفكارهم ومبادئهم ؛ وهناك فريق يتبع تيار الرأى السائد فيما يختاره من الأعمال ، فهو يتقيد بآراء غيره غير مكترث بما يجب أن يتوافر له من شخصية وحرية فى الرأى . أما الفريق الثالث فيدرس الأمر قبل أن يتقيد به ، ويجعل لأعماله ميزانا من حرية الرأى وسلطة العقل وتقدير المجموع ، وهذا هو أفضل الكل ، وله من طبيعته الجيدة وعقله المشبع بأفضل الغذاء مايسير به فى طريق الرشاد .

اختيار الخطط العملية

قليل من الناس ــ حتى ممن يتصفون بالذكاء والمعرفة ــ من يفكر فى اتباع خطة عملية يسير عليها فى الحياة ؛ ولو فكر الكثيرون فى ذلك لكان للحياة شأن آخر ، لأن تنظيم خطط عملية فى الحياة يسهل السبيل إلى المجد والنجاح ، ويبعث فى الحياة نوعا من النظام والاستقرار .

ويجب أن نجعل المحور الذى تدور عليه الخطة العملية للفرد هو الاستعداد الطبعى عنده . ومادمنا قد اقتنعنا بمبدأ عدم التكلف ، وتناسب الأعمال مع

ما أتيح للإنسان من الصفات — فلا بد لنا من الاعتناء بخطة تشمل كل مجرى حياتنا ؛ حتى تكون أحوالنا دائما متناسبة ، وحتى لا تتعارض أعمالنا وواجباتنا .

وللوصول إلى تلك الغاية ينبغي لنا أن نتبع أحوالنا الخلقية الفطرية الكفيلة بتسديد خطواتنا ، ثم ننظر بعدها إلى ما تتجه لنا الحظوظ . وحسن حال الإنسان يأتي من قضائه حياته وفق صفاته الطبعية مع ترك الرذائل ، ومراعاة الأدب والحياء في كل الأقوال والأفعال .

على أن المرء قد يخطئ ، وكل الناس عرضة للخطأ ، وفي هذه الحال يجب على الإنسان أن يغير خلته التي تسبب الخطأ ، فإذا ماقامت في وجهه موانع من تأصل العادة أو غير ذلك كان عليه أن يتحين الفرص ، ويسير في تذليل الصعاب القائمة في وجهه بالتدريج .

لا بأس في أن يقتدي الإنسان بأبيه إلا أن هذا الاقتداء يجب أن يتقيد بكل ماهو حسن ، أما الأغلاط والعيوب فمن الحمق تقليدها ؛ وإن أثمن مايورثه الآباء الأبناء هو الفضائل ؛ وشر الجرائم أن يقوم بعض الأبناء بطمس مآثر آبائهم ، وتدنيس أسمائهم بما يقدمون عليه من فاسد الأعمال .

نحن جميعا نعلم أن لكل دور من أدوار العمر واجباته ، فالطفل مكلف طاعة أبويه ومعلميه ، والاعتماد عليهم في أمور التربية ، والشاب مكلف احترام من هو أكبر منه سنا ، والإصغاء لنصائح الأفاضل المجربين ؛ لأن الشبيبة قليلة الاختبار . ومن واجبات الشبان أيضا عدم الاندفاع في الشهوات ، فإذا ماتاقت منهم النفوس إلى المتعة والراحة فليكن ذلك بما لا يخرج بهم عن حد الأدب والليقان والحشمة .

أما الشيوخ فعليهم أن يهتموا براحة أجسادهم المتعبة ، وعقولهم المنهوكة بالإقلال من الأعمال الشاقة وعدم تحمل مالا طاقة لهم به مع الاستزادة مما يكمل فضائل النفس ويزينها في تلك السن ؛ وليتخذوا من تجاريبهم وخبرتهم سبيلا إلى

نفع المجتمع ، و بذل النصح والإرشاد للشبان . إن الشيخوخة ليس معناها الجمود وعدم النفع ، كما أن التلطخ برذائل الشهوات الذى هو منقصة الناس فى جميع أدوارهم لا يمكن أن يغتفر لشيخ له من وقار السن وهيبة الشيخوخة ما يجب أن يحميه من مهازل الشبان الطائشين .

ونذكر فى هذا الباب أيضا واجبات الحكام والأغنياء والنزلاء الأجانب :

أما الحاكم فعليه أن يعلم أنه يمثل الهيئة الحاكمة ، فهو ملزم بأن يشرفها بطهارة أخلاقه ، ويعلى قدرها بتنفيذ الشرائع والقوانين بالعدل والمساواة ، وهو يستوى مع الكبار والأغنياء فى وجوب المعيشة مع بنى وطنهم على قواعد المساواة بدون استعلاء أو تكبر مع الاهتمام بالطبقات الفقيرة والعاملة من الشعب ، وليتذكروا دائما قول الشاعر :

وحسبك داء أن تبيت ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القد

أما واجب الأجنبى النزيل فهو أن ينصرف إلى عمله غير متدخل فى شئون غيره أو طامح ببصره إلى التهام حقوق من ينزل بلادهم على الرحب والسعة .

والخلاصة أن الإنسان ملزم الوقوف عند حده ، وعدم الاعتداء على حق غيره والتزام ما يناسب مقتضيات الزمان والمكان : يساهم فى خدمة العدالة والنظام ، ويحترم حقوقه باحترام حقوق غيره ، ويساعد على إسعاد المجتمع .

قد يبدو من الغريب أن نحكم على الإنسان بأقواله وأفعاله دون الاهتمام الكثير بما فى أعماق نفسه ، ولكن هذه الغرابة تزول إذا فكرنا فى القول المأثور : كل إناء بما فيه ينضح؛ فكل ما يتحلى به الإنسان من الآداب فى أفعاله وأقواله وتظهر آثاره فى هيئته وحركاته ـــ يرجع إلى ما تسوقه إليه نفسه . نعم قد يتكلف الإنسان ما ليس من طبعه لغرض ما كالتحبب إلى رئيس أو صاحب جاه أو نيله إعجاب من تربطه بهم روابط الاجتماع وصلة العيش .

وعلينا أن نجعل للحياء وآداب اللياقة شأنا مهما فى خططنا العملية ، وأن تكون كل حركاتنا وسكناتنا مطابقة للآداب ، متفقة وما يقتضيه الكمال الخلقى . إن

فى الحياة العملية وخططها المتبعة أمورا من التخنث والبذخ أوالتخشن والتقشف ليست من الأدب أوالحكمة فى شىء ، فيجب علينا الاعتدال، وتقدير الملابسات وإن الأدب ليذهب فى هذا الصدد من الحياة مذاهب شتى ، فليتخذ كل مناخطة عملية يسير عليها فى الحياة وفق ما يقضى به الشرف والدين والذوق السليم ، وما تهدى إليه الفطرة .

العقل

تعريفه : العقل هو العلم بالمدركات الضرورية وذلك نوعان : أحدهما ما وقع عن درك الحواس ، والآخر ما كان مبتدأ فى النفوس :

فأما ما كان واقعا عن درك الحواس فمثل المرئيات المدركة بالنظر والأصوات المدركة بالسمع والطعوم المدركة بالذوق والروائح المدركة بالشم والأجسام المدركة باللمس ، فإذا كان الإنسان ممن لو أدرك بحواسه هذه الأشياء لعلم ثبت له هذا النوع من العلم؛ لأن خروجه فى حال تغميض عينيه من أن يدركهما ويعلم لايخرجه من أن يكون كامل العقل من حيث علم من حاله أنه لو أدرك لعلم .

وأما ما كان مبتدأ فى النفوس فكالعلم بأن الشىء لا يخلو من وجود أوعدم وأن الموجود لا يخلو من حدوث أوقدم وأن من المحال اجتماع الضدين وأن الواحد أقل من الاثنين ، وهذا النوع من العلم لا يجوز أن ينتفى عن العاقل مع سلامة حاله وكمال عقله ، فإذا صار عالما بالمدركات الضرورية من هذين النوعين فهو كامل العقل .

وسمى العقل بذلك تشبيها بعقل الناقة؛ لأن العقل يمنع الإنسان من الإقدام على شهواته إذا قبحت : كما يمنع العقال الناقة من الشرود إذا نفرت : ولذلك قال عامر بن عبد القيس : « إذا عقلك عقلك عما لا ينبغى فأنت عاقل » وقد جاء فى القرآن الكريم ما يؤيد هذا القول فى العقل: قال الله تعالى : « أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا ؟ » فدلت هذه الآية على أن

العقل علم ، وهـذا غير مخالف فى معناه لما ارتآه العلم الحديث وأهله من أن العقل مجموع مافى المرء من إحساس وإرادة وتفكير ، أو أنه ملكة كسبية تتولى ضبط الأفعال فى الإنسان ضبطا إداريا بتدبير خاص لغرض مقصود .

وقد رأى بعضهم أن العقل يقصد به فى المرء الذكاء والفطنة وإحكام النظر والخبرة : قال الله تعالى فى محكم كتابه : « وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » : وقد قيل : من بيضت الحوادث سواد لمته وأخلقت التجارب لباس جدته وأرضعه الدهر من وقائع الأيام أخلاف دِرَّته وأراه الله تعالى لكثرة ممارسته تصاريف أقداره وأقضيته — كان جديرا برزانة العقل ورجاحته ، فهو فى قومه بمنزلة النبى صلى الله عليه وسلم فى أمته ، وقد يختص الله سبحانه بألطافه الخفية من يشاء من عباده ، فيفيض عليه من خزائن مواهبه رزانة عقل وزيادة معرفة تخرج عن حد الاكتساب يصير بها راجحا على ذوى التجارب والآداب : ويدل على ذلك قضية يحيى بن زكريا عليهما السلام فيما أخبر الله تعالى به فى محكم كتابه العزيز حيث يقول : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » .

ومن أدركته عناية الله أشرقت على باطنه الهداية الربانية ، فاتصف بالفطنة قلبه وأسفر عن وجه الإصابة ظنه ، وأدركت خفايا الأمور فكرته ، ولا تكاد تخطئ إلا أن يشاء الله فراسته ، وإن كان حديث السن قليل التجربة : كما نقل فى قضية سليمان وهو صبى إذ ردّ حكم داود عليهما السلام فى أمر الغنم والحرث .

الاستدلال على عقل الانسان

يستدل على عقل الرجل بأمور عدة :

منها ميله إلى محاسن الأخلاق وإعراضه عن رذائل الأعمال ورغبته فى ابتداء صنائع المعروف وتجنبه عما يكسب عارا ويورثه شنارا : وقد قيل لبعض الحكماء : بم يعرف عقل الرجل ؟ فقال : « بقلة سقطه فى كلامه وكثرة إصابته فيه » فقيل : فإن كان غائبا ؟ فقال : بأحد ثلاثة أسباب : إما برسوله ، وإما بكتابه ،

وإما بهديته : فأما رسوله فقائم مقام نفسه ، وكتابه يصف نطق لسانه ، وهديته على قدره ، فبقدر مايكون فيها من نقص يحكم به على صاحبه. وقيل : من أكبر الأشياء شهادة على عقل الرجل حسن مداراته للناس . ويكفى أن حسن المداراة يشهد لصاحبه بتوفيق الله تعالى إياه : فإنه قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ حُرِمَ الْمُدَارَاةَ فَقَدْ حُرِمَ التَّوْفِيقَ »

ولا يكفى فى الدلالة على كمال عقل الرجل الاغترار بحسن ملبسه وملاحة سَمته وكثرة صلفه ونظافة بزته،فما كل بيضاء شحمة : وقد قال الأصمعى : رأيت بالبصرة شيخا له منظر حسن وعليه ثياب فاخرة وحوله حاشية ، فأردت أن أختبر عقله ، فسلمت عليه وقلت : ما كنية سيدنا ؟ فقال : أبو عبد الرحمن الرحيم مالك يوم الدين !!قال الأصمعى : فضحكت منه ، وعلمت قلة عقلهوكثرة جهله ، ولم يدفع ذلك ما يطيف به من أبهة وجلال ؛ فقد يكون الرجل موسوما بالعقل مرقوما بعين الفضل، فتصدر منه حالة تكشف حقيقة حاله ، وتشهد بقلة عقله واختلاله .

ومما يدل على تمام العقل ماروى تميم بن عدى اليربوعى إذ قال : كنت مع عبد الله بن العباس عند منصرفه من دمشق ، فسألته فى بعض الأيام، وقلت له : بماذا يتم عقل الرجل؟ فقال : إذا صنع المعروف مبتدئا به ، وجاد بما هو محتاج إليه ، وتجاوز عن الزلة ، وجازى على المكرمة ، وتجنب مواطن الاعتذار — فقد تم عقله. فحفظت ذلك منه ، وألصقته بقلبى ، ثم بعد أيام نزلنا منزلا ، فطلبنا طعاما فلم نجده ، ولا قدرنا عليه ، فإن زيادا قد نزل بذلك المنزل قبلنا بأيام قليلة فى جمع كثير فأتوا على ما كان فيه من الطعام ، فقال عبد الله لوكيله : اخرج إلى هذه البرية فلعلك تجد بها راعيا معه طعام. فمضى الوكيل ومعه غلمان ، فأطالوا التوقف (١) ، فلما كادوا يرجعون لاح لهم خباء فأموه ، فوجدوا فيه عجوزا ، فقالوا لها : هل عندك طعام نبتاعه منك ؟ فقالت : أما

(١) (التَّوَقُّف:الانتظار)

طعام بيع فلا ، ولكن عندى أكلة لى ، وبأولادى إليها أمس حاجة . قالوا : وأين أولادك ؟ قالت : فى رعيهم ، وهذا وقت عودهم . قالوا : فما أعددت لهم؟ قالت : خبزة هى تحت مَلّتها (١) أنتظر بها أن يجيئوا . قالوا لها : فجودى لنا بنصفها . قالت : لا ، ولكن بكلها . قالوا : ولم منعت النصف وجدت بالكل ولا خبز عندك غيرها ؟ قالت : إن إعطاء الشطر من خبزة نقيصة ، وإعطاء الكل فضيلة ، فأنا أمنع ما ينقصنى ، وأجود بما يرفعنى . فأخذوا الخبزة لفرط حاجتهم إليها ، فلما أتوا عبد الله أخبروه خبر العجوز . قال: ارجعوا إليها فاحملوها فى دعة ، وأحضروها . فرجعوا إليها ، وقالوا لها : إن صاحبنا أحب أن يراك . قالت: ومن هو صاحبكم ؟ قالوا : عبد الله بن العباس . قالت : ما أعرف هذا الاسم . قالوا : العباس بن عبد المطلب ، وهو عم النبى صلى الله عليه وسلم . قالت: والله هذا الشرف العالى قوى أنصاره . قالوا : نعم . قالت : فما يريد منى؟ قالوا: يريد أن يكافئك على ما كان منك. قالت : لقد أفسد الهاشمى ما أثّل له ابن عمه عليه السلام ، والله لو كان ما فعلت معروفا ما أخذت عليه ثوابا، وإنما هو شىء يجب على كل إنسان أن يفعله !! قالوا : فإنه يحب أن يراك ويسمع كلامك . قالت: أصير إليه ؛ لأنى أحب أن أرى رجلا من جناح النبى صلى الله عليه وسلم وعضوا من أعضائه . فلما سارت إليه رحب بها وأدنى مجلسها وقال: ممن أنت؟ قالت: من كلب بن وبرة . قال : كيف حالك ؟ قالت: لم يبق من الدنيا ما يفرّح إلا قد بلغته ، وإنى الآن أعيش بالقناعة ، وأصون القرابة ، وأنا أتوقع مفارقة الدنيا صباحا ومساء . قال : أخبرينى : ما الذى أعددت لأولادك عند انصرافهم بعد أخذنا الخبزة ؟ قالت: أعددت لهم قول العربى :

ولقد أبيت على الطوى وأظله ... حتى أنال به كريم المأكل

فأعجبه قولها ، فقال لبعض غلمانه : انطلق إلى خبائها فإذا أقبل بنوها فجئ بهم . فقالت للغلام: انطلق فكن بفناء البيت فإنهم ثلاثة ، فإذا رأيتهم تجد

(١) الملة: الرماد الحار

أحدهم دائم النظر نحو الأرض عليه شعار الوقار ، فإذا تكلم أفصح ، وإذا طلب أنجح ؛ والآخر حديد النظر ، كثير الحذر ، إذا وعد فعل ، وإذا ظُلم قتل ، والآخر كأنه شعلة نار ، وكأنه يطلب بثار ، فذاك الموت المائت ، والداء الكابت ، فإذا رأيت هذه الصفة فيهم فقل لهم عنى : لا تجلسوا حتى تأتونى . فانطلق الغلام فأخبرهم الخبر ، فما بعد أمده حتى جاءوا ، فأدناهم عبد الله ، وقال : إنى لم أبعث إليكم وإلى والدتكم إلا لأصلح من أمركم ، وأصنع ما يجب لكم . فقالوا : إن هذا لا يكون إلا عن مسألة ، أو مكافأة فعل جميل تقدم ، ولم يصدر منا واحدة منهما ، فإن كنت أردت التكرم مبتدئا فمعروفك مشكور ، وبرك مقبول مبرور . فأمر لهم بسبعة آلاف درهم وعشر من النوق فقالت لهم العجوز : ليقل كل واحد منكم بيتا من قوله: فقال الأكبر :

شهدت عليك بحسن المقال ... وصدق الفعال وطيب الخبر

وقال الأوسط :

تبرعت بالبذل قبل السؤال ... فعال كريم عظيم الخطر

وقال الأصغر :

وحق لمن كان ذا فعله ... بأن يسترق رقاب البشر

وقالت العجوز :

فلله درك من ماجد ... ووقيت ماعشت شر القدر

ثم ودعوه وانصرفوا . قال تميم اليربوعى : فالتفت إلى وقال لى : ياتميم ، وددت لو وجدت مزيدا فى ابتداء المعروف إلى هذه المرأة وبنيها ، وجعل يتأوه من تقصيره عن مراده فى ذلك ، فقلت له : لقد أحسنت وأرجحت ، وقد شهد فعلك بما سبق من قولك ، فأنت أتم الناس عقلا وأكملهم مروءة .

ومن كمال عقل ابن عباس أنه قيل له : مامنع عليا كرم الله وجهه أن يبعثك إلى عمرو بن العاص فى التحكيم ؟ فقال : حاجز القدر ، ومحنة الابتلاء ، وقصر المدة ، أما والله لو كنت مع عمرو لجلست فى مدارج أنفاسه ، ناقضا ما أبرم ،

ومبرما ما نقض، أطير إذا سَف، وأسِفّ إذا طار ، ولكن جرى قدر، وبقى أسف ، ومع اليوم غد ، والآخرة خير لأمير المؤمنين .

نتائج العقل

كان رجل من حكماء الأوائل له عقل ودراية ، وأدب وتجربة ، فسمع به ملك أرضه ، فاستدعاه إليه وقربه منه ، وباسطه بإقباله عليه ، ومجاذبته له ، فقال له الملك مامعناه : إنك أيها العاقل الحكيم قد خصصت بسمت قويم ، وعقل بين ، وأدب واف ، ومنظر مقبول ، وتجربة وقفت بها على حقائق الامور ، فلم رضيت لنفسك بالمقام على التقصير عن حقك بالبعد عنا ، وقد تفتحت لك أبواب الرغبة فيك، والميل إليك ، والانتفاع بعقلك واجتناء ثمرة معرفتك؟ فقال العاقل الحكيم للملك مامعناه : إن كان قَصْدُ الملك في مقاله أن يتطلع إلى جواب أحتج به لأقيم عذرا في تباعدى عن رتبة القرب من الملك وقنوعى بالدرجة السفلى دون الدرجة العليا فهذا أمر لا يثقل على كامل العقل ، ولا تجدنى كثير نفع في إيالة الملك ، وإن كان قصد الملك أن يحرك ساكن العقل ليفيض اللسان من لآلئ الحكمة ما ينضد منه الملك عقودا يحلى بها جيد أفعاله ، ويتخذها جنة واقية من طارقة الحوادث ــ فهنا مطلب شريف تسارع النفس إلى التلبس به ، وتنفعل القوى الإنسانية له ، ويشرق نور العقل ، فيهدى إلى سلوك سبيله . فقال له الملك مامعناه : إن كل واحد منهما غرض مطلوب ومبتغى مقصود، فاذكر عذر نفسك ، ثم أتبعه بجواهر حكمك ونتائج عقلك. فقال العاقل مامعناه : إن الملك قد أفاض على الناس قربه ، وأحلنى فى الذروة العلياء من رتبته ، ومنحنى بسطة فى كل مبتغى ، ومكنة من كل منتهى ، ولا منى على التقاعد عن المبادرة إلى هذه المحاب ، ولا مرد لما قاله الملك ولا يتطرق إليه شك مريب ؛ غير أنى بقنوعى بالكفاف واقتصارى على دفع الضرورة ، وتجنبى لمواطن المترفعين ، وإعراضى عن مبادرة الدخول فى أبواب الكرامة التى منحها الملك ــ أجدنى آمِنَ السرب ، فارغ السر ، قليل الحرص، لا أقصد أحدا بمكروه ، ولا أستهدف لأذى مخلوق ، وليس واحد من أتباع الملك الوالجين أبوابه إلا وقد ملكه الحرص، واستهواه

الهوى ، واستعبده الطمع ، حتى اقتاده بزمامه ، فكل منهم يرمى بطامح نظره إلى زيادة مال يستمليها ليرضى بها ساخط حرصه ، ويمد يد أطماعه إلى جمرة سحت يتوقعها ليجرها إلى فرصه. قد استفادوا بكثرة ماخولوه من الملاذ المستجمعة لديهم فقراً نفس لا يحصل معه غنى ، ولا يفارقه فاقة ، فهم فى فرط احتيالهم فى طلب المزيد يدأبون فى دفع من يتوهمون عنده أدنى جنوح إلى اقتراب مدارجهم ، واقتحام مساعيهم ، متى بدا لهم مرهوب يقطع مأمولا حملهم الجزع على ارتكاب كل ما فيه دمار وبوار ، وإذا لاح لهم مرغوب يمنح سؤلا ألجأهم الحرص على اقتناصه إلى فعل يعقبه وبال وعطب ، وقديما قيل : الحرص مُورِدٌ موارد الهلكة ، ويحمل على التغرير بالمهجة ، وينزع لباس السلامة ،

مظاهر العقل السليم

للعقل السليم مظاهر ثلاثة : قياس واستقراء وتمثيل ، لأن الاستدلال إما بكلى على جزئى وهو القياس ، أو العكس وهو الاستقراء ، أو بجزئى على جزئى وهو التمثيل . ويلحقها قسم رابع وهو الأولوية القطعية .

المظهر الأول : القياس : والاستدلال فيه إما بالمعلول على العلة أو العكس:

فمن الأول أنه خرج أمير ومعه رجل ذكى فبينما هما على الغداء قال للأمير : اركب فقد لحقنا العدو . قال : كيف وما يرى أحد ؟ قال : اركب عاجلا فإن الأمر أسرع مما تحسب . فركب وسرعان ما علا الغبار ، وظهرت خيل العدو ، فقال : كيف علمت ؟ قال : لما رأيت الوحوش مقبلة علينا ومن عادتها الهرب منا علمت أنها لم تدع عادتها إلا لأمر قد دهمها

وذكر الجاحظ أن إياس بن معاوية نظر إلى صدع أرض ، فقال : تحت هذا دابة ، فنظروا فإذا حية ، فقيل له : من أين علمت ؟ قال : رأيت ما بين الآجرتين ندبا من بين جميع تلك البقعة ، فعلمت أن تحتها شيئا يتنفس .

وأما المظهر الثانى فمنه أن أسدا أراد أن يفترس ثورا ، فلم يقدر عليه لشدته ،

فمضى إليه متملقا قائلا : فديتك !! إني قصدت خروفا سمينا وأشتهي أن تأكل منه عندي . فأجابه الثور إلى ذلك ، فلما وصل إلى العرين ، ونظره ، فإذا الأسد قد أعد حطبا كثيرا ، فهرب مسرعا ، فقال له الأسد : مالك وليت بعد مجيئك إلى هنا ؟ فقال له الثور : لأني علمت أن هذا الاستعداء لما هو أكبر من الخروف .

ومن ذلك ما ذكره ابن الجوزي قال : لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بدر وجدنا عندها رجلين أحدهما من قريش والثاني مولى لعُقْبة بن أبي مُعَيْط : أما القرشي فأفلت وأما مولى عقبة فأخذناه ، وجعلنا نقول له : كم عدد القوم ؟ فيقول : والله كثير عددهم ، شديد بأسهم . وأبى أن يخبر ، فسأله النبي صلى الله عليه وسلم : كم ينحرون من الجزر ؟ فقال: عشرا لكل يوم . فقال صلى الله عليه وسلم : القوم ألف رجل لأن كل جزور لمائة .

ومن هذا ما نقل أن أحمد بن طولون رأى رجلا يحمل صندوقا وهو يضطرب تحته فقال : لو كان هذا الاضطراب من ثقل المحمول لغاصت عنقه ولكن عنقه بارزة وما هذا إلا من خوفه مما يحمل ، فأمر بوضع الصندوق ، فوجدت فيه جارية مقتولة .

وقال الجاحظ : حج إياس ، فسمع نباح كلب ، فقال : هذا كلب مشدود ثم سمع نباحه ، فقال : قد أُرسل . فانتهوا إلى الماء فسألوا ، فكان كما قال ، فقيل له : من أين علمت ؟ قال : كان نباحه وهو موثوق يسمع من مكان واحد ثم سمعته يقرب مرة ويبعد أخرى .

ومن النوادر المنقولة عن ذكاء إياس أنه رأى أثر اعتلاف بعير ، فقال : هذا بعير أعور . فنظروا ، فكان كما قال . فقيل له : من أين علمت ذلك ؟ قال : لأني وجدت اعتلافه من جهة واحدة .

وقد يستدل على وقوع الشيء على خلاف ما هو عليه ظاهرا بأمرين : إما بمخالفته العادة ، أو بمخالفته الضرورة العقلية : فأما الأول فإن الشيء إذا وقع على

خلاف عادته دل على أن له علة وباعثا هو أمر آخر : كما نقل أنه دخلت ليلى الأخيلية على عبد الملك بن مروان ، وقد أسنت ، فقال لها : ما رأى توبة منك حتى عشقك ؟ قالت : ما رأى الناس منك حتى جعلوك خليفة . فضحك حتى بدت له سن سوداء كان يخفيها ، ثم التفت إلى ليلى فقال : أنشدينا يا ليلى بعض ما أنشد فيك توبة . قالت : نعم : هو الذى يقول :

وكنت إذا ما جئت ليلى تبرقعت فقد رابنى منها الغداة سفورها

فقال لها : ما الذى رابه من سفورك ؟ قالت : يا أمير المؤمنين ، كان كثيرا ما يلم بنا ، فأرسل لى يوما يقول : إنى سآتيك . فلما أتانى سفرت له ، فعلم أن ذلك لشر ، فلم يزد على التسليم والرجوع ، فقال عبد الملك : لله درك يا ليلى !!

وحكى أن الهذلى حج مع المنصور ، وكان المنصور قد وعد الهذلى بجائزة ، ونسى وكان من عادة الهذلى أنه لا يكلم الخليفة إلا جوابا عما يسأل ، فلما مرا ببيت عاتكة قال : يا أمير المؤمنين ، هذا بيت عاتكة الذى قال فيه الأحوص :

يا بيت عاتكة الذى أتعزل حذر العدا وبه الفؤاد موكل

قال : فأنكر المنصور منه ذلك ؛ لأنه خلاف عادته ، وتكلم من غير أن يسأل ، فلما رجع المنصور استحضر ديوان الأحوص ، ونظر إلى القصيدة كلها ليعلم ما أراد الهذلى ، فإذا فيها :

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم مذق اللسان يقول ما لا يفعل

فعلم أنه أشار إلى هذا البيت وتذكر ما وعد به من الجائزة ، فأمر بإنجازها ، واعتذر إليه من النسيان .

ونقل عن الكسائى : كان يعلم الأمين ولد الرشيد ، وكان من عادته أنه إذا غلط لا يرد عليه ، وإنما يضرب بعصاه على الأرض ، فيتنبه الأمين ويراجع فكره فيقرأ صوابا ، فقرأ ذات يوم قوله تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ » الآية . فضرب الكسائى بعصاه على الأرض ، فسكت الأمين ، وراجع فكره فلم يظهر له غلط ولا نسيان ، فلما فرغ ذهب إلى الرشيد ، وقال :

هل وعدت الكسائى بشىء ، ولم تف به ؟ قال : نعم : ومن أخبرك بذلك ؟ فقص عليه القصص .

وأما الأمر الثانى وهو مخالفة الضرورة العقلية فإنه أيضا دليل على عدم مطابقة الظاهر للواقع : حدث بعض العقلاء قال : نزلت مرة على رجل فتعشينا ، ثم نمنا ، فسمعت الرجل يقول فى آخر الليل لامرأته : إنى أريد أن أدعو غدا رهطا ليأكلوا عندنا فاصنعي لهم طعاما . فقالت المرأة : كيف تدعو الناس إلى طعامك وليس فى بيتك فضل عن عيالك وأنت رجل لا تبقى شيئا ولا تدخره ؟ قال الرجل : لا تندمى على شىء أطعمناه وأنفقناه ، فإن الجمع والادخار وخيم العاقبة . فقالت المرأة : نِعْمَ ماقلت وعندنا من الأرز والسمسم مايكفى ستة أو سبعة . فأخذت المرأة حين أصبحت سمسما وقشرته ، ووضعته فى الشمس ليجف ، فجاء كلب ، فعاث فيه ، فكرهت المرأة أن تصنع منه طعاما ، فذهبت إلى السوق وأخذت بدله سمسما غير مقشور مثلا بمثل ، فقال رجل لآخر : لأمر ما باعت هذه المرأة سمسما مقشورا بغير مقشور !!

الاستدلال بالقرائن والأفعال

وقد يستدل بقرائن الأحوال والأفعال : فمن ذلك مايلى :

قال ابن الجوزى فى الأذكياء : استودع رجل رجلا مالا ، ثم طلبه فجحده ، فتخاصما إلى إياس بن معاوية ، فقال الطالب : إنى دفعت المال إليه . قال : ومن حضرك ؟ قال : دفعته فى مكان لم يحضرنا أحد . قال : فأى شىء فى ذلك الموضع ؟ قال : شجرة . قال : فانطلق إلى ذلك الموضع وانظر الشجرة فلعل الله تعالى يوضح لك هناك مايتبين به حقك ، ثم قال إياس للمطلوب : اجلس حتى يرجع خصمك. فجلس وإياس يقضى وينظر إليه ساعة بعد ساعة ، ثم قال له : ياهذا أترى صاحبك بلغ موضع الشجرة التى ذكرها ؟ قال : لا . قال : ياعدو الله ، إنك لخائن . قال : أقلنى أقالك الله . فأمر من يحتفظ به حتى جاء الرجل ، فقال له إياس : قد أقر لك بحقك فخذه .

المظهر الثانى: الاستقراء: وهو تتبع الجزئيات للحكم على كليها بحكمها ، فإن كان للكل فتام ، وإلا فناقص : فالأول يقينى الدلالة ، والثانى ظنيها ويسمى الناقص عند الفقهاء (إلحاق الفرد بالأعم الأغلب) ، ويسمى التام عند الفقهاء قياسا : قال الرشيد للبهلول : أتحب أن تكون خليفة ؟ قال : لا ، لأنى رأيت موت ثلاثة خلفاء ، ولم ير الخليفة موت بهلولين . وحكى أن بعض الأرقاء كان عند مالك يأكل الخاص ويطعمه الخشكار فأبق الرقيق من ذلك، وطلب البيع فباعه ، واشتراه من يأكل الخشكار ، ويطعمه النخالة ، فطلب البيع فباعه ، واشتراه من لا يأكل شيئا ، وحلق رأسه ، وكان يجلس بالليل ويضع السراج على رأسه بدلا عن المنارة ، فأقام عنده ولم يطلب البيع ، فقال له النخاس: لأى شىء رضيت بهذا عند هذا المالك ؟ فقال : أخاف أن يشترينى فى هذه المرة من يضع الفتيلة فى عينى عوضا عن السراج !!

وحكى الأصمعى عن عيسى بن عمر قال : وفد أبو الجهم حذيفة على معاوية ، فقال له معاوية : والله إن لك لشرفا وحقا وقرابة يا أبا الجهم ، إنه لزمتنا مؤنة عظيمة ، فهذه مائة ألف فخذها وأعذر . قال : فقبضتها على مضض ، وقلت فى نفسى : ماذا أقول له ، وهو رجل ناء عن بلاد قومه، وقد تخلق بأخلاق أهل الشام الجفاة ؟ فلما توفى معاوية واستخلف يزيد سرت إليه وأقمت أياما، فقال لى: يا أبا الجهم إنى بحقك وشرفك وقرابتك لعارف ، وإن مع حقك حقوقا ومؤنا لا أستطيع دفعها ، وأنت أولى من يعذر ، وهذه خمسون ألفا فضمها إليك . فقلت: غلام حدث نشأ مع غير قومه ، فأى خير يرجى منه ؟ فلما استخلف عبد الله بن الزبير قلت فى نفسى : هذا بقية قريش فأتيته وأقمت عنده أياما ، ثم قال لى : يا أبا الجهم ، مهما جهلتُ فلن أجهل شرفك وقرابتك وحقك ، غير أن علينا مؤنا وأمورا يطول شرحها ، ولكن مع ذلك فإنى غير مخيب لسفرك : هذه ألف درهم خذها واستعن بها على أمورك . فأخذتها ثم وثبت بين يديه فقلت : يا أمير المؤمنين ، مدَّ الله لقريش فى بقائك ، ولا امتحنها بفقدك ، فوالله مازالت بخير ما بقيتَ لها.

فقال : أين الزبير ؟ جزاك الله عن الرحم خيرا ، فوالله ماقلت هذا لمعاوية ، وقد أعطاك مائة ألف درهم . فقلت : نعم ياأمير المؤمنين من أجل ذلك قلت ، لأنى خفت إن أنت هلكت لا يتولى أمر الناس إلا الخنازير ! !

المظهر الثالث التمثيل :

وهو إثبات حكم فى جزئى لوجوده فى جزئى آخر لمعنى مشترك بينهما : ومثل ذلك ما نقل أن أول من أحدث المروحة هارون الرشيد ، فقد دخل يوما على أخته عُلَيَّة بنت المهدى فى يوم قيظ ، فألفاها قد صبغت ثيابا بزعفران وصندل ونشرتها على الحبال لتجف ، فجلس الرشيد قريبا من الثياب المنشورة ، فصارت الريح تمر على الثياب فتحمل منها نشرا طيبا ، فوجد لذلك راحة من الحر واستطابه ، فأمر أن يصنع له مثل ذلك

ومن ذلك أيضا ما ذكره ابن الجوزى عن الزهرى قال : أخبرنا عمارة بن خزيمة الأنصارى أن عمه حدثه أن النبى صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابى فاستتبعه النبى صلى الله عليه وسلم ليَقبضه ثمن فرسه ، فأسرع النبى فى السير وأبطأ الأعرابى ، فطفق رجال يعترضون الأعرابى فيساومونه الفرس ولا يشعرون أن النبى ابتاعه حتى زاد بعضهم للأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه به النبى ، فنادى الأعرابى النبى فقال : إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته. فقام النبى فقال : أليس قد ابتعته منك ؟ قال : لا. فطفق الناس يلوذون بالنبى والأعرابى وهما يتراجعان فطفق الأعرابى يقول : هلم شهيدا يشهد أنى قد بعتك فقال خزيمة : أنا أشهد أنك قد بعته . فأقبل النبى على خزيمة ، فقال : بم تشهد ؟ فقال: بتصديقك يارسول الله. فجعل النبى شهادة خزيمة بشهادة رجلين فقال: من شهد له خزيمة فحسبه

ومنه أيضا قول بعض الحكماء : من نقل لك فقد نقل عنك ، ومن شهد لك فقد شهد عليك ، ومن تجرأ لك فقد تجرأ عليك

ومما يلحق بالتمثيل الاعتبار بالأمثال : قال على كرم الله وجهه : إن الأمور إذا استبهمت اعتبرت آخرها بأولها . وهو حق ؛ لأن المقدمات تدل على النتائج ، والأسباب تكشف عن المسببات ، وطالما كان الشيئان ليسا علة ومعلولا وإنما بينهما أقل تناسب ، فيستدل بحال أحدهما على حال الآخر ، وإذا كان كذلك واستبهمت أمور على العاقل الفطن ولم يعلم إلى ماذا تئول فإنه يستدل على عواقبها بأوائلها وعلى خواتمها بفواتحها: تأمل قوله صلى الله عليه وسلم: «اسْتَدِلَّ عَلَى مَالَمْ يَكُنْ بِمَا قَدْ كَانَ ، فَإِنَّ الأُمُورَ أَشْبَاهٌ »

ومن كتاب لعلى كرم الله وجهه إلى حارث الهمدانى :

« اعتبر ما بقى من الدنيا بما مضى منها فإن بعضها ليشبه بعضا وآخرها لاحق بأولها ، ولا تكونن ممن لا تنفعه العظة إلا إذا بالغت فى إيلامه »

ومن الأمثال: أن أسدا كبر سنه وضعف ، فلم يقدر على صيد الوحوش ، فتمارض وكلما أتاه زائر من الوحوش افترسه؛ فأتى الثعلب يوما ليزوره ، فوقف على باب الغار مسلما عليه قائلا : كيف حالك ياسيد الوحوش ؟ فقال له الأسد : ما الذى يمنعك من الدخول ياأبا الحصين ؟ فقال له الثعلب : كنت أريد ذلك ياسيد السباع ولكن رأيت آثار أقدام كثيرة دخلت ولم تخرج .

مظاهر العقل الحسنة

النزاع : وهو انبعاث النفس نحو الشيء الملائم

الإحساس : قبول صور المحسوسات

التخيل : ثبات صور المحسوسات فى النفس بعد مفارقتها

الظن : تطلب النفس الحكم على الأشياء من ظواهرها

الفكر : التطوف نحو المعارف

الرأى : غاية الفكر ونهايته ونتيجته

الإصابة : الحكم على حقيقة المطلوب بما هى عليه

الذكر : وهو حصول ماسبق وجوده فى الذهن

الحفظ : هو ثبات صور المعانى فى النفس

الذكاء : هو سرعة انقداح النتائج وسهولتها على النفس

الحكمة : إدراك أفضل المعلومات بأفضل العلوم

الفهم : هو تيسر الحصول على المعانى الواردة على النفس

التميز : هو حصول الفرق بين الحق والباطل والخير والشر

مظاهر العقل السيئة

البلادة : تعطيل القوة الناطقة واطراحها من غير قصور فى أصل الخلقة

المكر والخبث : إضمار الشر لغيرك واستعمال الغيلة والخديعة

الجهل : ترك استعمال الصواب لعدم المعرفة

الحمق : معرفة الصواب وترك العمل به ، أو تصور الممتنع بصورة الممكن

الخرق : الحركة عن غير حاجة ومبادرة الأمور من غير توقف

التبذل . اطراح الحشمة والإكثار من الهزل ومجالسة السفهاء

آية العاقل

إن العاقل ينظر فيما يؤذيه وفيما يسره ، فيعلم أن أحق ذلك بالطلب إن كان مما يحب وأحقه بالاتقاء إن كان مما يكره — أطوله وأدومه وأبقاه ، وبذلك يبصر فضل الآخرة على الدنيا وفضل سرور المروءة على لذة الهوى وفضل الرأى الجامع الذى تصلح به الأنفس والأعقاب على حاضر الرأى الذى يستمتع به قليلا ثم يضمحل وفضل الأكلات على الأكلة والساعات على الساعة .

ومن ذلك أن يضع كلا من الرجاء والخوف موضعه ، فلا يجعل اتقاءه لغير

الخوف ولا رجاء في غير المُدرك .

ومن ذلك تنفيذ البصر بالعزم بعد المعرفة بفضل الذى هو أدوم وبعد التثبت في مواضع الرجاء والخوف ، فإن طالب الفضل بغير بصر تائه حيران ، ومبصر الفضل بغير عزم ذو زمانة محروم .

وعلى العاقل مخاصمة نفسه ومحاسبتها والقضاء عليها ولها :

أما المحاسبة فيحاسبها بمالها فإنه لا مال لها إلا أيامها المعدودة التى ما ذهب منها لم يستخلف كما تستخلف النفقة وما جعل منها فى الباطل لم يرجع إلى الحق ، فيتنبه لهذه المحاسبة عند الحول إذا حال والشهر إذا انقضى واليوم إذا ولى ، فينظر فيما أفنى من ذلك وما كسب لنفسه وما اكتسب عليها فى أمر الدين وأمر الدنيا ، فيجمع ذلك فى كتاب فيه إحصاء وتذكير للأمور .

وأما الخصومة فإن من طباع النفس الآمرة بالسوء أن تدعى المعاذير فيما مضى والأمانى فيما بقى ، فيرد عليها معاذيرها وعللها وشبهاتها .

وأما القضاء فإنه يحكم فيما أرادت من ذلك على السيئة بأنها فاضحة مردية موبقة وللحسنة بأنها زائنة منجية مربحة ، وبذا يسر نفسه بتذكر تلك الحسنات ورجاء عواقبها وتأميل فضلها ، ويعاقبها بالتذكر للسيئات والتبشع بها والاقشعرار منها والحزن لها فأفضل ذوى الألباب أشدهم لنفسه بهذا أخذا ، وأقلهم عنها فيه فترة .

وعلى العاقل أن يحصى على نفسه مساويها فى الدين وفى الأخلاق وفى الآداب ، فيجمع ذلك كله فى صدره أو فى كتاب ، ثم يكثر عرضه على نفسه ، ويكلفها إصلاحه ، ويوظف ذلك عليها توظيفا من إصلاح الخلة والخلتين والخلال فى اليوم أو الجمعة أو الشهر ، فكلما أصلح شيئا محاه ، وكلما نظر إلى محو استبشر ، وكلما نظر إلى ثابت اكتأب .

وعلى العاقل أن يتفقد محاسن الناس ويحفظها على نفسه ، ويتعهدها بذلك مثل الذى وصفنا فى إصلاح المساوى .

وعلى العاقل أن لا يخادن ، ولا يصاحب ولا يجاور من الناس — ما استطاع —

إلا ذا فضل فى العلم والدين والأخلاق فيأخذ عنه ، أو موافقا له على إصلاح ذلك فيؤيد ما عنده ، وإن لم يكن له عليه فضل ؛ فإن الخصال الصالحة من البر لا تحيا ولا تنمى إلا بالموافقين والمؤيدين ، وليس لذى الفضل قريبٌ ولا حَمِيمٌ أقرب إليه ممن وافقه على صالح الخصال فزاده وثَبَّتَه ، ولذلك زعم بعض الأولين أن صحبة بليد نشأ مع العلماء أحب إليهم من صحبة لبيب نشأ مع الجهال .

وعلى العاقل أن لا يحزن على شىء فاته من الدنيا أو تولى ، وأن ينزل ما أصابه من ذلك ثم انقطع عنه منزلة مالم يصب ، ولا يدع حظه من السرور بما أقبل منها ، ولا يبلغن ذلك مرحا ولا طغيانا ؛ فإن مع المرح النسيان ومع الطغيان التهاون ، ومن نسى وتهاون خسر .

وعلى العاقل أن يؤنس ذوى الألباب بنفسه ويجرئهم عليها حتى يصيروا حرسا على سمعه وبصره ورأيه ، فيَستنيمَ إلى ذلك ، ويريح له قلبه ، ويعلم أنهم لا يغفلون عنه إذا هو غفل عن نفسه .

وعلى العاقل — مالم يكن مغلوبا على نفسه — ألا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع فيها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضى فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يَصدُقونَه عن عيوبه وينصحونه فى أمره ، وساعة يُخَلِّى فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل ؛ فإن هذه الساعة عون على الساعات الأُخر ، وإن استجمام (١) القلوب وتوديعها (٢) زيادة قوة لها وفضل بلغة .

وعلى العاقل أن لا يكون راغبا إلا فى إحدى ثلاث : تزود لمعاد ، أو لذة فى غير محرم ، أو مرمة لمعاش .

وعلى العاقل أن يجعل الناس طبقتين متباينتين ويلبس لهم لباسين مختلفين : فطبقة من العامة يلبس لهم لباس انقباض وانحجاز وتحفظ فى كل كلمة وخطوة ، وطبقة من الخاصة يخلع عندهم لباس التشدد ويلبس لباس الأَنَسة واللَّطَفَة والبِذْلة والمُفَاوَضَة ، ولا يُدخل فى هذه الطبقة إلا واحدا من الألف ، وكلهم ذو فضل

(١) استجمام : استراحة (٢) تركها مستقرة مطمئنة

فى الرأى وثقة فى المودة وأمانة فى السر ووفاء بالإخاء .

وعلى العاقل أن لا يستصغر شيئا من الخطأ فى الرأى والزلل فى العلم والاغفال فى الأمور ؛ فإنه من استصغر الصغير أوشك أن يجمع إليه صغيرا وصغيرا ، فإذا الصغير كبير ، وإنما هى ثلم يثلمها العجز والتضييع ، فإذا لم تسد أوشكت أن تتفجر بما لا يطاق ، ولم نر شيئا قط إلا قد أوتى من قبل الصغير المتهاون به : قد رأينا الملك يؤتى من العدو المحتقر به ؛ ورأينا الصحة تؤتى من الداء الذى لا يحفل به ، ورأينا الأنهار تنبثق من الجدول الذى يستخف به .

وعلى العاقل أن يجبن عن المضى على الرأى الذى لا يجد عليه موافقا وإن ظن أنه على اليقين .

وعلى العاقل أن يعرف أن الرأى والهوى متعاديان ، وأن من شأن الناس تسويف الرأى وإسعافَ الهوى ؛ فيخالف ذلك ويلتمس ألا يزال هواه مسوَّفا ورأيه مُسْعَفا .

وعلى العاقل إذا اشتبه عليه أمران فلم يدر فى أيهما الصواب أن ينظر أهواهما عنده فيحذره .

ومن آيات العقل سلامته من عظام الذنوب والعيوب بالقناعة ومحاسبة النفس ، ولا تجده يحدث من يخاف تكذيبه ، ولا يسأل من يخاف منعه ، ولا يعد بما لا يجد إنجازه ، ولا يرجو ما يُعَنَّف برجائه ، ولا يُقدم على من يخاف العجز عنه . وهو يُسَخِّى بنفسه عما يغبط به المتوالون خروجا من عيب التكذيب ، ويسخى بنفسه عما ينال السائلون سلامة من مذلة المسألة ، ويسخى بنفسه عن محمدة المواعيد براءة من مذمة الخلف ، ويسخى بنفسه عن فرح الرجاء خوف الإكداء .

والعاقل الحكيم لا يَغْتَمُّ لأن الغم لا ينفع وكثرته تزرى بالعقل ، ولا يحزن لأن الحزن لا يرد المَرْزِئَةَ ودوامه ينقص العقل ، والعاقل هو الذى يحسم الداء قبل أن يبتلى به ويدفع الأمر قبل أن يقع فيه ، فإذا وقع فيه رضى وصبر ، والعاقل لا يُخيف أحدا أبدا ما استطاع ولا يقيم على خوف وهو يجد منه مذهبا ،

وإذا خاف على نفسه الهوان طابت نفسه عما يملك من الطارف والتالد مع لزوم العفاف .

والعاقل لا يبتدئ الكلام إلا أن يسأل ، ولا يسرع الجواب إلا عند التثبت ، لا يستحقر أحدا ، لأن من استحقر المتسلطين أفسد دنياه ، ومن استحقر الأتقياء أهلك دينه ، ومن استحقر الإخوان أفنى مروءته .

والعاقل لا يخفى عليه عيب نفسه ، لأن من خفي عليه عيب نفسه خفيت عليه محاسن غيره ، وإن من أشد العقوبة للمرء أن يخفى عليه عيبه ؛ فإنه ليس بمقلع عن عيبه من لم يعرفه ، وليس بنائل المحاسن من لم يعرفها ، وما أنفع التجارب للمبتدئ !!

والعاقل لا يقاتل من غير عدة ، ولا يخاصم بغير حجة ، ولا يصارع بغير قوة ؛ لأنه بالعقل تحيا النفوس ، وتنور القلوب ، وتمضي الأمور ، وتعمر الدنيا .

والعاقل يقيس ما لم ير من الدنيا بما قد رأى ، ويضيف ما لم يسمع منها إلى ما قد سمع ، وما لم يصب منها إلى ما قد أصاب ، وما بقي من عمره بما فني ، وما لم ينل منها بما قد أوتي ، ولا يتكل على المال وإن كان في تمام الحال ؛ لأن المال يحل ويرتحل والعقل يقيم ولا يبرح .

منزلة العقل

العقل مادة الفهم ، وينبوع الحكمة ، وبه وقع التكليف للآدميين ، وهو الموصل إلى صلاح الدنيا والدين ، وهو سبب إلهي وسر من أسرار تدبيره ، يودعه الله تعالى من أراد كرامته من عباده ، وقضى له بحسن العاقبة في ميعاده .

وبالعقل استظهر المرء على كثير مما غاب عنه ، واستطلع على ضروب مما يحجب عنه مما يمكن عرفانه ، ولا يتعذر على أرباب البصائر بيانه :

قال صلى الله عليه وسلم : « قَسَّمَ اللهُ العَقْلَ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ فَمَنْ كُنَّ فِيهِ كَمَلَ عَقْلُهُ وَمَنْ لَمْ تَكُنْ فِيهِ قَلَّ عَقْلُهُ وَهِيَ : حُسْنُ المَعْرِفَةِ بِاللهِ ، وَحُسْنُ الطَّاعَةِ لِلهِ ، وَحُسْنُ الصَّبْرِ عَلَى أَمْرِ اللهِ » . وروى عنه صلى الله

عليه وسلم أنه قام إليه رجل من بني مجاشع فقال : يارسول الله ، ألست أفضل قومى ؟ فقال له : « إنْ كَانَ لَكَ عَقْلٌ فَلَكَ فَضْلٌ ، وَإنْ كَانَ لَكَ خُلُقٌ فَلَكَ مُرُوءَةٌ وَإنْ كَانَ لَكَ مَالٌ فَلَكَ حَسَبٌ وَإنْ كَانَ لَكَ تُقًى فَلَكَ دِينٌ » وإلى هذا نظر عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين قال: خير حسب الرجل ماله ، وشرفه دينه ، وأصله عقله ، ومروءته خلقه .

وروى أن جبريل أتى آدم عليهما السلام ، فقال له : إنى آتيتك بثلاث فاختر واحدة . قال : ماهى؟ قال: العقل والحياء والدين. قال: اخترت العقل. فخرج جبريل عليه السلام إلى الحياء والدين ، فقال لهما : ارجعا ؛ فقد اختار العقل عليكما . فقالا : إنا أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان .

وروى أنس رضى الله عنه قال : أثنى على رجل عند رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بخير فقال لهم : كيف عقله ؟ فقالوا: يارسول الله إن من عبادته . . . إن من خلقه . . . إن من فضله . . . إن من أدبه . . . فقال : كيف عقله ؟ قالوا : يارسول الله تثنى عليه بالعبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال رسو الله صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الأحْمَقَ الْعَابِدَ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ ؛ وإنَّمَا يَرْتَفِعُ النَّاسُ فِي دَرَجَاتِ الزُّلْفَى مِنْ رَبِّهِمْ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ »

واعلم أن النفس قد ركبت فيها ثلاث قوى : عقلية وغضبية وشهوانية.

(١) فالعقلية هى التى ينقاد بها صاحبها إلى الحقائق ويتحاشى الباطل، ويقف عند الحكم ويرجع إلى قبول الأمر والنهى ، ويرى الحسن فيتبعه ويرى القبيح فيمتنع منه

(٢) والغضبية هي التى تحمل صاحبها على الحمية والأنفة ، وتزين له الغلبة والقهر ، وتحبب له الاستيلاء ، وربما أفضت به إلى العجب والكبر

(٣) والشهوانية هى التى تزين لصاحبها ركوب الشهوات وتقتحم به بحور

اللذات ، وتُضجعه فى مهاد الغفلات، فتنام بصيرته عن نظر العواقب حتى يصير غرضا للنوائب ، فإذا كانت القوة العقلية هي الغالبة على طباعه لم يأخذ من سائر القوى إلا مالا بد منه ولا غنى عنه من غير ركوب حرج ولا خروج عن طاقة

العلم والعقل

إن الإسلام دين علم وعقل : فهو قبل أن يكلف أتباعه تحصيل أى غرض من أغراض الدنيا يكلفهم أن يكونوا عقلاء صحيحي الفهم ثاقبي الفكر جيدي البصيرة ، يتدبرون الأمور قبل الشروع فيها ، ويقلبون وجوه الرأى فى مواردها ومصادرها ومباديها ومصايرها ، فلا تقع إلا على مقتضى الحق والعدل والمصلحة والواجب ، كما يكلفهم أن يكونوا علماء عارفين بأسباب المصالح وطرق المنافع ، واقفين على الحقائق الكونية ملمين بتفاصيل التجارب العملية التى اهتدى إليها البشر فى سابق أدوارهم ومختلف أطوارهم مما يتعلق بتصحيح العقائد والعبادات وتقويم الأخلاق والملكات وإتقان أمر المعايش والمعاملات وترقية شأن الصناعات والتجارات وتحسين سائر مقومات الحياة ، فالقرآن لما دعا الناس إلى الإسلام وكلفهم قبول تعليمه وهدايته كان يقيم « العقل » حكما بينه وبينهم من انصرافهم عنه وإهمالهم له وترك الاستضاءة بنوره، فكان يقول وهو يحاجهم :

(كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ،

(فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِى الأَبْصَارِ) ،

(إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَبْصَارِ) ،

(إِنَّ فِى ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِى الأَلْبَابِ) ،

(إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ) ،

و «الأبصار والألباب» العقول . وقد تكرر « أَفَلَا تَعْقِلُونَ » فى القرآن بضع عشرة مرة فى صدر التوبيخ والتعجب وكفى بهذا مزية ومنقبة للعقل مذ جعل للدين أصلا ولمصالح الدنيا عمادا. وورد فى الحديث الشريف :

(مَا تَمَّ دِينُ إنسانٍ قَطُّ حتّى يَتِمَّ عقلُه)،

(دِينُ المَرْءِ عَقلُهُ وَمَنْ لاَ عَقلَ لهُ لاَ دِينَ لَهُ) .

وإنما حرمت الخمر فى الاسلام خشية أن تسيطر على العقل، فتفسده أو تضعفه، والعقل ملاك سعادة الإنسان وقوام حياته .

أما العلم فالقرآن رفع من شأنه ونوه بمنزلته بما لم يسبقه إليه سابق من الكتب السماوية ، فقد قال تعالى :

(هَلْ يَستَوِى الَّذِينَ يَعلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعلَمُونَ) ؟

بل إذا تدبرنا أول آيات القرآن نزولا وجدناها تحض على العلم، وترفع من مكانته : قال تعالى : (اقرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خلقَ خَلَقَ الانسانَ مِنْ عَلَقٍ اقرَأْ وَرَبُّكَ الأكرَمُ الَّذِى عَلَّمَ بِالقَلَمِ عَلَّمَ الانسانَ مَالمْ يَعلَمْ) ،

(نَ وَالقَلَمِ وَمَا يَسطُرُونَ) :

فقد نوّه فى الآيتين بشأن القلم والكتابة والعلم والتعلم . هـذا الشأن من شئون الحياة ومصالح الدنيا هو أول ما فاجأ به القرآن البشر المخاطبين وأوقعه فى أذهانهم : أفلا يكون معنى ذلك أن الاسلام دين علم وأنه لا يرضى للمنتسبين إليه إلا العلم ؟ ولا نظن أن كلمة من كلمات القرآن ـ عدا كلمة « الله » ـ تكررت فيه بقدر ما تكررت فيه كلمة « العلم » : فالاسلام إذاً « دين العلم » ، كما أنه (دين التوحيد)

ولما أراد الله أن يلقن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم دعاء يدعو به لقنه أن يطلب فى دعائه المزيد من العلم إذ قال له : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلماً)

وورد فى الحديث الشريف : (العِلمُ حَيَاةُ الاسْلامِ وَعِمادُ الدِّينِ)

والعلم إذا أطلق فى لسان الشرع كان المراد به العلم النافع الموصل إلى سعادتى

الدنيا والآخرة : ذلك العلم الذى يتعلق بمصالح البشر مباشرة وله الأثر البين والنفع الظاهر فى إتقان تلك المصالح وإحكام أمرها وتوثيق عراها . أما العلوم المبنية على الوهم والتدجيل فإن الشارع لا يقيم لها وزنا

وكذلك حضّ الشارع على فهم مسائل العلم فهما صحيحا ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

(كُونُوا لِلعِلْمِ وُعَاةً وَلَا تَكُونُوا لَهُ رُوَاةً) :

أى لا تعتمدوا فى العلم على مجرد الرواية والنقل من دون أن تعوه وتحفظوه وتدبروه ؛ لتعرفوا طريق المصلحة والمنفعة منه .

والعلم لا ينمو فى نفس صاحبه إلا بالعمل والممارسة والتطبيق ؛ فإن العمل بالعلم على هذه الصورة يزيده ثباتا ورسوخا ، ويؤدى إلى انكشاف أمور من ذلك العلم كانت مجهولة وانفتاح أبواب إلى غوامضه وأسراره كانت مسدودة . وهذا الأصل فى العلم مما قرره الإسلام أيضا فى جملة ما قرر من الأحكام : فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

(مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ اللهُ عِلْمَ مَالَمْ يَعْلَمْ) ،

فالعمل بالعلم يتسبب عنه بتسيير الله ــ علم « جديد » ومعرفة غضة لم تكن حاصلة من قبل .

وقال أمير المؤمنين علىّ كرم الله وجهه : « كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع » ووعاء العلم هو العقل . ولا جرم أن العقل يتسع وينمو كلما مدّ بالعلم وغذى بمسائله .

وكما حذر الشارع من العلم الوهمى الذى لا ينفع حذر من دعاته وحملته ، ونبه الناس إلى غوائلهم ومغبة الانخداع بهم ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

(وَيْلٌ لِأُمَّتِي مِنْ عُلَمَاءِ السُّوءِ) :

وعلماء السوء أنواع : الذين يحللون الحرام ويحرمون الحلال أو يتخذون العلم

حبالة لحظوظهم ومنافعهم الخسيسة أو وسيلة للإضرار بالناس ، أو يتعلمون من العلوم أوهاما ينافخون دونها ؛ ليستفيدوا من ورائها جاها أوحطاما . وغير هؤلاء ممن اتخذ العلم آلة شر وضروإفساد

أشرف غايات العقل

أشرف غايات العقل معرفة الله تعالى ، وحسن طاعته ، والكف عن معصيته ، وعلى ذلك دل قوله عليه الصلاة والسلام : « العَقْلُ ثَلَاثَةُ أجزَاء : جزْءٌ معْرِفَةُ اللهِ ، وَجُزْءٌ طَاعَةُ اللهِ ، وَجُزْءٌ الصَّبْرُ عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ » وقال عليه السلام : « الايمانُ عُرْيَانٌ ، وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى ، وَزِينَتُهُ الْحَيَاءُ ، وَمَالُهُ الْعِفَّةُ وَثَمَرَتُهُ الْعِلْمُ » فمعرفة الله العامة مركوزة فى النفس ، وهى معرفة كل أحد أنه مخلوق وأن له خالقا أوجده . فالأحوال المختلفة وهى المشار إليها بقوله تعالى : « فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » وبقوله : « صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً » وبقوله : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ » ـ هذه الأحوال تتضمن قدرا من المعرفة فى نفس كل واحد ، ويتنبه الغافل إذا نبه فيعرفه ، ويعرف أن ماهو مساو لغيره مساو له : ومن هذا الوجه قال الله تعالى : « وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ » وقال فى مخاطبة المؤمنين والكافرين: « فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ » وقال بعده : « ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ »

وأما معرفة الله المكتسبة فمعرفة توحيده وصفاته ، وما يجب أن يثبت له من الصفات ، وما يجب أن ينفى عنه ؛ وهذه المعرفة هى التى دعت إليها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولهذا قال كلهم : قولوا لا إله إلا الله . ولم يدع أحد إلى معرفة الله تعالى ، بل دعا إلى توحيده ، وهذه المعرفة المكتسبة على ثلاثة

أضرب :

ضرب لا يكاد يدركه إلا نبي ، وصديق ، وشهيد ومن داناهم : وذلك المعرفة بالنور الالهي من حيث لا يعتريه شك بوجه كما قال تعالى: « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا »

وضرب يدرك بغلبة الظن : وهو الظن الذي يفسره أهل اللغة باليقين كما قال تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ »

وضرب يدرك بخيالات ، ومثل ، وتقليدات ، وإياه عنى بقوله : « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » :

فالأول يجرى مجرى إدراك الشيء من قريب : ولهذا قال الله في وصفهم: « إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ »

والثاني يجرى مجرى إدراك الشيء من بعيد ، وقد تعتريه شبهة ، لكن تزول بأدنى تأمل كما قال تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ »

والثالث يجرى مجرى من يرى الشيء من وراء ستر من بعيد ، فلا ينفك من شبهات كما أخبر تعالى عمن هذه حالته بقوله : « إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ »

ولأجل معرفة الله تعالى على الحقيقة حتى يتخلص من آفات الشرك قال تعالى: « وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ » وقال تعالى : « قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » وقال تعالى : « قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ » وقال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُخْلِصًا دَخَلَ الْجَنَّةَ »

وغاية معرفة الإنسان أن يعرف أجناس الموجودات جواهرها وأعراضها

المحسوسة والمعقولة ، ويعرف أثر الصنعة فيها ، وأنها محدثة ، وأن محدثها ليس إياها ولا مثالها ، بل هو الذى يصح ارتفاع كلها مع بقائه تعالى ، ولا يصح بقاؤها وارتفاعه . وبهذا النظر قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه : سبحان من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته .

ولما كانت معرفة الخلق كله تصعب على كل واحد من أفراد الإنسان جعل الله تعالى لكل إنسان من نفسه وبدنه عالما صغيرا أوجد فيه مثال ما هو موجود فى العالم الكبير ، ليجرى ذلك من العالم مجرى مختصر من كتاب بسيط يكون مع كل أحد نسخة يتأملها فى الحضر والسفر والليل والنهار ؛ فإن نشط وتفرغ للتوسط فى العلم نظر فى العالم الكبير وهو الكتاب الكبير الذى هو الملكوت ليغزر علمه ، ويتسع فهمه ، وإلا فله مقنع بالمختصر الذى معه ولهذا قال: « وَفِى الأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ، وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ » ولشرف متأملى ذلك قال تعالى : « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَىْءٍ » وقال تعالى : « إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » فنبه بمدحهم إذ قالوا : « رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ » إلى أنهم عرفوا المقصود بخلقه ، وذلك هو آخر البحوث ؛ لأن البحوث أربعة :

بحث عن وجود الشىء بهل هو ؟

وبحث عن جنسه بما هو ؟

وبحث عما يباين به غيره بأى شىء هو ؟

وبحث عن الغرض بلِمَ هو ؟

وهذه البحوث يبتنى بعضها على بعض ؛ لا يصح معرفة الثانى إلا بمعرفة الأول،

ولا معرفة الرابع إلا بمعرفة الثالث

وقولهم : «رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَـذَا بَاطِلاً » : يقتضي أنهم عرفوا البحوث الأربعة ، وإلاشهدوا بما لم يتحققوا ، ومن شهد بما لم يتحقق كذب .

الفرق بين العقل والهوى

من شأن العقل أن يرى ويختار أبدا الأفضل والأصلح في العواقب ، وإن كان على النفس في المبدأ نصبا ومشقة ، والهوى على الضد من ذلك لما يأتي :

« ١ » إنه يؤثر ما يدفع به المؤذي في الوقت وإن كان يعقب مضرة من غير نظر منه في العواقب كالصبيّ المريض الذي يؤثر أكل الحلوى على تناول المسهل ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ »

« ٢ » إن العقل يرى صاحبه ماله وما عليه ، والهوى يريه ماله دون ماعليه ، ويعمى عليه ما يعقبه من المكروه ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ »

ولذلك ينبغي للعاقل أن يتهم رأيه أبدا في الأشياء التي هي له لا عليه ، ويظن أنه هوى لا عقل ويلومه ، وينبغي أن يستقصي النظر فيه قبل إمضاء العزيمة ، حتى قيل : إذا عرض لك أمران فلم تدر أيهما أصوب فعليك بما تكرهه لا بما تهواه ؛ فأكثر الخير في الكراهة : قال الله تعالى : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » وقال : « فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً »

« ٣ » إن ما يرى العقل يتقوى إذا فزع فيه إلى الله عز وجل بالرجوع إلى حكمه ، وتساعد عليه العقول الصحيحة إذا فزع إليها بالاستشارة ، وينشرح له الصدر إذا استعين فيه بالعبادة ، وما يراه الهوى فبالضد من ذلك .

« ٤ » إن العقل يرى ما يرى بحجة وعذر ، والهوى يرى ما يرى بشهوة

وميل ، وربما تشبه الهوى بالعقل فيتعلق بشبهة مزخرفة ، ومعذرة مموهة : كالعاشق إذا سئل عن عشقه ، والمتناول لطعام ردىء إذا سئل عن فعله : قال بعض الحكماء : إذا مال العقل نحو مؤلم جميل ، والهوى نحو ملذ قبيح، فيتنازعان بحسب غرضهما ، ويتحاكمان إلى القوة المدبرة — بادر نور الله عز وجل إلى نصر العقل ، ووساوس الشيطان إلى نصر الهوى : كما قال الله تعالى : « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ »

فمتى كانت القوة المدبرة من أولياء الشيطان ومحبيه لم تر نور العقل ، فعميت عن نفع الآجل : كما قال الله تعالى : « وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ »

ومما نبه الله تعالى به على فساد الهوى قوله : « وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ » : أى لو أعطى كل إنسان ما يهواه ، مع أن كل واحد يهوى أن يكون أغنى الناس وأعلاهم منزلة ، وأن ينال فى الدنيا الخير الأبدى بلا مزاولة ولا طلب — لكان فى ذلك فساد العالم .

وقيل فى قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ » — إنه ضرب الشجرة الطيبة مثلا للعقل ، والخبيثة مثلا للهوى، ففرع الطيبة النور والاسلام ، وفرع الخبيثة الكفر والضلال .

ضروب الجهل

الإنسان فى الجهل على أربعة منازل :

الأول : من لا يعتقد اعتقادا لا صالحا ولا طالحا ، وأمره فى إرشاده سهل إذا كان طيعا ، فإنه كلوح أبيض لم يشغله نقش ، وكأرض بيضاء لم يلق فيها بذر . ويقال له باعتبار العلم النظري غفل ، وباعتبار العلم العملى غمر ، ويقال له سليم الصدر .

والثانى : معتقد لرأى فاسد ، لكنه لم ينشأ عليه ولم يتربت به ، فاستنزاله عنه سهل وإن كان أصعب من الأول ؛ فإنه كلوح يحتاج إلى حذف وكتابة ، وكأرض تحتاج إلى قلع وزراعة ويقال له غاو وضال .

والثالث : معتقد لرأى فاسد قدر أنه قد تراءت له صحته ، فركن إليه بجهله ، وضعف بصيرته ، فهو من وصفه الله تعالى بقوله : « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ » . ولا سبيل إلى تنبيهه وتهذيبه .

والرابع : معتقد اعتقادا فاسدا عرف فساده ، وتمكن من معرفته ، لكنه مكابر يجادل بالباطل ليدحض به الحق ، ويذم أهل العلم ليجر إلى نفسه الخلق ، ويقال له فاسق ومنافق ، وهو من الموصوفين بالاستكبار والتكبر فى نحو قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ » وقوله تعالى : « فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ » فنبه الله تعالى إلى أنهم ينكرون ما يقولونه ويفعلونه لمعرفتهم ببطلانه ، لكن يستكبرون عن التزام الحق ، وذلك حال إبليس فيما دعا إليه من السجود لآدم عليه السلام .

والجنون وهو عارض يغمر العقل ، والحمق قلة التنبه لطريق الحق ، وكلاهما

يكون تارة خلقة، وتارة عارضا .

ومما يفرق بينهما أن المجنون يكون غرضه الذى يريده ويروقه فاسدا وسلوكه إليه خطأ ، ولهذا يعرف المجنون إذا رئى بإرادته قبل سلوكه إلى مراده ؛ والأحمق لا يعرف بمراده بل بسلوكه .

ولهذا متى صحت إرادة المجنون صح فعله حتى تتعجب كثيرا من فلتات صوابه ؛ والأحمق لا يكاد يصيب فى شىء من مسالكه .

وأما البله فقلة التنبه فى الأمور ، ويضاده الكيس : قال أبو بكر رضى الله عنه : « أكيس الكيس التقى ، وأحمق الحمق الفجور » وأما الرقيع فالذى يلصق بقلبه كل محال كأنه لصق بذلك .

والأرعن : الذى يأتى بما يخرج عن الصواب تشبيها برعن الجبل وهو الحيد عنه .

والأحمق : الناقص العقل من قولهم : انحمقت السوق أى نقصت .

والغمارة : قلة التجربة فى الأمور العملية مع تخيل سليم ، وقد يكون الإنسان غمرا فى شىء غير غمر فى غيره .

والخرق يقال فى الجاهل بالأمور العملية : وذلك بأن يفعل أكثر مما يجب أو أقل أو ما يجب على غير النظام المحمود ، وفساد كل عمل لا يعدو هذه الوجوه الثلاثة ويضاده الحذق .

والبغى : ارتكاب الهوى وترك ما يقتضيه الحق والعقل .

والضلال : أن يقصد لاعتقاد الحق ، أو قول الصدق ، أو فعل الجميل ، فظن لسوء تصوره فيما كان باطلا أنه حق فاعتقده ، أو فيما كان كذبا أنه صدق فقاله ، أو فيما كان قبيحا أنه جميل ففعله .

والجهل : عام فى ذلك كله .

والخب : استعمال الدهاء فى الأمور الدنيوية صغيرها وكبيرها ، والجربزة مثله .

والدهاء : يقال فى الأمور العظام إذا أدرك غاياتها ولهذا قالوا : « الدهاة فى الاسلام أربعة »

فضيلة العلم

١ ـ لاريب أن العلم متقدم الوجود على العمل ، لأن العمل لا يكون إلا بعد العلم : وهو ثبات صورة المعلوم وتصور أشخاص المعانى فى نفس العالم. والايمان هو الذى يوجب العلم ؛ لأنه متقدم الوجود عليه : ألا ترى أن الأنبياء عليهم السلام إنما قالوا أولا بالدعوة إلى الاقرار بما جاءوا به ، والتصديق إلى ما دعوا إليه مما صححته الدلائل وصدقته الآيات ، وكان غائبا عن تصور الأوهام وتدبر الأفهام فإذا أقر من دعوا بالألسنة طولبوا بالتصديق ، فإذا صدقوا صح الايمان ، فإذا صح الايمان دعوا إلى العلم المؤدى إلى معرفة الواجب عليهم الباعث على القيام باللازم لهم من شرائع دينهم وتوابع دنياهم : روى عن جندب أنه قال : كنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم غلمانا حزاورة يعلمنا الايمان قبل أن نتعلم القرآن ، ثم تعلمنا القرآن فازددنا به إيمانا .

وعن القاسم قال : سمعت عبدالله بن عمر يقول : لقد عشنا برهة من دهرنا وإن أحدنا ليتعلم الايمان قبل القرآن : وذلك لأن أول الايمان سماع بالآذان ، فإذا وعت وجب الاقرار باللسان ، فإذا أقر أخذ بتصديق القلب ، فإذا صدق طولب بالعلم ، فإذا علم خرج من ظلمة الجهل إلى نور الهدى ؛ لأنه ليس للسمع ولا للنطق حقيقة فى نفع ولا ضرر إلا بصحة ثبوت المعرفة فى القلب ؛ فإن العلم ينقسم قسمين ظاهرا وباطنا : فالظاهر سماع بالأذن ونطق باللسان وعمل بالجوارح ، والباطن تصديق القلب وصحة اليقين وثبوت المعرفة ، فإذا صدق القلب استنار بنور الهدى الذى هو من هبات الله عز وجل ؛ لأن الهدى لايدرك بوقوع علم ولا بحضور فهم ، والله يقول عز من قائل : « إِنَّ الهُدَى هُدَى اللهِ » وقال جل وعز : « وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » وقال تبارك

اسمه : « ذَلِكَ هُدَى اللهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » وقال سبحانه : « مَنْ يَهْدِي اللهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي » وهذا كثير فى كتاب الله العزيز فإذا اجتمعت الهداية مع العلم تأيد المرء فى جميع أحواله ، وتزيد من الخير فى أقواله وأفعاله ، وبعد عن عوارض الارتياب ، وقوى فى كل الأسباب ، لأنه لايعبدالله عزوجل على حقيقة الايمان به إلا بالعلم ، كما لا يعصى إلا بالجهل .

٢ ـ ومما يدل على مكانة العلم أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل المسجد فإذا هو بمجلسين : فى أحدهما قوم يذكرون الله ، وفى الآخر قوم يتفقهون فى الدين ، فقال عليه السلام : « كُلُّ الْمَجْلِسَيْنِ عَلَى خَيْرٍ ، وَأَحَدُهُمَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ صَاحِبِهِ : أَمَّا هَؤُلَاءِ فَيَذْكُرُونَ اللهَ وَيَسْأَلُونَهُ ، فَإِنْ شَاءَ أَعْطَاهُمْ وَإِنْ شَاءَ مَنَعَهُمْ ، وَأَمَّا الْمَجْلِسُ الْآخَرُ فَيَتَعَلَّمُونَ الْفِقْهَ وَيُعَلِّمُونَ الْجَاهِلَ ، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ مُعَلِّمًا فَجَلَسَ إِلَى مَجْلِسِ الْفِقْهِ »

٣ ـ وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ ظَنَّ أَنَّ لِلْعِلْمِ غَايَةً فَقَدْ بَخَسَهُ حَقَّهُ ، وَوَضَعَهُ فِي غَيْرِ مَنْزِلَتِهِ الَّتِي وَضَعَهُ اللهُ بِهَا حَيْثُ يَقُولُ : (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) . »

٤ ـ وقد أبان الله عزوجل فضل العلم على الجهل بقوله تعالى : (هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ) وقال عز ذكره : (يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) ومثل هذا كثير فى كتابه .

ووصف على بن أبى طالب رضى الله عنه علماء الدين فقال : هم الأقلون عددا الأعظمون قدرا ، بهم يحفظ الله حجته حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها فى قلوب أشباههم ، هجم بهم العلم على حقيقة الايمان حتى باشروا روح اليقين ، فاستلانوا ما استخشن المترفون ، وأنسوا بما استوحش الجاهلون ، صحبوا الدنيا بأرواح معلقة بالرفيق الأعلى . هاه هاه شوقا إليهم .

وقال رضى الله عنه : ماقطع ظهرى فى الإسلام إلا رجلان : عالم فاجر، ومبتدع ناسك : فالعالم الفاجر يزهد الناس فى علمه لما يرون من فجوره ، والمبتدع الناسك يرغب الناس فى بدعته لما يرون من نسكه

وكان السلف الأول يتعوذون بالله من العالم الفاجر العالم بالسنة .

٥ ـ وبالعلم اعتصم الملوك من الظلم ، وامتنعوا من الجور ، وعدلوا فى أحكامهم وأقسطوا فى أقسامهم ، فتسددت آراؤهم ، وحسنت فى كل الأحوال أنحاؤهم ، فصاروا أئمة هدى يقضون بالحق وبه يعدلون .

٦ ـ مما تقدم يتجلى أن العلم مناط الحياة الاجتماعية ، وأس الحضارة والعمران ، وأول المقومات التى لا تقوم إلا بها حياة المجتمعات .

وحد العلم بوجه الإجمال : أنه العقل الغرزى إذا ترقى إلى متناول المعرفة بحقائق المحسوسات ، ولهذا يمدح الإنسان العاقل بنسبة ما عنده من العلم بتلك الحقائق فيقال : فلان عاقل عالم ، أو نابغة أو حكيم وهكذا بالتدريج . وكلما كان الإنسان واسع العلم كثير المعرفة واقفا على حقائق الأشياء كان وجيها فى قومه محترما من الناس ، قوى الجانب ، مقبول الرأى ، عارفا بطرق السعادة ، ميسرا للعمل ، شديد الهيبة فى نفوس الناس .

وهكذا الحال أيضا باعتبار المجموع كما هو باعتبار الأفراد : أى كما تكون هذه النعوت لشخص بمفرده كذلك تكون الأمة بمجموعها إذا انتشرت بين أفرادها أنوار العلم ، وعمت بينهم المعارف .

ولا دليل نقيمه على هذين الأمرين أعظم مما هو واقع تحت الحس والمشاهدة فإنا نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا أن كل عالم بلغ درجة الكمال فى العلم لا تنفك عنه هذه النعوت ، ومقامه فى المجتمع أعلى وأعظم من مقام الجاهل . والأمم كذلك ؛ فإن الشرق الآن يموج بكثرة الأمم والشعوب موج البحار ، ومع هذا فهو منحط عن الغرب بسائر أوصاف القوة والكمال ، وقد أصبحت السيادة للغربيين على معظم أنحاء الشرق وسكانه . ولماذا ؟ لعلم أولئك وجهل هؤلاء .

العلم طريق السعادة للدارين ومبعث مجد الأمم وينبوع ثروة الشعوب ، وما أذل الشرق بعد العز وأفقر سكانه بعد الغنى وأقفر أوطانه بعد أن كانت آهلة بالعلم مزدحمة بطلابه إلا إهمال أهله للعلوم واسترسالهم فى الشهوات مع أن أعظم أمم المشرق التى بلغت أعلى مقامات الحضارة وترقت فى العلوم إلى ذروة الكمال ، فرفعت منار التمدين وتبسطت فى مناحى العمران — لم تبلغ ما بلغته من ذلك الأمة الاسلامية فى عصر ترقيها وإبان مجدها . وأين هى من ذلك المجد الآن ؟ ولماذا أخنى عليها الزمان ؟ لتركها العلوم النافعة فى الدنيا واشتغالها عن ذلك بالاستغراق فى البذخ الذى أنهك قواها ، وأفقدها مجدها . ولو استمرت على خطتها الأولى والقرآن إمامها يحثها على العلم ، ويمهد لها طرق السعادة — لكانت لهذا العهد صاحبة السيادة على معظم أجزاء المعمور والمتسلطة على خزائن الأرض .

ومع هذا فهى إذا طرحت دواعى اليأس الآن ، واستيقظت من غفلة الوسنان ، واسترشدت بالقرآن ، فنهضت نهضة رجل واحد فى سبيل تعميم العلم والتعليم على طرقه النافعة وأصوله المرغوبة لمثل هذا العصر ، عصر الاختراع والإبداع ، عصر العجائب والغرائب ، عصر العلوم والمعارف — إذا فعلت كل ذلك — فهى واصلة بلا ريب إلى مبتغاها وإعادة سالف مجدها

قلب نظرك فى القرآن الكريم تجد أن الله سبحانه وتعالى يحث المؤمنين على العلم ، ويخاطب العقل ، ويأمر بالتبصر فى آيات الكون والتفكر فى خلق الله وذلك كما فى قوله تعالى: « لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ » ، « لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ » ، « لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » ، « لِأُولِي النُّهَى » ، « لِأُولِي الأَلْبَابِ » وغير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على عناية الله تعالى بالمؤمنين ، وحثهم على إطلاق العقل من قيد الجهل المهين ؛ ليخرج بهم من الظلمات إلى النور ، ومن العمى إلى الهدى .

وأية عناية من هذا القبيل أعظم من عنايته تعالى بالمؤمنين فى قوله جل

وعلا : (اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ) : أى إلى العلم .

بل أى ترغيب فى العلم وتشريف لقدر العلماء أحسن وأجل من قوله تعالى: (يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ) ؟ بل أى منشط على العلم داع إلى التملص من الجهل أعظم من قوله تعالى يصف العلم بالحياة والجهل بالموت ، ويفضل العالمين على الجاهلين : « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) ؟

فعلينا أن نتمم هذا المجد لندرك شأو آبائنا الأولين ، ونحيا حياة طيبة كحياة أسلافنا الطاهرين : «إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » .

لا تستقيم أعمال الانسان إلا بالعلم اليقينى الذى هو ترقى العقل إلى درجة الاحاطة بما يكتنف الانسان من أسباب السعادة والشقاء أو تنازع البقاء الذى هو حياة القوى بموت الضعيف ، وإنما يتيسر وصول العقل إلى هذه الدرجة من العلم بالتعلم والتهذيب إذا روعى فيهما جانب الفضيلة على وجه يشعر معه المتعلم أنه إنما يتعلم ليعمل ، فينفع نفسه وبنى جنسه بالعلم . وكأين من عالم لم يبلغ علمه درجة اليقين الداعية للشعور بوجوب العمل وعاش عمرا طويلا فى هذا الوجود ولم يترك فيه أثرا من آثار العلم النافع ، لأنه إنما علم ولكن لم يعمل بما علم، فعلمه وجهله سيان ؛ إذ ما الفائدة ممن يتعلم ويقول أنا عالم ولا يتبع القول بالعمل ، فيعمل بما رزقه الله من العلم ؟ وأولى بمثل هذا العالم أن يخشى الله بكذبه على العمل، فإن الله تعالى يقول : « كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ »

العلم هو الميزان الذى تتكافأ به قوى الشعوب المتنازعة فى مضمار الحياة المدنية مادام العمل به متبادلا بين المتنازعين ، ومتى وقف أحدهما عن العمل

واستمر الآخر فى عمله رجح هذا على ذاك بالضرورة ، فنازعه البقاء ، وغلبه عليه؛ ولهذا وردت الإشارة فى قوله تعالى : « لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ » أى بالعدل المانع من تغالب الناس : فالقسط رد جميع الأعمال إلى ميزان الشرع الذى هو الكتاب المرشد إلى العلم بمصالح الإنسان الدنيوية والأخروية ، ومتى قام الناس بالقسط وتكافئوا بميزان العمل فى مصالح حياتهم الاجتماعية ـ أمن كل فريق منهم غائلة تنازع البقاء مالم يختل ذلك التكافؤ برجحان إحدى كفتى ميزان العمل من المتنازعين ، فعندئذ لامناص من غلبة الراجح على المرجوح؛ وحياة قوم بفناء آخرين بحكم السنن الطبيعية التى سبق بها العلم الإلهى فى هذا الوجود الخلق ، وإليها يشير القرآن فى قول الله تعالى : (سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً)وقوله تعالى: (وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)

إذا تقرر هذا فقد وضح أن العلم بلا عمل لا يغنى عن الحياة شيئا بل لا يكون العلم علما إلا إذا ظهرت آثاره فى الخارج ، وإنما تظهر آثاره بالعمل؛ فالعمل العمل؛ فإن خير ماعلمه الإنسان هو العمل، وإلا فأى فائدة من علم المؤمن فى دينه أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا لم يصل فينتهى عن ذلك ؟ ومن علمه فى دنياه أن الزراعة مثلا من أسباب الحياة البشرية ولم يعمل بالزراعة مع علمه بها وبفنونها ؟ وهكذا يقال فى كل علم من علوم الدين والدنيا .

ومن نظر إلى آثار العمل الصادرة عن العلم التى تفيضها على أرجاء المشرق الأمم الأوربية الآن يحكم حكما جازما أن لا حياة لأمة ولا بقاء لشعب بإزاء الأمم المتمدينة مالم يجارها فى ميدان العمل مجاراة لا يعترى صاحبها الوهن ولا الكلل ، وإلا جرفت بتيار علومها وجود الجاهلين ، وسحقت بقوة عملها أجسام المستضعفين : (وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ) ـ بعد إذ هداهم إلى طريق

العمل وحذرهم عاقبة الإهمال والكسل ، وأبان لهم عن سنن الوجود ، ودعاهم بها إلى الاستبصار والاعتبار ، فقال تعالى : (فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ) وقرّع المعرضين منهم عن البحث فى بدائع الكون ونظامه المصون ، فقال تعالى : (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ)

أصول هامة فى التعليم تجب رعايتها

١ – يجب أن يكون للتلميذ رغبة فى تحصيل العلم الذى يتعلمه

٢ – كل تلميذ يختلف عن غيره تجب مراعاة مقدرته العقلية وأخلاقه فى تعليمه

٣ – إذا عجز تلميذ عن تحصيل علم مهم لا يجوز أن يحرمه كله ، فيلزم تحصيل أقل مايجوز الاكتفاء به من ذلك العلم ، ويجب أن تقلل العلوم التى يلزم جميع التلاميذ تعلمها على السواء

٤ – من التلاميذ من يميل إلى العلوم العقلية المجردة كالرياضيات ويولع بها ، ومنهم من لا يقدر على تحصيلها فلا مناص من معاملة كل فريق بما يناسبه .

٥ – من التلاميذ من يميل إلى تعلم اللغات ، ومنهم من لا يميل إلى ذلك ، فواجب التمشى مع استعدادهم

٦ – فى وسع كل ولد أن يتعلم قراءة لغته وكتابتها ، وفى الإمكان ترغيبه فى القراءة والمطالعة .

٧ – أفضل ما يقوى عقل الصغير ويزيد مقدرته على استخراج النتائج وبناء الأحكام على المقدمات اختباره الأمور بنفسه ، وتعلمه بالعمل : كأن يوضع بين يديه قطع الخشب والمعدن ليقطعها ويطرقها ويقيسها ويزنها ، ويتصرف فيها كيف شاء ، وكأن يعهد إليه فى

القيام على حديقة سقيا وغرسا وتشذيبا إلى غير ذلك . فإذا اعتاد ابن ثمان سنوات وزن الأجسام وقياسها هان عليه تعلم الحساب ، بحيث يمكن تفهيمه الكسور العشرية مثلا فى ساعة من الزمن ؟ وما مثل تعليم الأولاد من غير عمل إلا كمثل تعليم السباحة بالكلام

٨ – يجب أن يلتفت إلى كل تلميذ على حدته ويهتم به اهتمام خاص إذا استطاعت المدرسة .

٩ – إن العناية بوضع مناهج التعليم وإعداد معداته لا يأتى بالفائدة المطلوبة مالم يقم به المعلمون الكفاة ، وهم لا يقبلون مناصب التعليم إلا إذا أغروا بالأجور الكبيرة ، أما المعلمون الذين يقبلون الأجور الزهيدة فليسوا فى الغالب من أهل العمل ، فعلى الذين فى أيديهم أمر المدارس أن يفهموا أنه يجب عليهم دفع الأجور الكافية للمعلمين الكفاة .

١٠ – قد يتمكن ذو المقدرة من المعلمين من أن يفيد التلاميذ ولو أجراهم على طريقة غير صالحة ، ولكن الفائدة المطلوبة لا تحصل عادة إلا على أيدى المعلمين المهرة إذا علموا الطرق الصالحة

١١ – أفضل مايعلم فى المدارس لترقية مدارك الطلبة وتعويدهم البحث عن الحقائق واستنباط النتائج هو العلوم الطبيعية ، وقد حققت اليابان ذلك فأصلحت مدارسها وطرق التعليم فيها فوصلت إلى ما وصلت إليه من الارتقاء ، واليابانى لا ينقطع عن المطالعة بعد خروجه من المدرسة لأنه تعود تحصيل المعارف بنفسه ، ولذلك تظل معارفه تزداد ومداركه تتسع كل أيام حياته . واشتغال الطالب بالمسائل العلمية البسيطة يزيد مقدرته على التمييز بين الأمور والحكم فيها وتعليلها والنظر فى عواقبها ، والمسائل العلمية الطبيعية قليلة الملابسات والاختلاط ، ونتيجتها إما أن تكون صوابا أو غلطا ولا ثالث لهاتين

النتيجتين ، وذلك قريب من طبع الولد ؛ فإنه إذا صور صورة لم يمزج الألوان فيها ويدرج بعضها إلى بعض بل جعل السواد حالكا والبياض ناصعا ، وإذ قرأ سيرة رجل حكم أنه نبيل كامل أو نذل سافل

وعلينا أن نتثبت من أن العلوم ذات المسائل البسيطة القليلة الملابسات التى يراد تعليمها للولد ليست فوق مداركه ، وإلا وجب ألا يلزم تعلمها : مثال ذلك الهندسة التى يرى بعض المعلمين أن يتعلمها كل طالب ؛ فهى من أفضل العلوم لتعويد الطلبة التفكير الصحيح والتوصل إلى النتائج من المقدمات ، ولكن فهمها فوق طاقة الكثير منهم ، ولا يفهمها حق الفهم إلا الذين فى وسعهم تصور الأمور المجردة عن الحس ، وهم على العموم نحوه فى المائة من الطلبة ، ويرتاحون إلى تعلمها ارتياح البط إلى السباحة فى الماء ، أما الباقون وهم ٩٥ فى المائة فيكرهون على تعلمها إكراها ، فيضرهم ذلك أكثر مما ينفعهم ، وقديما لم يكن يؤذن بتعلمها إلا للأذكياء المتقدمين فى السن ، وإذا ظهر قصور طالب فى تعلم الهندسة أو غيرها عده معلموه بليدا ، وتابعهم فى ذلك أهله ورفاقه مع أنه قد يفوق غيره ذكاء إذا عُلم كما يجب أن يعلم .

١٢ ــ ليس على المعلم أن يتقيد بالفرع الذى يعلمه ، بل إذا رأى تلاميذه تعبوا من ذلك الفرع وسئموه فليأتهم بما يلذ لهم ويفيدهم ، ولو كان خارجا عن دائرة اختصاصه .

وما يفيد الطالب فى اختباراته العلمية أن يفكر من وجوه مختلفة ، فيبصر ويزن ويقيس ويدون مايراه ويقابل النتيجة التى يصل إليها بالنتائج التى وصل إليها غيره ، وإذا كشف حقيقة بنفسه زاد حماسه للبحث عن قوى الطبيعة وتحصيل العلم ؛ أما ما يتعلق تعلمه بالذاكرة فقط كاستظهار جداول الأقيسة والأوزان والقصائد وتعلم اللغات

فالأفضل تعليمه فى الحداثة ، ومايستظهره الولد فى حداثته يرسخ فى ذهنه ولو لم يفهمه .

١٣ ـ قد دل الاختبار على أن مخالفة الطبيعة أصل كل بلاء فى التعليم ، فعلينا أن نطبق طرقنا فى التعليم على الطريقة الطبعية أى التعلم بالملاحظة والاختبار ، وهى الطريقة التى يتعلم بها الصغير من تلقاء نفسه قبل أن يسلم للمؤدب أو يرسل إلى المدرسة ، فتراه لا ينفك يتناول ما تصل إليه يده ويقلبه ويدقق فى الفحص عنه ، ويشتغل بحل المسائل الطبعية التى تعرض له ، وهو مرتاح إلى الاشتغال بها مسرور بعمله ولو أتعبه ، ويبقى رضيَّ الأخلاق يتدفق البشر من محياه إذا كان معلمه يحبه بعد دخول المدرسة ؛ ولكن إذا أخذ المعلم أوغيره يهزأ به ويشهر أغلاطه ، وإذا كانت أمة تدلله يوما ، وتشتد عليه آخر ـ قام فى نفسه أنه مظلوم ، ومن قام فى نفسه أنه مظلوم كان كمن فيه روح خبيثة

١٤ ـ ليس من الصواب إلزام الأولاد تعلم أمور مخصوصة ، ولكن كل ولد فى الحادية عشرة لا بد له من أمور منها :

(ا) المقدرة على التكلم والقراءة والكتابة فى لغته

(ب) المقدرة على حل المسائل الحسابية البسيطة

(ج) المعرفة بالمبادئ البسيطة من علم الطبعيات يحصلها بذاته بالاختبار والملاحظة ولكل ولد ولع شديد بالقصص ويسهل استخدام ولعه هذا لتعليمه القراءة ، ثم لا يصعب ترغيبه فى القراءة بصوت عال ، فيتمرن على النطق الفصيح ، والولد الذى ينشأ بين أناس يكثرون من المطالعة يشب على حبها ؛ والولد المولع بالقراءة والمطالعة يظل يزيد معارفه إلى يوم مماته ، أما الإكراه على الدرس والتعلم فضرره أكثر من نفعه إلا إذا كان مصحوبا بالرفق واللين وقام به من تمكن حبه من قلب الولد ، والتملق أيضا يضر فى بعض الأحيان ، فيجب أن

يستدرج الولد استدراجا إلى عمل كل مايزيده خبرة ويوسع مداركه ويزيده عافية .

لايمكن تعليم أى تلميذ كان قسرا ، ولكن ليس فى كل مائة من الأولاد ولد واحد لايميل إلى القيام بما يجب عليه .

١٥ ـ من الأغلاط المضرة إرسال الصغار إلى المدارس الكبيرة (وبخاصة المدارس الداخلية) أما إذا كانت المدرسة خارجية يتردد عليها الولد ويعود إلى بيته فالضرر أقل. ولا يجوز إرسال الولد إلى مدرسة داخلية مادام دون الثالثة عشرة من العمر إلا إذا كانت المدرسة صغيرة، وكان مديرها وزوجته رفيقين بأولاد الناس يحبانهم ،

ولا يزال كثير من الوالدين إلى الآن لايعرفون أن أكبر واجباتهم تأديب أولادهم وتهذيبهم وتعليمهم ، فيكلون ذلك إلى غيرهم ، وكثيرون من ذوى المقامات يشتغلون بجمع المال ويهملون تربية أولادهم حتى إذا شب أولئك الأولاد بذروا المال الذى شغل آباءهم عن العناية بهم .

أما إذا كان الوالدان أميين فخير للولد أن يكون فى المدرسة مهما كانت ، وكذلك إذا كان الوالدان فقيرين لأنه يرى فى المدرسة النظافة والترتيب ، ويعتنى به فيها أكثر مما يعتنى به فى بيته، وكثير من المدارس يقبل الطلبة الخارجيين والداخليين على السواء ، ويميز بين الفريقين فى أمور لا يجوز التمييز بينهما فيها ، فينجم عن ذلك ضرر كبير .

١٦ ـ يجب أن يكون المعلم واسع الاطلاع يكثر من المطالعة ، فيقتدى به تلاميذه ، ولا يلبثون أن يظهر كل منهم ميله إلى علوم مخصوصة ، وحينئذ لايجوز ردعهم عن شىء منها، بل يشجع كل على متابعة ما يميل إليه وتقوية مواهبه الطبيعية الخاصة .

١٧ ـ ومن تلاميذ المدارس من يولع بقراءة القصص والروايات ، فيبادر المعلمون إلى منعه من ذلك وقد ينتزعون منه بعملهم هذا حب القراءة والمطالعة ، والأفضل أن يتركوه وشأنه فى ذلك، فإذا ارتقى عقله واتسعت مداركه عدل عنها إلى قراءة ماهو أنفع منها

١٨ ـ وأفضل طريقة لتعليم الرياضيات واللغات وجميع العلوم هى أن يستدرج التلميذ إلى التنقيب عنها وتحصيلها بذاته وقرن العلم بالعمل أى أن تعلم على الطريقة المتبعة الآن فى تعليم العلوم الطبعية كعلم الحيوان وعلم النبات والكيمياء

١٩ ـ مامن أحد ينكر ما للتعليم الابتدائى من الأهمية ؛ إذ ليس من سبيل سواه إلى توسيع مدارك العامة ، وارتقاء الأمة جمعاء يتوقف على ارتقاء عامتها ؛ بل إن العامة يحكمون الخاصة لكثرة عددهم وتحكمهم فى انتخابات الحكومة وغيرها ، فإذا لم يكتسبوا الاستقلال فى الرأى من تعلمهم فى المدارس وكانوا لا يقرءون الصحف ـ كانت أصواتهم فى الانتخابات ألعوبة فى أيدى الذين يضللونهم؛ ولا سبيل إلى إصلاح التعليم فى المدارس الأولية إصلاحا يأتى بالفائدة المطلوبة سوى تعيين المعلمين الكفاة ولو تقاضوا الأجور الكبيرة.
ويحسن أن يمتحن الطلبة معلموهم لأنه إذا عرف الطلبة أن ممتحنهم هو غير معلمهم لم يكن همهم فى تحصيل العلوم سوى الاستعداد لاجتياز الامتحان ، حتى إذا اجتازوه حمدوا الله على تخلصهم من عناء الدرس ، وأقصوا الكتب .

٢٠ ـ لاجرم أن التعليم العالى لازم للفتيات كما هو لازم للفتيان ، ولكنهن يعلمن الآن كما يعلم الفتيان تماما ، وفى ذلك ضرر لهن ناشئ عن اختلاف الجنسين فى الطبائع فلا بد فى تعليمهن من رعاية طبائعهن ، ومثالب تعليم الفتيان كثيرة ولكنها فى تعليم البنت أكثر .

أثر العلم الحديث

فى خلق الفرد وخلق الجماعة

خليق بنا فى هذا المقام أن نورد ملخص خطبة ألقاها حضرة رئيس تحرير المقتطف فى القدس بدعوة منها إذ قال :

هـذا الموضوع مترامى الأطراف ، بعيـد الغور ؛ فالعلم الحديث يمتـد فى الناحيـة النظرية من الذرة وأقسامها إلى الشموس الكبار والسدم العظيمة المنثورة فى رحاب الكون ، ومن دراسة الأحياء وأساليب توارثها الصفات على كر الدهور إلى دراسة الإنسان ، بل هو يسمو أو يحاول أن يسمو إلى دراسـة العقل الإنسانى وخفايا التفكير وأطوار النفس . أما من الناحية العملية فالعلم الحديث متغلغل فى بناء الحضارة الحديثـة ؛ لأن الآلة أساس هـذه الحضارة ، وتسيطر على نواحى العمل فيها .

وخلق الإنسان مجموع الطبائع والتقاليـد والمقاييس الأدبيـة والاجتماعيـة التى تقاس بها أعماله كفرد ، أو كعضو فى جماعة من حيث الخير والشر ؛ فهو متصل بأطوار اجتماعه متأثر بأحوال معاشه واقتصاده ، وقواعد تفكيره وأصول علمه ، متغلغل فى حياتنا اليومية ، وسلوكنا الاجتماعى أفرادا وجماعات .

(١) أثر العلم فى قيام الصناعة

إنا نعيش فى عصر تسير أمجاد العلم فى ركابه وتنبث حقائقه وأصوله فى كل ماجل وهان من شئون الحياة اليومية :

فالأنوار المتلألئة استنبط العلم طاقتها من قوى كامنة فى ذرات المـادة المتناهية فى الصغر ، والمبانى الشاهقة أقامها العلم وسواها على أصول محكمة من الهندسـة والكيمياء ، والملابس المختلفة أتقن العلم فتل أليافها وصبغها وغزلها ونسجها بآلات كأنهـا الأحياء ذكاء ، ولكنها تفوق الأحياء قوة ودقة ومضاء ؛ والأسمدة الكيميائيـة قد حبس العلم فيها نتروجين الهواء المطلق بقوة الكهرباء وحيلة التأليف الكيميائى.

ثم هـذه الأجساد التى مكن العلم الأطباء من أسرار حياتها ، وقواعد صحتها وأسباب مرضها ووسائل علاجها — ترينا أثراً من آثار العلم الحديث ؛ فمن سبعين سنة كان الإنسان لا يعرف شيئاً عن الجراثيم ، فإذا الهواء فى نظرنا الآن يعج بهـذه الأحياء الدقيقة .

وعلى جناح الطيارة العجيبة يقطع الإنسان المسافة بين مصر وفلسطين فى بضع ساعات ، وعلى هـذا الجناح العجيب اجتاز الطياران سكت وبلاك المسافة بين لنـدن وبورت داروين باستراليا فى يومين وخمس يوم ، مع أن أسرع البواخر لا تقطع هذه المسافة فى أقل من شهر . والأمواج غير السلكية تحيط الآن بالأرض حاملة على أجنحتها السحرية الصور والأنباء : أنباء النجاح والخيبة ، والحرب والسلم ، والمستكشفات الخطيرة التى تنشئ فى التاريخ الإنسانى حدوداً للزمان وأنباء الصغائر والمكائد التى تدلنا على أن هذا الإنسان الذى بلغ تلك القمة من الإبداع العقلى لا يزال طفلا فى مهد الروح .

ولقد وضع العلم رهن تصرفنا تلك الطاقة العظيمة التى تأتى بالعجب العجاب وفى معمل هيلند بارك فى ديترويت حيث تصنع طائفة من سيارات فورد تطلق المولدات الكهربائيـة إطلاقاً مستمراً طاقة قدرها ستون ألف حصان ، والطاقة التى تنطلق بها بعض سيارات السباق كالسهم المـارق تبلغ قوة ألف حصان مجتمعة .

وفى الذرة التى منها مبـدأ الـكون المـادى عالمٌ معقد البناء ، مؤلفٌ من إلكترونات وبروتونات ، ونوترونات ، وكلها أصغر من أن يدركها أقوى مجهر ، بل إن رؤيتها معجزة وستبقى معجزة ما زال السبيل إلى رؤيتها أمواج الضوء الذى به ترى الأشياء .

ولو تأملنا أنواع الأحياء من حيوان ونبات على ضوء مذهب التـدرج اضطررنا أن نرتد إلى الوراء مئات من ملايين السنين إلى العصر الذى كانت فيـه صنوف الأحياء تقتصر على أصول قليـلة العدد بسيطة التركيب ، فما

زال بها التحول الفجائى ، والتنازع على البقاء ، وأحداث الصخر والجو والماء ، حتى بلغت هذا الطور الرائع .

(٢) مصادر أثر العلم فى الحياة

إن جسم الإنسان يغتذى بعناصر البيئة التى يعيش فيها ، كذلك العقل الإنسانى يغتذى بعناصر البيئة العقلية التى تحيط به ، وهذه الصورة المصغرة التى رسمناها للعلم الحديث أمر جديد فى حياة البشر ، يعود تاريخه إلى النصف الأخير من القرن الماضى ؛ فقد يكون من بين الأحياء الآن من يذكر المعارك العقلية التى حمى وطيسها فى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بين أشياع التدرج وخصومه ؛ ومن لا يزال يذكر الأنباء الأولى عن التخاطب بالمسرة ، وكيف قوبلت بالإعراض والريب حتى السر وليم طمسن أمير علماء عصره دهش حين رأى مسرة ، « بل » فصاح : إنها تتكلم .

فليس بالأمر العجيب أن تتأثر بهذا الجو الفكرى حياتنا العقلية وصورنا الروحية والمثل الخلقية التى نرمى إليها ؛ بل العجيب أن تظل بمعزل عنه غير متأثرة به .

وأثر العلم فى حياة الإنسان ينبع من ثلاثة مصادر :

الأول : هو الانتفاع بفوائده التطبيقية ، وهى الفوائد التى نشأت عنها وسائل حفظ المدونات ، وتسهيل نشرها بطبع ألوف من النسخ وتوزيعها ، وطرق المخاطبات والمواصلات السريعة التى أزالت الحواجز الجغرافية ، وتخطت الحدود السياسية .

ونتائج العلوم الحيوية فى إتقان طرق الزراعة ، وتحسين أنواع النباتات والحيوان ، وما انبثق منها من علوم الطب والصحة العامة التى مكنتنا من مكافحة الأوبئة ، وإطالة متوسط العمر ، وأساليب الصناعة الواسعة النطاق

أما المصدر الثانى : فهو الأسلوب العلمى فى البحث الذى بنيت عليه جميع

هـذه المستكشفات والمخترعات والذى يتوخى الحقيقة فى ميـدان التجربة والمشاهدة ، ولا يـكتفى باستنباطها من التأمل فى النفس أوباستنباطها من أقوال الأئمة الأقدمين .

أما المصدر الثالث : فهو التحول الدائم فى مذاهب العلم ، والتنقيح المستمر فى أصوله ومبادئه والتعـديل الذى لا ينفك يدخله العلمـاء على حقائقه متفرقة ومجموعة ؛ فالحقيقة العلمية أبدا بنت البحث المستمر ، وقلما يسرى الظن إلى عالم بأن ما يـكشفه هو الحقيقة المطلقة .

(٣) أثر العلم فى المعتقدات

كان الإنسان فى عصور الحضارات البدائية يعتقد أن الطبيعة متقلبة الأطوار وكان يسند الحوادث المختلفة التى تخيفه أو تبهره إلى آلهة مختلفة ، وكانت صورة هـذه الآلهة منتزعة فى الغالب من صور الناس أنفسهم ؛ فلما استخرج غليلو سنن القوة والحركة ، واستنبط مبادئ الاتساق فى بعض الأفعال الطبيعية ، وتمـكن هو وغيره من التنبؤ بوقوع الحوادث الفلـكية ، فوقعت فى المواعيـد التى ضربوها — اقتضى نجاحهـم إحداث تغيير أساسى فى تفـكير الناس .

ثم لـما طلع علينا علمـاء التدرج بأدلتهـم المستخرجة من الصخور ، والطبقات المنضدة فى قشرة الأرض ، والعظام ومافيها من آثار ، والدماء وما تخضع له من تجارب — بان ارتباط الإنسان بمملـكة الحيوان :

وجاء فى إثر هؤلاء وهؤلاء علماء النفس المحدثون ، فذهبوا إلى أن نوازع الإنسان ليست إلا أفعالا عكسية تحولت بفعل البيئة التى نشأ فيها ، وأن دوافعه النفسية التى تـلون سلوكه ليست إلا دوافع جنسية غرضها إخلاف النسل وضمان بقائه ، فزال آخر حاجز يفصل بيننا وبين الحيوانات .

(٤) أثر العلم فى الأسرة

إن شريعة آداب النفس التى لا تتحول إلا تحولا بطيئا تتبدد اليوم بين سمعنا

وبصرنا ، والعادات المتصلة أصولها بنشأة الإنسان على الأرض ، الممتدة إلى أغوار فى التاريخ تتهاوى بين أيدينا :

ففروسية القرون الوسطى التى بدت فى عصرنا مفرغة فى قالب الأدب الخاص فى معاملة النساء بلطف لم تثبت على تحرر المرأة الاقتصادى ، أما الزواج الذى كان سبيل الاجتماع إلى حفظ النوع على أسلوب منظم فقد أخذ يفقد استهواءه وإغراءه ودفعت الأعباء التى يحملها الزوجان فى عصر الصناعة إلى تأخير سن الزواج ، والأسرة التى كانت مربى الأخلاق قد لانت للنزعة الفردية فى حياة المدنية الصناعية فتفرقت بددا .

وإننا لندهش عند قراءة التاريخ ؛ إذ نتبين مدى مايصيب قواعد الأخلاق وآداب السلوك من التغير والتحول مع أنها قد تبدو ثابتة راسخة لا يأتيها التحول إذا حصرنا النظر فى فترة قصيرة من الزمن .

إننا لا نعلم فى أى عصر من عصور التاريخ انتقل الإنسان من طور الصيد والقنص إلى طور الزراعة ، ولكننا نعلم أن هذا الانتقال اقتضى تحولا عظيما فى نظر الإنسان إلى الفضيلة والرذيلة ؛ فالاجتهاد فى عصر الزراعة كان مفضلا على الشجاعة التى كانت رأس الفضائل فى عصر القنص ، وفيه كان يؤثر الادخار والسلم على السلب والحرب ، ثم إن الانتقال إلى عهد الزراعة بدل من مقام المرأة ؛ فهى أجدى على الجماعة فى دور الزراعة منها فى دور القنص ؛ لذلك كانت الأمومة مقدسة ، وكان ضبط النسل لو أدركت وسائله عملا غير أدبى لأنه يقلل الولد .

فى ذلك العهد نبتت أصول شريعة الآداب التى نأخذ اليوم بها ، ففى المزرعة كان الفتى يبلغ سن الرجولة باكرا ، وكان كل مايحتاج إليه ـ إذا أدرك سن العشرين ـ محراثا وذراعا قوية ، فكان يبكر إلى الزواج ، ولا يضطر أن يعانى مايعانيه عشرات الألوف من شبان اليوم فى الفترة التى تمضى بين المراهقة والزواج المتأخر .

(٥) أثر العلم فى الزوجية والأمومة

ثم أخذ الرجال والنساء والأولاد يهجرون البيوت؛ لينتظموا فى المصانع. فانحلت بذلك وحدة الأسرة، وضعفت سلطة الوالدين، وانصرف الناس من الحرث والبذر والحصاد إلى كفاح هو الحياة والموت فى مخازن ضيقة قذرة قاتمة أومصانع تدوى فيها أصوات الآلات والعجلات، وتوالت المستنبطات الآلية فتأخر سن البلوغ العقلى، وطال زمن المراهقة العقلية وطالت فترة التعليم.

فى هذا المعترك العنيف رأى الرجل المرأة وقد جردت من نفعها الأول فى حياة الحقل وواجهته مصاعب الأولاد؛ لأن الأمومة فى المدن سلسلة من الأطباء والممرضات والأدوية، فإذا أرهق نفسه فى نفقات تعليم أولاده، ومسكنهم وملبسهم وفقا للبيئة التى يعيش فيها، وبلغوا السن التى تمكنهم من كسب رزقهم — نفروا من البيت إلى المصنع. لذلك بدا للناس أن الأمومة فى البيئات الصناعية أشبه ماتكون بضرب من الاستعباد، أو التضحية السخيفة فى سبيل النوع، فلما نبتت فكرة ضبط النسل شاعت فى الأوساط الصناعية، ثم تعدتها إلى غيرها.

ولهذه الناحية من حياة الإنسانية وجه آخر: إن التقدم فى علوم الطب والصحة أخذ يكشف عما فى سلامة الجسم وصحته من الروعة والجمال، فالعناية التى توجهها الإنسانية إلى الرياضة البدنية وتكريم أبطالها شاهد بليغ على ذلك، وهذا الشعور بوجوب الصحة يتعدى الإنسان إلى الإنسانية المقبلة متمثلة فى ذرياته.

ومن هنا المذهب الذى يقضى على الإنسان أن يورث المجتمع جماعة من الذريات تتألق عافية جسدية وصحة عقلية، ومن هنا أيضا النزعة التى ترمى إلى تعقيم الرجال والنساء الضعفاء والتى هى فى طريقها إلى الذيوع والانتشار.

فموضوع النسل الذى كان إلى العهد الأخير من الأسرار المقدسة فى حياة البشرية قد أصبح موضوع بحث وجدل وتنازع فى الرأى، ولا يزال كل يدلى برأيه ويعزز حجته جهد طاقته.

(٦) بين المادة والروح

والآن لابد من الإشارة إلى ناحية أدبية أخرى يتجلى فيها أو فيما يلابسها أعظم خطر تتعرض له الحضارة الحديثة :

من الأركان التي قامت عليها شريعة الآداب التي ورثناها من العصور القديمة فكرة الزهد كأساس للخلق النبيل ، وهذه العقيدة طبعية ومعقولة في كل جماعة فقيرة لا تكاد تنتزع من الأرض إلا كفايتها لصد الموت . ولهذا أدمج الزعماء الروحيون هذه النزعة في تعاليمهم ، فقالوا : إن الإنسان يستطيع أن يحيا الحياة النبيلة مع الفقر والقلة ، وجعلوا الزهد فضيلة حيث قلت الأشياء التي يستطيع الإنسان أن يزهد فيها . وقد اتفق أن النهضات التاريخية التي كان لها أكبر أثر في شريعة الآداب التي توارثناها كانت في حالة مادية من هذا القبيل ، فالسيد المسيح عليه السلام حث قومه على ممارسة الزهد والطهر ، ثم تقلبت هذه النزعة في أشكال مختلفة في عهد الإمبراطورية الرومانية ، ثم في القرون الوسطى لما أصبح الدير والصومعة ملجأ لأصحاب النفوس التي تطلب الخلاص من محن العالم .

وما لبثت أن توالت المخترعات العلمية والصناعية على الحضارة ، فأنقذت الناس من شبح الجوع الجاثم فوق الصدور ، ونمت الثروة ، فأصبح في ميسور الناس أن يتمتعوا بأسباب من الرخاء والرفاهة والترف لم يرن إليها القياصرة : ترى ماذا بقي من نزعة الزهد الصحيحة ، والتسليم والدعة والاحتمال ؟ وأي إنسان يرى نفسه قادرا على توجيه السعي إلى صفاء الروح ونقاء القلب فقط ؟

فالمشكلة التي تواجه العصر هي ابتداع مُثُل روحية تفضي إلى الحياة الصالحة النبيلة لا بالتخلي عن الثروة وما تيسر لنا من المتع .

ونحن في الشرق مع الاختلاف الكبير في الأحوال بين معيشتنا ومعيشة الغربيين نعاني المشكلة التي يعانونها بالتقليد والاقتباس، فالتحول في شريعة الآداب عندهم له صدى في حياتنا خافت اليوم ، ولكنه لابد أن يقوى غدا ؛ لأننا نعيش في جو كالجو الذي يعيشون فيه ، وإنما الفرق بيننا وبينهم أننا نخلقه في الغالب تصورا ،

وأمامهم فيتنفسونه في غدوهم وروحاتهم .

فنحن نبحث عن شريعة للآداب تقوم على الرغبة بدلا من الرهبة ، وعلى القوة وحسن استعمالها بدلا من الزهد ، وتلمس العزاء عن فقدان العالم. وفي هذه الهوة بين قوة العلم ، وتقصير الحكمة البشرية عن تثقيف الرغبات والنوازع الإنسانية ـ أعظم مصدر لما يحيق بالحضارة من الخطر ، فإذا أفلست الحكمة البشرية اتجهت هذه القوى العظيمة إلى التدمير والتخريب والتقتيل بدلا من أن تتجه إلى الإنتاج المجدى .

(٧) خاتمة

ومن الغريب أن نظريات العلم وتطبيقاته التي أفضت إلى إنشاء تلك الهوة قد تنطوى على بذور الحل لهذه المشكلة :

فكلما تقدم العلماء في سبيل البحث ازداد تعقدا أمامهم ، حتى بدأ الشك يتسرب إلى عقولهم في كفاية السنن الطبيعية لتعليل كل ماهنالك ، لذلك أصبح علماء هذا العصر فلاسفة تغلب عليهم سمة التصوف والإيمان : أمثال جينز وبرتران رسل ، وإينشتين . والأمل معلق الآن باتحاد العلم والفلسفة في الوصول إلى نظرية جديدة ، لا يتردد العارفون في أنها سوف تكون وافية إلى حد بعيد بإشباع ذلك الشوق إلى المجهول المتردد في صدر الإنسان .

أما الأسلوب العلمي الذي مكن الناس من كل ما تمتاز به حضارتنا الحديثة فهو في صميمه مدرسة للخلق العالي ، فقواعده التجرد من الهوى ، والإنصاف ، والصبر ، والمثابرة ، والابتلاء ، ونكران النفس في سبيل الحقيقة .

بل إن العلم التطبيقي من ناحيته الاجتماعية مدرسة جديدة للخلق ، فكلما مضينا في تطبيق نتائج العلم الحديث تبين لنا أنها لا تتمشى مع الفوارق الجغرافية والجنسية والسياسية والاجتماعية التي تفصل بيننا .

إن العلم قد قلب أوضاعنا الفكرية ، ووضع في أيدينا قوة إذا أسأنا استعمالها أفضى بنا ذلك إلى التدهور ، ولكن اتجاه العلم الحديث وأسلوبه ينطويان على بذور قد

نجد فيها خلاصا من الحيرة التى تكاد تمزقنا .

ولا بد أن يجىء يوم — لن ندركه نحن — تلحق فيه عقولنا بالآلات التى استنبطتها ، وترتفع حكمتنا إلى مستوى المعارف التى انتزعناها من صدر الطبيعة ، وتسمو أغراضنا سموا يمكننا من السيطرة على القوى الصناعية العظيمة . عند ذلك ندرك أن أعظم الجماعات جماعة لا تخضع للقوة ، بل تعنو للحكمة . عندذلك يندمج العلم فى أغراض الروح العليا ، فيكون (إكسير) الحكمة المصفاة .

القانون الطبعي أساس أدب الفرد والجماعة

القانون الطبعى هو ذلك النظام المحكم والسنن الثابت المتقن للحوادث الطبعية ، ولقد اقتضت حكمته تعالى أن يتجلى هذا النظام العجيب للعقل البشرى والحواس الإنسانية حتى يهتدى به البشر فى أعمالهم ويتخذوا منه قواعد عامة للهداية والرقى فى كل زمان ومكان .

وبما أن أفعال كل كائن تخضع لقواعد ثابتة لا يمكن العبث بها مالم يفسد النظام الذى تقوم عليه فقد أطلقوا على هذه القاعدة العملية والظواهر الفعلية اسم القوانين الطبعية : مثال تلك القوانين :

الشمس وإنارتها سطح الكرة الأرضية وتأثير حرارتها فى الماء وتأثير البخار المتصعد فى طبقات الهواء ، ثم تحول السحاب مطرا ، وبهذه الدورة تتجدد المياه الأرضية بلا انقطاع ، وتجرى الأنهار وتمتلئ الينابيع : صنع الله الذى أتقن كل شىء .

وإذ كانت هذه الحوادث وأمثالها الكثيرة ثابتة مطردة فمن السهل أن ندرك أن هناك بالنسبة للإنسان قواعد عدة ، لا ينبغى أن يحيد عنها حتى لا يصيبه الضرر والهلاك :

فليس للإنسان مثلا أن يجرؤ فيدعى أنه يرى فى الظلام ، أو يزعم أن فى إمكانه أن يعيش طويلا فى الماء ، أو يلمس النار ولا يحترق ، أو يحرم نفسه استنشاق الهواء النقى ولا يختنق :

ومعنى هذا كله أن مخالفة القوانين الطبعية فى مثل هذه الأحوال تنتهى

بالقصاص العاجل المناسب .

ولما كانت غاية القوانين المذكورة بالنسبة للجنس البشرى حفظه وسعادته فقد اصطلحوا على تسميتها بالسنة الطبعية ، أو قانون الطبيعة

مميزات القانون الطبعى

لهذا القانون مميزات عامة :

١ ـ كونه ملازما لوجود الأشياء سابقا كل قانون سواه بحيث لا تكون القوانين التالية له إلا تقليدا ومحاكاة

٢ ـ أنه آت مباشرة من قبل الله جل شأنه فى حين أن غيره من القوانين وضعها البشر وهم عرضة للخطأ .

٣ ـ أنه عام ومتحد فى كل زمان ومكان بعكس غيره من الشرائع؛ فقد تكون موضعية على حسب أحوال الأمم .

٤ ـ أن تلك السنن متماثلة غير متغيرة بخلاف غيرها ؛ فقد يكون الخير فى بعضها مثلا شرا فى بعض آخر ، وقد يقر بعضها منها فى وقت ما يعاقب عليه فى وقت آخر .

٥ ـ كون السنن واضحة جلية لأنها تشمل حوادث وظواهر هى على الدوام واقعة تحت حواسنا ، أما غيرها فقد يشكل علينا فهمها لكونها تبنى على حوادث ماضية وأمور مشكوك فيها

٦ كونها معقولة دائما ، ومبدؤها وتعاليمها موافقة للعقل وأفهام البشر على اختلاف الزمان والمكان .

٧ ـ شأنها العدل ، فلا يفر آثم من جزاء ما اجترح ، والناس أمامها سواء لا فرق بين رفيع ووضيع ، وقوى وضعيف ،

٨ ـ قيامها على الخير المحض بالنسبة إلى جميع الناس : تعلم الجميع وترشدهم إلى الطرق المؤدية إلى سعادتهم بعكس الكثير من غيرها ، فقد لا يهدى

إلا إلى طقوس ورسوم بعيدة عن الفطرة

٩ ـ كونها كفيلة بإسعاد البشر؛ لأنها جامعة لصفوة الشرائع التى تختلف أحيانا تمشيا مع المصلحة . أما تلك السنن فثابتة لا تتغير

وعلى الرغم من أن الغريزة وحدها لا تكفى للإحاطة بهذا القانون؛ لأنها تضل بالعواطف والإحساس ـ فهو منقوش على صفحات قلوب البشر بيد القدرة بدليل تشابه الناس فى شعورهم به والانسياق فى سبيله إذا ما تعلموا وتهذبوا . ولما كان هذا القانون مبنيا على ظواهر واقعة وحوادث متجددة أمام الحس والعقل فهو إذن ليس علما تجريديا خياليا ، وإنما هو علم صحيح جلى ، والناس فى احتياج إلى التمرين والتعليم بالنسبة إليه حتى لا يضلهم خطأ الحواس أو ما اخترعوا من التقاليد والعادات .

ارتباط الانسان بهذه المبادئ

ارتباط الإنسان بذلك القانون يرجع إلى مبدأ حفظ الذات ، ولقد يبدو غريبا أننا لم نجعل السعادة أصل هذه المبادئ المتعلقة بنا مع أنها مشتهاة من كل الناس، ولكن هذه الغرابة تزول متى أدركنا أن السعادة كما يفهمها الناس أمر عرضى.

ولقد زودت العناية الإلهية عقل الإنسان بعاطفتين قويتين يعينان على حفظ الذات : وهما الإحساس بالألم والإحساس باللذة :

فالشعور الأول يبعد الإنسان عن مواطن هلاكه ومبعث ضرره ، ويغريه بالحذر الذى يكون سببا فى دفع كثير من الشر عنه ، والشعور الآخر يجذب الإنسان إلى ما فيه حفظ ذاته وتقوية حياته .

وليست اللذة كما يقول بعض الفلاسفة المحور الأصلى لحياتنا ، بل هى تشويق قوى للإغراء الذى أودع النفس حرصا على البقاء كما أن الألم يساعد اللذة على حفظ النوع، ويؤيد هذا الأمر ظاهرتان قويتان :

الأولى : أن اللذة متى زادت على حاجة الجسم لحفظ ذاته قادت إلى التلف ؛

كالذى يستغرق فى الأكل متلذذا حتى يموت

والأخرى : أن الإنسان قد يضطر إلى بتر عضو من أعضاء جسمه لمرض السرطان مثلا فى سبيل سلامة باقى الأعضاء : أى لحفظ الحياة . ولو كانت اللذة هى محور الحياة ما تسبب عن الإفراط فيها ضرر يودى بالحياة .

والذى يخدع إحساسنا فى هذا الأمر الجهل والشهوة : كذلك الرجل الذى يمس الحديد الملتهب جهلا بخواصه ، أو يتعاطى الأفيون حين تعميه الشهوة عما فيه من سم زعاف ، وهكذا يتضح لنا أن الجهل والشهوات غير المحمودة ينافيان مبدأ حفظ الذات ، فيجب إذن تثقيف العقل وتهذيب النفس حتى نحمى ذاتنا من شر الجهل والشهوة الذميمة .

أجل إننا نولد جهلاء ، ولكن هذا الجهل الذى نولد به يشبه الطفولة أى عهد الضعف الذى نخلعه من رقابنا شيئا فشيئا حتى نواجه النور والهدى ، فالتعلم والتثقف ضروريان للإنسان حتى يهتدى إلى وسائل حفظ ذاته ، وإلا فهو إذا جهل مثلا فعل النار أحرقته ، أوضرر الماء أغرقه ، أو تأثير المخدرات فتكت به ، أو معرفة الفصول وعلاقتها بالزرع هلك جوعا

ولما كان كل منا يولد جاهلا فهو فى حاجة إلى من يعلمه ، وبمعنى آخر ، فهو فى حاجة إلى الاجتماع . ومن هنا نفهم معنى القول المأثور : « الإنسان مدنى بالطبع » فهو قانون طبعى يلجأ إليه الإنسان بالزواج ، وبتبادل الشعور والعواطف مع أخيه الإنسان ، وبالحاجة إلى التماس المعاش بالتعاون، فالاجتماع إذن وسيلة لحفظ الذات ، كما أن حب الذات وسيلة لحفظها ، وبه استطاع الإنسان أن ينتقل من حالة البداوة حيث كان مسلوب الحرية أسير ما يحيط به من الكائنات : كان لا يتناول طعامه إلا بالتعب والنصب ، ولا يهدأ له بال للمخاوف والمخاطر المحدقة به ، فدفعه حب الذات إلى السعى كى يتمتع بحياته الهانئة الحرة .

ولعل قائلا يقول :

أليس حفظ الذات ما يحدث فى النفس الأثرة ؟ وهذا ينافى ما يقتضيه الاجتماع من تعاون وتضافر وإنكار الذات . . .

وجوابنا عن ذلك أننا لا نقصد بحب الذات الشره ، والحسد ، والتماس مصلحة الفرد ولو على أنقاض سعادة غيره ، وإنما نعنى بها الحرص على إمتاع النفس بالطرق المحمودة ، وهذا لا يخالف مصلحة المجتمع ؛ لأن سعادة الأفراد تؤدى إلى سعادة المجموع ، وحب الذات يجعل المرء لا يعبث بمصالح غيره مخافة أن يعبث غيره بمصالحه .

فحفظ الذات واستغلال قوى الإنسان ومواهبه فى سبيل هذه الغاية هما القانون الطبعى الصحيح لصلاح حال الإنسان ، وعلى هذا المبدأ السهل الغزير الفوائد يستند كل ما يلازم عقول البشر من فكرة الخير والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والحقيقة والوهم ، والمباح والممنوع إلى أشباه ذلك مما يؤسس عليه الأدب الإنسانى للفرد والجماعات

الأدب

تمهيد

يشارك الإنسان كثير من الحيوان العالى فى الإدراك كما يتبين لمن يدرسون سلائق الحيوان وطبائعه ، فإذا رأى القرد الصغير الثعبان مثلا فزع منه ، وإذا أبصرت الشاة الصغيرة الذئب اضطربت وهربت ، فهذا الإدراك أو الشعور الغرزى مركب فى الحيوان والإنسان ، وينفرد الإنسان بالعقل ونواحيه : وقد أشبعنا القول فيه قبلا ، وعرفنا أنه إذا أدرك المرء بالعقل عاقبة الأمور وطريقة الصلاح فيها انبعث عن ذاته شوق ورغبة وعزيمة بالميل الغرزى المودع إياه

وإذا تقرر هذا عرفت مقدار أهمية أدب النفس وإشعار الوجدان منذ الصغر مبادئ الأشياء على حقيقتها ، وحقائق الأمور على أفضلها ، وانكشف لك المعنى السامى فى قوله تعالى : « وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا » ؛ إذ دل على ما أودع البارى النفس البشرية من القوى ، وركب فيها من الشهوات ،

وفى قوله تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » لما فيه من الإشعار بضرورة القيام بأدب النفس وتهذيبها؛ حتى لا تخيب ولا يشقى المرء بها ، ولتمام الرحمة بعث الله تعالى الرسل الكرام مبشرين ومنذرين : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ »

وأدب النفس ينقسم قسمين : قسما يتعلق بالجوارح ومنافعها ، وقسما يختص بما يكمن فى السرائر والضمائر ، وتظهر مع ذلك آثاره بالجوارح وفى أعمالها « وكل إناء بالذى فيه ينضح » ، وهذا القسم أهم من الأول ، بل هو الأصل فى الباب ، وإنه للغرس الذى يثمر كل الثمار : إما فاكهة وأبا ، وإما حنظلا وشوك قتاد . فإذا صلحت تلك المضغة من النفس أو القلب صلحت كل أعمال جوارحنا وإن قلت ، وإن فسدت منا القلوب والنفوس فهذا لعمرى ما يفسد معه كل شأن للإنسان ، ومهما يتعلم ويسمُ ، ومهما ترتفع منزلته فإنه ليكون الساقط فى مهواة من الضعف والشر تظهر عليه آثاره فى الدنيا وإنه ليترصده عليه فى الآخرة العذاب الشديد؛ ولهذا قال عمر بن الخطاب : « تأدبوا ثم تعلموا » .

وهذا القسم من أدب النفس العظيم الخطر ينقسم قسمين : قسما يتعلق بشأن الخلق بينهم لتصلح به كل أحوالهم ، وقسما يجب أن يتحلى به المرء مع الخالق تعالى مصدر جميع الخيرات ومفيض كل النعم .

أدب النفس مع الخلق

لقد صحب الإنسانَ (لكمال خلقه الحيوانى) ثلاثُ قوى : الميل ، والغضب والأثرة . وامتاز عن باقى جنس الحيوان بالعقل كما سلف

والعقل سلطان حاكم ، وباقى القوى مسخرة له فمن غلبت على عقله شقوة ميوله البهمية فقد التحق بأفق البهائم الموصوفة بالشراهة : (أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » . ومن غلب

غضبه عقله فقد صار إلى مرتبة السباع الكاسرة والحيوان المفترس، ومن استولت عليه الأثرة وسلك في سبيلها طرق المكر والخداع والغش فقد صار من زمرة المردة من الشياطين، ومن ساد عقله الرشيد - كما هو المراد من الإنسان - كل قواه الأخرى، فجرى في تسخيرها بالاعتدال والحكمة - فاز بكمال الإنسانية واتصف بأسنى صفاتها، وصار من ثم أحرى بأن ينتظم في سلك البررة المقربين

ولما كان هذا العقل الرشيد هو السلطان الحاكم المدبر لجميع الأفعال الإنسانية بالحكمة والسداد كان مستعداً تمام الاستعداد لأن يؤتى الحكمة وتنطبع فيه على أكمل صورة صور المعارف؛ ووهب لهذا قوة التمييز والتفريق بينها، وهي التي تبنى الأحكام، وتحصل النتائج متسلسلة، والأفكار متناسبة آخذاً بعضها برقاب بعض، أو مختلفة بحكم اختلاف العلل والأسباب؛ ولهذا كره الوقوف عند التقليد الأعمى دون إطلاق العقل وتسريح الفهم لارتياد الحقائق واقتناص الشوارد؛ لأن هذا يوجب الجمود، بل التقهقر لرسوخ الأمور التقليدية، وتشربها العقول، فلا تقدر على الخلاص من ربقة الأسر والضيق، ولا تتوق ولا تنشط إلى الأخذ بما هو من مزايا اللب وفضائل هذا العقل البشري

لقد يُكسب هذا العقل الإنساني بموجب الأدب الإسلامي حقائق المعارف النفسانية التي ينتفع المرء بها في نفسه وجوارحه - الأخذ بما جاء به الكتاب والسنة، وتفهم ما فيها من حكم وأسرار وآداب، وهذا يقتضي دراسة مبادئ العلوم العقلية، كما يقتضي الاستعانة بالمعارف الإلهية، ولا يدعو إلى اطراح العقل اقتفاء بالتقليد إلا جاهل، ولا يكتفي بالعقل وحده دون الاستضاءة بالكتاب والسنة إلا مغرور، لهذا كانت أمراض النفوس لا سبيل إلى معالجتها على أحسن حال وأفضلها إلا بالأحكام المستفادة من الشريعة وآدابها المستنبطة منها بالبصائر النيرة في أمور الاعتقادات والعبادات والأعمال؛ لتنتظم أحوال النفوس وتصلح وتتصف بالخير وتحيط بالأشياء على حقائقها. ولا ريب أن سيادة العقل مناط الاعتدال في النفس والتناسب بين قواها .

وإذا كان الجمال الظاهرى للصورة الآدمية يقتضى تناسب أعضائها واعتدالها فالجمال الباطنى كذلك يقتضى التناسب بين قواه حتى يتم للمرء حسن الخلق ، وهذا ليس بالذى ينال على أحسنه إلا بالتربية والترويض على محاسن الأخلاق وكريم الشيم لتطيع سائر القوى سلطان العقل ، فتحسن الإرادات وتسمو الرغائب ، وأفضل مايكون من هذه التربية مايقع منها فى الصغر زمن الحداثة ولدانة العود ؛ لأن نفس الصبى أسرع قبولا وأسلس قيادة : فإن عود الخير بالأفعال والأسوة الحسنة فى الأسرة والمجتمع ولقن منه بقدر سعد فى الدنيا والآخرة ، وإن اعتاد الرذائل والشرور وأهمل تقويم نفسه شقى وتورط فى حمأة الموبقات ، وحمل معه وزره أبواه ومجتمعه

ولا ريب أن الرذائل النفسية سيئة المغبة جالبة لكل محنة وبلية : من فساد العقول ، وانتشار الفساد فى الأرض ، ونضوب معين الأرزاق، وتخاذل القوى ، وانحلال روابط الأمة ، فينمحى كيانها ، ويستعبدها غيرها ، وتصير إلى الفناء

أما الفضائل النفسية فهى منبع السعادة العاجلة والآجلة وأمهاتها أربع : الحكمة، والشجاعة ، والعفة، والعدالة . وهى مفصلة فى أماكنها من هذا الكتاب

وينبغى للمرء أن يجد ويجتهد ليحصل الفضائل الرئيسة ، ويتحلى بالخلال الشريفة ، وأن يتجنب الرذائل الشائنة الحسية والمعنوية لأن ذلك سبيل الفلاح فى الأحوال والأعمال ، وذلك لاينال بالراحة فى هذه الدار بل بالتعب والنصب فى مجاهدة النفس على الدوام لتحصيل الفضائل والكمال الإنسانى الذى تقف الشرور والرذائل معوقات فى سبيله مقوضات لأركانه ، فهى كتلكم الحشائش التى تلتف حول أصول الأشجار والنبات الطيب ، فتقف نموها وتمتص غذاءها ، ولهذا وجب على كل امرئ معاهدة نفسه التى بين جنبيه على استعمال أحسن مافيها واستئصال ما قد ينبت إلى جنب ذلك من حشائش الرذائل وخاصة مايوسوس به أنه من ضروب السعادة ، وليس هو عند التمحيص منها فى شىء .

أدب النفس مع المجتمع

أدب النفس مع الخلق يستدعي الاتصاف بكثير من الفضائل كالحلم والكرم والإيثار وغيرها مما يمكن رده إلى أصلين عامين : عقل موفور يهدى إلى مراشد الأمور ، ودين يقف بصاحبه إلى الخيرات ويخرجه من الظلمات إلى النور. والقرآن الكريم حافل بهذه الآداب وهاك شيئا منها :

قال الله تعالى فى بيان غض البصر وعدم التبرج بالزينات وترك فعل أى شيء من دواعى إثارة الفتنة :

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ . وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)

وقال تبارك اسمه يعلمنا من الآداب أحسنها ومن الأخلاق أجملها وأكملها من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر وعدم الإعراض عن الناس احتقارا لهم واستكبارا عليهم واستعمال الحد الوسط فى المشى وعدم المشى فى الأرض على سبيل العجب والكبر وعدم رفع الصوت عند التكلم حاكيا ذلك عن لقمان عليه السلام يوصى ابنه :

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ

عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ وَلاَ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ. وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ)

وقال تعالى فى بيان ما أرشد إليه من الأخلاق الفاضلة والصفات الكاملة من تحاشى السخرية بالناس واجتناب اللمز والتنابز بالألقاب وسوء الظن بالناس والتجسس والغيبة:

(يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلاَ نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلاَ تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلاَ تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ. يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)

وقال جلت حكمته فى النهى عن السب والشتم وبذاءة اللسان والجهر بالسوء من القول: (لاَ يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللهُ سَمِيعًا عَلِيمًا)

ومما حث عليه القرآن مقابلة الإساءة بالإحسان والذنب بالغفران والغضب بالحلم والغيظ بالكظم مع بيان الثمرة المرتبة على ذلك وفضل من اتصف بهذه الخصلة الحميدة فقال: (وَلاَ تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ. وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ)

وقال جل شأنه يعلمنا حسن المعاملة بعضنا مع بعض، ويرشدنا إلى أهم أسباب المودة والمحبة من التحية والسلام وحسن الرد: (وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً)

وقال جلت حكمته يعلم نبيه صلى الله عليه وآله وسلم محاسن الآداب ومكارم الأخلاق وحسن المعاملة، ليكون لبني البشر إماما يأتمون به، وينسجون على منواله: (وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ . فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ)

وقال تبارك وتعالى يعلم نبيه صلى الله عليه وسلم لطف معاملة اليتامى الأذلاء والفقراء الضعفاء، ولنا فيه صلى الله عليه وآله وسلم الأسوة الحسنة والقدوة المستحسنة: (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ)

وقال جل ذكره يحث على حسن المعاملة مع الناس بالعفو عن مذنبهم والصفح عن تائبهم: (وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

ومن ضروب الأدب مع المجتمع أدب الزيارة وهو احترام البيوت وعدم دخولها إلا بإذن من أهلها، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: (يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَداً فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ . لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ)

ومنها : الأدب في المجالسة :

وهو أن يوسع لجليسه إذا أقبل عليه ، ولا يضيق عليه وأن يجلس معه بالأدب والسكينة والوقار إذا كان أكبر منه سنا أو علما لاسيما إذا كان أباه أو أستاذه وأن يرحب به ويقبل عليه إذا حدثه وألا يمد رجليه بين يدى جليسه ، وإذا تثاءب فعليه ألا يصحب التثاؤب بصوت ، وعليه أن يضع يده على فمه ؛ فإن مخالفة ذلك مما يستقذره الناس ، وإلى أكمل هذه الآداب وأجملها وأحسن هذه الأخلاق وأفضلها أشار الله تعالى بقوله : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

ومنها : الأدب في المحادثة :

فاللسان خطره عظيم ولا نجاة من خطره إلا بتقييده بلجام العقل ووقوف صاحبه عند الحدود والآداب التى أدبه بها الشرع وعلمه إياها فى محادثاته ومخاطباته ، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه فى الدنيا والآخرة ، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته فى عاجله وآجله ، وذلك بأن يعقله إلا عن حق يوضحه ، أو باطل يدحضه ، أو حكمة ينشرها أو نعمة يذكرها ، وألا يتكلم إلا بقدر الحاجة والضرورة ، وألا يغالب أحداً على كلامه ، وإذا سئل غيره فلا يجيب هو عنه إلا لضرورة تقتضيها الحكمة ولا ينبو عنها الأدب ، وإذا حدثه غيره بحديث فلا يريه أنه علم به ، وأن يكلم كل إنسان بما يليق به وألا يتكلم إلا إذا دعا داع إلى الكلام ، فإن ما لا داعى له هذيان ؛ وأن يجتنب فى محادثته ثلاثة أشياء هى أعظم الأشياء خطرا على الإنسان وأبغضها لله وأقبحها عند الناس ، وهى الكذب والغيبة والنميمة ، وألا يتكلم إلا فيما

يعنيه وأن يتباعد فى حديثه عن كل ما يكدر مخاطبه ، وألا يرفع صوته فى التكلم بفوق صوت من هو أكبر منه ، فذلك كله مما ندب إليه الشرع وارتضاه الطبع السليم .

وقد أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى بيان هذه الآداب وبينها على أحسن وجه وأكمل حال : فمن ذلك ما أمر به جل شأنه من الملاطفة فى القول والمجاملة فى الحديث ومجانبة الخشونة فيه لما يترتب على ذلك من إيغار الصدور وتولد الأحقاد وبذر بذور العداوة والبغضاء ، وذلك فى قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله وسلم : (وَقُلْ لِعِبَادِى يَقُولُوا الَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا)

ومن ذلك قوله جل شأنه فى الحث على خفض الصوت عند المحادثة ؛ لأن فى رفعه تهويشا على المستمع وأذًى له : (وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) وقال تبارك اسمه فى النهى عن الغيبة : (وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)

ومن ذلك أيضا قوله تعالى فى النهى عن النميمة ونقل الحديث من قوم إلى آخرين على وجه السعاية والإفساد فيما بينهم : (وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ . مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ)

ومنها : بر الوالدين :

قال جل شأنه فى الحث على بر الوالدين بالإنفاق عليهما وبيان أن أفضل الصدقات وأعظم القربات التى يتقرب بها العبد إلى ربه هى ما كانت للوالدين ثم لمن يلونهما ممن ذكرهم الله تعالى : (يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

ومنها : الدعوة إلى التكافل العام لجميع المسلمين : وهو أن يكون جميع المسلمين كجسم واحد وكل فرد منهم كعضو من أعضاء ذلك الجسم : يألم الكل لألم الفرد الواحد ، ويفرح الكل لفرحه ، ويسعى الفرد الواحد فى مصلحة الكل وما يعود عليهم بالخير والسعادة ، كما يسعى الكل فى مصلحة الفرد ، وهذا الذى أشار له الله تعالى بقوله : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ) ؛ فإن معنى الأخوة لا يتحقق فيهم إلا إذا كانوا متكافلين متواثقين . وذكره النبى صلى الله عليه وآله وسلم بقوله : (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِى تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَوَاصُلِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ مِنْهُ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى وَالسَّهَرِ)

وجلى أن الحديث يدعو إلى أن الفرد الواحد لا يمكنه أن يستقل بجميع حاجاته وما آربه فهو مضطر بحكم الضرورة إلى الاجتماع والمبادلة ، ولا يتحقق معنى الاجتماع إلا بهذا التكافل ؛ إذ لو استقل كل فرد بمنفعته الذاتية ورأى أن منفعته ليست منفعة لغيره وأن منفعة غيره ليست منفعة له جر ذلك إلى قطع المبادلات ونبذ المعاملات التى لا قوام للحياة إلا بها .

أدرك ذلك الرسول الحكيم والسيد العليم سيد الوجود صلى الله عليه وسلم ، فكان أول عمل له بعد مهاجرته إلى المدينة أن آخى بين الأنصار والمهاجرين ، فكان الأنصارى يشرك المهاجرى فى ماله وكل شىء هوله ، فكان من نتائج ذلك الحسنة أن علت كلمة الدين ، وكملت سعادة المسلمين ، وفتحوا الفتوح ، ومصروا الأمصار ، ودوخوا الممالك ، وتفيئوا ظلال العمران ، وأتوا من جلائل الأعمال بما يبهر العقول ويحير الألباب ، وكان مما شرع الله لعباده المؤمنين فروض حتم على البعض أن يفعلها مباشرة وعلى الباقين أن يهيمنوا على فعلها حتى إذا لم يقم بأدائها قاموا دونه وألزموه الأداء ، وإذا أهملوا ذلك وتركوا النظر فيه أثموا جميعا (وهذا الذى يسمى بلسان الشرع فرض كفاية) ، ولا معنى لهذا إلا أن الكل مخاطب فيما يتعلق بالمصالح الاجتماعية بما يخاطب به الفرد ، والفرد مخاطب بما يخاطب به الكل ؛ ولولا ذلك ما أثم الكل عند ترك البعض له .

الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم من تجب من بين الخلق حرمته وتبجيله وتوقيره؛ لأنه صلى الله عليه وسلم هو السبب فى هداية الخلق وإرشادهم إلى سعادتهم الدنيوية والأخروية، وإخراجهم من ظلمة الكفر والشقاوة إلى نور الإيمان والسعادة مع مقاساته المشقات والمتاعب فى ذلك، وليس من العدل والمروءة أن يجازى صلى الله عليه وسلم على ذلك بغير كمال التبجيل وتمام الاحترام والتعظيم والأدب معه بكل وسائله سواء أكان بالفعل أم بالقول .

ولما كان علو مقامه صلى الله عليه وسلم بالمكانة التى قلما يمكن أحدا أن يعرف ما يجب لها من الآداب بنفسه — سن الله سبحانه وتعالى لعباده المؤمنين من الآداب ما به يعرفون كيف يعاملونه صلى الله عليه وسلم ويتأدبون معه، ويتنوع هذا الأدب إلى نوعين :

(١) ما أفاده الله تعالى بقوله :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ)

وقال تبارك اسمه فى تعليم عباده المؤمنين كيف يتأدبون مع رسوله صلى الله عليه وسلم لا سيما إذا وجدوا معه فى المجتمعات العامة : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

(٢) متابعته صلى الله عليه وسلم فى كل ما جاء به عن ربه والنزول عند حكمه

والرضا بقضائه : ومن ذلك قول الله تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا)

وقال تعالى فى الإرشاد إلى وجوب متابعته صلى الله عليه وآله وسلم فى كل ما أمر به أو نهى عنه وأن من خالف ذلك فله العذاب الأليم والعقاب الشديد : (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

أدب النفس مع الخالق

لما كان الله سبحانه وتعالى خالقنا ورازقنا ومعيننا ومثيبنا ومجازينا على أعمالنا وأفعالنا جزاء كريما ــ السيئة بمثلها والحسنة بعشر أمثالها كما هو صريح القرآن الكريم والسنة ــ ومنفردا فى علاه وموصوفا بالكمال المطلق وإتقان الصنع وإبداع التدبير لخلقه بما لا يمكن أن يقف على كنهه عقل مخلوق ، وله فى خلقه التصاريف بما شاء وكيف شاء ، لا يحيط بحكمته أحد ، ولا يقدر أن يحصى نعمه المتواصلة إنسان ــ لما كان الأمر كذلك ــ وجب إشعار النفوس الأدب بحقه بالإخلاص له والحب والتقوى والخوف منه تعالى الفعال بالحق لما يريد وهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين سبحانه جل شأنه .

ولا غرو ؛ فاستصحاب هذا الأدب فى النفس البشرية وإملاء القلوب من عظمته تعالى خشية ورهبة هو عين العبادة الحقة والإيمان الكامل ، وكل الآيات والأحاديث ناطقة بذلك دالة على أن عمل الجوارح لا يتم به إيمان إلا إذا صحبه يقين وإخلاص ينبعث عنهما عمل صالح .

وجماع الأدب مع الله جل وعلا التقوى وهى التحرز بطاعة الله عن عقوبته واتقاء السيئات والشبهات وترك الفضول مع القيام بمهام العبادات وحسن المعاملات والحرص على صدق النية وكمال الإخلاص : قال عمر بن عبد العزيز رحمه الله :

(ليس التقى صيام النهار وقيام الليل والتخليط فيما بين ذلك، ولكن التقوى ترك ماحرم الله وأداء ما افترض الله ، فمارزق الله بعد ذلك فهو خير إلى خير) وقال بعض حكماء السلف الصالح : (من كان رأس ماله التقوى كلت الألسن عن وصف ربحه)

ومبدأ الإخلاص صدق النية لأنها روح الأعمال وميزانها : قال صلى الله عليه وسلم : (إنَّما الأعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى) وقال بعض السلف الصالح : (رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية) على أن النية الصالحة هي في نفسها خير وإن تعذر العمل فإن ثوابها عند الله باق لاحق بصاحبها كما دلت عليه الآثار ، وهي عماد الابتعاد عن الرذائل وعتاد تجنب المساوى والشرور .

والإخلاص هو الإتيان بالأعمال خالصة لا يشوبها أقل رياء قياما بواجب حقها سواء في ذلك العبادات والمعاملات ، وهو الثمر لجميع المحامد : قال صلى الله عليه وسلم : (مَامِنْ عَبْدٍ يُخْلِصُ الْعَمَلَ لِلهِ أرْبَعِينَ يَوْمًا إلاَّ ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الحِكْمَةِ مِنْ قلبِهِ عَلَى لِسَانِهِ) وقال عليه الصلاة والسلام: (أَخْلِصْ يُجْزِكَ القَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ)

وأساس النية الصالحة المحبة لأن من أحب أخلص الطاعة وصدقت نيته في العمل بما يرضى المحبوب ، وأصل الأعمال الدينية حب الله وحب رسوله الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وهى منصوص عنها فى الكتاب العزيز وفى السنة : قال تعالى : (يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ) وقال صلى الله عليه وسلم : (لاَ يُؤْمِنُ أحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أحَبَّ إلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا) .

ولقد أطال الإمام حجة الإسلام الغزالى فى تحقيق معنى الحب لله متدرجا فى البرهنة عليه على حسب طريقته الفلسفية الدينية بأن الحب بعد أن ينتج عن

التصور والإدراك يرجع إلى خمسة أسباب : ـ ١ ـ حب المرء لنفسه ـ ٢ ـ حب من يحسن إليه ـ ٣ ـ حب من يستحق المحبة لجماله ـ ٤ ـ حب من يستحق المحبة لكماله ـ ٥ ـ الحب للمناسبة الخفية بين المحب والمحبوب .

ثم برهن على أنه لانحصار كل صفات الكمال والجمال والإحسان والارتباط بين الخالق والمخلوق فى ذاته وصفاته تعالى الظاهرة والباطنة كان لهذا لا يستحق المحبة الحقيقية إلا الله جل شأنه ، فالمرء إذا أحب الله تعالى حبا خالصا عاملا بأمره منتهيا بنهيه أحبه الله وجزاه على ذلك فضلا كبيرا : وفى الحديث القدسى : (مَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ شِبْراً تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَىَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا . . .)

ومن عناصر التقوى الرجاء والخوف والمراقبة والمحاسبة والشكر والتوكل والتفكر وهى كلها صفات آخذ بعضها برقاب بعض تدل جملة وتفصيلا على رقى فى الشعور الدينى وكمال فى الإيمان وحسن أدب مع الخالق تعالى .

والرجاء الحق ماقارنه عمل وإلا فهو أُمنية : قال معروف الكرخى رضى الله عنه : (طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب ، وارتجاء الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجاء رحمة من لا يطاع جهل وحمق)

والخوف أن يتقى المرء كل مايوجب السخط وغضب الرب تعالى .

والمحاسبة والمراقبة تقصى الأحوال التى يُجريها المرء أو تتصف بها نفسه والتدقيق فى مراقبتها ومجاهدتها فى كل حركاتها وسكناتها ونزعاتها حتى تثوب إلى السداد والرشاد .

والشكر حمد الله والثناء عليه بما هو أهله وتقديسه وطاعته لما أسبغه على خلقه من نعم ظاهرة وباطنة .

والتوكل على الله قيام الناس بتدبير مصالحهم مع ثقتهم بمعونة الله هم فى كل أُمورهم .

والتفكر الاستبصار فى عظمة الملك والملكوت ؛ لأن الإسلام الدين الذى يستند

على العلم ، والعلم يقتضى انطلاق العقل بالتفكر والتدبر فى كل الأحوال : قال تعالى مرشدا إلى التفكر : (إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) وقال حاتم : (من العبرة يزيد العلم ، ومن الذكر تزيد المحبة ، ومن التفكر يزيد الخوف) وقال ابن عباس : (التفكر فى الخير يدعو إلى العمل به ، والندم على الشر يدعو إلى تركه) .

العظمة الأدبية

يتعاق النبل فى العمل بقوة المرء الأدبية والخلقية ، فالعظمة الأدبية محلها عمل العقل ، وهناك شرفها العظيم . لهذا كان الحاكم السياسى الذى يدير شئون الدولة ليس أقل نفعاً من ذلك القائد الذى يهاجم الأعداء ويصليهم ناراً حامية . وحين تهدأ الحرب يصلح الحكام الصالحون ماسببته من فساد وخسائر ، وقد ينالون بالرفق ما لا ينال بالعنف . والشجاع الحكيم هو الذى لا يصم أذنيه عن نداء العقل فى أحرج المواقف ، وثورة الغضب والحرب ، وتقدير الفرص واستغلالها ، أما الاندفاع إلى الحرب فى تهور وطيش يسميهما الجاهلون حماسة وشجاعة فهذا نوع من التوحش .

والنفس الكبيرة تتعفف عن أخذ البرىء بذنب الآثم ، وتأبى فى حالة الحرب أن تهاجم الجمهور حين الانتصار ، أو تفتك بأفراد الشعب المسكين .

من العار أن يتردد الجندى فى الذهاب إلى ميدان القتال حين تشتعل الحرب ، ولكن يجب عليه أن يضبط شهوته فى سفك دماء إخوانه فى الإنسانية ، وأن يتقى التهور ، ومسئولية الحرب يجب أن يتحملها الرؤساء ، وإنها لجريمة عظمى أن يدفعوا بالشعب الوادع إلى أهوال الحرب لمصلحة شخصية ، أو شهوة فى نفوسهم ،

أو انتقام لا صلة لعامة الشعب به . يجب ألا يخوض الشعب حربا إلا لمصلحة الشعب ، وللمجد القومى والشرف العام .

من واجب الحاكم أن يذكر دائما قول الحكيم أفلاطون : « على الحاكم أن ينظر قبل كل شىء إلى المصلحة العامة ، وأن يبذل فى خدمتها كل قواه إلى الدرجة التى ينسى فيها نفسه ، وأن تشمل عنايته كل أعضاء المجتمع على السواء ، فيكون موقفه من أفراد الشعب كموقف الوصى من القاصرين ، فكل عمل له يجب أن يشمل مصلحة الجميع »

وعلى ذلك يكون اهتمام الحاكم مثلا بفريق من الأهلين دون فريق ، أو الانتصار لحزب من الأمة على حزب آخر — ينفث فى الأمة سموم الشقاق والفتن ، ويوقظ الحروب الأهلية ، والحاكم العادل الحازم خليق بألا يكون سببا لحرب أهلية ، أو فتن قومية ، وبأن يجعل المصلحة العامة نصب عينيه دون محاباة أو تحيز ، وفى عدل وشرف ونزاهة .

وليس هناك ما هو أحقر من الطمع فى نفوس رجال الدولة ، ولا أضر من تنازعهم السلطة والتهالك على المناصب ، وخاصة من طريق الدس والوشاية والائتمار ، فالأمم لا تحتفظ بقوميتها وحقوقها إلا بالتعاطف والتراحم ، ونبذ الشقاق ، وضبط النفوس عند الغضب ، فليكن غضبنا ورضانا بحزم وأناة ورزانة على أن يكون القصاص والعقاب للمصلحة العامة لا للانتقام الشخصى والحزازات الكامنة فى الصدور ، ولنحرص دائما على ألا تتجاوز العقوبة الذنب ، وألا يكون العقاب بمكيالين ، وفى حال الغضب أو الانفعالات النفسية ، وإلا تدهورت الأمة إلى حضيض التعس والظلم .

يشهد التاريخ أن الحلم كان سببا فى النهوض بكثير من الرجال ، ورفعهم إلى درجات القيادة والرئاسة فى الأمم : فبالحلم استطاع سقراط أن ينفرد بالمركز الممتاز فى الحركة الفكرية فى بلاده ، وبه ارتقى معاوية بن أبى سفيان مركز الخلافة فى الإسلام ، وكثيرا ما كان القائد (نسبيون) الإفريقى يقول : « كما أن

الجياد يجب أن تروض حتى تَسْلس طباعها بوساطة مهرة السواس كذلك ينبغى أن تروض نفوس أهل الشراسة ؛ لترد عنها غوايتها ، كما يرد جماح الخيل باللجم » .

ومن العظمة الأدبية ألا يلجأ إنسان إلى تنمية ثروته عن غير طريق مشروع ، فالخير كل الخير فى النشاط والنزاهة والاجتهاد وحسن التدبير .

الاستقامة والاعتدال

إنك ترى بعض الطلبة يميل كل الميل إلى الاستذكار وينسى حظ نفسه من الراحة وحاجة بدنه إلى الاستراحة ، فتضمحل صحته ثم لا يلبث أن ينقطع عن العمل جملة ، ومنهم من يميل كل الميل إلى الرياضة وتقوية الجسم تاركا واجباته المدرسية ، فينقطع عن رفقائه ، ويصبح خلوا من العلم والمعرفة ، ثم تلفظه أبواب المعاهد ، وكلا الطالبين مذموم المسلك .

وهناك طلبة آخرون يكونون وسطا بين هذين ، فلا يتركون الرياضة ولا يهملون الاستذكار ، فتراهم أقوياء الجسم أذكياء العقل مبرزين فى ميدان العلم ، أولئك هم الذين استقامت ميولهم ودبروا أوقاتهم ، واتصفوا بفضيلة الاستقامة والاعتدال .

وترى قوما ينهمكون فى الشهوات فتودى بصحتهم وشرفهم ومالهم وآخرين ينصرفون عما أحله الله لهم ويزهدون فى الدنيا ونعيمها ، فتنقبض صدورهم ، وتخمد نفوسهم .

وبين هؤلاء وهؤلاء طائفة أخرى تستقيم فى ميولها ، فلا تميل كل الميل إلى الشهوات المباحة ، ولا تعرض عنها جملة ، وهؤلاء هم المتصفون بالاستقامة الحائزون لرضا الله والناس .

فمن ذلك ترى أن الاستقامة هى اعتدال ميول النفس فى سائر أحوالها من قول وفعل وانفعالات نفسانية ، وهذا يستتبع حتما سلوك المنهج الأقوم باتباع ما أمر به الدين وترك ما نهى عنه والسعى وراء تكميل النفس بالفضائل وإبعادها عن الرذائل

فلا مبالغة إذا عددنا الاستقامة جماع الفضائل : فليس مستقيما من يكذب أو يغش ، أو يخون أو يسرف فى ماله ، أو يندفع فى غضبه أو يجبن عن حقه ، أو يقصر فى واجبه لله والناس .

لذلك جعلها الله سبيل السعادة وسببا لإدرار الرزق ورغد العيش ، فقال فى كتابه العزيز : (وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا) وقال جل شأنه : (إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ)

ضروب الاعتدال

أولا ـ الاعتدال فى النية والمقصد :

يتوهم الناس أن للاعتدال دلائل ظاهرة تدل على عدم التأنق فى الملبس واختيار المسكن البسيط وما أشبه ذلك ، ولكن هذا الظن فاسد باطل ، وإننا لنربأ بالناقد البصير أن يغر به غنى تحفه الأبهة فى مركبه ومعدم يتعثر بأسماله البالية ، فيبادر إلى تقرير حكمه فى كل من الاثنين مستندا على هذه الظواهر ؛ فقد يكون ذلك الغنى المترفه على بسطة الرزق وسمو المركز الاجتماعى ومظاهر الجاه والثروة معتدلا فى أمره ليس عبدا للمال ولا أسيرا لحب الظهور كما أنه يتأتى أن يكون ذلك الفقير المعدم طموحا لما لا يتفق وفاقته غير ميال للعمل ، يمنى نفسه بالسعة ، وهو عائش فى ظل الخمول والبطالة .

ومن أبعد الناس عن الاعتدال السائل الذى يعتاش من الاستجداء وهو قادر على العمل والكسب فهذا وأمثاله كل على غيرهم وحياتهم عبء على المجتمع ، ولو فحصت نياتهم وأفكارهم لعرفت أن أمانيهم تنحصر فى الظفر من طريق الاستجداء بما يستطاع مما ينعم به الغنى المتمتع .

وليس الاعتـدال صفة تختص بها طبقة من الناس دون سواها، كما أن المظاهر ليست دليلا قاطعا عليه، فهو فى كل طبقات المجتمع الإنسانى ويظهر على صور مختلفة وأشكال متباينة .

والإنسان المعتدل هو الذى ينحصر اهتمامه فى أن يكون إنسانا (بكل معنى الكلمة) فيتكمل بكل صفات الرجولة ليكون رجلا لا أكثر ولا أقل .

ثانيا : الاعتدال فى الفكر :

لأجل أن يوفق الإنسان لترتيب أموره الدنيوية وأحوال معيشته وحياته عليه أن يهتم أولا بفكره فيطهره من كل الأدران التى تشوبه وتضلله، لأن الفكر السخيف منشأ الاختلال والفوضى .

ولما كانت طريق الحيـاة وعرة كثيرة العقبات والمزالق وجب أن يكون الفكر صحيحا سليما؛ ليتيسر له تمييز الغى من الرشد ، واطراح كل رأى سقيم ومعتقد باطل لا يظهر الإنسان بمظهر الرجولة الصحيحة ، ولا ينشط به إلى طريق الكمال والرقى .

ومن أشد الأخطار على الإنسان أن يكون فكره لعبة فى يد غيره ، فيفقد مزايا التمييز والإدراك

ومن المضار المتفشية جنون الإنسان بمعرفة قدر نفسه ومنزلته بالنسبة للآخرين. وليس الضرر فى فحص الضمير والقلب للتحقق من وجود الميول الصالحة والمبادئ الشريفة لأن هذا الفحص يساعد على التقويم والتكمل ، وإنما الضرر فى الاغترار بالنفس وحب الظهور والتفضل . وحسب الإنسان أن يكون على شىء من التعقل ليعلم أنه خلق للعمل الصالح لا لقتل الوقت فى تأمل ذاته فى المرآة ، ولكن التعقل أصبح نادرا بين الأفراد كسائر الصفات الحميدة ، بل أصبح من العادات المنبوذة والصفات الخلقة التى يستعيض عنها عشاق المدنية بسواها فيضلون سواء السبيل

وليس التعقل من الصفات الغريزية فى جميع الناس ، ولكنه من الصفات التى تكتسب بعد عناء طويل وكد متواصل . والعاقل من يستهين المتاعب ويستقصر

الزمن الذى يلزم للتكمل بهذه الصفة الحميدة فيكون بصيرا بالأمور والعواقب حكيما سديد الرأى .

إن مجرد الوجود لا يستدعى التعقل ولا يرتبط بالعلم والجهل ؛ إذ هو وجود حيوانى لا مزية له إلا بعد التهذيب والتثقيف وقد خلق الانسان قبل أن يفكر ، وفكر بعد أن خلق ، فكان وحشا قبل رقى مداركه ، وصار إنسانا بالمعنى الصحيح بعد أن تحلى بحلية العقل المهذب والتميز عن معرفة ؛ فمهد السلف سبيل الحياة للخلف ، ولولا الحقائق والخطط القويمة التى اهتدى إليها السلف ودونوها لوقفت حركة التقدم ، وما خطا العالم خطوة واحدة فى سبيل الرقى والكمال .

الحياة أمد قصير وزمن لا يطول ومعترك ومضمار جهاد، فمن غفل سقط قبل أن يلتفت إليه غيره لاشتغال كل فرد بأمر نفسه وانصرافه لمقاومة تيار التنازع والوصول إلى شاطئ السلام، والفائز من عنى بالنجاة جهده ، فليس على الانسان إلا الامتثال لما هو حتم على كل نفس ومقابلة متاعب الحياة ومقتضياتها بصبر ورضا ؛ فإن التذمر لا يجدى نفعا ولا يدفع مقدورا، وإن ما وصل إليه العالم من العلم والتنوير وكشف بعض الحقائق قد أفاد المجموع فائدة مذكورة ، ولكنه لم يستوعب المجهول كشفا ، ولم يصل لحل كل مسائل الاجتماع ، ولم يرفع من سبيل الحياة كل الحواجز والعقبات الحائلة دون الحقائق . ولا يزال العقل يصادف طلاسم يتخبط فيها دون أن يهتدى

فالحياة ممكنة والاعتدال فى الفكر غير المحال ولا يستدعى مالا طاقة به للانسان ، ومن اعتدل فكره اعتدل قوله وانتظم عمله .

والاعتدال فى الفكر يستدعى التوكل والأمل والطيبة ، والتوكل ركون واعتماد بعد ثقة وإيمان عن اعتقاد بعد تصديق لا عن وراثة واعتياد

والايمان يقوى الفكر ويقيه شر الاندفاع إلى ماوراء المعلوم ويقفه عند الحد الجائز ويجعله كثير الثقة بالخالق وبحسن عناية الله بنظام الوجود وسائر الكائنات ، فيرتاح خاطر الانسان ويطمئن ، ويعيش هادئا آمنا كما تعيش

الأزهار والأشجار وسائر المخلوقات

الإيمان هو السر الوحيد الذى ينعش النشاط فى الإنسان ويجدده ويدفعه وراء الرزق ، فيسعى فى مناكب الأرض ويضرب فى مناحيها طلبا للعيش وضروريات الوجود ، فكل مايزعزعه يكون شرا على الحياة من السم الزعاف، كما أن من شر المصائب التى عم ضررها على الاجتماع واشتدت الشكوى منها انتشار الفلسفة العقيمة التى تؤدى إلى تنفير الناس من الحياة وتحويل أنظارهم عن جلالها وحسنها وتصويرها فى أشنع الصور وأفظع الأشكال .

الأمل هو الثقة بالمستقبل ، والحياة فى ذاتها عبارة عن رغبة وعمل ونتيجة، وكلها بداءة فلها نقطة اتجاه ونهاية، وكل إنسان يؤمل قبل أن ينال، وينال بعد أن أمل، وعلى قدر قوة الأمل ومقداره يكون المستقبل . فالأمل ضرورى لأنه لاحياة بدونه ، ولولا الأمل ما كان الوجود ، والتاريخ أكبر شاهد على أن الأمل وحده هو الذى نشط الخلائق إلى مراقى الفلاح وذروات المجد والسؤدد ، ولولاه مافاز العالم بهذا النصيب الوافر من الإثراء والرقى الأدبى والعلمى .

الأمل يخفف الأحمال الثقيلة ويلطف الآلام ، ويساعد العاثر على النهوض والمعدم على تحمل أرزاء الفقر والعوز ، ويحول بينه وبين اليأس الوبيل .

الأمل أكبر عزاء للمنكوب وأقوى أساس لنظام العالم ، ولولا الأمل لقل نشاط العاملين ، ووقفت حركة العالم ، لكنه باق وله النفوذ الاقوى فى نفوس الخلائق وأفكارها ، وهو المنشط الوحيد الذى يجعلها تتعلق بالحياة ومتاع الدنيا فتعمل وتجد .

فحتم على العاقل ألا يحقر طموح النفس وتطلعها إلى المستقبل، بل يجب عليه احترام هذا الأمل أينما كان وعلى أى صورة وجد ، سواء تمثل له فى رأس الطائر الذى يجمع القش لبناء عشه لفراخه ، أوفى نفس الفلاح الذى يقضى نهاره فى الحقل عاريا يحرث الأرض .

الأمل عماد القوة والمنشط الوحيد للعالم وعليه مدار النظام والترقى ، ولكن

مما يؤسف له أن إنسان اليوم أكثر الخلائق خوفا من المستقبل فهو يخشى سقوط الرجوم واصطدام الارض بأحد الكواكب أو المذنبات ، ويرقب فى كل لحظة نهاية العالم ودنو الساعة الاخيرة ، فالحكيم من يثق بقدرة الخالق على تدبير ماخلق وبأن من أوجد النظام الالهى العجيب ليس بعاجز عن ضبطه وإحكامه ، وبأن من خلق هذا العالم البديع لايتركه للفناء بغير إرادته ومشيئته ، فلا تكون النهاية على ذلك الشكل الخرافى الذى تختلقه وتتوهمه العقول السخيفة .

ولماذا يتطرق اليأس إلى القلوب مادامت الشمس لم تنقطع عن الاشراق والأرض عن الإنبات ؟ لماذا نيئس من رحمة الله ونضعف نشاطنا بأمثال هذه الأوهام والأباطيل ؟

الأمل الأمل،فهو سبيل الفوز والنجاح ، وحذار من اليأس فهو مدعاة الفشل والحبوط .

الطيبة من لوازم الرجولة ، وليس من يشك فى أن الرذائل من أكبر الوسائل التى تؤثر فى القلوب وتملؤها بالأحقاد والضغائن وتسوق الإنسان سوقا فى طريق الانتقام من الظالم بأى وسيلة ومن أى طريق ، فلولا الطيبة واستسلام الإنسان لقدرة الخالق وعدله الالهى لفسدت الأرض واضطرب النظام .

الطيبة ينبوع ماء حى يروى النفوس ويطفىء فيها نار الخصومة ، وهى من منح الله التى تحفظ النظام وتلطف شرور العالم وفجور الإنسان ، وهى أبدية لاتزول ، وما أكثر الحوادث التى تغلبت فيها الطيبة على كل ضروب القسوة والتوحش وأخضعتها فدانت لها وصغرت !!

الطيبة تصلح ذات البين وتعزى المنكوب ، وتلطف آلام الشقى وتكمل صاحبه وتجمله ، وهى الصفة الرئيسة التى يحتاجها النوع البشرى ويفتقر إليها فى كل أدوار الحياة ، فمن رام أن يكون على شىء من الاعتدال بالمعنى الصحيح فعليه بالتوكل والأمل والطيبة

ومن قال بأن التواكل من النظريات الدينية فهو مخطئ ؛ لأن الدين نفسه غرض السعي والعمل :

فقد جاء في الإنجيل : بعرق جبينك تأكل خبزك . وجاء في القرآن : « فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ »

ولو سأل سائل عن أحسن الأديان ما استطاع حكيم الإجابة عن هذا السؤال بغير تفكر طويل لأن الأديان المنزلة جميعا تدعو إلى الفضائل ، وخير ما يفعل العاقل أن يضع السؤال على صورة أخرى ، ويسأل عن ماهية الدين القويم الصالح للدنيا والآخرة ، فيكون الجواب : إن الدين عند الله الإسلام .

ولا غرو فهو الذي ينير البصائر، وهو الذي ينتصر للخير والفضيلة ، وهو الذي يعين على احتمال الآلام بصبر وقبول .

ألا إن مدار الحياة ورقى الاجتماع على الفكر السليم لأنه ينبوع الرقى والكمال

ثالثا — الاعتدال فى القول :

للإعراب عن الفكر عدة وسائل أهمها القول ، وهو مقياس العقل وميزانه ، فالعاقل من يربأ بلسانه أن يهفو وقلمه أن يشتط ويجعل قوله حكما كفكره ، والحكيم من يفكر بروية ، ويتكلم بصراحة فى حزم واعتدال .

لقد كانت وسائل التفاهم وتبادل المنافع فى الماضى بسيطة ومختصرة وقليلة ، وكان المرجح أن تحسنها المدنية الصحيحة ، ويكون واسطة لتقريب الشعوب بعضها من بعض وربطها بروابط المنافع المادية والأدبية ، فيكون ذلك سببا من أسباب السلام وتبادل الحب والاحترام

ولقد هللت الخلائق فرحا عند اختراع آلة الطباعة حيث تقوى الروابط بين أفراد الأمة وتضاعف السرور بانتشار الكتب والتعليم والصحف والمطبوعات الدورية والمجلات اعتقادا بأنها أداة لترقية الأفكار وتهذيب العقول وانتشار العلم . وهذه هى النتائج الصحيحة الطبيعية التى تتبادر إلى الذهن ، ولكن الأمور

يا للأسف جرت فى غير هذا السبيل

ولئن وجد بين المطبوعات كتاب أو صحيفة تنشر الحقائق مجردة من الغايات وتعمل على ربط أواصر الصداقة بين الشعوب إن هناك آلافا سواها تفترى الكذب لتعبث بهذه الثقة وتحل العرا ، وتبذر بذور البغضاء بما تنشره من التهم الباطلة والأكاذيب الملفقة وتحدثه من اللجب بدون داع ولا سبب .

وقد كاد يصح القول إنه كلما كثر الاطلاع على المطبوعات زاد الناس ضلالا . وكثيرا مابرم المطالع بخداع الكتاب ، وتنكبهم محجة الصواب .

وليست هذه الحيرة بمحصورة فى أفراد الشعب ، بل يشاركهم فيها الخاصة أيضا والمتعلم والفيلسوف والمتأدب وأساطين العلم وعشاق الفنون ورجال الدين ؛ لأن الفساد شمل جميع الطبقات حتى هال الناس كثرة انتشار الكذب والرياء والخداع . والنتيجة العامة هى فساد الذمم وعدم تبادل الثقة .

إن المرائى ومن يشاكله من أكثر الناس اعتدادا بسوء الظن بالآخرين لما يعرفون من أنفسهم من خبث النيات ومايأتونه من ضروب الحيل وأنواع الخداع ، ولذلك هم أكثر الناس عذابا وشقاء لأن إيمانهم ضعيف ، فهم يصوغون القول الصيغة الملائمة لما يعود عليهم بالنفع ، وسيان لديهم طابقت الحقيقة أم خالفتها تمام المخالفة .

إن الكاذب المنافق ليؤذى نفسه لأن حقيقة أمره تتجلى للعيون وتنفره من الناس : ذلك هو يوم سقوطه لأنه لاشىء أشد من سخط الجمهور على المنافق الذى يغرر به : ومثل ذلك مثل الأوراق اليابسة لا تقاوم الريح الصرصر : كذلك المنافق لا يقوى على مناهضة الأمة حين تثأر منه ، وويل للمنافق حين توصد فى وجهه الأبواب وتسد الآذان عن سماع المكر والرياء ، بل وعن سماع النصح الصادق والإرشاد الحق ، وهذه هى الطامة الكبرى التى لا تغتفر للذين يخدعون الناس ، ويضيعون الثقة بالكتاب والمرشدين

وإذا اعتبرت القوانين أن مزيفى النقود جناة فما قولك بمن يفسد العقول

ويزيف النفوس ويسممها بالكتابات المنتشرة ؟ والضرب على أيدى هؤلاء واجب تقضى به الانسانية لأنهم يميتون العقول ويفسدون نظام العالم

فمن المهم الجدير بالاعتبار العناية باللسان والقلم وتقييدهما إلا عن نشر الحقائق والأفكار السديدة المعقولة . والاعتدال فى القول خير من التهور المرزول ، ولا شيء فى الكتابة أقبح من استعمال العبارات المبتذلة والكلمات ذات المعانى المتعددة التى تحتمل الحسن والقبيح ، ولا هناك أشرف من ذكر الحقيقة مجردة من الغاية والمصلحة الشخصية

وليس الغرض الحط من شأن الكتابة فى ذاتها أو منع الكتاب من استعمال المحسنات اللفظية فان النفس لتتوق إليها والعقل يؤكد أنها الوسيلة الفعالة فى ترقية الكتابة وتخريج المجيدين من الكتاب والشعراء

ولكن المعروف أن أحسن المواضيع مالا يحتاج إلى عناء فى صوغ عباراته وتنسيق كلمه ؛ لأن الموضوع الجليل مجموع أفكار عالية يشعر بجلالها العقل ، وقد تكفى أبسط الكلمات وأسهل اللغات لصوغها فى قالب سهل مفهوم بدلا من قتل الوقت فى انتخاب الكلمات ورصف العبارات التى ربما تدعو إلى إفساد المعنى وتشويه الفكر إذا انصرف عن جلالها إلى تزويق الألفاظ . والأفكار العالية لاتحتاج إلى الطلاء الغريب لأن قوتها فى ذاتها وسموها فى رجحانها وأصالتها

وليس كل من يحسن رصف الكلمات بالكاتب المجيد ، ولا يستحق هذا اللقب إلا كل مفكر يجمع شتات المعانى الراقية ، والأفكار السديدة فى القالب اللغوى الفصيح ، وليس أبلغ من السهولة عند التعبير والاقناع بالأدلة المعقولة الخالية من التعقيد المضنى والركاكة المملة

ورب إشارة لطيفة تعرب عن انفعال نفسانى أو ألم شديد أو سرور أو حزن إعرابا لاتؤديه أبلغ العبارات فى كل لغات العالم ، ولا يتأتى للانسان التعبير عن حقيقة عواطفه إلا بأبسط العبارات وأسهلها ولا تتأتى المحاجة إلا بالحقائق واللغة

السلسة . والاعتدال فى القول عند الشرح أكثر إقناعا من العبارات المعقدة وأكثر فائدة للقائل من الشطط والحدة ومحمود فى كل المواقف

ولاشيء أنجع من الصدق فى الرواية والإيجاز فى الإعراب عن اعتقاد راسخ سواء أكان ذلك فى المواقف العامة أم فى المحاورات الخاصة ، وليس أوقع فى نفس المطالع أو السامع من الكلمات القليلة التى تصدر من القلب إلى القلب ، أما الكلمات الموشاة فلا تؤدى فائدة جزيلة .

ولما كان الغرض من القول أو الكتابة الإعراب عما فى الفكر كان من الواجب تأدية ذلك بما لا يزيد على المعنى خوفا من ملل السامع أو المطالع : كم من الخطباء غرضهم الوحيد من الخطابة الوقوف بين الجماهير لسماع تصفيقهم الحاد بعد سماع العبارات المنتخبة !! وكم من السامعين يكتفون بالسماع والتلذذ ببلاغة القول وسرعان ما نسوا ما سمعوه ، وتلهوا بالمشاهدة الجديدة عن حديث ذلك المهذار الصداح ! ! وليس الغرض مما يقال ويكتب اللهو أو التلذذ وإلا وقفت فائدة الكتابة عند هذا الحد ، وما كان مهم العقل مقصورا على ذلك بغير محاولة اكتساب الفوائد الجمة التى تحصيها العقول .

إن ارتفاع صوت المتعطلين الذين لاهم لهم إلا الصياح بغية الشهرة والظهور ينسى الجمهور أن العامل المفيد أكثر هدوءا وأقلهم جلبة ، ولولا فراغ جوف الطبل ماأزعج صوته الفضاء ، فالصمت خير من القول الهراء ، وأولى بالقوة التى تستنفد فى التهوس أن تدخر للعمل المفيد ، والباخرة التى تستنفد بخارها فى الصفير لاتجد فى مستودعها قوة لمواصلة السير والوصول إلى غايتها .

ومن المعروف أن الكسلان يستعمل فى حديثه العبارات المقتضبة، والعاقل يقتصر على الموجز الكافى، وإن من يوازن بين لغة العصر الحاضر والزمن المنصرم لا يلبث أن يرى فرقا واضحا ، فيتحقق أن كتاب العصر الغابر كانوا يكتبون بلغة أوجز خالية من التعاقيد التى تحرج المطالع وتضنى فكره دون تمييز الغرض منها ، بعيدة عن المبالغات التى تحول بين العقل والحقيقة الكاملة ، أما كتاب هذا الوقت فهم

أقل إدراكا وأكثر شططا وتخبطا .

من الناس من يصفق للذى يكتب بحماس وتطرف ، ويفتخر بمن يرسل من جوف قلمه سيالا من النار ، ولكنه يحترق بهذا اللسان المندلع . هذا النوع من الكتابة خطر يجب اتقاؤه ؛ لأن الشطط لا ينتج غير إغراء العقول وإبعاد المطالع عن مركز الحقيقة ، فتكون النهاية سوء الظن وإفساد العلائق بين الأفراد والجماعات وفقد الأمن وإخلال النظام وفساد الأخلاق ، وكفى بهذه النتائج سببا للسقوط والموت الأدبى ؛ فالمصلح الحقيقى من يطلب لقومه ولإخوانه اعتدالا فى الكتابة والخطابة ونشر ما يكون علاجا للنفوس ودواء للعقول ، وليس الغرض منع الكتاب والشعراء وأرباب الفنون عن الإبداع والإجادة إنما العناية بما يفيد ولا يضر ؛ لأن الفكرة الصالحة توافق كل المشارب ، وتصلح لكل زمان ومكان .

إن ينابيع الإرشاد عامة تستقى منها العقول فيرذها البعض ويكون صالحا فيبذل للناس نصحا وهدى ، ويتسمم بها البعض لتسمم نفسه بالشر : والنوع الأول روح تبعث فى النفوس القوة وتدعو إلى العظمة والرقى والحياة ، والنوع الآخر طامة على العقول والنفوس إذا انتشرت تعاليمه وتغذت بها العقول وتشبعت بها القلوب .

فخير المحبين لبلادهم من يدعو ذوى الحكمة لإرشاد الناس وردعهم عن التطرف الوبيل ؛ إذ رب كلمة كانت سببا فى حرب عوان ووبال عميم .

رابعا ـ الاعتدال فى المطالب :

لا تتطلب الحياة أكثر من الطعام المغذى واللباس البسيط والمسكن الصحى والهواء والحركة بيد أن النفس تشتط فى المطالب الكمالية التى تبعدها عن دائرة الاعتدال الحميد

والناس متساوون فى الخلقة متفاوتون فى الحاجات وحب الظهور ، وليس من المفيد أن تتعدد المطالب ؛ لأن النفس إذا ردعت عن غيها ترضى بما يرضى القنوع الراضى ، على أن الاستياء عام يشمل جميع الطوائف ، وما سبب سخط الناس إلا

لشرههم وعدم قناعتهم

ومن العجيب أن الدابة إذا شبعت تنام ملء عينيها ، ولكن الإنسان لا يهدأ إذا هو أثرى ، بل تزيد شراهته وتتعدد أمانيه .

ومن هذا ترى أن أكثر الناس سخطا على العيش هم أكثرهم سعة وأوفرهم فى أسباب الاغتباط والنعيم ، وتلك حجة على أن السعادة ليست فى الغنى وكثرة الحاجات بل فى الرضا والاغتباط بما هيئ له مع مواصلة السعى والإجمال فيما يبغى ، والنفس لا تقف عند حدمهما نالت أمانيها ، والرغبة فى الإنسان تمتص دمه وتنخر عظامه ، وهذا مشاهد ومحقق ؛ فإن السكير المدمن لا يكف عن الشراب مهما كرع ، ومهما التهب دماغه وتمزقت أحشاؤه ، وإن من يملك (الملايين) يطمع فى سواها ، والبطن إذا أكل دجاجة يتطلب أوزة ، والأمانى تتجدد والرغبات تزداد

وهناك كثيرون من الفقراء تتوق نفوسهم إلى عيش ذوى الثروة ، فيخرج العامل عن حده ، ويقامر الموظف فيضيق ذرعه وتسوء عاقبته

والرجل عبد الملاهى أكثر شبها بالدب تضع فى أنفه حلقة حديدية فيقتاده بها الإنسان ليرقص ويلعب ، وهو مرغم لا يملك من أمر نفسه شيئا وهذه هى الحقيقة المرة ؛ فإن هذ الفريق من الناس مسوقون إلى أسوأ حال ، ومنهم من يضحون بشرفهم وعرضهم لنيل مايرضى النفس ويقضى مطالبها بدعوى كثرة الحاجات ، وهى دعوى فاسدة ، لأن الكفاف سهل الإدراك : فهؤلاء النساء اللائى بعن الطهر والعفاف لو سئلن لعرفت عنهن البؤس والشقاء والبكاء على الأيام السالفة !!

ومن الناس من يضيق ذرعا بمطالب زوجته التى لا نهاية لها ، فتسوء المعيشة بينهما ، ولو اعتدلت فى مطالبها ماخسرت عطف رجلها وحبه ، ومثل هذا الرجل كى ينسى أحزانه يلجأ إلى الخمر والمقامرة وسلوك سبيل الرذيلة ، فيعز شفاؤه وتسقط أسرته .

ومن الآباء من يتورط فى حمأة مطالبه فيبذر كسبه فى لذاته وشهواته ويترك أولاده حفاة عراة يتضورون جوعا .

ولو اعتدل الناس فى أمورهم لكانوا فى غنى عن الاستياء ، وأنى لهم أن يعرفوا طريق السعادة والهناءة وهم على هذا الشطط القبيح ؟ إن الخضوع لشهوة النفس يودى بالسعادة ؛ فالاستدانة والربا وبيع الزرع والضرع سبب الفقر الذى به تسوء الحال وتتعدد الجرائم ، وعلى عكس ذلك إذا اعتدل كل فى حاجاته ، وإن القناعة أحسن الوسائل التى تكفل الراحة والاطمئنان إلى المستقبل ، ومن ألف البساطة لا يدفعه اليأس إلى الوقوع فى الرذيلة ؛ لأنه قليل الاهتمام بظواهر الغنى والجاه ، فإذا نزل به الفقر قابله برباطة جأش ، وحاول التخلص منه بالوسائل المشروعة ، ولو لم يكن فى الاعتدال والبساطة فى العيش غير كف الأنظار عن الحسد ومنع الكراهية والبغضاء التى تتولد فى قلوب الحاسدين والمشاكل التى يستدعيها الإسراف لكفى

وليتذكر العاقل أن للظهور ثمنا باهظا يدفع من المال وراحة الضمير والفكر ، وهو ثمن لا يستهان به ولا يقوى على دفعه امرؤ بدون أن يعكر صفو هناءته

خامسا ــ الاعتدال فى السرور :

إذا نظر الباحث إلى المجتمع الإنسانى وأطواره الذاتية ازداد وثوقا بإقفار القلوب من عاطفة السرور الحقيقى ، وليس ذلك لرغبة الناس عن هذه العاطفة أو لتقصيرهم فى البحث عن أسبابها ووسائلها ؛ فإن العالم بأجمعه إنما يسعى بكل قواه ليسر ويفرح ، وإن الباحث ليحار فى إسناد هذا الاستياء العام إلى سبب واحد لتعدد أسبابه ووفرتها ، فالمرء يرى كل من يصادفهم فى شغل دائم وتعب ، يرزخون تحت أعباء من الهم والنكد : إما لشقاق فى السياسة ، وإما للمشاكل القضائية القائمة بين الناس ، وإما للغيرة التى تحرق الصدور وتأكل القلوب ، وإما للحسد المتبادل بين ذوى المهنة والصناعة الواحدة ، وإما للتنافس بين ذوى اليسار والمراكز السامية ، وإما للمزاحمة فى التجارة إلى غير ذلك من أسباب التهمم .

ولا يفوت الباحث أن الصناع والعمال فى هم متزايد بسبب الخلاف الدائم بينهم

وأن الحياة لا تلذ للحاكم لضياع النفوذ وقيام الأمة بكسر قيود الإرهاق ، وأن المعلم ساخط لقلة اكتراث الناس بالعلم ومعرفة أقدار المربين ، وهكذا بقية الناس لا ترى فيهم إلا المغضب المستاء مع أن التاريخ يرينا ما كان عليه الإنسان فى تلك الأزمان الغابرة من سعادة العيش وصفاء البال بالرغم من حوادثها الجمة التى تذهب بلذة الحياة .

وليس السرور من الماديات ، بل هو شعور ينبعث من النفس ويشعر به القلب وقد تبدو ظواهره على الوجه فى شكل ابتهاج ، أو ترتسم أماراته على الثغر فى زى ابتسامة .

ومن مقتضيات السرور الحقيقى الأمن والاطمئنان إلى الحياة والثقة بالنفس وذلك ما ينقص الكثير من الناس .

إن الرجال بل والشبان يضنيهم التفكر فى أمر الحياة وإن لم يكونوا من الفلاسفة ، وكيف يطرق السرور هذه القلوب مادامت الأفكار مشتتة تعبة تود لو أن العالم لم يخلق والوجود لم يكن ؟

ترى الناس يعنون بإيقاظ السرور من مرقده وبعثه من قبره ، فيلجئون إلى وسائله المؤدية إليه ، ولكنهم مع ما كلفوا أنفسهم من المصاعب وما أعدوه من المعدات لم يذوقوا قطرة واحدة من السرور الحقيقى .

وهناك فرق واضح بين السرور ومعداته : فكما أنه لا يكفى الحصول على القلم ليكون الإنسان كاتبا ولا تأبط المزمار ليكون موسيقيا بارعا : فكذلك لا يكفيه أن يهيئ كل معدات السرور ليكون مسرورا . والمشاهد أن الكاتب المقتدر يكتفى بقصبة لا قيمة لها ليكتب ما يخلد الذكر ويعطر الاسم ، وإن المصور الماهر يرسم بقطعة من الفحم ما يعد من المعجزات ويبقى من آيات الفن وبدع الدهر ، فالعبرة إذن بالخبرة والموهبة وعليهما المعول .

ومن عرف كيف يسر ويهنأ لا تكلفه السعادة نفقة ولا جهدا ، ولكن هذه الموهبة لا تتفق والغرور والإفراط ، ومن لوازمها الثقة بالنفس والاعتدال

فى الفكر والعمل ، فحيث تجد الاعتدال ترى السرور الحقيقى وتشعر بالسعادة الصالحة : كما أنك حيث تجد الزهر العطر تشم عبيره المنعش .

سائلوا الممثلين ورجال المسارح عن أكثر الناس سرورا وابتهاجا بالتمثيل الهزلى يدلوكم على الجمهور الساذج ، وهم محقون فى ذلك ، لأن هذا الصنف من الناس لم يختلف كثيرا إلى المسارح ، بل لا يقصدها إلا نادرا ، فيرى الأشياء فى بهجة الجديد وروائه ويسمع الكلام كأنه غريب عن آذانه التى لم تعتد الهزل ولم تعرفه فيجد لذة بعد جهد النهار وتعب الأسبوع ، وهذه اللذة حقيقة بذلك النفر لأنهم لم يذوقوها إلا بعد طويل الحرمان ، وهم أعرف الناس بقيمتها : كما يعرف العامل الكادح قيمة الدرهم الحقير بعد طويل الكد والتعب .

ومما يدعو للأسف أن البساطة سر السعادة وروحها أخذت تزول حتى من الوسط الساذج ، وبعد أن كنا نندب حظ سكان المدن الذين اطرحوا وراء ظهورهم العادات والتقاليد الممدوحة أخذنا ننظر بحزن واستياء إلى حال القرويين الذين اقتفوا خطوات المتحضرين فى تلك المزالق الخطرة ، فانكبوا على الكحول واعتادوا المقامرة وألفوا قراءة ما يفسد الأخلاق .

أين ذلك الزمن الذى كان الناس فيه إخوانا يشمل عرس أحدهم كل أبناء الضيعة ، فيجمعهم سامر واحد وتربطهم عاطفة واحدة يستجلونها فى غنائهم وصياحهم ورقصهم وتصفيقهم بعد أن يملئوا بطونهم طعاما مغذيا وماء قراحا ؟

إن السرور من المسائل الرئيسة فى الحياه الدنيا ، ولكن بعض الغلاة يهملونه كأنه لا يستحق الاهتمام والذكر ، وعجيب ألاّ يحفل الناس بأمر السرور الحقيقى مع شدة احتياج النفس إليه ؟ فالسرور شعور يزكى العواطف فيحييها وينشطها ويجعل للحياة فى نظرها صورة جميلة أخاذة . ومن يعرف كيف يسر ويهنأ فى هذا الزمن المملوء بالأفكار العقيمة يكون ممن لهم ميزة وفوق ظاهر ، ولو عنى هؤلاء ببث أفكارهم بين الناس لإرشادهم إلى طريق السعادة لرفعوا عن القلوب ما يثقلها ولأنعشوا الأفئدة بعد أن طال عليها الخمول والجمود .

لا يعرف آلام غيره وتأثيرها في النفس إلا من يعاني مثلها ويئن من وقرها، ولهذا نرى المنكودين يرثي بعضهم لبعض حتى إذا ما صلحت حال أحدهم نسي ما كان يقاسيه، وأنكر على غيره ما هو فيه من نكد وشقاء.

من الناس من يستصحب البائس ويفتح له مصراعي بابه ويعدله من الطعام أشهاه وأفخره مختالا بما رزقه الله وحرم منه الكثيرون، وربما تصدق عليه وهو يظن أن في ذلك عزاء وتلطيفا لحال البائس الشقي، ولكنه عين الخطأ والغرور: فأي عزاء لمن يفاخره الإنسان بمقدرته ويكاثره بفضته وذهبه وخدمه وحشمه ويوقظ الحسد في نفسه بما منح من مال، ثم يحقره بما يعطيه صدقة من فضلات نعمه؟

وهل أصعب على النفس من أن ترى يسر غيرها وعسرها وجاهه ومسكنتها وقوته وضعفها؟

إن من يريد أن يأخذ بيد البائس ويزيح عنه شيئا من همومه يجب أن ينكر نفسه أولا لأن التفاخر ينفر منه القلوب مهما كرم أصله ورق قلبه وابتغى صالحا وعمل طيبا.

وإذا كان الإنسان يتناسى وقت السرور كل متاعبه الشخصية وهمومه التي تشقيه وتشغله فأولى به أن ينسى في ساعة العزاء والمواساة مركزه الاجتماعي؛ لأن هذا التناسي يفيد كثيرا ويكون واسطة قوية لتبادل الحب والنفع.

من الظن الشائع أن الممرض لا ينفع لغير التمريض، والمدرس لغير التعليم، والواعظ لغير الوعظ وبقية مقتضيات عمله الديني، فتكون النتيجة أن كل المتفرغين للأعمال الحديثة وقف على هذه الأعمال لا يتزحزحون عنها قيد إصبع شأنهم فيما يعملون شأن الدابة فيما خصص لها من عمل، وعلى هذا الزعم يكون المنكوبون على سائر أنواعهم واختلاف مصائبهم مجردين من عاطفة السرور، فلا يقابلون بغير الوجوه المقطبة ولا يسمعون غير الأخبار المكدرة إلا أن هذا هو منتهى البربرية والتوحش، وأخلق بالعقول أن تحرر من مثل هذه الظنون السخيفة، فإذا ما لقي

الإنسان رجالا أو نسوة كرسوا أنفسهم للأعمال الشاقة فليتذكر أنهم من الآدميين يعوزهم ما يعوز سائر الأحياء من الراحة ونسيان الهموم . وإن السرور ليجدد قواهم وينشطها لممارسة العمل بهمة وصبر، وإذا ما صادفت أسرة حط عليها الشقاء بهمومه فلا تفر منها فرار الجبان من الموت ؛ فإن الإنسانية تحتم على الإنسان مقابلتهم بثغر باسم وصدر منشرح مع احترام عاطفة الحزن التي بسطت أجنحتها على ذلك المكان وأفراده ، فينشطون لتحسين حالهم ، فيتحسن شطرٌ من المجتمع.

إن العالم مملوء بالتعساء الذين قضى عليهم نكد الطالع بالشقاء ، فمن السهل مواساة هذا النفر لو أتيح للناس أن يتعرفوهم أو يتفكروا فيهم .

ما أسعد حال المجتمع الإنساني إذا تبودلت فيه المعاونة وعواطف الإخاء والمحبة ، فإن في ذلك العزاء والسرور ، بل والسعادة الحقيقية التي تنشدها في غير سبيلها القويم .

ولما كانت العناية بالناشئة واجبة فعلى القائمين بالتربية أن يلاحظوا أن الاستراضة من وسائل التكمل والتأدب فليعتن الحكماء بوسائل السرور ليفتحوا للسعادة بابا تأتى منه فتنزع الهموم واليأس وتبدل الحال من حسن لخير منه وليعمل العقلاء لإزالة الفارق الذي بين المعلمين والمتعلمين وللقضاء على الغطرسة التي تنفر النابتة ليكونوا إخوة في أوقات الفراغ ترشف نفوسهم كأسا واحدة هي كأس السرور الشامل .

ليس للسرور ثمن ولا هو مما يباع ويشترى وإنما هو ثمرة يجتنيها من يعرف مكانها ، فمن شاء ألا يعرف الهم والأحزان وأن يروح عن نفسه ويملأ قلبه سرورا وابتهاجا فعليه بالعمل والاعتدال في العيش والمعاملة ونبذ ما ينفر منه غيره، وليكن حسن اللقيا واللفظ أنيسا معتدلا حسن الظن بالناس لا حسودا ولا حقودا محبا لرفاقه غير مهذار ولا نمام .

سادسا — الاعتدال في المال وقيمته :

المال من وسائل التعامل ، ولكن الضرورة إليه لا تجيز أن يحله الإنسان

فى غير موضعه من مراتب الاعتبار أو ينظر إليه بأرق من العين التى تمثله واسطة لتبادل المنافع .

والمشاكل والمشاغب التى تنجم عنه خطيرة وسبب لأكثر الاضطرابات فى العلائق الاجتماعية إلا أنه مع هذا لايمكن الاستغناء عنه . وعناية الخلائق بأمره من أقوى العوامل التى بعثت النفوس والأفكار على حب الاقتصاد والبحث عن سبله المؤدية إلى الغاية ، فرفعت من قيمته الوهمية ، وخلقت له فى الحياة قدرا وسلطانا ، ولولا الافتقار إلى تبادل المنافع ما نشأت الحاجة إلى المال . وليس المراد به الفضة والذهب فقط ، بل كل متداول له قيمة متفق عليها معترف بها .

بعض الناس يحصل على المال بواسطة غير مشروعة ، ولكن المخدوعون يدفعون مقابل مالا يباع ولا يملكه البائع ولا قيمة له ثمنا من الذهب .

والبعض يتاجر بالعواطف والملاذ والشهوات والأعراض والوطنية والدين . وهذا النوع من الاتجار لايجعل لصاحبه حظا من القيمة الأدبية والشرف اللذين يكونان لمن ينتفع ويربح من بيع وشراء مايجوز الاتجار به .

ومع أنه لا يوجد بين الناس من لا يستنكر هذا العمل الشائن ويستقبح الربح من هذا السبيل نرى أن هذا المستقبح عقلا وأدبا له حكم الجائز المحمود فى عرف ذوى المطامع عباد المال ، بل ونراهم يعدون كل اعتراض على هذه الرذيلة بلاهة وحمقا وتطفلا .

ولقد انتشر هذا المبدأ الفاسد حتى صار عادة لاتستأصل ، ولم يعد الكثيرون ينظرون إليه بعين الازدراء والمقت الجديرين ، فعبثت يد الإنسان بكل مقدس وشريف بلا تردد ولا أسف . وليس المال هو سبب هذه السفالات التى تربك الحياة الاجتماعية وتشوه وجهها الحسن ، وإنما هى المطامع وحب الذات .

للطموع مبدءان : الأول يحصر فى اعتبار المال روح الحياة ، والآخر فى أن الربح وحده هو الغرض من كل عمل ، ولذلك تراه يتساءل عند كل

حركة : ماذا أربح ؟ وماذا عسانى أستفيد ؟ وهذان المبدآن هما من أشد المزالق انحدارا إلى حضيض السفالة والعار بما ليس فى استطاعة الكاتب أن يمثله ولا العقل أن يتخيله .

العمل المأجور مباح لكل الناس إلا أنه إذا كانت الغاية منه مجرد كسب الأجر فإنه سفالة لا تبرر . وكل عامل هذا شأنه لا يحسن العمل ولو استطاع أن يوفر من مجهوداته بغير أن يقلل من أجره الذى يتناوله لفعل غير متردد ولو أضر ذلك بالآخرين . وكل من لا يعمل وفقا لمقتضيات الصناعة أو المهنة فإنه لبئس عامل يعمل أو أجير يؤاجر .

والطبيب الذى لا يحفل بغير ما يتقاضاه من المرضى لا يجمل بالناس الاعتماد عليه فإنه لا يعنى إلا بالمال لإشباع مطامعه ، وكذلك المعلم الذى يرغب فيما يحصله من المتعلمين نراه يستدر المال ولا يوفيهم حقهم من العلم والتربية ، وأخطر من هذين على الاجتماع وأضر بمصالحه الصحافى الذى يؤجر قلمه رغبة فى الدرهم الحقير فإن ما يكتبه وينشره ليكون أحقر من الدرهم بل وأكثر سفالة من نفس الكاتب .

نعم إن من الصواب والعدل أن يكون لكل عمل أجر ولكل تعب جزاء إلا أنه من الخطأ الضار بالمجتمع أن يكون الربح هو الباعث الوحيد على العمل والغاية المقصودة منه . وحقيق بالعامل أن يرضى نفسه بالإجادة فى عمله قبل أن يشبع مطامعه بما شاءت من الأجر .

إن الإنسان ليستأجر عاملين فى قوة متماثلة ومعرفة متشابهة، فيعملان ويجيد أحدهما ولا يجيد الآخر ، وهذا لا يدل على تفاوت فى القوة والإلمام بالعمل ، وإنما يكون على الأرجح دليلا على أن الأول يعمل راغبا فى الإجادة ، والآخر فى الأجر فقط ، وليس هناك غير هذ السر فى كل ما نراه من نجاح البعض وحبوط البعض الآخر إذا ما تماثلت الظواهر وتوازنت القوى والمدارك العاملة .

ليس من ينكر أن مشاكل الحياة ومطالبها عديدة وأن حاجة الإنسان إلى

الاقتصاد ماسة وأنه مرغم على ابتكار أساليب النظام فى العمل للكسب والتوفير حتى يتسنى له حفظ مركزه الاجتماعى وكسب قوت أسرته وأطفاله . وإن من لا يرعى هذه الملابسات المتجددة ، ولا يحفل بالطوارئ فيعد لها العدة قبل أن تفاجئه ، وإن من لا يحسب للدهر تقلباته – ليس إلا قليل التبصرة ، ويجوز أن تفاجئه ملابسات تلجئه إلى التسول ممن كان يعيب عليهم الحرص والتدبر والشح

ماذا يعمل المرء إذا قصر الإنسان همه على أن يوازن بين العمل والأجر الذى يريده لنفسه أو إذا أصر على أن كل مالا ما يأتى بفائدة مادية يكون تعباضائعا على غير طائل ؟

ألا إن الوالدات لا يتقاضين أجرا على إرضاع أولادهن وتربيتهم ، ويرى الأبناء من واجبات البنوة احترام الوالدين ومحبتهما ومساعدتهما ، والرجل الشريف لايزال يعلن الحقيقة ولو أنه لا يجنى من ذلك غير كره الناس له ونفورهم منه واضطهادهم إياه ، والناس تدافع عن الأوطان وماوراء ذلك غير التعب والجراح وربما الموت أيضا ، وفاعل الخير يسديه إلى غيره بدون أن ينظر إلى مايكون من نكران الفضل وحسد البعض له وحقدهم عليه .

كل هذا يتم بدون أجر وبدون تطلع إلى ربح مادىٍّ ، والإخلاص وحده هو سر هذه الأعمال الجليلة .

ورقة الشعور هى التى تبعث على انفعال النفس وتأثر العواطف ، وتدفع الإنسان إلى مايحمد عليه من الواجبات الإنسانية .

المال كل شىء فى الحياة : هذا مبدأ فاسد تشبعت به النفوس والأفكار . نعم إن المال يلوح أنه روح الحياة لمن يصيبه الإفلاس التام يوما أو أكثر ، ويكون فى بيئة لم يعرفها ومكان لم يطرقه بعيدا عن ذوى صداقته وقرباه . وإن مايقاسيه من نكد العيش وآلام الحياة وما يمر عليه من التجاريب فى هذا الزمن القصير ليمكنه من معرفة فلسفة الفقر والفقراء ودرسها درسا لا يتسنى له على أحسن مدرس حكيم .

يقال إن المال هو واسطة النصر فى الحروب . نعم الحروب تقتضى النفقات الطائلة ، ولكن هل يكفى أن يبذل المال للدفاع عن الوطن وحفظ كرامته ؟ إن لنا من التاريخ لخير جواب عن هذا السؤال ؛ فإن ما كان بين جيوش الفرس ونفر اليونان وانتصار القدامين عن بلادهم المستقتلين فى الذود عن حياضها يناقض هذا القول ويدل على بطلانه .

نعم إن المال يكون واسطة للإكثار من المدافع والبنادق والسيوف والرماح والعمارات البحرية والخيول ، ولكنه لا يمكن أن يكون ثمنا للمعارف الفنية والفنون الحربية والسياسات الرشيدة والنظام الدقيق والطاعة والحماسة والوطنية ، والنصر فى الحقيقة راجع إلى هذه الأسباب وتوافرها فى المقاتلين .

قد يتوهم البعض أن المال وحده يخفف متاعب المجتمع ، ويلطف ما فيه من أنواع الشقاء ، والحقيقة أن المال من بواعث التطرف والإفراط ، فإن لم يكن له سياج من العقل والتعفف والطيبة والاختبار كان سببا للإضرار بمالكه وبغيره بدلا من النفع : فكثيرا ما كان الإحسان مثلا (وهو من ملطفات الشقاء) باعثا على إفساد النفوس وتعويدها الخمول والكسل والبقاء عالة على المجتمع ، وهذا لأن المثرى المحسن لم يتخير مكان العمل ، ولم يعرف كيف يميز بين من يحتاجون الصدقة وبين من يحترفون التسول

لقد وجد المال لقضاء حاجات الإنسان وواسطة التعامل وتبادل المنافع ، فإذا ما تعدى هذه الغاية وتحرر من رق الحقيقة وتغلب على العقول وأفسد النفوس وصار له السلطان المستبد على الأفكار والقلوب وأزرى بالحياة الأدبية والكرامة والحرية وتعمد الناس كسبه من كل سبيل كيفما سولت لهم أنفسهم وفتقت لهم الحيلة ، وإذا ما ظن الأغنياء أنه سبيل للحصول على ما لا يجوز نيله من حقوق الناس أو أعراضهم أو كرامتهم — حق للعقلاء أن يتمردوا على هذا السلطان المستبد أو المعتقد الباطل وأن يحاربوا هذا المبدأ الفاسد ؛ ليستأصلوه من العقول السخيفة والنفوس الموبوءة ؛ لتحل مكانه الحقيقة الصالحة للاجتماع فيتلطف الشر

الفاشى وقل شقاء العالم

وإذا كانت قيمة الأشياء تقدر بمالها من الضرورة والحاجة الماسة حق لنا أن نذكر الناس بأن نعم الله الأكثر ضرورة للمخلوق الحى منحت بلا مقابل وهى متاع للجميع ، فلا يجوز أن يكون لما لا قيمة له بجانب هذه الضروريات ذلك الشأن الهام والسلطان على كل العالم

سابعا : الاعتدال فى حب الظهور :

من أشهر الأمور الصبيانية التى امتاز بها أهل هذا العصر حب الشهرة والظهور ، فلا يكاد الباحث يجد بين هذا الملأ من لم يتأصل فيه هذا الداء . وإن الناس ليخالون الهدوء والسكون عارا لا يمحى ، فتراهم يتواثبون إلى الظهور والإعلان عن أنفسهم بما فى وسعهم وعلى قدر ما تفتق لهم الحيلة ظنا منهم أن الرفعة وكل الشرف فى الظهور والحطة والهوان فى الخفاء ، بل ترى شأن من تجاوزتهم الشهرة شأن الضالين الذين لا يعرف لهم خبر ولا مفر ، أو شأن الغرقى تحطمت بهم السفينة فألقتهم على صخر فى وسط المحيط فوقفوا على قمة يلوحون بثيابهم ويبلغون السماء بصراخهم ليسمعهم سامع أو يشعر بوجوهم كائن حى

وليس الجنون حبا فى الظهور خصيصا بذوى العقول السخيفة أو رجال المال والدجالين والممثلين ، وإنما هو جنون يصيب طوائف الإنسان بلا فارق ولا تمييز ، وأشد ما تكون وطأته على رجال السياسة والأدب والعلم والدين ؛ فإن هؤلاء الرجال الممتازين معما أوتوا من علم ومقدرة أكثر الخلائق تطلعا إلى الشهرة

ومن المصاب أن رجل الخير الذى يعمل الطيبات يملأ الدنيا طبلا وزمرا حينما ينهض لعمل خير ليلفت إلى شخصه أنظار العالم ويستدر المديح والإطراء . وكم برزت العقول فى استنباط الوسائل الشيطانية للإعلان عن النفس والتغرير بالناس !!

من يسأم العيش وسط الجموع ويضره العشير الثائر ويؤذى مسامعه تنافر

الأصوات يترك ذلك المكان ، ويفزع إلى ناحيــة من الأرض الفسيحة ليجتلى منظر الطبيعة الجميل ويعجب بمجرى الماء المتدفق بين المزارع بلا جلبة ولا حس اللهم إلا إن كان له خرير يشجى ولا يُسْأم .

إن العزلة والبعد عن المجتمع الفاسد المضلل خير من الحياة المتعبة وسط الجموع التى ترى الراحة فى الخداع والغش ابتغاء المنفعة الشخصية والرقى ولو فوق أكتاف الناس ورءوسهم. ما أشهى الحياة بين مناظر الطبيعة الجميلة وبين الحيوانات الهائمة على وجهها !! فإنها أكثر إيناسا من الإنسان الخبيث وأقل أذى وضرا من هذا الوحش المتحضر !!

إن من يرتطم فى المدن ويحشر بين الزمر والجموع يشقى نفسه وقد ينسى الخالق لأنه لا يذكره ولا يتمكن من رؤية السماء التى تظله ما دام لاهيا بما أمام عينيه عن مشاهدة تلك الصحيفة الصافيــة وعما فيها من الكواكب المتلألئة والنجوم الزاهرة المتألقة .

اخرج إلى الفضاء غير المحدود حيث تخشع النفس هيبة وإجلالا ، وانظر إلى الأفق المترامى الأطراف وهو يشير إلى أبواب الأبدية تعرف حقارة الإنسان المختال ، وانظر إلى الأزهار العطرة تعرف قصور المخلوق عن مجاراة الخالق المبدع وتشعر بضعف ذلك المكابر المعتد بنفسه .

إن الصانع القدير يعمل بلا جلبة ولا يتكلف أقل عناء لإظهار مقدرته على الإجادة والإبداع ، فلا تخدع العاقل المظاهر والظواهر ، وليعلم أن كثرة الإعلان دليل حقارة المعلن عنه .

فى المجتمع كثيرون من رجال الخير يعملون من وراء ستار ويضمرون فى أنفسهم آراءهم ومشاريعهم الخيرية ويكتمونها ، ويرى الإنسان اغتباطه بالكتمان أكثر من شغفه بالعمل نفسه فلا يقف على ما يجول بخاطره إلا الله .

ومن لا يريد بعمله غير القيام بالواجب وإرضاء الله والضمير ينال أجره كاملا

ثوابا من الخالق وسرورا نفسيا لا يعرف لذته غير من ألفوه وشعروا به ، فإذا ما أرادوا أن يعربوا عنه قلت قيمته وزال عبيره .

والحكيم من يتوخى فعل الخير ويفعله هادئا ليكون له من عمله لذة المعجب بالطبيعة فى خلوته . وليكن عمله مجردا من الغاية وهو مقتنع بأنه إنما يعمل غير طامع فى الجزاء والشكر .

رب واهم يظن ذلك محالا أو يتصور العالم خلوا من أفراد لهم هذه الميزة الحقة . والحقيقة أن الوجود عامر بكثير من أولئك الأفاضل الأجلاء ، ولو شاء أحد أن ينقب عنهم ويدل الجمهور عليهم لأساء إليهم فى أعز أمانيهم وهو عمل الخير فى الخفاء والابتعاد عن الشهرة .

والمحب للإنسانية العامل لإسعادها يتمنى أن يكثر عددهم وتشتد عزائمهم وأن يحذو الناس حذوهم فى الرغبة فى المساعدة والإصلاح بلا إعلان عن النفس والاعتداد بالشهرة لأنها فى أغلب الأحايين تكون وهمية لا وجود لأسبابها .

إن من يعتد بالشهرة يخدع نفسه لأنه يخدع الناس أولا ثم يغتر بذاته فيضل عن معرفة حقيقة شخصه ولا يعود يهتم إلا بما له من شهرة وذكر ، فتنحصر حياته ومجهوداته فى الظهور وخلق أسبابه ، وفى هذا ما يكفى لصرفه عما يفيده خلقيا وأدبيا ولحبس أنظاره فى مجهر أسود .

يظهر الممثل على المسرح فى لباس الملوك وجلالهم فهل له حقيقة قدر الملوك ؟ وهل يقدر على الظهور فى الشوارع وبين الجماهير بتلك الملابس المطرزة الموشاة بدون أن يناله من الهزء والسخرية ما يرده إلى التعقل والندم ؟ إن عاشق الشهرة لأقرب الخلائق شبها بقياصرة المسارح ، فإذا ما دخل خلوته وخرج من ثيابه كان شأنه شأن ذلك القيصر الكاذب إذا ما خرج من المسرح ودخل غرفة الزينة حيث ينزع لحيته ويطرح رداءه الموشى ليعود إلى حاله الحقيقية وشكله المعهود .

وازن بين ذلك الرجل المخادع إذا ماخلا بنفسه وتجرد من مظاهره واستلقى على سرير راحته وفاعل الخير إذا ما اضطجع ليرقد ، فليس من الصعب إدراك مايتردد على أفكار الرجلين ، أو تصور مايشعر به قلباهما ولا من العسير معرفة أيهما أكثر سرورا من نفسه ورضا من حاله واطمئنانا إلى الحياة ، فالخير المجهول والمعاونة الميسورة والإصلاح السرى هى من أقوى أساس تقدم المجتمع وتخفيف متاعبه وتلطيف همومه .

ولو كفت تلك الأيدى الكريمة عن العمل المستور واقتصرت على عمل من يتظاهرون بالمساعدة ونصرة الإنسانية لمجرد الشهرة بذلك لعرف الناس قدر أولئك المتنكرين ، ولمسوا فضلهم ولم يعودوا يغترون بترهات الخداعين المضللين عباد الشهرة والظهور .

أثر حب الظهور فى الأسرة :

ورث أحد الأغنياء مالا طائلا وخصالا حميدة فقضى حياته فاضلا ، غير أن أحد الأمراء الحاكمين جاء لسوء حظ ذلك الوجيه ، فابتاع ضياعا إلى جواره ، فلاح للرجل أن يضيف الأمير لينال حظوة فى عينيه ، فهدم منزله العتيق وبنى على أنقاضه قصرا فخما وأنفق الذهب الوهاج فى تأثيثه حتى نفد ماله ، وانتظر حلول الأمير على غير طائل ، ونزل عليه الفقر قبل أن ترى داره ذلك الضيف المنتظر ، فما أغناه قصره ولا ستر الرياش عوره .

إن هذا الجنون ليصيب كثيرا من الناس على صور مختلفة ، فيضحون راحة الأسرة فى سبيل التمتع لحظة بما لا يفيد وجوده ، ولا يضر عدمه ولا تعظم مصائب الأيام .

كم من الأموال الطائلة بذلت فى سبيل الترف !! وكم من الثروات ضاعت فى إعداد معدات النعيم قبل أن يحصل المبدد على ما أراد !!

إن الجهل المطبق خروج الإنسان عن المألوف للحصول على ماعاش الإنسان

دهورا قبل ابتداعه وبدون حاجة إليه . إن سعادة الأسرة ينقصها الاعتدال والحكمة ، وهذا يتطلب لرياستها أفرادا معتدلين لهم من التربية مايكفل توفير السعادة لأسرهم، فإن ضعفت الرءوس ضعفت الأسر ، وارتج معها أساس الإصلاح .

من المحال أن تتكون قوة الأمة ويتم إصلاحها بغير إصلاح الأفراد والأسر ، ومن شاء أن يرى كيف تزول العادات القومية فليدرب الأسر على التهاون فى شئونها وترك العناية بتربية أفرادها فإنه لا يمضى ردح من الزمن حتى تتراجع الأمة إلى أسفل منازل الحياة .

إن بعضا من الأسر تنزوى بين الجدران وتبتعد عن الاتصال بالجماعات ، فهذه الأسر حجر عثرة فى سبيل الوحدة القومية ودخيلة تختلس ما للأمة وتهضم حقوق الاجتماع ، فحقيق بكل إنسان أن يستأصلها ليطهر الجماعة من مضارها .

إن الأحزاب تعمل للصالح العام كل على قدر ما يرتئى ، ولكن الأسر المعتزلة لا تهتم بغير مصالحها الشخصية ، فتكون حملا على المجتمع وضررا عاما بين الناس .

الأسرة هى الأساس الوحيد لتقدم الأمة ورقيها ، فيجب أن تكون العناية بها شديدة لأنها واسطة لنشر الفضائل والأخلاق القومية ، وفيها ينشأ الأفراد على المبادئ الشريفة أو السافلة ، وعلى قدر حضارتها يكون رقى الأمة ، ويظهر ذلك جليا فى الأفكار والأعمال وفى الأقوال وفى كل المظاهر ، حتى ليظهر فى المصنوعات كالأثاث والرياش والأغانى والأناشيد

إن البدع أخذت تقوض دعائم الأسر وتتسرب إليها تحت زى المدنية ومقتضيات الضرورة ، وما أكثر ماتروج فى فرص الأعراس والمآتم حيث تنشأ الأسرة تتقزز من كل قديم ألفته .

وإن المرء ليستهين أولا بالأمر فيبدل الأثاث ثم لا يلبث أن يبدل تدريجا ما كان محتفظا به من التقاليد القديمة والخلال التى شب عليها ، فيخلق خلقا جديدا على

ماشاءت أهواؤه ، وتتلاشى العادات القومية ، وتنتشر المدنية الموهومة مراعاة للذوق الجارى ومقتضيات العصر الجديد .

إن الحكيم ليعوذ من البدع والمبتدع ومن كل مرادفات هذه الكلمة وما يشتق منها ، وخير للمرء أن يتدبر قبل أن يتورط ، ويتئد قبل أن يشتط ويحرص على مبادئه وعاداته القويمة ، فإن الفضائل خلقت مع الانسان . نعم إن لكل جديد طلاوة إلا أنه فى غير نفاسة القديم الجيد ، فليتق الله المبتدعون ، وليحرص على كرامتهم العائلون .

إن الكثير من الشبان عند زواجهم يبذرون ذات اليمين وذات اليسار ليبتاع فرش الدار وأثاثها على آخر طراز مبتدع ليمتعوا أنفسهم بمثل مايرونه فى الأندية والمجتمعات والمراقص العامة التى استكن حبها بين جوانحهم ففقدوا الفضيلة والراحة والسعادة .

إن هؤلاء يفضلون البقاء خارج دورهم ، بل يفضلون الكدر خارج منازلهم على السرور والسعادة فى دورهم وقصورهم ، وكان عهد السالفين يقيمون على أرائكهم للسمر وتبادل الود وتوثيق روابط الألفة والاخاء .

إن الفساد عم كل الطبقات ، وأصبح من المدنية هجر الدور لتعمير الحانات والمواخير ، ولم تخل من ذلك الضياع والقرى .

وليس الفقر ونكد العيش الذى يشكو منه العالم بكاف للدلالة على سوء الحالة التى وصل إليها أبناء العصر ، ولو تساءلت عن السبب الذى يدعو القروى إلى هجر داره وغشيانه الحانات وتأففه من المجتمعات العادية فى ضوء القمر لكان الجواب أنه التحضر . اللهم إن كانت الحضارة هى هذا الفساد الذى يخرب الدور ويفسد العقول ويقتلع السعادة من البيوت الآهلة فإنها لبئست المدنية ، وأفضل منها البداوة والهمجية .

المدنية الصحيحة بعيدة عن كل هذه النقائص بعد الخير عن الشر ، وما هذه إلا إفراط لارضاء شهوة النفس وتقليد نشأ عن ضعف الارادة وعن إهمال فى

واجبات الأسرة وترك الاعتدال فى العيش والسرور . ولا علاج لذلك إلا بالرجوع إلى العادات القديمة الحسنة فى اللهو والسرور ففيهما مايشرح الصدور. ولو وازنا بين الأغانى القديمة وبين مايتغنى به دعاة الفجر لتهييج العواطف لعرف الفرق بين الفضيلة والرذيلة والميزة بين العفاف والطهر .

زينة المرء الخلق ، وكل فرد ساءت أخلاقه سقط فى نظر الناس ، والأمة مجموع أفراد فمتى خلا أفرادها من الأخلاق الفاضلة تجردت الأمة من دلائل الكمال وهوت ، فالحكمة فى الاحتفاظ بالأخلاق والعادات القومية.

وليس ذلك بمحال، إذ ماهو إلا وجود روح الاعتدال التى تحبب حياة الأسرة إلى الإنسان .

إن حياة الأسرة لاتحتاج أفرادا عديدين أو دارا مشيدة واسعة ليست فى استطاعة العائل ، فالرجل يستطيع أن يهنأ فى كوخه مع زوجه وأولاده والسعادة ترفرف على ذلك الكوخ الصغير .

إنك لتدخل دارا تنقبض منها لما فيها من رطوبة تقشعر منها الأبدان ، وتدخل أخرى فينشرح صدرك ، وماسبب ذلك إلا الإن للقاطنين تأثيرا فى الأماكن .

إن المرء لينتقل من دار إلى أخرى فيحن إلى القديمة ويمر بجدرانها فتذكره بحوادث الماضى والأوقات الهنيئة ، وإنه ليحتفظ بأثر من الآثار وقد لايساوى شيئا وهو يجد فى تلك الأشياء سلوة وعزاء وتذكارات لذيذة تعيد إلى القلب شيئا من السرور أو السعادة الماضية . فهل يشعر أبناء العصر بشىء من هذا الشعور ؟ إن التحول الدائم والتغيير المستمر فى الأماكن وشكلها أو رياشها وفى الأخلاق والعادات يترك الناس على غير هدى ومبدأ ثابت إلا أن دار الأسرة هى الموئل الذى يجد فيه المرء الراحة عند التعب والحب الطاهر إن عرف كيف يغرسه ويواليه حتى ينمو ويثمر . وهى المكان الذى يجد فيه العزاء إن أصيب بمكروه والعناية إن مرض والراحة إن شاخ ، وفيها وبها يخدم الوطن ويخرج له أبناء صالحين يعملون لصالح البلاد ونفعها .

التربيةوالاعتدال

لما كان الاعتدال من نتائج العقول الحكيمة كان للتربية تأثير فعلى ونفوذ لا ينكر ، والمشاهد الآن أن الناس تعنى بالتربية على وجهين :

الأول تربية الأطفال على مقتضى رغبات الآباء ، والآخر تربيتهم على مقتضى أهوائهم الذاتية :

وفى الحالة الأولى يكون الطفل فى اعتبار الملاذ الكمالية للوالدين ، وينزل منزلة ما يملكون من متاع ، وقد تقل وتكثر درجة اعتباره لديهم على قلة عواطفهم وكثرتها ، ومن المحقق أنه كلما زاد ولعهم بالمنافع المادية قلت قيمة الأطفال فى أنظارهم ، فإذا شب الطفل عاش تحت قدمى والديه ولا يفكر ولا يتكلم ولا يتزوج إلا بإرادة ولى أمره ، وربما كانت هذه السلطة فى يد من لا مبدأ لهم ولا إرادة فيكونون سببا فى إفساد تربية الابن وفى نشأته حتى لو كان للطفل إرادة قوية ، فيبذل ذووه جهدهم فى تذليله إما بالقوة وإما باللطف .

وليس ذلك مقصورا على بعض الأسر بل منتشرا فى معاهد التربية ، وهذا هو الاعتساف بعينه وتغلب القوة على الضعف بغير مسوغ ، وكثيرا ما يقنع الإنسان بأن التربية على هذا الوصف هى التربية الصحيحة ، والحقيقة أنها ذريعة لتجريد الخلائق من كل إرادة ونزوع إلى عمل الأوصياء على السفهاء : ذلك بأنهم يريدون أن يكون الناس من نوع واحد كسائر النبات والحيوان ، ولكن الإنسان غيرهما ، وهذا التقييد مضر مؤخر رقيه . وإن الناس مختلفون فى الطبائع والميول والرغبات حتى ليعوزهم كثير من وسائل التربية ليكون لكل فريق ما يوافق طبيعته واستعداده ، والتربية التى يكون أساسها الضغط كثيرا ما تسبب فورة النفوس ، فتكون سببا للفساد والمشاكل ، وإذا حسنت الظواهر فلا يكون وراء ذلك إلا التذمر والحقد والتمرد .

أما النوع الآخر فهو على عكس الأول فى العناية وينحصر ترك الطفل على هوى النفس ، فلا يلبث بعد ولادته أن يكون له المقام الأول وإليه تتجه عناية كل

فرد من أفراد أسرته إذا بكى أو استيقظ أو درج أو ترعرع ، ولا يلاحظ أحد ما ينتج من ذلك التدلل وصلابة الرأى وعدم الاحترام والقسوة إلا بعد فوات الوقت ، ويكون هذا مدعاة لفساد خلق الصبى

وهذه التربية ظاهر عيبها وهي عامة عند كل من لم يعن بالماضى ، ويستطلع أمر المستقبل من عبر الأيام وحوادثها وعند كل من يقف على شىء من النظام والتقاليد القومية والأخلاق الفاضلة.

إن هذه التربية لتقوى فى النفس الميول الشهوانية والظلم وهى سيئة العاقبة كالنوع السابق ، والأكثر ضررا اجتماع النوعين وتوافر الرذيلتين فى الفرد الواحد

والواجب ألا تكون التربية وفقا على رغبات الوالدين ولا جريا على ميول الطفل لأنه يجب أن يربى وفقا لمقتضيات الحياة . والغرض من التربية صيرورة الطفل عضوا عاملا فى المجتمع متشبعا بالإنسانية وحب الإخاء والحرية ، وكل تربية لا ترمى إلى هذه الأغراض تكون سببا لتقويض أركان الراحة والسلام

إن الحظوظ كلها وكل ما يمر على الطفل من نشأته إلى شيخوخته يمكن إجمالها فى كلمة المستقبل . تلك كلمة مفردة ولكنها الشغل الشاغل للأفراد والجماعات والشعوب وكل العالم ، وينطوى تحتها ما تتعلق به النفس من الآمال والأمانى ، والطفل فى الصغر قاصر عن إدراك معانى هذه الكلمة وأهميتها ، فعلى ذويه أن يوجهوه إلى المنهج الذى يحسن اتباعه وكل من فكر قليلا يرى أن تأثير التربية ليس مقصورا على الطفل والأسرة وإنما هو واقع على مجموع الأمة وكل المجتمع وكل المنافع والمصالح العامة،فيجب دائما تمثل الطفل فى دوره الجدى وحياته القابلة لتكون العناية بتربيته موجهة دائما إلى المنفعتين الشخصية والاجتماعية

والتربية الحقة هى ما كانت بعيدة عن مبدأ تسلط القوة على الضعف وقامت على إنكار الذات وكل ميول النفس الخبيثة التى تسبب النفور والكراهية ، والتربية الكاملة ما قوت الروح وأخضعت الجسد وحاجاته فكان العمل بإرادة العقل

لا بإرادة النفس والهوى ؛ إذ مهم التربية تعهد الإرادة وتقويتها فى نفس الطفل وتطهيرها من كل ميل فاسد فيكون العمل إذن نتيجة إرادة حازمة وهذه هى الحرية المنشودة .

والسلطة المطلقة التى فى يد الآباء والمعلمين يكون تأثيرها فى الطفل تأثير العوسج الذى يخيم على النبات فيذبله ويميته .

أما السلطة التى تستمد قوتها من الحكمة والحقائق ويكون غرضها تقويم اعوجاج الطفل فإنها له كالحرارة والهواء الطلق للنبات ، ولهذه السلطة من قوة الحق ما يغذى الروح ويصلحها ، فالتربية بغيرها نوع من الشطط فى الحق .

ويمكن تلخيص التربية الصحيحة فى أنها هى التى تخرج رجالا ونساء أحرارا يعرفون معنى الحياة ويطالبون بما لهم ، ويؤدون ما عليهم ، ويحبون غيرهم مع احترام أنفسهم .

المستقبل وحده هو الذى يتغلب وتمر أدواره على الحدث الناشئ إلا أنه يجب تذكيره بالماضى لأن فيه العبرة للمستقبل المظلم ويجب بث روح التواضع ولا أنجع لغرسه إلا مشاهدته الوالد والوالدة يؤديان واجب الاحترام لجده الشيخ الفانى وأفراد البيت جميعا

وإن الخادم له حقوق ككل آدمى ، وكل تحقير له شذوذ فى الأدب الصحيح ونقص فى التربية والأخلاق ، ومن أهمل ردع ولده عن الإغلاظ للخادم لايلبث أن يرى النقص يتطرق إلى نفسه ، ثم تظهر نتيجته بعد قليل فى معاملته لذات الوالدين ولسائر الناس

والطفل يدرك الاحترام لأنه يعجب ويستحسن ويتقزز ؛ فيجب أن تتشبع به نفس الطفل منذ الصغر ، والإهمال يقتل هذه العاطفة فى القلب والعقل ، وإذا لم تتحقق بين الكبار ساءت فى نفوس الصغار وكان لهم منها نموذج فاسد يثبت لهم فساد التعليم والمبادئ الصحيحة التى تقتضيها التربية

الغرض من التربية كامن تخريج رجال أحرار ، فمن شاء أن يربى أبناءه على

مبادئ الحرية فلينفث فيهم روح الاعتدال والبساطة ، فإن الاعتدال من أسباب الحصول على السعادة لا من الوسائل المؤدية إلى الشقاء

من الواضح أنه كلما كثرت لعب الطفل كان أكثر ميلا إلى البكاء والكدر، فليكن من اهتمام المربى عنايته بتعويد الطفل القناعة والاكتفاء بالقليل ، ولكن البعض من الآباء يجتهد فى إرضاء رغبات أبنائه فيعلمهم الشراهة والكسل ، ويجعلهم أرقاء للشهوات لا أحرارا مستقلين . ومع كون الترف يضنى ويسئم الجسم فإنه يكون سببا من أسباب الشقاء وعدم الرضا بالمآل وبذل ماء الوجه ، فالمشاهد المعروف أن وفرة أسباب العيش مدعاة إلى الكسل وضعف الإرادة، وليس أشق على المجتمع من وجود فريق من هذا النوع الإنسانى الساقط بينه، وفى منظر ذلك الفريق التعس عبرة للناظر وأحكم المواعظ .

ليس فى الصفات خير من السذاجة وسلامة الضمير ، والطفل بدون السذاجة كالطير بلا ريش ، فليتق الناس ربهم فى النابتة وليحتفظوا ببقاء الروح فيها ، وليعملوا على الرقى الاجتماعى والتمدين الصحيح والرجولة الحقيقية .

رأى ابن الجوزى فى الاعتدال

لا ينبغى للإنسان أن يحمل على بدنه مالا يطيق فإن البدن كالراحلة إن لم يرفق بها لم تصل بالراكب . فترى فى الناس من يتزهد وقد ربى جسده على الترف فيعرض عما ألفه فتتجدد له الأمراض فتقطعه عن كثير من العادات: وقد قيل : عودوا كل بدن ما اعتاد . وقدقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضب فقال : أجدنى أعافه لأنه ليس بأرض قومى . وفى حديث الهجرة : إن أبا بكر رضى الله عنه طلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الظل وفرش له فروة وصب على القدح الذى فيه اللبن ماء حتى برد.وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم على قوم فقال : إن كان عندكم ماء بات فى شن وإلا كرعنا . وكان صلى الله علية وسلم يأكل لحم الدجاج . وفى الصحيح : أنه كان يحب الحلوى والعسل . وكان إذا

لم يقدر أكل ما حضر . ولعمرى إن فى العرب وأهل السواد من لا يؤثر عنده التخشن فى المطعم والملبس . وذاك إذا جرى بعد نوبته على عادته لم تستضر . فأما من قد ألف اللطف فإنه إذا غير حالته تغير بدنه وقلت عبادته . وكان ابن سيرين لا يخلى منزله من حلوى ، وكان سفيان الثورى يسافر وفى سفرته الحمل المشوى والفالوذج . وقالت رابعة : ما أرى لبدن يراد به العمل لله إذا أكل الفالوذج عيبا .

فمن ألف الترف ينبغى أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه . وقد عرفت هذا من نفسى ، فإنى ربيت فى ترف فلما ابتدأت فى التقلل وهجر المشتهى أثر معى مرضا قطعنى عن كثير من التعبد حتى إنى قرأت فى أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن ، فتناولت يوما ما لا يصلح فلم أقدر فى ذلك اليوم على قراءتها . وإن مطعما يؤذى البدن فيفوته فعل خير ينبغى أن يهجر . وقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من أصحابه حضر عنده وقد تغير من التقشف فقال له : من أمرك بهذا ؟

فالعاقل يعطى بدنه من الغذاء ما يوافقه . ولا تظن أنى آمر بالحث على الشهوات ، ولا بالإكثار من الملذوذ ، إنما آمر بتناول ما يحفظ النفس ، وأنهى عما يؤذى البدن. فأما التوسع فى المطاعم فإنه سبب النوم ، والشبع يعمى القلب ، ويهزل البدن ويضعفه . فافهم ما أشرت إليه ، فالطريق هي الوسطى .

مزايا الاعتدال والاستقامة

١ ــ حفظ الصحة : فما اتصف إنسان بالاعتدال إلا أصبح موفور الصحة جيد السلوك ؛ لأنه لا ينهمك فى العمل أو يفرط فى الملاذ حتى يفقد الصحة والعافية .

٢ ــ حفظ المال : ذلك بأن الاعتدال فى الإنفاق يبعد الإنسان عن الإسراف الذى يوقع فى الدين ومذلته ، فمن اعتدل فى إنفاقه حفظ ماله وصان كرامته .

٣ ـ استمرار العمل : فالذى يعتدل فى مزاولة عمله فلا يُفْرِطُ فيه ولا يُفرِّطُ يكون دائما متجدد النشاط مستريح العقل قادرا على مواصلة أعماله ، أما من ينهمك فى العمل سواء أكان تلميذا أم صانعا أم تاجرا أم مستخدما فإنه يفقد نشاطه الجثمانى والعقلى ، وتنتابه الأمراض والأسقام ، فينقطع عن العمل مرغما : (إن المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى)

٤ ـ الاستقامة أساس النجاح فى جميع الأعمال : فلن ينجح التلميذ فى مدرسته إلا إذا استقام فى سائر أعماله ، وكان مثابرا على العمل حريصا على تأدية حقوق الله والوطن والمدرسة والإخوان ولن ينجح إلى وضعف المستقام فى تجارته ، فابتعد عن الغش والخيانة والتطفيف فى الكيل والميزان مما ينفر الناس ويدعو إلى بوار تجارته .

وهكذا يقال في الطبيب والمحامى والصانع والزارع وسائر الناس

٥ ـ الاستقامة عنوان الكمال النفسى ووسام الفضل وشارة الشرف : فبها يبتعد الإنسان عن سفساف القول والفعل ويعف لسانه عن ثلم الأعراض وطعن الأبرياء والخوض فيما لا يعنيه ، وبها يتخلق بأشرف الفضائل ، وليس فى الحياة شرف ولا حيلة أعظم من هذا .

٦ ـ الاستقامة سبيل الوئام والصفاء : فإن من استقام أحبه الناس وحاطوه بقلوبهم ، وعاونوه فى شدته ، وشاركوه فى السراء والضراء ، وبذلك يعم السلام ويسود الوئام .

تربية الاستقامة

يمكنك أن تروض نفسك على الاستقامة بما يأتى :

١ ـ اعمل بأوامر الدين الحنيف الذى ما أمر إلا بالخير وما نهى إلا عن الشر ، وخذ نفسك بإطاعته منذ الصغر حتى يصير العمل به عادة لك ، وراقب الله واعلم أنه مطلع عليك يعلم سرك وجهرك .

٢ ـ اجتهد فى طلب العلم الذى يثقف عقلك ويهذب نفسك ويريك مافى الفضائل من جمال ، فتندفع إليها وتتصف بها ، وقد علمت أن الأفكار أمهات الأعمال ، فمن سما فكره بالعلم والمعرفة كان أقرب إلى الفضيلة والكمال .

٣ ـ اقتد فى جميع أحوالك بالصالحين ، وصاحب خيار الناس ؛ فإنهم خير عون لك على الاتصاف بالفضيلة .

٤ ـ حاسب نفسك على غلطاتها ، وأجب داعى الضمير إذا عابك على شر فعلته أو طالبك بواجب قصرت فى أدائه ، فبذلك يقوى ضميرك ، ويحول بين نفسك والرذائل والشرور .

تربية الاعتدال

من الميسور لكل إنسان أن يروض نفسه على الاعتدال ويأخذها بأسبابه منذ نشأته حتى تصير هذه الفضيلة عادة راسخة فى نفسه تجلب له الصحة والرفاهية وتحفظ ماله وكرامته وتغمره بأسباب السعادة والنعيم ، ولأجل أن نوصف بالاعتدال ينبغى أن نراعى ما يأتى :

١ ـ الاعتدال فى الإنفاق : اعتدل فى طعامك وشرابك ولباسك ومسكنك وزينتك ومعيشتك ، ولا تتغال فى الطعام وأنواعه ؛ فرب قليل منه جيد التغذية رخيص الثمن خير من كثير مختلف الألوان ثقيل على المعدة باهظ الثمن . ولا تلبس من الثياب مالست بحاجة إليه ، ولا تسكن من القصور مالا طاقة لك بأجرته ، وألق عن نفسك الإفراط فى التجمل والزينة ، واعلم أن قيمة المرء بنفسه لا بثيابه وأن جماله بعقله وأدبه .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم مثلا كاملا فى الاعتدال فى الطعام ونحوه : قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : (لَمْ يَمْتَلِئْ بَطْنُهُ شِبعًا قَطُّ و كَانَ لاَ يَسْأَلُ أَهْلَهُ طَعَامًا وَلاَ يَتشَهَّاهُ)

فكن وسطا بين الإسراف والبخل ؛ لأن الإسراف مهلكة للمال مجلبة للفقر مما يحول بين المرء وأداء ما عليه من الواجبات لدينه وأهله وعشيرته ووطنه ، ولأن البخل مجلبة لذم الناس وسخطهم ، وفيه حبس للمال عما خلق لأجله من التداول فى قضاء المصالح الخاصة والعامة :

بين تبذير وبخل رتبة وكلا هذين إن زاد قتل

٢ ـ الاعتدال فى الكلام ؛ فلا تكن ثرثارة تخطب فى كل واد ، وتتكلم بمناسبة وبغير مناسبة ولا عييا تسكت حيث يجب الكلام ، واجعل قولك معبرا عن الحقيقة بلا زيادة ولا نقصان ، وليكن صوتك معتدلا غير جهير يصدع الآذان ، ولا خافت متلطف يسئم الأسماع .

٣ ـ الاعتدال فى العمل : اعتدل فى استذكار دروسك ورتب أوقاتك من أول يوم فى السنة الدراسية حتى لا تترا كم عليك المواد ، فتضطر إلى بذل مجهود لا طاقة لك به قبيل الامتحان ، فتضعف صحتك وتبعد عن غايتك .

٤ ـ وعلى الجملة ينبغى أن تعتدل فى كل أمورك من أكل ولباس وعمل واستراضة بل اعتدل حتى فى أسفك وسرورك ومحبتك وبغضك قال عليه السلام : (أَحْبِبْ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا ، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا) ؛ فإن الاعتدال عنوان المروءة الكاملة ، والعفة والاستقامة هى سبب السعادة فى الدنيا والآخرة .

ومما يقض المضجع أنه قد فشا فى الأمة المصرية عيوب وبدع وخرافات أبعدتها عن فضيلة الاعتدال : منها التغالى فى الأفراح والمهور وجهاز العروس والإسراف فى نفقات المآتم والمواسم والأعياد ، فهذه أمور لا تتفق وتعاليم الدين الذى جعل المبذرين إخوان الشياطين ، كما لا تتفق وأبسط مبادئ الاقتصاد الذى عليه تتوقف سعادة الأمم . والأفراد

والجماعات فعسى أن يستأصل ذلك المصلحون بما أُوتوا من بصيرة ثاقبة، وعزيمة ثابتة، فتسير الأمة في سبيل رقيها وسعادتها .

الشجاعة

تعريفها : نرى كثيرا من الناس إذا رأوا الإنسان عرضة لسيارة تدهمه ، أويم يبتلعه أو نار تلتهمه ، أو سفاك أثيم ظالم يهدد حياته ، أو حشرة تؤذيه ، أو حيوان يفترسه ، أو أبصروا مريضا مغشيا عليه — خفوا سراعا إلى تخليصه واقتحموا المخاطر في سبيل إنقاذه من الهلاك وتحملوا الآلام في سبيل نصرة المظلوم وإسعاف المريض : أُولئك هم الشجعان .

وترى غيرهم إذا رأوا واحدا من هؤلاء لا يجرءون على تحمل الألم ، ولا يقدمون على اقتحام المخاطر ، بل ربما طار لبهم ، وذهبت نفسهم شعاعا ، وفروا هاربين : أُولئك هم الجبناء .

فالشجاعة : هي الثبات عند ملاقاة الشدائد ، والإقدام على ما يعتقده الإنسان حقا من قول أو فعل ، مهما اعترضه من العقبات ، وصادفه من الصعاب ، وهي ضربان : جسمية ، وخلقية أو أدبية :

الشجاعة الجسمية : تتجلى في الجندي وقت اشتداد الحروب تراه يخوض بحار المنايا ، ويحتقر الموت ، فلا يكترث لعدده المهلكة : من سيوف قاطعة ، ورماح مشرعة ، ومدافع قاصفة ، وطيارات قاذفة ، وغازات خانقة ، وأساطيل فاتكة ؛ ولا يفزعه في حومة الوغى ما تراه عيناه : من دماء مراقة ، ورءوس متطايرة ، وأجسام هامدة ، وأشلاء مبعثرة ؛ بل يرى الفخر كل الفخر في أن تسيل نفسه ذياداً عن حوزة وطنه ، ودفاعا عن علم بلاده ، وكفى بذلك شجاعة .

وتتجلى في المطفئين الذين يخاطرون بأرواحهم لينقذوا غيرهم من الهلاك ، وفيمن يقذفون بأنفسهم في لجة اليم لإنقاذ المشرفين على الغرق ، وفي أُولئك

الأطباء ورجال الإنسانية الذين يغامرون بحياتهم فى مكافحة الأوبئة الفتاكة غير مبالين بالعدوى ، ولا ناظرين لشئ سوى إنقاذ الناس من خطر داهم : فكل هؤلاء لا يقلون عن الجندى شجاعة ، ولا ينقصون عنه تضحية ، وإن كثيرا منهم يذهبون ضحية الواجب شهداء المروءة ، ويستقبلون الموت بثغور باسمة وقلوب مطمئنة ، ويخلفون وراءهم مجدا خالدا ، وآثارا باقية .

الشجاعة الخلقية أو الأدبية : وهى الجهر بالحق وحرية القول ؛ أما اسمه بلسان الشرع فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والغرض من هذا الواجب الاجتماعى أن يرى المرء باطلا يريد أن يظهر فى مظهر الحق ، ويقوم مقامه ، فيحمله دينه وشجاعته وكبر نفسه على تأييد الحق ونشله ، وإزهاق الباطل وخذله . ويهتف بما علمه القرآن أن يهتف به فى مثل هذا الموقف : « وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا » . ولم تنجح أمة ولم تقم دعوة إلا على أساس الجهر بالحق ؛ وإن بقاء كل أمة فى الوجود متوقف على بقاء هذا الأساس متينا ، فإذا انهار انهارت الأمة على الأثر ، ولم يعد يبقى منها إلا الأثر . وهذا ماخشيه الشارع على أمته مذ قال صلى الله عليه وآله وسلم : « إِذَا رَأَيْتَ أُمَّتِي تَهَابُ الظَّالِمَ أَنْ تَقُولَ لَهُ إِنَّكَ ظَالِمٌ فَقَدْ تُوُدِّعَ مِنْهَا » : أى إذا وجد فى الأمة من يجرؤ على ارتكاب المظالم ، ولم يوجد فيها من يجرؤ على ردعه فقد تعرضت الأمة إذ ذاك للضياع وحق أن يقال لها : الوَداع الوَداع . وإذا بحثنا عن الأسباب التى أدت إلى عظمة أوروبا وقوة شعوبها ، وعلو كلمة دولها لم نكد نجدها تعدو ماأمر الإسلام به من وجوب الجهر بالحق : فقد مرت على أوروبا قرون وأجيال كانت فيها غائصة فى بحر من الأوهام والأباطيل ، ولبثت كذلك حتى هب « الجهر بالحق » من مضجعه ، فأنقذها من ذلك البحر ورد إليها الحكم والأمر ؛ وإن الإسلام ليعتبر شرف الأمم ، وعلو كعبها فى المدنية ، ومراتب الإنسانية على قدر مالديها من مبدأ الجهر بالحق ، ومسارعتها إلى نصرته

على الباطل : وآية ذلك هذه الآية الكريمة : « كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » فالقرآن لم يشهد لأتباعه بالرجحان والتقدم على غيرهم من الأمم إلا بثابت إيمانهم وحسن قيامهم بهذا الواجب ، وقد حضهم على أن يتخصص منهم طائفة للقيام بواجب الجهر بالحق وإحيائه ، فقال تعالى : « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ » وقد نهى الله تعالى عن كتمان الحق وذم التقاعد عن نصرته فقال تعالى : « وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » وقال تعالى : « كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ »

ومن قبيل الجهر بالحق «الشهادة» فعلى المرء أن يؤديها ولو على نفسه. قال تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « قُلِ الْحَقَّ وَلَوْ عَلَى نَفْسِكَ »، « اقْبَلِ الْحَقَّ مِمَّنْ جَاءَ بِهِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ وَإِنْ كَانَ بَغِيضاً بَعِيداً ، وَارْدُدِ الْبَاطِلَ عَلَى مَنْ جَاءَ بِهِ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ وَإِنْ كَانَ حَبِيباً قَرِيباً » ، « قُلِ الْحَقَّ وَلَوْ كَانَ مُرًّا » ، « لَا تَخَفْ فِي الْحَقِّ لَوْمَةَ لَائِمٍ » .

ومن الشجاعة الأدبية ما روى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سار فى طريقه يوما ففر من وجهه الصبيان ، إلا طفلا واحدا « هو عبد الله بن الزبير » فسأله عمر : مابالك لم تهرب مع إخوانك ؟ فقال عبدالله: لست مجرما فأخافك ، وليست الطريق ضيقة فأفسح لك . فأعجب به عمر وحيا فيه هذه الشجاعة الأدبية .

ولم تكن الشجاعة الأدبية وقفا على الرجال دون النساء ، فمنهن من ضرب

المثل بشجاعتهن وصراحة رأيهن : فقدروى أن أرمية الجحونية دعيت إلى مجلس أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان فقال : أتدرين لم بعثت إليك ؟ قالت : لا يعلم الغيب إلا الله . قال : بعثت إليك لأسألك : علام أحببت عليا وأبغضتنى ؟ وواليته وعاديتنى ؟ قالت : أحببت عليا على عدله فى الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطلبتك ما ليس لك بحق ، وواليت عليا على حبه المساكين وإعظام أهل الدين ، وعاديتك على سفك الدماء وجورك فى القضاء ، وحكمك بالهوى ! ! فقال لها : ياهـذه هل رأيت عليا ؟ قالت : إى والله . قال : فكيف رأيته ؟ قالت : رأيتـه والله لم يفتنه الملك الذى فتنك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك ! !

ودخلت « بكارة الهلالية » على معاوية وقد أسنت وعشى بصرها ترعش بين خادمين لها ، وكانت موالية لعلى كرم الله وجهه ، فقال لها : كيف أنت ياخالة ؟ قالت : بخير يا أمير المؤمنين . قال : غيرك الدهر . قالت : كذلك هو ذو غير ، من عاش كبر ، ومن مات قبر . فقال بعض الحاضرين : هى والله القائلة يا أمير المؤمنين :

أترى ابن هند للخلافة مالكا ؟ هيهات ذاك وإن أردت بعيد
منتك نفسك فى الخلاء ضلالة أغراك عمرو للشقا وسعيد

واندفع الحاضرون فى ذكر بعض قولها فى الانتصار لعلى ومناوأة معاوية ، فكان ردها على هؤلاء أن قالت : يامعاوية ، أنا والله قائلة ماقالوا ، وماخفى عليك منى أعظم . فقال معاوية : ليس يمنعنا ذلك من برك اطلبى حاجتك . قالت : أما الآن فلا وانصرفت .

تلك عظمة فى الشجاعة الأدبيـة من امرأة مرعشة متهدمة لا يماثلها سوى عظمة معاوية فى حلمه .

والتاريخ مملوء بكثير من الناس ضحوا بأموالهم وبأنفسهـم فى سبيل الحق ونصرته ، ومنهم الأنبياء والمرسلون ، والشهداء ، ونوابغ العلماء ؛ فقد أوذوا فى الحق

فتحملوا الأذى ، وباعوا أنفسهم وأموالهم مرضاة له .

« أهميتها » : ما أشد حاجتنا إلى هـذا النوع من الشجاعة ، وقد استنارت ووضحت الحقائق العلمية والاجتماعية ، وسهل على كل إنسان أن يقف العالم على آرائه وأفكاره ، وقـد عمت المطابع ، وانتشرت الصحف والمجلات العلمية ، وسهلت المواصلات ، وإن الذي يقعد عن الصراحة في القول الصائب ، والمجاهرة بالرأي السديد خوفا من المعارضة ، أوفرارا من النقد — لهو جبان ضعيف الإرادة خائر العزيمة لا يرجى منـه خير ، وأضعف منـه ذلك المرائي الذي يعرف الحق ويرى مخالفيه ، فلا يجهر برأيه ، ولا يقف عنـد هـذا الحد من الجبن ، بل يندفع في تيار الباطل ، ويساير المخالفين ، ويتفانى في نصرتهم . ولم يخل العالم وقتاما من ذوي الشجاعة الأدبيـة الذين رأوا العوج فقوموه ، والباطل فأزهقوه ، ولم يأبهوا بعناد المخالفين ونقد الناقدين ، حتى نشروا سـديد الآراء ، وبينوا سبيل الهدى والرشاد .

أثر الشجاعة في الحياة : لم تقم جلائل الأعمال إلا على دعائم من شجاعة القائمين بها : فلولا الشجاعة ما خاطر الرواد بحياتهـم ، راكبين الأهوال ، متسلقين الجبال ، متعرضين للوحوش الضارية ، والبرد القارس ، والثلج القاتل ، والحر اللافح ، والجراثيم الفتاكة ، إنمـا الشجاعة هي التي قادتهم ، وحفزت همتهم ، فاسـتهانوا بكل صعب ، واستصغروا كل خطب ، فـكشفوا القارات العظيمة ، والمجاهل البعيدة ، وملئوا البر والبحر والهواء بمخترعاتهم العجيبة من قطر وسيارات تقطع السهل والوعر ، وبواخر تمخر في عباب اليم ، وطائرات تشق أجواز الفضاء ، وغواصات تجرى تحت لجة المـاء ، وآلات تـكشف حقائق الأمراض ، وعدد تعالج أخطر الأدواء ، وكم من رائد ذهب ضحية الوحوش ، أو طعاما للأسماك ، أو دفينا تحت أطباق الثلوج ، أو أشلاء بين مخالب النسور أو ضحية لجرثومة كان ينقب عنها ، ويجوب الأقطار للوقوف على كنهها ، وتخليص العالم من شرها ، فبالشجاعة تعارف العالم ، واتسع العمران ، وارتقت

الحضارة ، وسهلت المواصلات ، وتقدمت وسائل الطب والتـداوى .

تربيــة الشجاعة : يتربى النشء على الشجاعة بالوسائل الآتيــة :

١ ـ مزاولة الرياضة البدنية كالوثب والتجديف وتسلق الجبال والقيام بالرحلات المدرسية ، والانتظام فى سلك الكشافة .

٢ ـ دراسة تاريخ الشجعان الذين ضحوا بحياتهم وأموالهم فى سبيل الدفاع عن الوطن والصراحة ، وإصلاح فساد بيئاتهم كالأنبياء والمصلحين .

٣ ـ اعتياد الصراحة فى القول ، ولو أدى ذلك إلى التعرض للعقاب ؛ فرب اعتراف هدم اقترافا .

٤ ـ عدم الإصغاء إلى تلك الخرافات والأباطيل التى يقصها بعض الناس للتسلية وتشمل ذكر الشياطين والمردة وقطاع الطرق مما هو بعيد عن الحقيقة ، ويزرع فى القلوب خوفا لا يسهل اقتلاعه .

٥ ـ تثقيف العقل بطلب العلم النافع حتى يقف الناشئ على حقائق الأمور فلا تجد الخرافات منفذا إلى نفسه .

تنائج الشجاعة : لولا الشجاعة فى كثير من العلماء لفات الناس الانتفاع بعلمهم وآرائهم وماتوا وقلوبهم صناديق مقفلة أحكم رتاجها الجبن ، وقام عليها حارس من الخور وضعف الإقدام ، فلم ينتفع أحدهما احتوته من خير وعلم :

ترى الخطيب يخطب فيعجبك حسن بيانه ، وطلاقة لسانه ؛ فإذا فتشته لم تجده على شىء من العلم وحصافة الرأى يستوجب إعجابك الكثير الذى أفضته عليه ، وما رأيته منه فأعجبك إنما هو أثر من آثار الشجاعة فى نفسه .

يتحدث إليك اثنان فى أمر من الأمور فإذا أحدهما غالب والحق يخذله ؛ وإذا الآخر مخذول والحق ينصره ؛ ذلك لأن الأول شجاع والثانى جبان .

ومن المعلمين من إذا رأيته فى درسه أعجبك منه حسن نظافته ، وترتيب أعماله ، وذلاقة لسانه ، وإذا حدثته فى مسألة وجدته دون غيره ممن لم يعجبوك فى دروسهم : ذلك لأن الأولين امتازوا بشىء من الإقدام ، فبـدت أعمالهم كاملة ، والآخرين

علـكهم الجبن ، فبرزت أعمالهم ناقصة .

كل يوم نسمع من أنباء الشجاعة ما يثير فى النفس عجبا يمحو كل عجب تقدمه : فهذان الطياران الفرنسيان اللذان اعتزما أن يعبرا المحيط الاتلنتى ، فعصفت بهما الأنواء فلقيا حتفهما ، ولما يدركا غايتهما — قام على إثرهما آخران ، فعبرا المحيط ، وفازا بما لم يفز به أخواهما . ولولا شجاعة هـذين الآخرين لقعد الخوف بكثير عن المخاطرة بأنفسهم فى أمر دونه الموت كامن .

ولولا بقية من الشجاعة فى الناس لبغى قويهم على ضعيفهم ، واستبد غنيهم بفقيرهم فأُريقت دماء ، وهتكت أعراض ، وسلبت أمول .

الجبن وآثاره

يمنع الجبن كثيرا من الناس عن إظهار عملهم كاملا فلا ينتفعون بما عنـدهم من علم وتجربة . إن هؤلاء وأمثالهم تظهر أعمالهم ناقصة دائما ، فيألمون لما يصيبهم من فوات المنفعة التى كانوا ينالونها لولا فقدان الشجاعة .

تجد كثيرا من الآباء يعاملون أبناءهم بالقسوة ، فيميتون فيهم قوة الشجاعة ، حتى إنك إذا حدثت أحدهم فى أمر عقل الخوف لسانه ، واضطرب فؤاده فلا يستطيع جوابا عما سألته عنه ، وليس أحق بمقت الله وغضبه من هؤلاء وأشباههم ممن يسلبون الأطفال شجاعتهم فيلقون بهم فى بحبوحة من الشقاء، وتتضاعف فيها آلامهم كلما عرض لهم أمر يقتضى شجاعة وإقداما .

إن الأمة التى تفقد الشجاعة يطمع فيها أعداؤها ، وتغزى فى عقر دارها ، ويستعبدها أضعف الأمم . ومن نقص الرأى فى الحـكام أن يتصرفوا فى رعيتهم بالجور حتى ينتقصوا شجاعتهم ، ويذهبوا بنخوتهـم ويتركوهم كالشياه فى ربقها لا تستطيع ليد القصاب دفعا .

ولقد كان من أسباب فوز العرب حين قاموا يفتحون ممـالك الفرس والروم ما امتازوا به من الشجاعة التى كانت أكبر مفاخرهم ، وأعظم ما يتمدح به شاعرهم : ذلك لأن حالتهم البـدوية ، وقيام كل بحراسـة نفسه ، والذود

عن أهله ، وعدم خضوعهم لسلطان قاهر يستذلهم ويستعبدهم ـ جعل الشجاعة تبلغ فيهم غايتها .

واجب الوالدين والمربين

والوالدان والمربون مطالبون بإحياء هذه الفضيلة فى نفوس الأطفال ، فعليهم أن يأخذوهم باللين ، ويعودوهم الكلام ، ويبيحوا لهم غشيان مجالسهم ، ومحادثة من هم أكبر منهم سنا ، ومجالستهم وسماع أحاديثهم ، والتشبه بهم فى أقوالهم وأفعالهم ، واستطلاع رأيهم فيما يتعلق بهم وردهم إلى الصواب بالحجة والموعظة الحسنة .

الشرف الحق

معنى الشرف :

الناس إزاء الشرف صنوف ومذاهب :

١ ـ يرى بعض قصار النظر أن الشرف فى كثرة الخدم والحشم والتباهى بالدور والقصور والتفاخر بالمال والعقار .

وهؤلاء ممن ضاقت عقولهم وطاشت أحلامهم ، إذ كيف يكون الغنى المنغمس فى حمأة الرذائل شريفا ؟ بل كيف يشرف من يسكن القصور الشاهقة إذا انحطت نفسه وانحدرت فى مهاوى الرذيلة والفسوق، وكان قد امتص دماء الناس وبنى ثروته على أنقاض غيره واستباح ما ليس له من الحقوق ؟

٢ ـ ويرى آخرون أن الشرف لقب يمنح وأوسمة تحمل ، وجاه عريض ومنصب رفيع ، وهؤلاء ليسوا على شىء أيضا ؛ فما كل من يحمل لقبا بشريف ، ولا كل من ولى منصبا رفيعا يعد من الشرفاء ، بل قد تكون رفعة اللقب وسمو المنصب فى يد اللئيم أداة هدم ومعول تخريب ومعوانا له على إيذاء الناس وإضرارهم .

٣ - ويرى أفاضل الناس وخيارهم أن الشرف أنبل معنى وأسمى قدرا وأنه يرجع إلى النفس وتكميلها حتى تبلغ الذروة من الفضيلة والكمال، فترتفع عن النقائص التي تحط من قدرها وتسمو عما يشينها ويُلحق بها الوكس والعار، ثم تندفع نحو الفضيلة وما يكسبها حسن الأحدوثة والفخار من كل عمل جليل يعود على الوطن والدين بالخير والفضل العظيم، فهذا هو الشرف حقا، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

فالشرف علو النفس وترفعها عن النقائص واندفاعها إلى الأعمال الفاضلة والتزامها الكمال وما يكسبها المجد والرفعة والفخار:

قال الشيخ الإمام رحمه الله: (الشرف بهاء للشخص يوجه إليه الخواطر والأنظار، ومشرق ذلك البهاء عمل يأتيه صاحبه يكون له أثر حسن في أمته أو بني ملته أو في النوع الإنساني عامته: كإنقاذ من تهلكة أو كشف جهالة أو تنبيه بطلب حق سلب أو تذكير بمجد سبق أو إنهاض من عثرة أو إيقاظ من غفلة أو جمع كلمة وتجديد رابطة.

من أتى عملا من هذه الأعمال فهو الشريف وإن كان يسكن الخصاص، ويلبس الأسمال، ويقتات بنبات البر ويبيت على تراب القفر ويضرب في كل واد، ويتردد بين الربا والوهاد.

هذا له حلية من عمله، وزينة من فضله، وبهاء من كماله، وضياء من جده، يهدي إليه ضالة الألباب وتائهة الأفئدة.

له من درجته قصور شاهقة وغرفات شائقة ومناظر رائقة وجمال باهر ونور زاهر، إليه يصعد الكلم الطيب، والعمل الصالح يرفعه إلى أعلى عليين، حياة طيبة في القلوب وغرة مشرقة في جبين الزمان، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)

ضربا الشرف

الشرف ضربان : شرف سيرة وشرف فضل :

فأما شرف السيرة فهو قيمة قدرنا عند الناس بما نلقاه من حسن معاملة واحترام، وهذا الضرب لا يلبث أن يزول بارتكاب صاحبه أمرا شائنا يعاقب عليه بحكم قائم على منهاج العدل .

وأما شرف الفضل فإنه يورث حسن الذكر ، وجمال الصيت ويقوم على كمال في نفس صاحبه يفضل به غيره . ويمتاز عن شرف السيرة بأن هذا يزول ويفنى ، وأن ذاك يدوم ويبقى ، والضرب الثاني يتم لصاحبه من ناحيتين: ناحية الآثار الأدبية وناحية الاعمال المادية ، ولكل منهما منافع وفوائد ، ومصاعب ومشاق خاصة بهما لا تفارقهما ولا تزايلهما .

والفرق بينهما أن الآثار الأدبية تبقى بنفسها على أصلها خالدة ، وأن الأعمال المادية لا يبقى منها إلا ذكراها وحده مهما كان العمل عظيما ، وشأنه رفيعا ، ثم تتضاءل وتضمحل ، ويمحوها الزمن من الوجود بمروره عليها إن لم يقيدها التاريخ، فيرويها للأجيال على التحريف : كما نرى ذلك من الموازنة بين أهل الفتوح من القواد والملوك وأهل التأليف والتصنيف من العلماء والحكماء ؛ فلا بقاء على الدهر مثل بقاء الصحف المكتوبة ، والكتب المسطورة . أضف إلى ذلك أنه لا بد للأعمال المادية من علل وأسباب تتولد عن ملابسات الأحوال وأحكام الأزمان ، ولا يتم تكوينها إلا بها ؛ فشرفها وحسن الذكر بها ليس هو عنها في ذاتها بل لما كان حولها من الملابسات والحوادث التي تكسبها قيمة وتكسوها رواء ، وهي من جهة أخرى من الأمور العامة التي تتناولها جميع الأفكار ، وتحيط بها جميع الفهوم ، ولحسن الاتفاق فيها شأن كبير .

وأما الآثار الأدبية فلا حكم للحوادث عليها ، ولا تأثير للملابسات فيها ، ولا يتعلق أمرها بغير صاحبها وحده ، وهي لا يعتورها نقص ، ولا يعتريها خلل ، بل

تبقى ما بقيت على حالتها الأصلية التي وضعها عليها الواضعون ، وإنما الصعوبة هنا في تقديرها بين الناس حق قدرها ووضعها في المنزلة التي تستحقها . وليس يخفى أنه كلما كانت الآثار رفيعة جليلة في الأفكار قل عدد من يحيط بها ، ويتأهل للحكم عليها ، وقد لا يوجد في كل وقت من يكون أهلا لتقديرها ، وقد يوجد ولكنه يميل في حكمه إلى الجور ، وينحرف به الهوى عن الإنصاف ، ولكن مع ذلك لا بد أن يصل إليها حقها ، فإن لم تنله في عصرها الحاضر نالته في العصور اللاحقة بين أهل الخلو عن الغرض من ذوى الرأى والحكم ، وأرباب المعرفة والفضل الذين يجود بهم الزمن واحدا في إثر واحد ، ويحكمون بفضل تلك الآثار بعد مرور الأيام عليها

حقا قد يصل صاحبها إلى حسن الذكر وعلو الصيت في حياته؛ بيد أن ذلك لا يكون إلا من باب حسن الاتفاق . ومن خير ضروب السلوى ماقاله بعض الحكماء والقدماء من أن الفضل يلازم أهل الفضل ملازمة الظل للأجسام ، وهو مثلها في حركتها وسيرها ، فتارة يكون من أمامها ، وتارة يكون من ورائها ، فاذا سكت عنك أهل عصرك ولم ينصفوك ولم يشهدوا لك بما أوتيته من الفضل ؛ لما يكون بهم من الحسد والبغض ـ أنصفك من يأتى بعدهم ، وردوا إليك حقك بخلوهم من كل هوى وغرض .

وعلى قدر ما يكون صاحب الفضل مجهولا في عصره غريبا في قومه فإنه يكون معروفا بين سائر الأجيال الآتية مذكورا بين أهلها بحسن الذكر ، وجميل الثناء ،

وأمامنا تاريخ الفنون والآداب يشهد لنا بأن أعظم ما أتى به الفضلاء والعلماء من نوادر الآثار لم يصادف من أهل زمانهم قبولا ، ولم ينل لديهم استحسانا ، بل قابلوه بما شاءوا من الإهمال ، حتى جاء بعدهم من اتسعت أفكارهم للإحاطة به ، واهتدوا بعلو أنظارهم وحسن معرفتهم إلى تقدير قيمته ، فحكموا لهم بالإحسان ، وأنزلوهم في أعلى منازل الإجلال والإعظام

وقد جاء فى هذا المعنى قول بعض شعراء الغرب : « كم رأينا من صفات حميدة وآثار مجيدة لا يحلها الناس فيما بينهم محل الاستحسان ، ولا ينظرون إليها بعين القبول ، وكم اجتمعوا على نبذ الحسن ، وأخذ القبيح ، لا فرق فى الزمان والمكان ، فترى ذلك واقعا فى كل أمة ، وفى كل موطن ، وسواء فيه حديث الزمن وقديمه ، فهل لهذا الداء يوما من دواء يشفى الناس منه ، ويرفع البلاء عنهم ؟ ما أظن أن لهم غير علاج واحد ، وهو أن ينقلب الأغبياء فى العالم أذكياء ، ويصبح الجهلاء حكماء ، ولكن كيف يتيسر الانقلاب إلا بانقلاب الخلقة ، وتغيير الفطرة ، وذلك غير ممكن الحدوث ؟ فلم يبق إلا الصبر والاحتمال لأولئك الذين لا يحيطون بالأمور إلا من جهة النظر واللمس لا من جهة الفكر والعقل ، وهم لصغر نفوسهم لا يزالون يرفعون كل جاهل سافل على كل عالم فاضل »

أسباب خمول أهل الفضل

إن كثيرا من أهل زمانهم ينفسون عليهم علمهم وعقلهم ، فهم لذلك يسعون ما استطاعوا فى كتمان فضلهم وانتقاص منزلتهم حتى لا تعلو منزلتهم ، ولا تتيسر شهرتهم ، وهذا هو السر فى أن صاحب الفضل بين الناس مبغض . والحسد على الذكاء والفضل أشد أنواع الحسد فيما سواه من بقية المزايا التى يتفاضل الناس بها فى طبقاتهم : مثل المال ، والجاه ، والأحساب والأقدار ؛ لأنه أعلى المزايا درجة ، وأعظم الأقدار قدرا : تأمل قول « فردريك الأكبر » : « إن مقام النفوس الممتازة بالفضل فى مقام الملوك وفى ارتفاع درجتهم » قاله حين امتعض كبير أمنائه من جلوس « فولتير » الكاتب الشهير على مائدة الملوك وأبناء الملوك فى دعوة صنعها الملك ، وأنكر امتيازه بذلك على وزراء الدولة وقواد الجيوش وكبراء الحاشية الذين جلسوا على مائدة رئيس القصر

والحسد بين الناس داء قديم لم يخل منه زمان ولا مكان ، ومن قبيح الاغترار وخطل الرأى أن يتصور صاحب الفضل والذكاء أن ظهور فضله بين الناس يقابل

منهم بحسن القبول ، وانشراح الصدور ، ولطف التأهيل والترحيب ، بل لا بد أن يعتقد أنه يثير فى قلوب العدد الأكبر منهم ثائرة العداوة والبغضاء التى يكون أثرها فيهم شديدا بمقدار اضطرارهم إلى عدم الإفصاح عن أسبابها ، وحجز النفس عن البوح بها ، وبذل الجهد فى سبيل كتمانها وإخفائها

وإذا كان من شأن أصحاب الفضل والذكاء ألا يلتفتوا إلى حسد الحساد ، ولا يكترثوا بهم ، ولا يثير فيهم ما يأتونه معهم من آثار العداوة والبغضاء ثائرة الحقد والغيظ ، بل تكون معاملتهم لهم دائما معاملة الشفقة والرحمة — فإن أهل الحسد والنقص لا يزدادون إلا عداوة لهم وكراهية ، ولا يميلون أبدا إليهم ، ولا يأنسون إلا بمن يكون على مثالهم أو أدنى منهم طبقة فى قلة الفضل وضعف الذهن ، وهم يفضلون فى المعاشرة والمصاحبة والمخالطة أهل الغباوة والجهل ؛ فكل امتياز فى الرجال بالفضل والذكاء يدعو أهل النقص والجهل إلى إقصاء صاحبه ، وإظهار البغض له ، وافتراء المفتريات عليه ، وبذل الجهد فى نسبة النقائص والمذام إليه

ولهذا السبب ترى كثيرا من أهل الفضل فى كل زمان لا ينالون حظهم ، ولا يدركون ما يستحقونه من المنزلة بين الناس ، ولا تتقدم بهم الحال إلى ارتقاء المناصب وعلو الدرجات التى لا تنال إلا بالتساعد والتعاون ، وسعى الناس بعضهم لبعض ، ولا يتيسر ذلك إلا لمن يسير على هوى الناس ويستميلهم إليه بما يرضونه من أنواع التملق وصنوف التزلف ، وأصحاب الفضل قوم لا يصبرون على ذلك ، ولا يسلكون سبيله ، ولا ينزلون أنفسهم هذه المنزلة ، ولا يضعونها فى مثل هذا الموضع.

الأمانة

هى رعاية حقوق الله تعالى بتأدية الفرائض والواجبات وترك المحرمات ، وحفظ حقوق عباده ، فلا يطمع المرء فى وديعة اؤتمن عليها ، ولا ينكر مالا وكل إليه أمر حراسته ، ولا يستعمل الغش ولا التطفيف فى وزن أو كيل ، ولا يتتبع العورات أو يفشيها ، ولا يفتى بغير علم إذا كان مسئولا ، ويرشد إن كان عالما ، ويقول

الحق إن كان شاهدا ، ويوصل الرسالة على وجهها بلا زيادة ولا نقصان إن كان مبلغا .

ولا غنى للمرء عنها في معاملة نفسه ، فيختار لها الأصلح في دنياها وآخرتها ، ويمنعها عن متابعة الشهوات والإفراط في المباح منها :

قال الله تعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا » وقال صلى الله عليه وسلم : « أَدِّ الأَمَانَةَ لِمَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ » وقال أيضا : « لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ »

أثر الأمانة في إعلاء شأن الأفراد والأمم

الأمانة هي ينبوع السعادة ومصدر الفلاح ، بها يثق الناس بالمرء ، فيمنحونه أموالهم يتجر بها وأعمالهم يتصرف فيها ، فيفيد ويستفيد ، ويجد المعونة على الشدائد في كل وقت ، ولم ترق الأمم ولم تحظ بالغنى إلا بها ، فما ربحت تجارة بدونها ، ولا راجت صناعة بغيرها ، ولا أفلحت شركة بسواها

اعتصم الغربيون بها ففازوا ، واستضاءوا بنورها فاهتدوا ، وترددوا في سوقها فكسبوا وجمعوا بها الأموال ، وألفوا عليها الشركات فأقاموا ببلادهم الأعمال الجليلة وأوجدوا المستحدثات النافعة حتى صيروها جنة الدنيا وبهجة الناظرين ،

أما الشرقيون فصفرت منها يدهم ، فباءوا بالخيبة ، فعلينا أن نستمسك بها لنحيا حياة طيبة

ويالله ما أشأم الخيانة وأسرعها في إفساد مصالح الناس وتقطيع روابطهم ! ! ومن ثم جعلها الإسلام منافية لخصاله ، وصاحبها غير معدود في أبنائه ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم :

(لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ وَلاَ دِينَ لِمَنْ لاَ عَهْدَ لَهُ) ، (إِنَّ حُسْنَ الْعَهْدِ مِنَ الإِيمَانِ) ، (الْمُسْلِمُونَ عِنْدَ شُرُوطِهِمْ) ، (مَنْ غَشَّنَا

فَلَيْسَ مِنَّا. المَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ وَالخِيَانَةُ فِى النَّارِ)

وقد مدح القرآن الأبرار، فقال فى صفتهم: (وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ)

ومن ضروب الأمانة (الوظيفة) التى يشغلها المرء فى خدمة حكومة وطنه؛ فإنها فى المعنى عهد بينه وبين أمته أن يخدمها بصدق وإخلاص، فلا يتوانى فى العمل، ولا يتناول غير ما أحله الله له مما اؤتمن عليه. وقد لام صلى الله عليه وآله وسلم عاملا أساء فى عمالته فقال: (أَمَّا بَعْدُ فَمَا بَالُ الْعَامِلِ نَسْتَعْمِلُهُ فَيَأْتِينَا فَيَقُولَ: هَذَا مِنْ عَمَلِكُمْ وَهَذَا أُهْدِيَ إِلَيَّ: أفلاَ قَعَدَ فِى بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرَ أَيُهْدَى إِلَيْهِ أَمْ لاَ):

أراد هذا العامل أن يقول: إن ما أعطيته من المال لم يكن رشوة إنما هو هدية. فأجابه صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الحجة القاطعة.

ومن ضروب الأمانة (الوديعة) يودعك إياها صاحبها: وكأنها بذلك قد توثق بينكما عهد على حفظها ثم ردها فى حينها موفرة، فأصبح من الواجب عليك الوفاء بهذا العهد وأن تكون أمينا على الوديعة لا تخونها، ومن هنا سميت (الوديعة) نفسها (أمانة): وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم فى التوصية بهذا النوع من العهد كما سبق: (أَدِّ الأَمَانَةَ إِلَى مَنِ ائْتَمَنَكَ وَلاَ تَخُنْ مَنْ خَانَكَ)

وجلى من الحديث أنه لو كان المودع نفسه قد خانك من قبل لا ينبغى لك أن تخونه أنت فى وديعته، وإنما عليك أن تعمل بدينك فتفى له، ثم تستعين الله عليه، وهذا نهاية الكمال الإنسانى فى خلق الأمانة ووجوب تجنب الخيانة

وعقود شركات التجارة بين التجار والمتعاملين من جملة الأمانة الواجب الاستمساك بها، وورد فى ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم: (إِنَّ اللهَ يَقُولُ: أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَالَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صَاحِبَهُ فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا) وهذا تمثيل جميل: والمعنى أن معونة الله وتوفيقه يكونان مع

الشريكين الامينين ، فإذا خان أحدهما صاحبه ارتفع أثرهما من تجارتهما بالحرمان منهما : وهذا أمر مشاهد ؛ فإن صفة الأمانة فى التاجر توطد ثقة إخوانه فيه وإقبالهم على معاملته ، فتزداد أرباحه وتغزر ثروته ، وبالعكس إذا كان خائنا خرب الذمة حل به الإفلاس والسقوط من عيون الناس ، ومن ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم :

(الأَمانَةُ غِنًى) ، (الأَمانَةُ تَجْلِبُ الرِّزْقَ والْخِيانَةُ تَجْلِبُ الفقْرَ)

ومن ضروب الأمانة (الاستشارة) : كأن المستشير فى استشارته لك ائتمنك أن تنصح له ولا تغشه ، فصار من الواجب عليك ألا تخونه : قال صلى الله عليه وآله وسلم :

(مَنْ أَشارَ إِلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِى غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَهُ)

(الْمُسْتَشارُ مُؤْتمنٌ فَإِذَا اسْتُشِيرَ أَحدُكُمْ فَلْيُشِرْ بِمَا هُو صانِعٌ لِنَفْسِهِ)

ومن ضروب الأمانة (أحاديث الناس) فى مجالسهم ؛ فهم فى اجتماعهم كأنهم تعاهدوا على أن يؤمن بعضهم بعضا ، فيتحدثوا دون خوف ولا حذر ، ولذا وجب على كل منهم ألا يخون فى نقل الحديث وإنشائه : وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا المعنى : « إِنَّمَا يَتَجالَسُ الْمُتَجَالِسَانِ بِأَمانَةِ اللهِ : فَلاَ يَحِلُّ لِأَحدِهِمَا أَنْ يُفْشِيَ عَلَى صَاحِبِهِ مَا يَخَافُ)

والحاصل أن الأمانة فى الأمة والمحافظة على العهود الموثقة بين أفرادها هى ملاك كرامتها والباعث على توفير الخير والرزق فيها ، وإذا قصرت الأمة بواجبها من هذا القبيل ساء حالها وكثر النكد فيها وتقاص ظل الهناءة والخير عنها : وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم فى هذا المعنى :

(لاَ تَزالُ أُمَّتِي بِخَيْرٍ مَالَمْ تَرَ الأَمانَةَ مَغْنَماً وَالصَّدَقَةَ مَغْرَماً) :

أى أنها تبقى فى خير وسعادة وصلاح حال إلى وقت تعتبر فيه الأمانة التى تؤتمن عليها غنيمة حلالا لهـا ، فتخون صاحبها وتأكلها ، كما تعتبر الصدقة الواجب عليها أداؤها للفقير بمثابة غرامة وضريبة تؤخذ من دون حق .

كتمان السر

من الأمور ما يعد سرا يجب كتمانه ؛ لأنه قد يكون فى إفشائه إضرار بصاحبه أو بغيره : فالتاجر الذى يفشى سر تجارته للناس ويطلعهم على ثمن بضاعته يقل ربحه وينصرف الناس عنـه بمـا تمكن فى نفوسهم من الرغبة الشديدة فى الاستيلاء على الشىء بأقل ثمن ممكن .

إن من الناس من تراهم دائمـا يتحدثون عن غيرهم ، ويروون الأحاديث ينسبونها إلى العظماء ، ويرون أن من دواعى اتصافهم بالعلم والإحاطة بالأخبار أن يفشوا لك أسرارهم ، ويوقفوك على ما بطن من أمورهم .

هؤلاء وأشباههم ممن تغص بهم المجالس وتشجى بهم المجامع تجدهم فى المجالس محتقرين مرذولين لا يقبل عليهم أحد إلا للتسلى بسماع أحاديثهم ، ثم إذا هم قد استوفوا ما عنـدهم لوّوا وجوههم ورأيتهم يصدون عنهم وهم مستكبرون ، وإذا هموا بالانصراف شيعوهم بالسخط وعبارات الاستهزاء .

ومنهم من لا يتحرج عن ذكر أحاديث بيته ممـا هو خاص به وبأسرته ، وقد يتجاوزون هـذا إلى ذكر أحاديث ما أكلوه وما شربوه وغيره من سفساف القول ورديئه كمداعبته لطفله الصغير وكلامه له ورده عليه ممـا يعد البوح به إزراء بالشخص وحطا من كرامته ونقصا فى مداركه .

إن الذى يفشى سره لغيره يحكمه فى نفسه ويجعل زمامه بيديه ، فإن يرفق به يحتفظ بسره ولا يفشه ، وإن يرد إعناته أفشاه فأضر به وعطل مصالحه . لذلك تجده دائمـا يتملقه ويظهر له ميله واحترامه وهو المغيظ المحنق ، وإذا رأى منه إعراضا أو أحس منه جفوة لم يستطع البقاء على ذلك طويلا وسعى إليه يترضاه مخافة أن

يبوح بسره فيؤذيه ، وإذا لم يكن صاحب السر معنيا بحفظه حريصا على صونه فأى الناس تجده أحق بذلك وأولى ؟ :

إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه فصدر الذى يستودع السر أضيق

فعلى صاحب السر أن يبالغ فى كتمانه بقدر ما يعلمه من الضرر الذى يلحقه إذا هو أفشاه .

حقا قد تدعو الضرورة بعض الناس إلى الإفضاء بأسرارهم إلى بعض خاصتهم من خلانهم وأصدقائهم للاستعانة برأيهم ، فعلى هؤلاء أن يحتفظوا بما اؤتمنوا عليه من السر وإلا كانوا خائنين ، وعلى صاحب السر ألا يختار منهم لسره غير واحد صادق أمين يستشيره ، فإذا جاوزه إلى ثان عد هذا منه إفشاء للسر :

إذا جاوز الاثنين سر فإنه بنث وتكثير الحديث قمين

وقديما تمدح العرب بحفظ الأسرار : قال شاعرهم :

وفتيان صدق لست مطلع بعضهم على سر بعض غير أنى جماعها

لكل امرئ شعب من القلب فارغ وموضع نجوى لا يرام اطلاعها

يظلون شتى فى البلاد وسرهم إلى صخرة أعيا الرجال انصداعها

إن الذى يعرف بكتمان السر يثق به الناس ويأمنونه ويلتفون حوله ، ومن كان بموضع ثقة ومحبة كان أقدر على تحصيل الخير لنفسه ودفع الضرر عنها .

وكما للأشخاص أسرار يحتفظون بها فإن للحكومات أسرارا ينبغى صونها ؛ لأن ضرر إفشائها أنكى ووقعه أبلغ ؛ إذ يتعدد بتعدد أفراد الأمة .

من أجل هذا كان إفشاء أسرار الحكومات من الآثام الكبرى التى تعاقب عليها الحكومات بالقتل ؛ وإنك لتعلم مقدار الضرر الذى يحيق بجيش حملت أسراره إلى أعدائه ، فباتوا عالمين بخطط دفاعه وقوة حصونه ومواطن قوته وضعفه ، ثم ما يتبع هذا من الضرر الذى يصيب الأمة كلها بعد ذلك ؛ إذ تنتهك حرماتها وتؤخذ أموالها وتساق جنودها أسرى مقرنين فى الأصفاد ، ثم تصير إلى العبودية والذل والهوان .

قد يكون بعض الناس ممن لاخلاق لهم عونا للأجنبي على أمته فيتقرب إليه بإفشاء أسرارها وتوقيفه على مواطن الضعف منها ، وهؤلاء أحق بمقت الناس وسخطهم حتى ممن كانوا ينتفعون منهم بهذه الأسرار :

حدثوا أنه عرض لنابليون فى إحدى غزواته رجل كان يتقرب إليه بإفشاء أسرار جيش دولته وما تعتزم حكومته أن تفعله لصد غاراته حتى إذا دارت الدائرة على تلك الأمة فهزم جيشها وتمزقت أوصاله — سعى ذلك الرجل إلى نابليون فرحا مستبشرا ، وهو يظن أنه قد نال الزلفى عنده والفوز ، فلما دخل عليه واقترب منه ذوى وجهه عنه وأخذ بطرف عصاه كيسا فيه مال كان قد أعده لذلك من قبل ثم ناوله إياه قائلا : هذا جزاؤك . فانصرف الرجل مذموما مدحورا يعض بنان الندم على ما أصابه وأصاب أمته .

من أجل ذلك قيل: كتمان الأسرار من شيم الأحرار وشمائل الأبرار . وهو أبعد الأفعال من الضرر وأحق الخصال بالظفر يدل على وفور العقل وكثرة الصبر وكمال المروءة .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اسْتَعِينُوا عَلَى نَجَاحِ حَوَائِجِكُمْ بِالْكِتْمَانِ ، فإنَّ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ مَحْسُودٌ » . وقال المهلب بن أبي صفرة : أدنى أخلاق الشريف كتمان السر وأعلاها نسيان ما أُسِرَّ به إليه .

ومن كلام الحكماء : كتمان السر يوجب السلامة وإفشاؤه يعقب الندامة .

وقال بعضهم : من شح على سره فقد أعان على بره . وقال على رضي الله عنه : سرك أسيرك فإذا فضحته صرت أسيره .

وقال سقراط : كتمان سر غيرك متعين عليك وكتمان سرك سبب صيانتك والمشكور من كتم سرا لم يُستكتمه ، ومن خان فى سر نفسه فهو فى غيره أخون .

ومن كلام بعض الحكماء : لاتودع سرك إلا حافظا ، فإن قلوب الأحرار حصون الأسرار .

وقال معاوية بن أبي سفيان : لما استعملني عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخلت على أبي سفيان فقال لي: يا بني، إن هذا الرهط من قريش سبقونا وتأخرنا، فرفعهم سبقهم وقصر بنا تأخرنا ، فصاروا قادة وصرنا أتباعا ، وأرى هذا الرجل قد استعملك فاحفظ مني ثلاثا : لايجربن عليك كذبا ، ولاتفشين له سرا ، ولاتطوعنه نصيحة وإن استثقلتها .

قال : ثم دخلت على أمي هند ، فقالت لي : يابني ، إنه قلما ولدت الأحرار مثلك ، وقد استعملك هذا الرجل فاعمل بما يوافقه أحببت ذلك أم كرهت ؛ فإنك تجرى إلى أمد لو قد بلغته لنفست عليه . فعجبت لاتفاقهما في المعنى وإن كانا قد اختلفا في اللفظ .

وأعجب من ذلك ما توسمت هند في معاوية فما أخطأت فراستها. ولا خاب قياسها ولبعض الشعراء :

لايحفظ السر إلا كل ذى كرم   والسر عند لئام الناس مبذول

وفي الحكم المنثورة : كن جوادا بالمال في موضع الحق بخيلا بالأسرار على جميع الخلق . ومن أمثال الحكماء : سرك من دمك فلا يخرج من تحت قدمك. وما تحلى ذو فضل وبر وعلم وخير بأحسن من كتمان السر .

وقال بعض الحكماء في هذا المعنى : من حصن بالكتمان سره تم له تدبيره ، وكان له الظفر بما يريد والسلامة من العيب والضرر ، وإن أخطأه التمكن والظفر. والحازم يجعل سره في وعاء ويكتمه عن كل مستودع ، فإن اضطره الأمر وغلبه أودعه العاقل الناصح له ؛ لأن السر أمانة وإفشاءه خيانة ، والقلب وعاؤه ، فمن الأوعية ما يضيق بما يودع ، ومنها ما يتسع لما استودع ، والإفراط في الاسترسال بالأسرار عجز ، وما كتمه المرء من عدوه يجب أن لا يظهره لصديقه ، ومن استودع حديثا فليستره ولا يكن مهتا كا ولا مشياعا ؛ لأن السر إنما سمى سرا لأنه لا يفشى

فيجب على العاقل أن يكون صدره أوسع لسره من صدر غيره بأن لا يفشيه ، ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، ومن أنبأ الناس بأسراره هان عليهم وأذاعوها ، ومن لم يكتم السر استحق الندم ومن استحق الندم صار ناقص العقل، ومن دام على هذا رجع إلى الجهل فتحصين السر للعاقل أولى به من التلهف بالندم بعد خروجه منه .

الوفاء بالوعد

إذا اتفقت مع أحد إخوانك على أن تقابله فى وقت كذا بمنزله لتستذكرا دروسكما معا أو لتزوره أو لتذهبا إلى الاستراضة مثلا فإنه ينتظرك وعليك أن تذهب فى ميعادك تماما ، فإن فعلت فقد وفيت بوعدك ، وإلا كنت كذابا مخلفا للوعد : فالوفاء بالوعد : أن تقوم بما وعدت به غيرك من مقابلة فى مكان وزمان معينين أو قضاء مصلحة أو مساعدة إلى غير ذلك .

علاقته بالصدق :

الوفاء بالوعد نوع من أنواع الصدق يدل على أن الواعد صادق فى قوله حين وعد صادق فى فعله حين وفّى ، وخلف الوعد ضرب من الكذب الشنيع .

مزايا الوفاء ومضار الخلف :

الوفاء يكسب صاحبه ثقة الناس به واحترامهم له ، ويوثق عرا المحبة والائتلاف ، وبه يكون التعاون الذى هو ضرورى لسعادة الناس ، وهو سبب نجاح الصناع فى صناعاتهم والتجار فى تجاراتهم .

أما الخلف فإنه يوقع المخلف فى الكذب والنفاق ، ويذيق الموعود مرارة الانتظار ويضيع عليه وقته ومصالحه ، ويزرع العداوة والبغضاء . ولهذا وجب أن يفكر الإنسان قبل أن يعد فى الزمن والمجهود والأموال حتى إذا وعد ، (وقال فى شىء نعم) — فقد أعطى وثيقة ، ووجب عليه أن ينفذ ما سجله بها :

قال تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَالاَ تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَالاَ تَفْعَلُونَ » ومدح نبيه إسماعيل فقال : « وَاذْكُرْ

فى الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ » وقال صلى الله عليه وسلم : « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ »

وقال الشاعر الحكيم :

إذا قلت فى شىء (نعم) فأتمه فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل (لا) تسترح وترح بها لئلا يقول الناس إنك كاذب

(هذا) وإذا نويت الوفاء وعجزت فلا تثريب عليك .

مدحه : إن أرجح دليل يتمسك به الإنسان لمبتغاه وأوضح سبيل يهدى سالكه إلى بلوغ مناه كتاب الله الذى من تمسك به هداه ، ومن استدل به أرشده إلى هداه ، وقد دل بمنطوقه أن الوفاء يجب على كل عاقل أن يرعاه ويحرم عليه أن يخون عهده وينقض عراه : فقال عز وجل : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ) وقال تقدس اسمه : (وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا) وقال تعالى : (وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا) فهذه الآيات مع اختلاف محالها وتعدد أسباب إنزالها متفقة على وجوب الوفاء بالعهود والتمسك بحبالها وتجنب نقضها وإبطالها ، ولو لم يكن فى الوفاء فضيلة إلا أن المتصف به يعد فى زمرة الصادقين ، وينزه نفسه عن التحلى بسمة المنافقين لكفى؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن صفات المنافق قال : (إِذَا عَاهَدَ غَدَرَ) فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة والخلال الحميدة ، يعظم صاحبه فى العيون ، وتصدق فيه خطرات الظنون ، ويحل بين الناس فى رتب الكرامة ، ويجل أن يقارف مواقف الندامة وأن ينصب له لواء الغدر يوم القيامة ، ومن نظر بعين الاعتبار وأبصر بنور الاستبصار وأصاخ سمعا إلى ماورد من الأخبار عن السلف الأخيار — وجد آيات المحامد والثناء على من سلك سنن

الوفاء ، ورأى ذكرهم مخلدا فى الأحياء بعد ركوبهم مطايا الفناء .

ومما جاء فى الوفاء أن النعمان كان قد جعل له يومين : يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه ، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه ، وكان رجل طائى قد رماه حادث دهره بسهام فاقته وفقره ، وأبلاه القدر من عسره بما أنساه جميل صبره وأغراه بشكوى ضره . هذا إلى أطفال وعيال أنهكهم السقام لضيق ذات يده ، فخرج يرتاد نجعة لصغاره ، ويحاول مما دب ودرج شبعة يخمد بها من الجوع شعلة ناره فبينما هو فى اضطراب تطوافه وقد أصاب شيئا من القوت حمله فى جرابه إذ أوقعه القدر فى شرك النعمان فى يوم بؤسه ، فلما بصر به الطائى علم أنه مقتول وأن دمه مطلول ، فقال : حيا الله الملك ، إن لى صبية صغارا وأهلا جياعا ، وقد أرقت ماء وجهى فى طلب هذه البلغة الحقيرة لهم ، وأعلم أن سوء الحظ أقدمنى على الملك فى هـذا اليوم العبوس ، وقد قربت من مقر الصبية والأهل وهم على شفا جُرُف من الطوى ، ولن يتفاوت الحال فى قتلى بين أول النهار وآخره ، فإن رأى الملك أن يأذن لى فى أن أوصل إليهم هـذا القوت وأوصى بهم أهل المروءة من الحى لئلا يهلكوا ضياعا ، وعلى عهد الله أنى إذا أوصيت بهم أرجع إلى الملك مساء وأُسلم نفسى بين يديه لنفاذ أمره ، فلما سمع النعمان صورة مقاله وفهم حقيقة حاله ورأى تلهفه من ضياع أطفاله رق له فقال : لا آذن لك إلا أن يضمنك رجل معنا ، فإن لم ترجع قتلناه . وكان شريك بن عدى بن شرحبيل نديم النعمان معه ، فالتفت الطائى إلى شريك وقال له :

ياشريك بن عدى	مامن الموت انهزامى
بل لأطفال ضعاف	عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار	وافتقار وسقام
يا أخا كل كريم	أنت من قوم كرام
ياأخا النعمان جد لى	بضمان والتزام
ولك الله بأنى	راجع قبل الظلام

فقال شريك بن عدى : أصلح الله الملك عَلَى ضمانى . فمر الطائى مسرعا والنعمان يقول لشريك : إن صدر النهار قد ولى ولم يرجع . وشريك يقول : ليس للملك على سبيل حتى يأتى المساء . فلما قرب المساء قال النعمان لشريك : جاء وقتك ، فتأهب للقتل . فقال شريك : هذا شخص قد لاح مقبلا وأرجو أن يكون الطائى فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل . فبيناهم كذلك إذا الطائى قد أقبل يشتد فى عدوه مسرعا ، فقال : خشيت أن ينقضى النهار قبل وصولى فعدوت . ثم وقف قائما وقال : أيها الملك مر بأمرك . فأطرق النعمان ثم رفع رأسه وقال : والله ما رأيت أعجب منكما : أما أنت ياطائى فما تركت لأحد فى الوفاء مقاما يقوم فيه ولا ذكرا يفخر به ، وأما أنت ياشريك فما تركت لكريم سماحة يذكر بها فى الكرماء ، فلا أكون أنا ألأمَ الثلاثة ، ألا وإنى قد رفعت يوم بؤسى عن الناس ونقضت يوم عادتى كرامة لوفاء الطائى وكرم شريك . فقال الطائى :

ولقد دعتنى للخلاف عشيرتى ... فعددت قولهم من الإضلال
إنى امرؤ منى الوفاء خليقةً ... وفعال كل مهذب مفضال

فقال له النعمان : ما حملك على الوفاء وفيه تلف نفسك ؟ قال : دينى ، فمن لا دين له لا وفاء له . فأحسن إليه النعمان ووصله ، وأعاده إلى أهله .

ومما يجمل إيراده فى ذلك المقام قضية ثعلبة بن حاطب الأنصارى : وتتلخص فى أن ثعلبة هذا كان من أنصار النبى صلى الله عليه وسلم ، فجاء يوما فقال : يارسول الله ، ادع لى أن يرزقنى الله مالا . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ويحك يا ثعلبة !! قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه . ثم أتاه بعد ذلك مرة أخرى ، فقال : يارسول الله ، ادع الله لى أن يرزقنى مالا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما لك فى رسول الله أسوة حسنة ؟ والذى نفسى بيده لو أردت أن تصير الجبال معى ذهبا وفضة لصارت . ثم أتاه بعد ذلك فقال : يارسول الله ، ادع الله لى أن يرزقنى مالا والذى بعثك بالحق لئن رزقنى الله مالا لأعطين كل ذى حق حقه ، وعاهد الله على ذلك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم ارزق ثعلبا مالا . قال : فاتخذ ثعلبة غنما فنمت حتى ضاقت عليه المدينة ، فتنحى عنها ونزل واديا من

أوديتها وهى تنمو ، وكان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الظهر والعصر ولا يصلى باقى الصلوات إلا فى غنمه ، فكثرت ونمت حتى بعدت عن المدينة ، فصار لا يشهد إلا الجمعة ، ثم كثرت أيضا حتى كان لا يشهد الجمعة ولا جماعة ، فكان إذا كان يوم الجمعة خرج يتلقى الناس يسألهم عن الأخبار ، فذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال : مافعل ثعلبة ؟ فقالوا : يارسول الله ، اتخذ غنما لا يسعها واد . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ياويح ثعلبة . فأنزل الله آية الصدقة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلين رجلا من بنى سالم ورجلا من بنى جهينة ، وكتب لهما أسباب الصدقة كيف يأخذانها ، وقال لهما : مرا بثعلبة بن حاطب وبرجل آخر من سليم ، فخذا صدقتهما . فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأاه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ماهذه إلا جزية ، ماهذه إلا أخت الجزية . انطلقا حتى تفرغا ثم عودا إلى . فانطلقا وسمع بهما السليمى ، فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ، ثم استقبلهما بها فلما رأياها قالا : ماهذا ؟ قال : خذاه فإن نفسى به طيبة . فمرّا على الناس وأخذا الصدقات ، ثم رجعا إلى ثعلبة ، فقال أرونى كتابكما فقرأه ، ثم قال : ماهذه إلا جزية ماهذه إلا أخت الجزية . اذهبا حتى أرى رأيى . قالا : فأقبلا ، فلما رآهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يتكلما قال : ياويح ثعلبة ! ! فأنزل الله عز وجل قوله : « وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ . أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ » وكان عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أقارب ثعلبة ، فسمع ذلك فخرج حتى أتاه فقال : ويحك ياثعلبة ، قد أنزل الله عز وجل فيك كذا وكذا . فخرج ثعلبة حتى أتى النبى صلى الله عليه وسلم ،

فسأله أن يقبل منه صدقته فقال : إن الله تعالى منعنى أن أقبل منك صدقتك فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعني . فلما أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقبل صدقته رجع إلى منزله وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يقبل منه شيئا .

ثم أتى إلى أبى بكر رضى الله عنه حين استخلف فقال : قد علمت منزلتى من رسول الله صلى الله عليه وسلم وموضعى من الأنصار ، فاقبل منى صدقتى . فقال أبو بكر رضى الله عنه : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم منك فلا أقبلها أنا . فقبض أبو بكر رضى الله عنه ولم يقبلها .

ثم لما ولى عمر رضى الله عنه أتاه فقال : يا أمير المؤمنين اقبل صدقتى . فقال : لم يقبلها منك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر فأنا لا أقبلها . وقبض عمر ولم يقبلها .

ثم ولى عثمان رضى الله عنه فأتاه فسأله أن يقبل صدقته ، فقال : لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبو بكر ولا عمر فأنا لا أقبلها ، ثم هلك ثعلبة فى خلافة عثمان .

فانظر إلى سوء عاقبة غدره كيف أذاقه وبال أمره ووسمه بسمة عار قضت عليه بخسره وأعقبه نفاقا يخزيه يوم فاقته وفقره : فأى خزى أشنع من ترك الوفاء بالعهد ؟ وأى سوء أقبح من غدر يسوق إلى النفاق ؟ وأى عار أفضح من نقض العهد بعد الميثاق ؟

الحكم المنثورة فى الوفاء :

(منها) : الوفاء من كرم السجايا والغدر من لؤم الطباع ، فمن عرف بالوفاء خصته القلوب بصدق الوداد وكسته الألسن مطارف الأحماد ، ومن عرف بالغدر عومل بالمقت والإبعاد ، واتسم بأقبح السمات بين العباد .

(ومنها) : من اتخذ الوفاء شعارا أمن عقوبة الغادرين ، ومن ارتدى برداء

الغدر أبقى له سوء ذكر فى الآخرين ، ومن عامل الناس بالوفاء قولا وفعلا فقد استخدم ألسنة الشاكرين .

(ومنها) : من غدر فى عهده وأخلف فى وعده ونقض عراعقده فقد قضى على نفسه بخسة أرومته وسوء عقيدته وقلة مروءته وترك له بين الناس ذكرا قبيحا وسمعة سيئة ، وزهد الناس فيه ونفرت القلوب عنه .

تربيته : يمكنك أن تربى تلاميذك على الوفاء بالوعد بما يأتى :

(١) القدوة الصالحة : فلا تعد الأطفال وعدا وتخلفه أبدا ؛ لأنهم يقلدونك فى كل شىء .

(٢) الإقلال من الوعود : لا تعد وعدا إلا بعد أن تفكر فيما يتطلبه من الزمن والمال والمجهود حتى تستطيع الوفاء بما تعد .

(٣) أشعر الطلاب بأن لهم شرفا وكرامة يهدمهما خلف الوعد .

(٤) بين لهم أضرار خلف الوعد وثمرات الوفاء ، واذكر لهم ماورد فى ذلك من الآثار .

وإنك حين تعد إنسانا بعدة قد أعطيته موثقا من نفسك ضمنته بشرفك ومروءتك ، فإذا قصرت عن الوفاء له فقد أبحت له شرفك يثلمه ومروءتك ينقصها ، وجعلت له سبيلا عليك ، فهو لا ينفك يطالبك بما وعدته به وليس لك أن تتحلل من هذا الوعد بانتحال المعاذير الكاذبة تسوقها سوقا لضيق الوقت وعدم إمكان الفرص وكثرة الأعمال والمرض ونحوها ، فذلك نوع من الكذب وثوب من الرياء شف لا يستر ماوراءه وقديما قالوا :

ثوب الرياء يشف عما تحته ... فإذا ارتديت به فأنت العارى

أنت لا تدرى حين تعد إنسانا بما رتبه على وعدك له من المصالح وثار فى نفسه من الآمال ، فإذا أنت أخلفت وعده فقد هدمت آماله ، وقوضت أركان أمانيه وحملته على عدم الثقة بك ، وبذرت بذور العداوة بينك وبينه وأبحته عرضك ، فهو لا ينفك ينتقصك فى كل ناد ومع كل ناس ؛ ليثأر لنفسه ويطفئ

جذوة حقده .

لا يهونن ترك الوفاء عليك ما تجده من حقارة من تعده وضعته ؛ فإنك حين تفى بوعدك لا تكون الاحترما لنفسك متحليا بفضيلة الوفاء وهى من أجل صفات النبوة التى امتدح الله بها أنبياءه فى كتابه العزيز .

إنك لتجد الذى يعد فلا يخلف مهيب الجانب موقرا موثوقا به من خلطائه محبوبا ، إذا أقبل عليهم أوسعوا له فى صدر مجلسهم وهشوا له ، وإذا انصرف عنهم شيعوه بالاجلال وعطر الثناء والكلم الطيب ، واجتهدوا أن يحملوا حاضرى المجلس ممن ليس لهم به معرفة على تبجيله وإعزازه والاعتراف بفضله .

بعض الرؤساء من إذا قصدته فى مسألة تهمك أو تهم صديقا لك وسألته إنجازها أفسح لك فى الكلام وأظهر لك صدق نيته فى مساعدتك بما يسمعك من عذب القول ولطيف المجاملة : « يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ » فتنصرف من مجلسه ونفسك راضية مطمئنة بما سمعت ورأيت ، ثم تمر الأيام والليالى ولا تجد أثراً لذلك الحديث الحلو ، فيتقلص ظل رجائك ويحل محله اليأس وخيبة الأمل ، وتعود تلك الأمانى العذاب صابا وعلقما .

هذا النفر ومن على شاكلته لا يريد بالقول الحسن الذى تسمعه منه إلا أن يصرفك من مجلسه ويحل عقدة عزيمتك بالمطل والتسويف وينزل من نفسك المنزلة التى لا يستحقها ، ويحملك على التصديق بأنه ممن تقضى على يدهم الحاجات كذبا وبهتانا ، وهو لو درى ما يحدثه ذلك فى نفسك من السخط عليه والزراية به كلما ذكر فى مجلسك أو مر بخاطرك أو ثارت فى نفسك ذكريات الماضى لعلم أنه أساء إلى نفسه من حيث أراد الاحسان إليها واستهان بها من حيث أراد إكرامها .

وبعضهم تذهب إليه فى المهم ، فتحدثه فيصغى إليك حتى يفهم ما تريد ، فإذا انفرجت شفتاه بنعم أو ظفرت منه بإشارة رضا فقد ظفرت بحاجتك ، وأنت جذلان الفؤاد مملوء اليدين .

هؤلاء ومن على طريقتهم إذا تحدثوا إلى الناس كان لحديثهم روعة فى النفوس لما يكسوه من جلال الصدق وشرف المقصد ونبل الغاية.

سل أصحاب هذه المحال التى تراها غاصة بالبضائع والناس يحتشدون على أبوابها داخلين وخارجين والسيارات إليها ذاهبة آئبة : بأى وسيلة حصلوا عليها وبأى عمل أدركوا هذا الربح الجم والمال الكثير ؟ — يجيبوك بالوفاء .

وسل آخرين ممن كانوا مثلهم فأفل نجمهم وبارت تجارتهم وذهبت رءوس أموالهم وخوت جيوبهم وصفرت أيديهم مما كانوا يملكون وعادوا أذلاء أجراء بعد أن كانوا أعزاء : بأى شىء نالهم هذا — يجيبوك بخلف الوعد ونقض العهد وكذب القول والمماراة فى الحق .

المروءة

المروءة حلية النفوس ، ودليل على الفضل والكرم ، وهى تقتضى مراعاة الأحوال واتباع أفضلها ، حتى لا يظهر منها قبيح متعمد ، ولا يوجه إليها لوم باستحقاق

وأول ما نذكره فى هذا الباب قول النبى عليه الصلاة والسلام : « مَنْ عَامَلَ النَّاسَ فَلَمْ يَظْلِمْهُمْ ، وَحَدَّثَهُمْ فَلَمْ يَكْذِبْهُمْ ، وَوَعَدَهُمْ فَلَمْ يُخْلِفْهُمْ فَهُوَ مِمَّنْ كَمَلَتْ مُرُوءَتُهُ وَظَهَرَتْ عَدَالَتُهُ ، وَوَجَبَتْ أُخُوَّتُهُ » وقول بعض البلغاء : من شرائط المروءة التعفف عن الحرام والآثام ، والإنصاف فى الحكم والكف عن الظلم ، وعدم الطمع فيما لا يستحق ، أو إعانة قوى على ضعيف ، أو إيثار دنىء على شريف .

وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال : العقل يأمرك بالأنفع ، والمروءة تأمرك بالأجمل .

فالمراعاة هى المروءة لما انطبع عليه الإنسان من فضائل الأخلاق ؛ لأن غرور الهوى ونازع الشهوة يصرفان النفس أن تركب الأفضل من أخلاقها

والأجمل من طرائقها إلا من استكمل شرف الأخلاق طبعا واستغنى عن تهذيبها تكلفا وتطبعا ، ثم لو استكمل الفضل طبعا – وفى المعوز أن يكون مستكملا – لكان فى المستحسن من عادات دهره من حقوق المروءة وشروطها ما لا يتوصل إليه إلا بالمعاناة ولا يوقف عليه إلا بالتفقد والمراعاة . ومن هنا ثبت أن مراعاة النفس لأفضل أحوالها هى المروءة ، وإذا كانت كذلك فليس ينقاد لها مع ثقل كلفها إلا من تسهلت عليه المشاق رغبة فى الحمد ، وهانت عليه الملاذ حذرا من الذم ، ولذلك قيل : سيد القوم أشقاهم . وقال أبو تمام الطائى :

والحمد شهد لا يرى مشتاره   يجنيه إلا من نقيع الحنظل
غُل لحامله ويحسبه الذى   لم يوه عاتقه خفيف المحملِ

وقد لحظ المتنبي ذلك ، فسجله فى قوله :

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتال

وفى قوله :

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

والداعى إلى استسهال ذلك شيئان : علو الهمة وشرف النفس : أما علو الهمة فلأنه يدعو إلى التقدم ، ويبعث على استنكار الضعة والمهانة ، ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ وَأَشْرَفَهَا ، وَيَكْرَهُ دَنِيَّهَا وَسَفْسَافَهَا » وقال بعض العلماء : إذا طلب رجلان أمرا ظفر به أكثرهما مروءة .

وأما شرف النفس فهو الذى يغرى الإنسان بقبول التأديب والتقويم ؛ لأن النفس قد تجمح عن الأفضل وهى به عارفة ، وتنفر عن التأديب مع استحسانها له ؛ لأنها عليه غير مطبوعة ، وله غير ملائمة ، ولهذا قيل : ما أكثر من يعرف الحق ولا يطيعه .

ومتى عرفت النفس قيمة الشرف رغبت فى الفضائل ، وأما من منى بعلو الهمة ، ولم يعرف قدر نفسه – فقد صار عرضة لأمر أعوزته آلته ، وأفسدته جهالته ، فأصبح

كضرير يروم تعلم الكتابة، وأخرس يريد الخطابة، فلا يزيده الاجتهاد إلا عجزا، وفى ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: «مَا هَلَكَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَهُ» وقيل لبعض الحكماء: من أسوأ الناس حالا؟ قال: من بعدت همته واتسعت أمنيته وقصرت آلته وقلت مقدرته. وقال بعض الحكماء: تجنبوا المنى؛ فإنها تذهب ببهجة ما خوّلتم، وتستصغرون بها نعمة الله عليكم.

فأما معرفة قدر النفس إذا تجرد عن علو الهمة فإن الفضل به عاطل، وما أشبهه بالسلاح فى يد الجبان الفشل: قال شاعر حكيم:

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها ... هوانا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن ... عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا

على أن معرفة قدر النفس مع صغر الهمة أولى وأفضل من علو الهمة مع دناءة النفس، ولعمرى لا يختلف اثنان فى أن السلاح القاطع فى يد الجبان خير من سلاح أقل مضاء فى يد السفاح الشرير، كذلك من علت همته مع دناءة نفسه فإنه يطلب ما لا يستحقه، ويطمع فيما هو أهل له، أما الشريف النفس مع صغر الهمة فإنه يترك ما يستحقه، ويقصر عما يجب له، وفضل ما بين الأمرين ظاهر، وإن كان لكل منهما من الذم نصيب:

قال الحصين بن المنذر الرقاشى:

إن المروءة ليس يدركها امرؤ ... ورث المكارم عن أب فأضاعها
أمرته نفس بالدناءة والخنا ... ونهته عن سبل العلا فأطاعها

وحقوق المروءة من الكثرة بحيث لا تحصى، ومن الخفاء بحيث لا تظهر فى كل الحالات: فمنها ما يقوم فى الوهم حسا، ومنها ما يقتضيه شاهد الحال حدسا، ومنها ما يظهر بالفعل ويخفى بالتغافل، ولذلك لا نرى بدا من التحدث فى الأشهر من أصولها وحقوقها، وهذا ينقسم قسمين:

أحدهما شروط المروءة فى نفسه، والآخر شروطها فى غيره: فأما الأول

فهو بعد التزام أحكام الشرع يكون بثلاثة أمور : العفة والنزاهة والصيانة : فأما العفة فنوعان : العفة عن المحارم ، والعفة عن المآثم : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَحَبُّ الْعَفَافِ إِلَى اللهِ عَفَافُ الْفَرْجِ وَالبَطْنِ » وحكى أن معاوية سأل عمرا عن المروءة ، فقال : تقوى الله تعالى وصلة الرحم . وسأل المغيرة ، فقال : هى العفة عما حرم الله تعالى والحرفة فيما أحله الله تعالى . وسأل يزيد فقال : هى الصبر على البلوى والشكر على النعمى ، والعفو عند المقدرة . فقال معاويه : أنت منى حقا . وقيل : عار الفضيحة يكدر لذتها. وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلىّ كرم الله وجهه : « يَا عَلِيُّ ، لاَ تُتْبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ ؛ فإنَّ الأُولى لَكَ ، والثَّانِيَةَ عَلَيْكَ » . وقال بعض الشعراء :

وكنت متى أرسلت طرفك رائدا لقلبك يوما أتعبتك المناظر
رأيت الذى لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

تخدع الشهوة العقول ، فتعميها عن الحق والفضيلة . وتغلب الألباب فتوردها موارد الهلاك ، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَبَتْ لَهُ الْجنَّةُ وَحُفِظَ مِنَ الشَّيْطَانِ : مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ حِينَ يَرْغَبُ وَحِينَ يَرْهَبُ وحِينَ يَشْتَهِى وَحِينَ يَغْضَبُ »

وقهر الشهوة يُدرك بأمور ثلاثة : غض الطرف عن إثارتها ؛ فإنه الرائد المحرك ، والقائد المهلك ؛ وترغيبها فى الحلال عوضا ، وإقناعها بالمباح بدلا ؛ فإن الله ما حرم شيئا إلا أغنى عنه بمباح من جنسه ؛ لما علمه من نوازع الشهوة وتركيب الفطرة ؛ حتى يكون ذلك عونا على طاعته .

وثالث الأمور إشعار النفس تقوى الله فى أوامره ، وإعلامها أنه يعلم خائنة الأعين وما تكن الصدور ، وأنه يجازى المحسن ويكافئ المسيء ، كما نزلت بذلك كتبه : روى ابن مسعود أن آخر ما نزل من القرآن الكريم : « واتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ

لاَ يُظْلَمُونَ » وآخر مانزل من الإنجيل : « وشر الناس من لا يبالى أن يراه الناس مسيئا » وآخر ما نزل من الزبور : « من يزرع خيرا يحصد زرعه غبطة »

وأما العفة عن المآثم فهى كف اللسان عن الأعراض ؛ لأن الإنسان إذا لم يكبح جماح لسانه عن إيذاء عرض الناس تلوث بعاره ، وظن أنه لتجافى الناس عنه حمى يتقى ، فيتمادى فى غيه حتى يَهلك ويُهلك. ولذلك قال صلى الله عليه وسلم: « ألا إنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ حَرَامٌ عَلَيكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ » فجمع بين الدم والعرض لما فيه من إيغار الصدور، واكتساب الأعداء،

وقدح الكلام فى الأعراض نوعان : أحدهما ما قدح فى عرض صاحبه وهو الكذب وفحش القول ، والآخر ماتجاوزه إلى غيره وهو الغيبة والنميمة والسعاية والسب بقذف أوشتم ، وربما كان السب أنكاها للقلوب وأبلغها أثرا فى النفوس ، وقد يكون لأحد شيئين : إما انتقام يصدر عن سفه ، أو بذاء يحدث عن لؤم .

ويدخل فى باب العفة عن المآثم الكف عن المجاهرة بالظلم ، وزجر النفس عن الإسرار بخيانة لأن المجاهرة بالظلم عتو مهلك ، وطغيان متلف ، وآخرته الفتنة التى تنعكس فى الغالب على البادىء بها كما قال جل شأنه : « وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بِأَهْلِهِ » وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : الْفِتْنَةُ نَائِمَةٌ ، مَنْ أَيْقَظَهَا صَارَ طَعَامًا لَهَا »

والباعث على الجهر بالظلم هو الجراءة والقسوة ، ولذلك قال النبى عليه السلام : « اطْلُبُوا الْفَضْلَ وَالْمَعْرُوفَ عِنْدَ الرُّحَمَاءِ مِنْ أُمَّتِى تَعِيشُوا فِى أَكْنافِهِمْ » والصاد عن ذلك أن يرى آثار الله تعالى فى الظالمين ؛ فإن له فيهم عبرا ، وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « مَنْ أَصْبَحَ و لَمْ يَنْوِ ظُلْمَ أَحدٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا اجْتَرَمَ » وقال أيضا :« يَاعَلِيُّ ، اتَّقِ

دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَسْأَلُ اللهَ حَقَّهُ ، وإِنَّ اللهَ لا يَمْنَعُ ذَا حَقٍّ حَقَّهُ »

وأما الإسرار بالخيانة فضعة ، ولولم يكن من ذم الخيانة إلا مايجده الخائن فى نفسه من المذلة لكفاه زاجرا ، ولو تصور عقبى أمانته ، وجدوى ثقته لعلم أن ذلك من أربح بضائع جاهه ، وأقوى البواعث على راحة الضمير وهدوء النفس واطمئنان البال .

والواجب ألا يعمد الإنسان إلى التظاهر بالأمانة وهو يُسر الخيانة ، فثوب الرياء يشف عما تحته

نتحدث الآن عن ثانى شروط المروءة ، وهى النزاهة : والنزاهة تشمل التعفف عن المطامع الدنيئة ، والتنزه عن مواقف الريبة : إن الطمع شيئان: الشره وقلة الأنفة : فشرهه يحول بينه وبين القناعة بما أوتى مهما كثر ، ويغريه بما مُنع مهما كان حقيرا ، وهذه حال من يقدم المال على عزة النفس ، وقلما يصغى مثله إلى تأنيب أو تأديب :

ومن كانت الدنيا مناه وهمه سبته المنى واستعبدته المطامع

ولا سبيل إلى حسم هذا الداء إلا باليأس والقناعة ، والتيقن بأن نفسا لن تموت حتى تستوفى رزقها .

وأما مواقف الريبة فقد قال فيها الرسول عليه الصلاة والسلام: « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَالاَ يَرِيبُكَ » وسئل محمد بن على عن المروءة فقال : ألا تعمل فى السر عملا تستحى منه فى العلانية . وقال حسان بن أبى سنان : ماوجدت شيئا أهوَن من الورع ؟ قيل له : وكيف ؟ قال : إذا ارتبت فى شىء تركته .

والداعى إلى مواقف الريبة شيئان : الاسترسال وحسن الظن ، والمانع منهما الحياء والحذر ؛ وقد تنتفى الريبة بحسن الثقة وطول الخبرة ، ولكن الحذر على أى حال أدعى إلى السلامة ، فما كل ريبة ينفيها حسن الثقة : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبعد خلق الله من الريب وأصونهم من التهم ، وقف مع زوجته صفية ذات ليلة

يحادثها على باب المسجد معتكفا ، فمر به رجلان من الأنصار وانتحيا لما رأياه ، فقال لهما : على رسلكما إنها صفية بنت حيي. فقالا : سبحان الله أوفيك شك يا رسول الله ؟ فقال : مه : إن الشيطان يجرى من أحدكم مجرى لحمه ودمه ، فخشيت أن يقذف فى قلبيكما سوءا .

فترك مواقف الريب أدعى إلى السلامة ، والظن مفتاح اليقين

بقى علينا أن نوجز القول فى الصيانة وهى ثالث شروط المروءة : وهى تشمل صيانة النفس بالتماس كفايتها وتقديم مادتها ، وصيانتها عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة : فأما التماس الكفاية فلأن المحتاج إلى الناس كَلٌّ مُنهضَم وذليل مستثقل، وفى ذلك قالت العرب فى أمثالها: «كلب جوّال خير من أسد رابض »

وطرق التماس الكفاية نوعان : لازم وندب : فأما اللازم فما قام بالكفاية وأفضى إلى سد الحاجة، ويجب أن تُراعى فى طلبه شروط ثلاثة : استطابته من الوجوه المباحة ، وتوقى المحظور ، لأن المواد المحرمة مستخبثة الأصول ردية المحصول . وثانى الشروط طلبه من أحسن جهاته التى لا يلحقه فيها غض، ولا يتدنس له بها عرض ؛ فإن المال يراد لصيانة الأعراض لا لابتذالها ، ولعز النفوس لا لإذلالها : قال أبو بشر الضرير :

كفى حزنا أنى أروح وأغتدى ومالىَ من مال أصون به عرضى
وأكثر ما ألقى الصديق بمرحب وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وثالث الشروط هو التأنى فى تقدير كفايته ، فإن يسير المال مع حسن التقدير أجدى نفعا من كثيره مع سوء التدبير : كالبذر فى الأرض : إذا روعى يسيره زكا ، وإن أهمل كثيره اضمحل . وقال محمد بن على رضى الله عنه : الكمال فى ثلاثة : العفة فى الدين ، والصبر على النوائب ، وحسن التدبير فى المعيشة . ومتى استكمل المرء هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية فقد أدّى حق المروءة فى نفسه

وأما الندب فهو مافضل عن الكفاية وزاد على قدر الحاجة ، والأمر فيه معتبر بحال طالبه، فإن كان ممن تقاعد عن المنافسة فحسبه ما يكفيه ، وليس فى الزيادة إلا شره ونهم وكلاهما مذموم : وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « خَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي ،وَخَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِي » . وقال بعض الحكماء: اشتر ماءوجهك بالقناعة ، وتسلّ عن الدنيا بتجافيها عن الكرام ، فأما مَنْ علت همته وآثر النهوض والتقدم فالكفاية لاتقنعه .

وصيانة النفس عن تحمل المنن والاسترسال فى الاستعانة منشؤها كون المنة استرقاق الأحرار ، وكل ممنون عليه ذليل مهان ، ولا قدر عندالناس لمثله :

قال رجل لعمر رضى الله عنه : خدمك بنوك .فقال: أغنانى الله عنهم . وقال على ابن أبى طالب كرم الله وجهه ينصح ابنه الحسن فى وصيته : يابنى ، إن استطعت أن لايكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل ، ولا تكن عبدغيرك وقد جعلك الله حرا ؛ فإن اليسير من الله تعالى أكرم وأعظم من الكثير من غيره وإن كان كل منه كثيرا . وأنشد ثعلب :

من عف خف على الصديق لقاؤه وأخو الحوائج وجهه مملول

وإن كان الناس لايستغنون عن التعاون ، فالمقصود من التعاون تعاون الائتلاف يتكافئون فيه ولا يتفاضلون ؛ فليس من هذا بد ولا لأحدعنه غنى . ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أومال فقد أساء إلى مروءته وإلى عزة نفسه . ومن اضطر إلى الاستعانة بجاه غيره ، وأغناه ذلك عن الاستعانة بالمال ــ فلا عذر له فى التعرض للمال ، فإن تعذر عليه صلاح حاله إلا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة ، والقرض أفضل من العطاء : قال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَعْيَاهُ رِزْقُ اللهِ تَعالَى حَلَالاً فَلْيَسْتَدِنْ عَلى اللهِ وَعَلَى رَسُولِهِ » . ولئن كان الدين رقا فهو أسهل من رق الإفضال ، وفى ذلك قال بعض الحكماء : من قبل صلتك فقد باعك مروءته ، وأذل لقدرك عزته وجلالته. على أن هناك أمورا أربعة يتماسك بها مابقى من مروءة السائلين :

أحدها أن يتجافى الضراعة والتذلل ، ويكون من التجمل بحيث لايجمع إلى ذل السؤال مهانة الابتذال ؛ وقد قيل لبعض الحكماء : متى يفحش زوال النعم؟ قال : إذا زال معها التجمل . وأنشد بعض أهل الأدب لعلى بن الجهم :

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ولكن عارا أن يزول التجمل

والثانى أن يقتصر فى السؤال على مادعته إليه الضرورة ، ولا يجعل ذلك ذريعة إلى الاغتنام .

والثالث أن يعذر فى المنع ويشكر على الإجابة ؛ فإنه إن مُنع فعمالا يملك ، وإن أجيب فإلى مالا يستحق .

والرابع أن يعتمد على سؤال من كان للمسألة أهلا ، كما أن المرجو للإجابة هو من كان كريم الطبع ، سليم الصدر ، يسأل شيئا ممكنا ؛ فإن من يسأل مالا يمكن خليق بالحرمان : قال عبد الله بن الأهتم لابنه : يا بنى ، لاتطلب الحوائج من غير أهلها ، ولا تطلبها فى غير حينها ، ولاتطلب ما لست له مستحقا ؛ فإنك إن فعلت ذلك كنت خليقا بالحرمان

انتهينا الآن من القول فى شروط المروءة فى نفس الإنسان ، وأما شروطها فى غيره فثلاثة : الموازرة ، والمياسرة ، والإفضال :

والأولى معناها الإسعاف بالجاه والإسعاف فى النوائب : والإسعاف بالجاه يكون من الأعلى قدرا ، وربما كان أعظم من المال نفعا تزيد قيمته بالبذل ، وتنقص بالبخل فلاعذر لمن منح جاها أن يبخل به؛ فإنه يكون أسوأ حالا من البخيل بماله الذى قد يعده لنوائبه ويستبقيه لذريته ، أما البخيل بالجاه فلا يدخر إلا مقت الناس ، ولا يستبقى إلا عداوتهم :

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الْخَلْقُ كُلُّهُمْ عِيَالُ اللهِ ، وَأَحَبُّ خَلْقِ اللهِ تَعالَى إلَيْهِ أحْسَنُهُمْ صَنِيعاً إلَى عِيَالِهِ » . وقال بعض الحكماء : اصنع الخير عند إمكانه يبق لك حمده عند زواله ، وأحسن والدولة لك

يحسن لك والدولة عليك ، واجعل زمان رخائك عدة لزمان بلائك . ويعتبر بذل الجاه من المروءة إذا كان من كرم النفس وشكر النعمة ، لا لالتماس الجزاء .

وعلى من أُسعِد بجاهه ثلاثة حقوق يستكثر بها الشكر ، ويستمد بها المزيد من الأجر : أحدها أن يستسهل البذل ولا يؤديه كارهاً ؛ فقد روى عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «مَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ اللهِ عَلَيْهِ عَظُمَتْ مُؤْنَةُ النَّاسِ عَلَيْهِ».

والثانى ترك الامتنان والاستطالة فإنهما من لؤم الطبع وفيهما هدم الصنيع ،

والثالث أن لا يقرن بمشكور سعيه تقريعا بذنب ولا توبيخا على هفوة .

والإسعاف بالمال يقتضيه كون الأيام غادرة ، فلا يعذر فيها إلا عليم : قال عدى بن حاتم :

كفى زاجرا للمرء أيام دهره تروح له بالواعظات وتغتدى

وليس هناك أكرم من الإسعاف بالمال عند القدرة والضرورة ؛ فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « خَيْرٌ مِنَ الْخَيْرِ مُعْطِيهِ ، وَشَرٌّ مِنَ الشَّرِّ فَاعِلُهُ »

أما الإسعاف فى النوائب فنوعان : واجب وتبرع : فالواجب ما اختص بالأهل والإخوان والجيران ؛ إذ يجب من حقوق المروءة فى هؤلاء الثلاثة تحمل أثقالهم وإسعافهم فى النوائب ؛ حتى لا يلجئهم إلى سؤال غيره . وأما التبرع فيمن عدا هؤلاء فيكون بفضل الكرم ، وإن كف الإنسان عنه فلا لوم عليه مالم يلجأ إليه مضطر ؛ لأن القيام بالكل معوز وهذا هو حكم الموازرة

أما المياسرة فهى العفو عن الهفوات والمسامحة فى الحقوق ؛ إذ لا مبرأ من سهو وذلل ، ومن التمس بريئا من الهفوات فقد طلب مستحيلا : قيل لأنوشروان : هل من أحد لا عيب فيه ؟ قال : من لا موت له . والهفوات نوعان : صغائر وكبائر : فالصغائر مغفورة ، ولكن الكبائر لا تغفر إلا إذا صدرت عن سهو : حكى ابن عون أن غلاما هاشميا عربد على قوم ، فأراد عمه أن يسىء به فقال : ياعم ، إنى قد أسأت إليك وليس معى عقلى ، فلا تسىء بى ومعك عقلك .

أما إن تشبه خطؤه بالعمد فيجب التثبت لأن التثبت نصف العفو . وقد قال بعض الحكماء: لا يفسدك الظن على صديق أصلحك اليقين له. ولكن الذنوب التي تعتمد على القصد لها حكم آخر، ولا يخلو فاعلها فيما أتاه عن أربع أحوال :

فالأولى أن يكون موتورا، فاللائمة على من وتره، وإن كان الصفح أجمل: قال بعض الحكماء: من كنت سببا لبلائه وجب عليك التلطف له في علاجه من دائه.

والحال الثانية أن يكون عدوا ، فالبعد منه أسلم ، والكف عنه أغنم ، وقد قال لقمان لابنه : « يا بنى ، كذب من قال إن الشر بالشر يطفأ ، فان كان صادقا فليوقد نارين ولينظر هل تطفئ إحداهما الأخرى ؟ وإنما يطفئ الخير الشر كما يطفئ الماء النار .

والحال الثالثة أن يكون لئيم الطبع خبيث الأصل ، فهو لا يستقبح الشر ، ولا سلامة من مثله إلا بالبعد والصفح والإعراض ؛ فإنه كالسبع الضاري في سوارح الغنم ، وكالنار المتأججة في يابس الحطب لا يقربها إلا تالف ولا يدنو منها إلا هالك .

والحال الرابعة أن يكون صديقا قد تغير ، وأخا قد تنكر ، فعدل عن بر الإخاء إلى جفوة الأعداء . ومن الناس من يرى أن متاركة الأصدقاء إذا تغيروا ونفروا أولى وأسلم : كالأعضاء الجسد إذا فسدت كان قطعها أقرب إلى السلامة : وقد قال بعض الحكماء : رغبتك فيمن يزهد فيك ذل نفس ، وزهدك فيمن يرغب فيك صغر همة . ولكن هذا مذهب من قل وفاؤه وضعف إخاؤه ، فلا بالفضل أخذ ، ولا إلى العفو أخلد ، وقد علم أن نفسه قد تطغى عليه فترديه ، وأن جسمه قد يسقم عليه فيؤلمه ويؤذيه ، وهما أخص به وأحنى عليه من صديق !

لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن نصل من قطعنا ، وقال لقمان لابنه : يا بنى، لا تترك صديقك الأول ، فلا يطمئن إليك الثاني ، يا بنى اتخذ ألف صديق والألف قليل ، ولا تتخذ عدوا واحدا والواحد كثير .

وقيل للمهلب بن أبي صفرة : ما تقول في العفو والعقوبة ؟ قال: هما بمنزلة الجود

والبخل فتمسك بأيهما شئت . وإذن فمن حقوق الصفح الكشف عن سبب الهفوة ليعرف الداء ويصف الدواء ؛ فإن كان الجفاء لملل فودات الملول ظل الغمام ، وحلم النيام ، وعلاجه أن يترك على ملله ، فيمل الجفاء كما مل الإخاء . وإن كان الجفاء لزلل لوحظت أسبابه ، ونظر حاله بعذ زلله ، فإن ظهر ندمه وبان خجله فلا ذنب له ولا لوم عليه : قال بعض الحكماء : شفيع المذنب إقراره ، وتوبته اعتذاره . وقال بعض البلغاء : من لم يقبل التوبة عظمت خطيئته ، ومن لم يحسن إلى التائب قبحت إساءته . ولكن إذا لم يتدارك ذنبه بعذره ويزيله بتوبته وجبت مراعاة حاله عند المتاركة ؛ فقد يكون كف عن شيء عمله ، والكف معناه التوبة ، أو يكون قد وقف على ما سبق من خطئه غير تارك ولا متجاوز ، ووقوف المرض أحد البرأين فيجب العفو عنه ومحاولة إصلاح ما فسد من إخائه ؛ لأن السقم إذا لم يعالج امتد إلى الصحيح من الجسم ، وإن عولج سرت الصحة إلى ما فسد منه ؛ غير أنه إذا تجاوز مع الأوقات وزاد خطؤه على مرور الأيام فهذا هو الداء العضال . فإن أمكن إصلاحه بالترغيب والعتاب ، وإلا فآخر الداء العياء الكى .

تكلمنا فى شطر المياسرة الأول وهو العفو عن الهفوات ، أما الشطر الثانى وهو المسامحة فى الحقوق فلأن من أراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح أو طمع لم يصل إليه إلا بالمنافرة والمخاشنة ، والطباع تمقت من ينافرها ، وتحب من يسامحها ، ولذلك كان أليق الأمرين بالمروءة استلطاف النفوس بالمسامحة وتألفها بالمياسرة والمساهلة : قال بعض الحكماء : من عاشر إخوانه بالمسامحة دامت له موداتهم . والمسامحة نوعان : فى عقود وحقوق : فأما العقود فهو أن يكون سهل المناجزة ، بعيدا عن المكر والخديعة : قال عليه الصلاة والسلام : « أَجْمِلُوا فِى طَلَبِ الدُّنْيَا فَإِنَّ كُلًّا مُيَسَّرٌ لِمَا كُتِبَ لَهُ مِنْهَا » . وأما الحقوق فهى ترك المنازعة فى الرتب ، وهذا بالكريم أليق وعليه أجدى ؛ لأنه إن شاح فيها ونازع كان هذا الطريق الخشن الذى سلكه أخفض للمرتبة وأمنع من التقدم : حكى أن فتى من بنى هاشم تخطى رقاب الناس عند ابن أبى داود فقال : يابنى ، إن الآداب ميراث الأشراف ، ولست أرى عندك

من سلفك إرثا .

ويدخل فى باب المسامحة فى الحقوق التسمح فى الأموال ، وهذا قد يكون مسامحة إسقاط لعدم وفقر ، أو مسامحة تخفيف لعجز ، أو مسامحة إنكار لعسر . وإذا كان الكريم قد يجود بما يحويه يده فما أولاه بالجود بما خرج عن يده ! وربما كانت المسامحة آمن من رد السائل ، لأنه كما اجترأ على سؤالك يجترئ على سؤال غيرك إن رددته .

نتحدث الآن فى ثالث شروط المروءة فى غيرك ، وهو الإفضال : للإفضال نوعان : إفضال اصطناع وإفضال استكفاف ودفاع : والأول ما أسداه من جود لشكور ، والثانى ما اكتسب به مودة نفور ، وكلاهما من شروط المروءة لما فيهما من كثرة الأحباب والأشياع . ومن قلت صنائعه فى الشاكرين وأعرض عن تألف النافرين عاش وحيدا مهجورا متروكا : قال بعض الأعراب :

من جمع المال ولم يجد به وترك المال لعدم جدبه
هان على الناس هوان كلبه

فإن ضاقت به الحال عن الاصطناع بماله ، وحرم آلة المروءة وسنادها فليواس بنفسه مواساة المسعف ، قال المتنبى : « فليسعد النطق إن لم تسعد الحال » ثم يجب ألا يجزع إذا لم ير لعمله نتيجة واضحة ؛ فإن الناس لا يساوون بين المعطى والمانع ، ولا يقنعهم القول دون الفعل ، ويرون الكلام دون المال كالصدى : إن رن صوتا لم يجد نفعا ، ولكن المواساة بلطيف الكلام خير من لا شىء .

وأما إفضال الاستكفاف فلأن ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة ومعاند فضيلة يبعثه اللؤم على السفه . فإن لم يعرض عن استكفاف السفهاء صار عِرضُه هدفا للمثالب ،

ولاستكفاف السفهاء بالإفضال شرطان : أحدهما أن يخفى إفضاله حتى لا يطمع فيه السفهاء ، فيعمدوا إلى سلب ماله بالتعرض لثلبه . والآخر أن يتطلب لمجاملته

وجهاً يجعله سبب الإفضال؛ حتى لا يتهم بالسفه .

إن الإنسان يجد في حياته من يتملقه ويدافع عنه فهو ملحوظ المحاسن محفوظ المساوى ، ولكنه بعد موته حديث منتشر ، لا يدافع عنه صديق أو شقيق ، فليجتهد كلٌّ منا أن يكون أحسن حديث ينشر ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اغْتَنِمْ خَمْسًا قَبْلَ خَمْسٍ : شَبَابَكَ قَبْلَ هَرَمِكَ ،وَصِحَّتَكَ قَبْلَ سَقَمِكِ،وَغِنَاكَ قَبْلَ فَقْرِكَ ،وَفَرَاغَكَ قَبْلَ شُغْلِكَ،وَحَيَاتَكَ قَبْلَ مَوْتِكَ »

ومن عمل بذلك كان سعيه فى الناس مشكورا ، وأجره عند الله مذخورا .

علو الهمة

علو الهمة استشراف النفوس إلى معالى الأمور وتعلقها بأسباب الكمال وعدم التوقف بها عند مقتضيات الطبيعة ، وهو خلق مختص بالإنسان دون غيره من ضروب الحيوان ، فإنها تتحرى الفعل بقدر ما فى طبعها ،

قال على كرم الله وجهه : « قدر الرجل على قدر همته وصدقه على قدر مروءته وشجاعته على قدر أنفته وعفته على قدر غيرته » فمما جبل عليه الحر الكريم ألا يقنع من شرف الدنيا بما انبسط له أملا فيما هو أسنى درجة منه وأرفع منزلة : ومن ذلك أن موسي لما كلمه الله لم يقف عند ذلك الحد ، بل سأله النظر إليه ؛ لأنه أشرف من المنزلة التى نالها . وفى ذلك دلالة على أن الحر الكريم لا يقنع بمنزلة إذا رأى ما هو أشرف منها ، فذو الهمة يأبى إلا علوا وإن لاقى فى سبيله متاعب لاقبل له بها :

قال أبو الطيب المتنبي :

وإذا كانت النفوس كبارا   تعبت فى مرادها الأجسام

وقال أيضا :

لولا المشقة ساد الناس كلهم   الجود يفقر والإقدام قتال

وفى علو الهمة يقول زياد بن ظبيان لابنه عبيدالله : ألا أوصى بك الأمير زيادا ؟ قال : يا أبت إذا لم يكن للحى إلا وصية الميت فالحى هو الميت.

ومن أشرف الناس همة عقيل المرى ، وكان أعرابيا يسكن البادية وكان تصهر إليه الخلفاء ، وخطب إليه عبد الملك بن مروان ابنته لأحد أولاده ، فقال له : جنبنى هجناء ولدك ! !

ودخل الفرزدق على سليمان بن عبدالملك فقال له : من أنت ؟ وتجهم له . فقال : أوما تعرفنى يا أمير المؤمنين؟ قال : لا . قال : أنا من قوم منهم أوفى العرب وأسود العرب وأحلم العرب وأفرس العرب وأشعر العرب . قال : والله لتبينن ما قلت أو لأوجعن ظهرك ، ولأهدمن دارك . قال : نعم يا أمير المؤمنين : أما أوفى العرب فحاجب بن زرارة الذى رهن قوسه عن جميع العرب فوفى بها ، وأما أسود العرب فقيس بن عاصم الذى وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبسط له رداءه وقال : « هذا سيد الوبر » وأما أحلم العرب فعتاب بن ورقاء الرياحى ، وأما أفرس العرب فالحريش بن عبدالله السعدى ، وأما أشعر العرب فها أنذا بين يديك يا أمير المؤمنين . فاغتم سليمان مما سمع من فخره ولم ينكره ، وقال : ارجع على عقبيك فمالك عندنا شىء من خير . فرجع الفرزدق وقال :

أتيناك لا من حاجة عرضت لنا إليك ولا من قلة فى مجاشع

وقال الأحوص فى الفخر وهو أفخر بيت قالته العرب :

مامن مصيبة نكبة أرمى بها إلا تشرفنى وترفع شانى
وإذا سألت عن الكرام وجدتنى كالشمس لا تخفى بكل مكان

ومن علو الهمة عزة النفس بإنزالها المنزلة اللائقة بها ، ومعرفة هذا تتطلب من الإنسان حذقا وعلما بأقدار الناس ومنازلهم والتمييز بين درجاتهم ليستطيع أن ينزل فى طبقته من الناس ولا يجاوزها إلى مافوقها فيكون بموضع ذلة واحتقار ممن يخالطهم، أومادونها فيكون غرضا لسهام المنتقدين ولوم اللائمين ، وتلك حال لا يدركها إلا القليل ممن رزق عقلا وحكمة وحسن بصر بالأمور : سئل بعض الحكماء :

ما أصعب الأشياء ؟ فقال : أن يعرف الانسان قدره .

وإذا اقترنت عزة النفس بعلو الهمة ظهر فضل الانسان وأدرك ما يعجز عنه الكثير ممن شرفت نفوسهم وصغرت هممهم ، أما إذا تجردت عزة النفس عن علو الهمة فقد ضاعت ثمرتها وظل صاحبها خامل الذكر صغير القدر ، وكانت بمنزلة القوة فى الكسلان والجلادة فى الجبان : يذهب بالأولى الكسل وبالثانية الفشل .

إن الانسان ليحتاج فى إدراك مطالبه المختلفة إلى أن يكون ذا منزلة رفيعة فى النفوس ، فإن من كان كذلك قبلت شفاعته وقضيت حاجته وبالغ الناس فى إكرامه والزلفى إليه ، ولا يكون كذلك إلا بعزة النفس وصيانتها عما يشينها .

ومما يساعد على رفعة المنزلة فى الناس الجاه والعفة والسخاء ووفرة المال والعلم والمنصب وأمور أخرى يرجع إليها الفضل فى كثير من المواطن فى نجاح الانسان فى أعماله كعذوبة اللسان وحلاوة الشمائل .

وأكثر أحوال الناس والدرجات التى ينزلونها فى هذه الحياة إنما صاروا إليها بأعمال مختلفة وصور شتى أكثرها صادر عن عزة النفس ، فهى التى تعد للإنسان منزلته فى المجتمع الانسانى ، وتخصه بنصيب من الرفعة بمقدار نصيبه منها وبمقدار ما يشعر به من الشرف : ترى اثنين يكادان يتحدان فى كل شيء من مميزاتهما وصفاتهما وعلمهما ، فتنزلهما من نفسك منزلة واحدة حتى إذا كان لأحدهما إليك حاجة وأخذ يحدثك فى شأنها ظهرت عليه جلالة عزة النفس ورأيته أبيا تأنف نفسه أن يقارف من القول والفعل ما يحط بمنزلته من نفسك ، فتقبل عليه أيما إقبال وتراه خليقا أن يسعف بحاجته .

والآخر يلم بك فى حاجة فلا تكترث له ، ثم لا تلبث أن تزدريه لما تراه فيه من ضعف النفس وتملقك بالثناء الكاذب والاطراء لك بما ينم على ضعف فى خلقه وازدراء بنفسه ، فلا تراه لهذا أهلا لمعونتك ، ثم إذا قام عنك لا تجد من نفسك

إلا أن تشيعه بما يتبين منه منزلته فى قلبك :

إذا أنت لم تعرف لنفسك حقها هوانا بها كانت على الناس أهونا
فنفسك أكرمها وإن ضاق مسكن عليك لها فاطلب لنفسك مسكنا
وإياك والسكنى بمنزل ذلة يعد مسيئا فيه من كان محسنا

قد يخطئ كثير من الناس فى طلب عزة النفس فيتخطونها إلى الكبر ، فلا يكون لهم من وراء هذا غير استصغارهم والحط من شأنهم ، كما يخطئ من ينزلون إلى مادون درجتهم ، فيخالطون السفلة والأوشاب ومن لا يرون حرجا فى فعل ما يذمون عليه ، وهؤلاء ومن درج فى طريقهم قد رضوا لأنفسهم بالهون ، وانحطوا عن المنزلة اللائقة بهم . ومن رضى لنفسه مخالطة الأدنياء وغشيان مجالس السوقة عد فى درجتهم واقترن بهم فى أعمالهم ونسب إليه كل ما ينسب إليهم من قبيح وشين . وإنك تنظر الإنسان فى جماعة من السقاط فتعده لأول وهلة منهم ، وتعتقد فيه النذالة والإسفاف إلى الدنايا ، وإن تبين لك فيما بعد شرف نسبه وزكاء حسبه ، وتعد من أسباب نقصه عندك انحطاطه إلى مخالطة من هم دونه فى المنزلة والقدر .

ولسنا نشك فى أننا نرى من أنفسنا احتقارا للذى يكون شأنه ما ذكرنا كما نجد منها إجلالا وإعظاما لمن نراه يخالط العظماء ويغشى مجالس أهل الدين والعلم ومن عرفوا باستقامة أخلاقهم وسمو آدابهم ، وينزه نفسه عن الفضول ومالا يجمل بكبار النفوس .

وعزة النفس صفة شريفة تجمع إليها صفات شتى من صفات الكمال ، فمن اتصف بها اتصف بالوقار والبعد من الكبر وصيانة النفس عن مخالطة من لا تليق مخالطتهم ومحاكاة من يصاحبهم فى المحمود من أقوالهم وأفعالهم والأنفة من كل ما يستتبع مذمة ويجلب شينا .

وتربى هذه الصفة فى الأحداث بحملهم على مصاحبة ذوى النفوس الكبيرة ومجانبة ذوى النفوس الصغيرة ليكون هذا سببا فى اعتيادهم عزة النفس

والإحساس بالشرف ؛ وأن يمنعوا من التملق والكذب ويؤثروا الصدق على مادونه فى كل المواطن ، ويجابوا إلى مطالبهم التى فيها فائدة لهم ، ويمنعوا منها إذا لم يكن فيها نفع لهم من غير اكتراث لما يبدونه من عبارات الملق والترضى بالوسائل المضحكة التى يقدمونها إلى الآباء ، فينالون بها مآربهم ؛ وأن نبدى أمامهم احترام من يكرم نفسه وإن كان فقيرا جاهلا ، ونحتقر ذليل النفس وإن كان غني المال وافر العلم والجاه .

الحمية

ومما جبلت عليه النفوس الحمية ، ومعناها المحافظة على الحرمة من التهمة ، وهى أنواع ثلاثة : حمية النسب ، وحمية العرض ، وحمية الدين : أما حمية النسب فأظهر ماتكون فى العرب ، وإليك طرفا من مظاهرها فيهم .

(١) كان الفرزدق لا ينشد بين يدى الخلفاء والأمراء إلا قاعدا ، فدخل على سليمان بن عبد الملك ، فأنشده شعرا فخر فيه بآبائه وقال من جملته :

تالله ما حملت من ناقة رجلا مثلى إذا الريح لفتنى على الكور

فقال سليمان : هذا المدح لى أم لك . قال : لى ولك!! فغضب سليمان ، وقال : قم فأتمم ولا تنشد بعده إلا قائما . فقال الفرزدق : لا والله أو يسقط إلى الأرض أكثرى . فقال سليمان : ويلى على الأحمق وارتفع صوته ، (وسمع الضوضاء بالباب) ، فقال سليمان : ماهذا ؟ قيل له : بنو تميم على الباب يقولون : لا ينشد الفرزدق قائما وأيدينا فى مقابض سيوفنا . قال : فلينشد قاعدا .

(٢) وفد الوليد بن جابر بن ظالم الطائى على معاوية فى أيام استقامة الأمور له ، فدخل عليه فى جملة الناس ، فلما انتهى إليه استنسبه فانتسب له ، فقال : أنت صاحب ليلة الهدير . قال نعم . قال : والله ما تخلو مسامعى من رجزك تلك الليلة وقد علا صوتك أصوات الناس

وأنت تقول :

شدوا فداء لكم أمى وأب فإنما الأمر لمن غلب
هذا ابن عم المصطفى والمنتجب تنميه للعلياء سادات العرب
ليس بموصوم إذا نص النسب أول من صلى وصام واقترب

قال : نعم أنا قائلها : قال : فلماذا قلتها ؟ قال : لأنا كنا مع رجل لا يعلم خصلة توجب الخلافة إلا وهى مجموعة له : كان أول الناس سلما ، وأكثرهم علما ، وأرجحهم حلما ، فات الجياد ، فلا يشق غباره ، يستولى على الأمد فلا يخاف عثاره ، وأوضح منهج الهدى ، فلا يبيد مناره ، وسلك القصد فلا تدرس آثاره ، فلما ابتلانا الله تعالى بافتقاده ، وحول الأمر إلى من يشاء من عباده — دخلنا فى جملة المسلمين ، فلم ننزع يدا عن طاعة ، ولم نصدع صفات جماعة ، على أن لك منا ماظهر ، وقلوبنا بيد الله ، وهو أملك بها منك ، فاقبل صفونا ، وأعرض عن كدرنا ولا تثر كامن الأحقاد ؛ فإن النار تقدح بالزناد . قال معاوية : أتهددنى يا أخا طيئ بأوباش العراق أهل النفاق ، ومعدن الشقاق ؟ فقال : يامعاوية ، هم الذين أشرقوك بالريق ، وحبسوك فى المضيق ، وذادوك عن سنن الطريق حتى لذت منهم بالمصاحف ودعوت إليها من صدق بها وكذبتَ ، وآمن بمنزلتها وكفرتَ ، وعرف من تأويلها ما أنكرت . فغضب معاوية ، وأدار طرفه فيمن حوله ، فإذا جلهم من مصر ، ونفر قليل من اليمن ، فقال : يأيها الشقى الخائن إنى لإخال أن هذا آخر كلام تتفوه به ، وكان عفير بن سيف بن ذى يزن بباب معاوية فعرف موقف الطائى ، ومراد معاوية ، فخاف عليه ، فهجم عليهم الدار ، وأقبل على اليمانية فقال : شاهت الوجوه ذلا ، وقُلًّا وجدعا (١) وفلا (٢) ، ثم التفت إلى معاوية فقال : أى والله يامعاوية ، ما أقول قولى هذا حبا لأهل العراق ، ولا جنوحا إليهم ، ولكن الحفيظة تذهب الغضب ، لقد رأيتك بالأمس خاطبت أخا ربيعة (يعنى صعصعة بن صوحان) وهو أعظم جرما

(١) مهانة (٢) انهزاما

عنـدك من هـذا ، وأزكى لقلبك ، وأقدح فى صفاتك ، وأجَـدّ فى عداوتك ، وأشد انتصارا فى حربك ، ثم أثبَتّه وسرحته ، وأنت الآن مجمع على قتل هذا . زعمت استصغارا لجماعتنا ، ولعمرى لو وكلتك أبناء قحطان إلى قومك لـكان جـدك العاثر ، وذكرك الدائر ، وحدك المفلول ، وعرشك المثلول ، فارْقَ على ظَلْعِك (١) ، واطْوِ ناعلى بُلَّتِنا(٢) ليسهل لك حَزْنُنا ، فإنا لانرام بوقع الضيم ، ولا نعمر بغمار الفتن ، ولا نَـدُر على الغضب . فقال معاوية : الغضب شيطان ، فأربع نفسك أيها الإنسان ، فإنا لم نأت إلى صاحبك مكروها ، ولم تنتهك منه محرما فدونك ؛ فإنه لم يضق عنه حلمنا ، ويسع غيره . فأخذ عفير بيد الوليد ، وخرج به إلى منزله ، وقال : والله لتئوبن بأكثر مما آب به معدى من معاوية .

وأما حمية العرض فهى عامة فى الناس شاملة وهى فيهم على ثلاث مراتب : إفراط ، وتفريط ، واعتدال :

أما الإفراط فهو أن تغلب على الإنسان حتى تـكدر عليه عيشـه ، وقـد يفضى به هـذا الإفـراط إلى أن يرمى بالسوء عرضـه : قال صـلى الله عليـه وسـلم : (إنَّ منَ الغَيْرَةِ غَيْرَةً يُبْغِضُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ، وَهِىَ غَيْرَةُ الرَّجُلِ عَلَى أهْلِهِ مِنْ غَيْرِ رِيبَةٍ) وقال أمير المؤمنين : لا تـكثر الغيرة على أهلك فتَرْمى بالسوء من أجلك .

وأما التفريط فهو أن تُفْـقَـد هذه القوة أو تضعف فى بعض الناس حـتى لا يبالى بعرضه وما يصنع به

وأما الاعتدال فهو الوقوف بها عند القصد واستعمالها فى حدود المروءة والحـكمة

وأما حمية الدين فهى أيضا شاملة ، وقد يعبر عنها بالعصبية ، ولـكن الفرق بينهما ظاهر ، وكل منهـما من ثمرات الغضب للدين إلا أنه إن اختص بالمدافعة أو الإشارة بالدين وآثاره ، وتجرد عن الطعن ، والتنقيص فى غير الإنسان ـ فهو حمية ، وإلا فهو عصبية .

والحمية فى الدين محمودة ولا يخلو منها طبع ، وإن اختلفت مراتبها فى النفوس :

---

(١) ارفق بنفسك (٢) احتَمِلْنَـا على فسادنا

قال بعضهم : رأيت ببغداد رجلا مكفوف البصر يسأل الناس ويقول : من أعطانى فلسا سقاه الله تعالى على يد معاوية قال : فتبعته حتى خلوت به فلطمته لطمة أوجعته وقلت : عزلت أمير المؤمنين عن الحوض يافاسق فقال : أتريد أن أسقيهم على يد أمير المؤمنين من حوض الكوثر بفلس واحد ؟ لا والله لا كان ذلك أبدا ، وأنا لم أذكر لمعاوية حوضا فى كلامى ، فليسقهم من حيث شاء .

وأما العصبية فلا يخلو منها أيضا طبع بشر ، فكل ذى دين يتعصب لدينه ؛ إذ كل أحد يرى أنه على حق ، ويعتقد أن غيره على ضلال ، فيتعصب له : ذكر ابن الجوزى فى كتاب الأذكياء أنه كان ببغداد فى طرف الجسر سائلان أعميان : أحدهما يتوسل بأمير المؤمنين ، والآخر بمعاوية ، ويتعصب لهما الناس ، فيجمعان القطع ، وإذا انصرفا اقتسما ماحصل لهما ، وكانا يحتالان على الناس بذلك .

وكان صاحب ربيع يتشيع ، فارتفع إليه خصمان : اسم أحدهما على ، والآخر معاوية . فانحى على معاوية فضربه مائة سوط من غير أن تتجه إليه حجة ، ففطن من أين أتى ذلك ، فقال : أصلحك الله سل خصمى عن كنيته ، فإذا هو أبو عبد الرحمن ، فبطحه وضربه مائة سوط ، فقال لصاحبه : ماأخذته منى بالاسم استرجعته منك بالكنية .

وقال الراغب فى المحاضرات : إن بقزوين قرية أهلها متناهون فى التشيع ، فمر بهم رجل فسألوه عن اسمه فقال عمر : فضربوه ضربا شديدا ، فقال : ليس اسمى عمر : بل عمران ، فقالوا أشد من الأول فإن فيه عمر وحرفين من اسم عثمان فهو أحق بالضرب ،

ومن ذلك قصة الحجاج بن عكاظ السلمى : وتلخيصها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فتح خيبر وأعرس بصفية جاءه الحجاج وكان أول ماقدم أسلم وشهد خيبر فقال : يارسول الله إن لى مالا عند صاحبتى أم شيبة ولى مال متفرق ، فأذن لى فى العودة إلى مكة على أسبقُ خبر إسلامى إليه فإنى أخاف أن يذهب مالى لو علموا . فأذن له الرسول ، فقال : يارسول الله ، إنى أحتاج أن أقول فقال رسول الله : وأنت فى حل . قال : فخرجت حتى وصلت إلى الثنية ، ثنية البيضاء

ووجدت بها رجالا من قريش يستمعون الأخبار ، وقد بلغهم أن النبي سار إلى خيبر ومنعه رجال هناك ، فلما رأوني قالوا : هـذا لعمر الله عنـده الخبر ، أخبرنا ياحجاج ، فقد بلغنا أن القاطع (يريدون النبي) قد سار إلى خيبر ، فقلت لهم : بلغني أنه سار إليها ، وعندي من الخبر ما يسركم ، فقالوا : هات ياحجاج . فقلت : هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها ، وأسر محمد أسرا ، وقالوا : لا نقتله حتى نأتي به إلى مكة ، فيقتلونه بين أظهرهم قال : فقاموا وصاحوا بمكة قد جاءكم الخبر ، قال : فقلت: إذن أعينوني على جمع مالي على غرمائي بمكة فإني أريد أن أقدم خيبر فأصيب من نقل محمد وأصحابه قبل أن يسبقني التجار إلى هنالك ، فقاموا فجمعوا مالي كأحب جمع سمعت به ، قال : ثم جئت صاحبتي ، فقلت: مالي لعلي ألحق خيبر قبل أن يسبقني التجار . فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر أقبل حتى وقف إلى جنبي ، فقال : ياحجاج ، ماهـذا الخبر ؟ فقلت له : وهل عندك كتمان لما أضعه عندك ؟ قال : نعم : فقلت احفظ على حديثي ياأبا الفضل ؛ فإني أخشى الطلب واكتم على ثلاثا ، ثم قل ماشئت قال : أفعل : فقلت : والله إني تركت ابن أخيك عروسا على بنت ملكهم يعني صفية ، ولقد افتتح خيبر ، وصارت له ولأصحابه ، فقال : حقيقة ماتقول ياحجاج ؟ فقلت : إي والله ، ولقد أسلمت وماجئت إلا مسلما لآخذ مالي فرقا من أن أغلب عليه ، فإذا مضت ثلاث فأظهر أمرك ، فهو والله على ماتحب حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له ، وتخلق ، وأخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى الكعبة ، وطاف بها فلما رأوه ، قالوا: ياأبا الفضل هـذا والله التجلد لحر المصيبة . فقال : كلا والله الذي حلفتم به لقد فتح محمد خيبرا وترك عروسا على ابنة ملكهم ، قالوا : من جاءك بهـذا الخبر ؟ قال : الذي جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلما وأخذ ماله ، وانطلق ليلتحق بمحمد وأصحابه .

الاعتماد على النفس

من الطلبة من إذا ألقى عليه المعلم مسائل في الرياضة مثلا اجتهد في فهمها وحاول حلها بنفسه حتى يعرف الاجابة عنها .

ومنهم من لا يجهد نفسه فى تفهم ما يلقى عليه من الدروس ولا يحاول حل مسألة بنفسه ويثقل على إخوانه .

ومن التجار من يباشر أعماله التجارية من البيع والشراء والمحاسبة بنفسه ، ومنهم من يثقل على عماله .

ومن الأطباء من يباشر علاج المرضى بنفسه، ومنهم من يتكل على الممرضين : فالذى يقوم بأعماله يسمى (معتمدا على نفسه)، والذى يتكل على غيره يقال له (متواكل) :

فالاعتماد على النفس : أن يقوم الإنسان وحده بأعماله التى تدخل تحت قدرته من غير أن يتواكل أو يكون عيلا على غيره من الناس .

مزاياه

١ ــ هو أس الفضائل : لأنه يستلزم الثقة بالنفس وقوة العزيمة والجد والسعى وعدم التواكل ، ويعود الاستقلال والقيام بأعباء الحياة .

٢ ــ نجاح الإنسان : فالطالب الذى يحل المسألة بنفسه ويجتهد فى تفهم دروسه ويبحث بنفسه فى المعجمات عن الكلمات التى لا يعرفها ــ يكمل نفسه ويصل إلى غايته من الفوز والنجاح .

٣ ــ إتقان الأعمال : فالزارع الذى يباشر زرع أرضه بنفسه يكون ذلك أدعى إلى إجادة الزرع وإتقانه ، وكذلك العمال والتجار .

٤ ــ سرور النفس وبهجتها : إذ الإنسان يسر بعمل نفسه ، ويغتبط بالمال الذى يكسبه أكثر مما يرثه ، وينفق منه بقدر وحذر .

وعلى الجملة فعليه المعول فى نجاح الإنسان وسعادته ورقى العالم وحضارته ، وعليه قامت كل إصلاحات العالم التى جاء بها الرسل الكرام ، ونادى بها المصلحون فى العالم :

فهو الذى بعث فيهم الآمال ، فلم تنثن عزائمهم ، ولم تخفت أصواتهم أمام مامنُوا به من الشدائد ولاَ قَوْهُ من العناد ولحقهم من الأذى والآلام ؛ فاى نفس تلك التى تنشر مبادئ الدين الاسلامى فى أنحاء جزيرة العرب فى أقصر الأوقات بين قوم ذوى عناد ألفوا عبادة الأصنام ، واستماتوا فى الدفاع عنها ؟ لاجرم أنها نفس ملئت ثقة بما تدعو إليه،فهانت لقوتها الصعاب ، وذللت ليقينها العقبات .

ولولا الاعتماد على النفس والثقة بها ماأخمد أبو بكر فتنة المرتدين التى اندلع لهيبها فى جزيرة العرب إثر لحاق النبى عليه السلام بالرفيق الأعلى مع قلة جنده وكثرة عدوه .

ولولا الاعتماد على النفس وقوة الثقة بها ماأقدم عمر بن الخطاب على غزو فارس والروم (وهمادولتا ذلك الزمان) — بجيش قليل العدد ، قوته الثقة بالله ، وعدته الاعتماد على النفس .

والاعتماد على النفس هو الذى حدا طارق بن زياد إلى غزو بلاد الأندلس بجيش قليل العدد وإحراقه سفن جيشه بنفسه حتى قطع على من معه كل أمل فى الهرب ليزيدهم اعتمادا على أنفسهم ووثوقا بها ، وإن خطبته التى ألقاها على ذلك الجيش لتعدمثلاأعلى فى الاعتماد على النفس وقوة العزيمة ، وحسبك منها قوله : (أيها الناس ، أين المفر ؟ البحرمن ورائكم ، والعدو أمامكم ، وليس وراءكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام ، وقداستقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لاوزر لكم إلاسيوفكم ، ولاأقوات إلاماتستخلصونه من أيدى عدوكم) .

انظر كيف قاده الاعتماد على النفس إلى ذلك الملك الشاسع والسلطان الواسع ، وخلد له فى صحائف المجد والعبقرية أثرا خالداخلود الجبال .

وبالاعتماد على النفس خاطر المستكشفون بأنفسهم وأموالهم فى البحث عن بلاد لاوجودلها إلافى خواطرهم وبينهم وبينها أهوال عدة ومخاوف جَمّة ، وهو الذى

خلد ذكر كرستوف كلومب ، وقرن اسمه بقارة أمريكا ، وكشف للعالم عن دنيا جديدة تفيض بالخير العميم .

وحسب العالم منها أن يقوم من أفرادها رجل عبقري مثل (أديسون الذى يلقب بملك العلم) فيملأ الدنيا باختراعاته : كالحاكى والصور المتحركة والمصباح الكهربائى والمراكب الكهربائية إلى أمثال ذلك مما أربى على سبعمائة اختراع .

والاعتماد على النفس عدة الناشئ فى هذه الحياة : به يكمل نفسه ، ويثقف عقله ، ويصير عضوا نافعا بين أفراد أمته ؛ فليست الحياة للضعاف المتواكلين :

وإنما رجل الدنيا وواحدها   من لا يعول فى الدنيا على رجل

ضرورة الاعتماد على الله

ولا يستغنى الاعتماد على النفس عن الاعتماد على الله الذى هو مصدر القوة وواهب الهداية .

فمتى اعتمد الإنسان على ربه واستمد منه الهداية والمعونة ثم وثق بنفسه واعتمد عليها ـــ كان أثبت جنانا وأكثر اطمئنانا فبلغ ماتتوق إليه نفسه من جلائل الأعمال .

فثق بالله فوق ثقتك بنفسك دون تفريط ولا إفراط ، واصحب اعتمادك على الله بالجد جهد استطاعتك ، إذ الأسباب مربوطة بالمسببات : فالاجتهاد مطية النجاح ، والزراعة وسيلة الحصاد ، والتجارة طريق الربح والكسب ، والكسل أساس الخيبة والفقر ، ولكن يجب أن تمتلئ الأفئدة بأن الأسباب لاقيمة لها مالم تلحظها عناية الله ، وتؤيدها قدرته ، إذ بيده مقاليد السموات والأرض ، وهو على كل شىء قدير : قال الشاعر :

إذا لم يكن عون من الله للفتى   فأول ما يجنى عليه اجتهاده

وقال آخر :

إذا الله لم يحرسك مما تخافه فلا السيف قطاع ولا الدّرع مانع

اعتماد الإنسان على غيره

اعتماد الإنسان على غيره أن يكل أعماله لغيره يقوم بها ، أو يكون تابعا له فى فكره أسيرا له فى آرائه :

(١) والأول ينشأ فى الإنسان من شعوره بالعجز عن القيام بالعمل ، أو كسل يحل به ، أو خوفه صعوبة العمل ، أو ركونه إلى الآمال الخادعة .

علاج هذا : وإذا أحس الإنسان من نفسه الفتور عن العمل لسبب من الأسباب المتقدمة وصعب عليه مزاولته فتنحى عنه إلى غيره — وجب عليه أن يحمل على نفسه ، ويأخذها بالتمرين عليه قليلا قليلا ، ولا يضجر مما يناله من مشقة ونصب .

(٢) والآخر ينشأ فى الإنسان من قصور فى الإدراك ، أو تعليم فاسد يصيبه فى حياته الأولى ، أو ظنه النقص فى نفسه والكمال فيمن يحاكيه .

العلاج : ويزول هذا باستئصال ما فى النفس شيئا فشيئا ، وتصحيح المعلومات التى حصل عليها أولا ، واعتياد التفكير بدون أخذ برأى سواه ؛ إذ كل شىء يجود بالتمرين ، والفكر إذا مرن على النظر فى الأمور واستخلاص صحيحها من فاسدها كملت فيه القدرة على ذلك ، فلا يعطلن إنسان فكره بما يتاح له من آراء يظنها الصواب ، فيأخذها بدون تمحيص ولا تفكير .

مضار اعتماد الإنسان على غيره فى الأعمال

ولترك الاعتماد على النفس فى الأعمال آثار سيئة ؛ إذ تحصل الأعمال غالبا ناقصة ؛ لأن غير الإنسان لا يشعر بما يشعر به صاحب العمل من الحاجة الماسة إليه ، والاعتماد على غيرك يؤدى إلى دوام نقص من الجهة العملية ؛ لأن ملكة العمل إنما تجود فى الإنسان بمزاولته ، وتضعف بتركه ، وقد ينتهى هذا بالإنسان إلى أن تبطل فيه القدرة على مباشرة العمل ، كما يؤدى إلى نقصه من الجهة العلمية ؛ لأنه يفوت

عليه كثيرا من المعلومات التى يحصل عليها بالتجربة .

ويلازم اعتماد الإنسان على غيره أن تجيء الأعمال متأخرة عن وقتها ؛ لأن من يتكل عليه الإنسان له من الأعمال الخاصة ما يحول دون إنجازها فى وقتها . وقد تفوت الشخص بسبب اعتياده الاعتماد على غيره أعمال مهمة لعدم وجود من يعمل له .

ومن الناس من يركن إلى غيره فى كل أعماله ، وهؤلاء فى الناس كالعضو الأشل فى الجسم يحمله ثقلا ، ولا يؤدى عملا ؛ لأن ما نراه من آثار الحضارة البارعة فى هذا العالم نتيجة لأعمال اشترك فيها الناس ، فمن استمتع بها فقد استمتع بما ليس من حقه ، واستحق أن يكون محتقرا مرذولا .

آثار الاستقلال الفكرى

إن ما نراه الآن من القصور العالية والمركبات الفخمة والسيارات الجوالة والطيارات التى تقطع أجواز الفضاء والسفن السابحات فى الماء وغير هذا من قوى الطبيعة المختلفة التى ظهرت فى مظاهر شتى — أثر من آثار الاستقلال الفكرى ولولا هذا لبقى الإنسان كما بدأ أولا يأكل مما يصيب من نبات الأرض وما يسطو عليه من حيوان البر ، ويأوى إلى الكهوف والمغاور يتخذها مساكن ، ويلتمس أوراق الأشجار المتناثرة يخصفها ملبسا ، فالاستقلال فى الرأى ضرورى للزارع فى مزرعته والتاجر فى متجره والصانع فى مصنعه والصبى فى مكتبه ولكل فرد وطائفة وأمة .

ومن علامات استقلال الأمة أن تتخذ لها شعارا خاصا بها فى ملبسها وتحافظ على عاداتها ولغتها وآدابها ، وبهذا تبقى حية رغم ما ينتابها من نكبات الأيام وتغلب الأمم ذات القوة والبطش عليها حينا بعد حين .

أما إذا ضعفت فيها روح الاستقلال فإنها تحاكى غيرها فى أساليب حياتها وسائر مميزاتها وفى هذا فناؤها ، وهذا حال الكثير من الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها .

أسباب ضعف الاستقلال الفكرى

ويضعف الاستقلال الفكرى فى الإنسان جهله ؛ فإن الجهل حجاب يمنع صاحبه من التفكير فى الأمور المهمة ، ويضعفه الخلل الواقع فى نظام الأسر ؛ فإن رب الأسرة كثيرا ما يمنع بنيه من غشيان مجلسه والكلام بحضرته وإبداء آرائهم فيما يعن من الشئون ، فيشبون رجالا فى الأجسام أطفالا فى الأحلام .

وهو فى عمله هذا أقل إدراكا من بغاث الطير وضعافها ؛ فإنها متى أحست من فراخها القدرة على الطيران وقفت على حافة العش ، وأخذت ترفرف بأجنحتها فتحاكيها الفراخ فى حركاتها ، ثم تنتقل بعد ذلك من غصن إلى غصن ، فتتبعها فى تنقلها ، وهكذا إلى أن تستقل بنفسها ، وتقوى على السعى لجلب رزقها .

أسباب الاستقلال

ومما يساعد على نمو ملكة الاستقلال فى نفس الإنسان كثرة الأسفار وخروج الإنسان من وطنه إلى وطن آخر ؛ لأنه لا يجد فى الغالب من يعتمد عليه فى أعماله ، فيضطر إلى مزاولتها بنفسه ، فتحصل له ملكة الاستقلال .

والمعلمون فى المدارس من الأسباب المهمة فى إحياء ملكة الاستقلال فى نفوس الناشئين ، فعليهم أن يمنعوهم أن يساعد بعضهم بعضا فى عمل كلف أداءه ، وأن يطالبوهم فى كثير من الأحيان باستذكار دروسهم وحدهم . وإذا رأوا من بعضهم تقصيرا فى الإجابة عن سؤال عام وبدا عليهم شيء من الخجل أو الوجل استدرجوهم إلى الإجابة ، وناقشوهم ما يقولون ؛ حتى يبعثوا فيهم الجرأة والإقدام والرغبة فى إبداء آرائهم وإن كانت خطأ .

وعليهم أن يتقبلوا ما يقولون بصدر رحب وألا يخيفوهم بالعقاب إذا أخطئوا ليعتادوا الاستقلال منذ نعومة أظفارهم .

وعليهم أن يكافئوا المجد الذى يستطيع فهم مسألة صعبة على حقيقتها من غير أن يساعده أحد فى فهمها ؛ فإن فى هذا بعثا للاستقلال فى نفس النشء وحملا له

على الأخذ به فى سائر حالاته .

وعليهم أن يكونوا جماعات مدرسية علمية وأدبية وفنية واقتصادية يتخذونها أداة صالحة لتنمية روح الاعتماد على النفس فى نفوس الطلاب .

وكذلك على الوالدين أن يربيا أولادهم على الثقة بالنفس والاعتماد عليها من الصغر حتى يشعروا بأن لهم كرامة ورأيا محترما : فينبغى أن يكلوا إليهم القيام بكثير من شئون البيع والشراء ؛ فإن غبنوا مرة فسوف لا يغبنون أخرى .

ومن آثار غرس فضيلة الاعتماد على النفس وتنميتها علو الهمة : وهى حال للنفس تحمل صاحبها على طلب المعالى وعدم الرضا بسفسافها ، وهى من الأخلاق التى تصل بصاحبها إلى الكمال وتكلفه من مشاق الأعمال مقدار ما تسمو إليه نفسه :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام

ولا جرم أن الإنسان متى تعلقت نفسه بمعالى الأمور عمل لها وتحمل فى سبيلها النصب ، وإلا كان ذلك التعلق منه علالة نفس عاجزة متحيرة :

فالزارع الذى لا يرضيه من زراعته إلا أن يحصل على أجود الثمر يكد يومه وأكثر ليله حتى يدرك غايته .

والتاجر الذى يسعى لنيل الشهرة وكسب الربح يكثر الأسفار ويتخير أجود البضائع ويحسن عرضها وتنسيقها ، ويختار أمهر العمال وأقومهم خلقا وأكثرهم أمانة ويحتمل من النصب ما يكفل له الربح الكثير والخير الجزيل .

والنجار الذى لا يرضى بما يرضى به أبناء حرفته وتسمو نفسه إلى تجويد عمله يختار من الأشكال الجميلة والصور المقبولة ما لم يسبقه إليه أحد من النجارين .

وطالب العلم الذى لا يرضيه إلا أن يسبق غيره وهو أهل لهذا السبق يقبل على الدرس ولا يضيع وقته فى غير التحصيل حتى ينال بغيته ، وكذلك الشأن فى جميع العمال والصناع .

والأمة التى ينمى فى أفرادها هذا الخلق تتطلع دائما إلى توسيع ملكها

ومدّ سلطانها ، فتفتح البلاد وتخضع لحكمها الأمم ، أما التي ضعفت في أفرادها الهمة وفترت فيهم العزائم فإنها تصرف همتها إلى المحافظة على نفسها في حدود بلادها وتعد هذا أكبر مفاخرها وغاية سعادتها .

والإنسان يُعْطَى من القوة بمقدار ماتسمو إليه نفسه من الآمال ؛ لأن القوة أمر كامن في النفس تثيره العزائم ، فمن كان عظيم المطالب جم الرغائب كثير هموم النفس كانت قدرته على العمل أكثر وصبره على المشاق أطول ، وإذا نال مطلبا سمت نفسه إلى مافوقه ، وأصغرت كل مطلب تقدمه :

لبانة نفس أصغرت كل مأرب فكلفت الأيام ماليس يوهب

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه : فإن الذي يوجب على نفسه قراءة كتاب لا يشعر بشيء من الملل إذا قرأ نصفه ، أما من اعتزم قراءة النصف فإن همته تفتر قبل أن يتمه .

وتتجدد القوة في النفس كلما أدرك الإنسان بعض غايته ، وقطع مرحلة من مراحله : (ومن هذا الباب تقسيم مدة الدراسة في المدارس إلى مراحل ينال الطالب في نهاية كل مرحلة منها شهادة) .

ضبط النفس

النفس بفطرتها نزاعة إلى الهوى ، ميالة إلى الشهوات راغبة في التمتع باللذات، جانحة إلى حب الثروة والمال والعظمة والشهرة إلى غير ذلك مما لا يدخل تحت حصر ، فإذا أطلق الإنسان لنفسه العنان ، وأعطاها كل سؤلها ـ لم تقف عند حد من تلك اللذات :

والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع

وحينئذ يصبح الإنسان عبد شهواته وأسير هواه ، وتنشأ عن ذلك رذائل لا حصر لها : كالطمع ، والدعارة ، والسرف . فكان لزاما أن يضبط الإنسان ميوله إلى الشهوات ، فلا يسلس لنفسه القياد ، ولا يرخي لها العنان ، كما لا يعرض

عن اللذائذ جملة ، بل يخضعها لحكم العقل والدين ، وذلك ما يسمى ضبط النفس أو العفة :

فضبط النفس : هو سيطرة الإنسان على ميول نفسه وشهواته ؛ حتى تجرى ميوله على سنن العقل ، وتخضع لحكم الدين :

فلا يكون الشخص فاضلا عفيفا إلا إذا ضبط نفسه ، واعتدل فى مأكله ومشربه ، فلا يشتهى مالا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، كما يعتدل فى انفعالاته ، فلا يفرط فى الحزن عند الملمات ، ولا يهتاج لأقل الدواعى .

والناس إزاء الملذات أنواع :

١ – فمنهم قوم أطلقوا لأنفسهم العنان ، وأفرطوا فى اللذات والشهوات ، ورأوا أنهم ما خلقوا إلا لينعموا بما يشتهون : كما قال القرآن الكريم : « يَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أولئك قوم خرجوا عن جادة الصواب . ولو سار نظام الكون على هذا الرأى لأصبح الناس فوضى ، يحفزون أنفسهم إلى الشهوات واللذات ، وهى لا تقف عند حد فضلا عن إضعافها قوى الأفراد ، وإبعادهم عن القيام بجلائل الأعمال ..

٢ – ومن الناس من زهد فى الدنيا وزخرفها ، وأعرض عن الشهوات اعتقادا منه بأن اللذات لا حد لها ، فإذا سار الإنسان وراء الشهوات أصبح عبداً لها توجهه كما تشاء ، ولهذا رأوا أن أرقى أنواع الفضيلة أن يعرضوا عن لذات الحياة ، فلم يسمحوا لأنفسهم بتناول طعام شهى ولا لبس ثياب جميلة ، ونفروا من الزواج ومخالطة الناس ، بل قد يذهب بهم الضلال إلى حد أبعد من ذلك ، فيعذبون أنفسهم بالتعرض للشمس المحرقة صيفا ، والزمهرير شتاء اعتقادا منهم أن هذا من الدين ، والدين من ذلك براء :

ألا ترى أن رجلا مُدح لدى رسول الله (عليه السلام) بأنه كان يقوم الليل ، ويصوم النهار ، ولا يغفل عن العبادة طرفة عين ، فقال صلى الله عليه وسلم : « فَمَنْ كَانَ يُطْعِمُهُ وَيَسْقِيهِ ؟ » قالوا :

« كلنا » : قال: « كُلُّكُمْ أعْبَدُ مِنْهُ »

ومدح شاعر عمر بن عبدالعزيز (رضى الله عنه) فقال :

تشاغل الناس بالدنيا وزخرفها وأنت بالدين عن دنياك مشغول

فقال عمر : مازدت على أن جعلتنى عجوزا فى كسر بيتها ! ! هلا قلت كما قال القائل :

فلا هو فى الدنيا مضيع نصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

٣ ـ وهناك صنف بين هذين قد فهموا الحياة وعرفوا قيمتها ، فأعطوا أنفسهم رغائبها المباحة ، وتمتعوا بما خلق الله من نعيم ، ولم يخرجوا عن حد العقل والشرع : أولئك هم المعتدلون الأعفاء ، الضابطون لشهواتهم ، وهم أفاضل الناس وخيارهم .

وإليك أهم الوسائل لتربية هذه الفضيلة فى النفس :

١ ـ اعتدل فى ميلك إلى الشهوات الجسمية

٢ ـ اجتنب رفقة السوء الذين يزينون لك الرذائل والانهماك فى اللذات ، وعليك بمعاشرة الصالحين الأخيار ، ولا تغش أماكن اللهو والفسوق ، ولا تطل القراءة فى الكتب المرذولة ، ولا تشهد الروايات الماجنة ؛ فإنها تهدم صرح الفضيلة والكمال

٣ ـ اضبط نفسك عند الغضب ؛ فإن الغضب جنون قصير ، وليس من الحكمة والكياسة أن يثور الإنسان ويخرج من حد الاعتدال لأقل داع : ككلمة صغيرة قد تكون صادرة عن حسن نية .

٤ ـ باعد بينك وبين الصلف ، والكبر ، والإعجاب بالنفس ؛ فإنها أمور تجعل صاحبها يثور ويتهيج لأقل شىء يتوهم فيه الحط من كرامته ، ولو لم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك .

٥ ـ اضبط فكرك ، فلا تفكر فى الشرور ، ولا تملأ ذهنك بأفكار عن الرذيلة ؛ فإن الفكرة قائد الإرادة والعمل ، وإنك إذا استرسلت مع

خيالك وهواجسك قادتك إلى الوقوع فى حمأة الرذيلة .

٦ – لا تسترسل فى السخط والانقباض ، ولا تكن من الذين ينظرون إلى الدنيا ساخطين متبرمين ، ويرون الحياة ملأى بالمتاعب والآلام والشرور . وإذا سألتهم أن يخففوا من بأسائهم ، وأن يكفكفوا من عبراتهم ، وينظروا إلى ما فى الحياة من دواعى الغبطة والانشراح – جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ورددوا قول الشاعر :

تعب كلها الحياة فما أعـــجب إلا من راغب فى ازدياد

ثم بالغوا فى سوء الظن بالحياة والتبرم بالناس وقالوا :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

فإن هؤلاء لاعتلال صحتهم أو لأىّ سبب آخر يرون آلام الحياة مكبرة ، ولا يرون ما فى الكون من جمال :

ومن يك ذا فم مر مريض يجد مرا به الماء الزلالا

٧ – لا تنس نصيبك من الدنيا : فتمتع بما خلق الله من جمال . وأعط نفسك ما تشتهى مادام ذلك لا يخرج عن حدود العقل والدين: قال تعالى: « وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا ». وقال عز وجل : « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » وقال جل شأنه : « يَابَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا »

العدالة

تكثر الفضائل أو الواجبات الاجتماعية تبعا لكثرة مابين الأفراد من تبادل المنافع والآراء ، غير أنها قد ترجع إلى فضيلة أساسية هى « العدالة » تلك الكلمة الجامعة التى تشمل الاحسان والانسانية والاخلاص ، والوطنية والمروءة والكرم والمساواة . ويمكن فهم مدلول العدالة من تلك الحكمة : « لاتفعل بغيرك مالا تحب أن يفعل بك » والعدالة فى القانون الطبعى تقوم على ثلاثة أركان : المساواة والحرية والملكية :

فالمساواة حق للانسان؛ لأن الناس جميعا سواء فى الخلقة والمطالب الحيوية، وإذن فيجب أن يتساووا فى حق الحياة وتناول الغذاء وأمام القانون الخ .أما عدم المساواة فى المنزلة الاجتماعية فلا ينقض مايعنيه القانون من كلمة المساواة : ذلك لأن اختلاف الناس فى المكانة يرجع إلى اختلافهم فى العقل والعلم والادراك ، وإن تساووا فى مطالب الحياة الأصلية وفى كونهم من أم واحدة وأب واحد، وبهذا الاختلاف فى العقل والادراك يعظم عمل التربية التى يجب أن يوجه إلى تقليل الفروق العقلية بين أفراد المجتمع الواحد ما أمكن

أما الحرية فهى روح الحياة فى الانسان وقوام سعادته ، ولقد ولد الانسان حرا ، فيجب أن يحيا حرا ، وألا يثقل بأعباء العبودية أو أسر التقييد ، يجب أن يكون حرا فى آرائه وشخصيته وغدوه ورواحه ومهنته مادام ذلك لايضر بمصلحة غيره أو مصالح المجموع ، ولايمكن أن تصفو الحياة لانسان إذا لم يتمتع بحريته واستقلاله الذاتى ، والأمم تحارب الآن العبودية والرق ، وتنفض عن نفسها غبار العصور المظلمة .

والملكية نوع من الحرية يجب ألا ٠٠س إلا للصالح العام ، وبهذه الفضائل الثلاثة ينجح العدل فى إسعاد البشر .

الانسان مدنى بالطبع ميال للاجتماع ، واحتكاكه بغيره يستلزم معاملة تبنى

على العقل والحق ، وهذا هو مبدأ العدالة الأدبية . وأهم واجب أدبي اجتماعي إنما هو احترام الإنسان في حياته وحريته وشخصه ، وعقيدته وممتلكاته ،

واحترام « حياة الإنسان » أهم ما تقتضيه العدالة ؛ لأن الحياة محرم إعدامها إن الله تعالى هو الذي وهبها وهو وحده الذي يسلبها، وكل الشرائع تمنع قتل النفوس بغير حق ، لأن في كل ذي حياة جانبه النفعي للحياة الاجتماعية ، مهما كانت حالته ، فالقتل أو الانتحار أكبر الجرائم في نظر الأديان والشرائع الوضعية مهما كانت الأسباب والدواعي . والتعذيب على سبيل القصاص موكول إلى الحكومة وحدها التي يتمثل حق المجتمع في هيئتها القضائية .

وعلى الرغم من تحريم القتل والضرب أحلته القوانين الوضعية على كره منها في مواقف الدفاع عن النفس والحروب ، ولكن علينا ألا ننسى المبدأ الكريم : « لا تفعل ما يؤذي أي إنسان فتسلم من أذاه في ذوده عن نفسه »

وشر ما ابتليت به الأمم الشرقية فيما ورثته عن الجاهلية الأولى هو « الأخذ بالثأر » ؛ فهو حلقة مفرغة من الجرائم لا ينتهي شرها ، وهو التوحش الأثيم مستترا في صورة حق تبرأ الإنسانية منه ، فأمر القصاص قد صار موكولا إلى الهيئة القضائية بمقتضى نظم صالحة وقوانين عادلة ، وفي مثل أحوالنا الراهنة حيث للقانون هيبته وسيفه المسلول ليس من العدل ولا من الحق أن ننتقم لأنفسنا ونثأر بأيدينا .

إن الافتنان في طرق الانتقام مخالف لمبدأ العدالة ، وقد تستنكفه الأذواق السليمة لاسيما إذا لم يكن من الدفاع الشريف في شيء ، وإنما لمجرد التعود في الغوغاء ، أو بقصد السلب والنشل . ولقد بدأ الأوربيون ينظرون إلى المبارزة باستنكار وحقد ، ويعدونها ميراثا من الهمجية حتى حين الدفاع عن الشرف: فكيف ننظر نحن إلى تعدي بعض الطغام على الناس ؟

أما الحروب وإن كان قتل النفوس فيها جائزا فلها قوانين تمنع التمثيل بجثث القتلى وتحرم قتل الأعزل أو من سلم سلاحه ، وتتبع مع الأسرى والجرحى معاملة

شريفة نبيلة ، ولكنا على الرغم من هذا نسمع الصرخات من كل مكان تطالب بالقضاء على ويلات الحروب وشرورها مهما كانت دواعيها والأسباب الدافعة إليها .

والخلاصة أن أمر إعدام الحياة الإنسانية محرم والقصاص فيه موكول إلى القانون العادل وليس لامرئ حق مقابلة العدوان بمثله إلا فى أحوال الدفاع الشريف عن النفس ، وبشرط استحالة الطرق السلمية . وقلما يضطر الإنسان إلى الدفاع عن نفسه إذا كان فى مجتمع سمت مدارك أفراده ، وتشربت نفوسهم بحب العدالة والنظام .

وكما تحتم علينا العدالة احترام الإنسان فى حياته فإنها تفرض علينا احترامه فى حريته ؛ ليتمتع كل فرد بها كيف شاء ، واحترام حق الحرية هو الأساس الذى بنيت عليه النظم (الديموقراطية) .

وأول ما نذكره من موانع تلك الحرية الشخصية هو الرق ؛ فلا إرادة للرقيق إلا إرادة سيده ، ولكن زمن الرق والاسترقاق قد اندثر ، فلسنا فى حاجة إلى التعرض له . وكذلك فلنترك أمر « الخدمة الإلزامية » التى كانت شائعة فى العصور الوسطى لا سيما فى العهد الإقطاعى ، وكانت أصوله ترجع إلى احتماء الضعيف بالقوى . وبالرغم من أنه كان مساعدا فى تنظيم حال الجماعات البشرية فإنه ينافى الآن ما يطالبه روح الترقى العصرى من (الديموقراطية) المعتدلة ، والمبادئ الاقتصادية الحديثة التى تعترف بحقوق الأيدى العاملة .

والذى يهمنا هو أن نرجع فيما تتطلبه العدالة من الحرية إلى تلك المبادئ الاجتماعية التى تمنح الإنسان حريته بشروطها ، وتقضى عليه ألا يمنع إنسانا من التمتع بحقوقه وحريته على الوجه الذى يراه موافقا لمصلحته . وهذه المصلحة تلزمنا بأن ننتفع بأعمال غيرنا بطريق المبادلة وفق آداب وقواعد معروفة ، فحق العمل هو شطر الحرية ، وكل امرئ حر فى أن يرفض عملا لا يوافقه لسوء معاملة أو قلة فى الأجر ، ولا سبيل لنا للضغط على حرية إنسان ، فنكرهه على أن يعمل عملا

مالم يكن برضاه ورغبته .

وهكذا ترينا العدالة جهة إنسانية شريفة من تحريم العبث بالسلطة واستغلال الضعف أوالجهل ، فلاحق لأى شخص فى الضغط على القاصرين وتكليفهم مالا يطيقون ، واستخدامهم فى الأعمال المرهقة ساعات طويلة حتى تنهد أجسامهم وتنهك قواهم ، ويعدهذا جناية فى نظر العدالة ، ولن يسعدالناس إلاإذاأدرك كل فرد أن مايسعدبه المجتمع فى مجموع أفراده يسعدهو به أيضا ، وأن كل مايمتص دماءه ويشقيه يعودضرره عليه ضمنا .

أما احترام الإنسان فى شرفه وسمعته فلا ريب أنه يدل على كمال التربية وسمو النفس . ولاشىء أدعى إلى الاحتقار من انتقاص أقدار الناس والاستهزاء بأمرهم، واحتقارهم . والإنسان الذى لايحترم غيره ليس جديرا بالاحترام مهما أوتى الكثير من العلم والثروة ،

وهذا المبدأ الشريف يقتضى تجنب كل مامن شأنه الحط بالناس وتحقيرهم ونذكر فى هذا المقام تلك الرذائل الأصلية الشائعة فى المجتمع :

فمنها «السباب» الدال على نقص المادة الأدبية فى النفوس وقلة زادها من كريم الأخلاق إذا كان مما يصدر بحكم العادة ، وبلا مناسبة ؛ وإذا كان يصدر عن عمد فى أحوال الخصام والشجار فله مضاره التى قد تزيد عن مضار ما صدر عن غباوة وجهل . ومهما يكن الأمر فالسباب كله مناقض لمبدأ العدالة والشرف والذوق السليم ، وهو ما يحط من قدر صاحبه ؛ إذ يكفيه عارا أن يدعوه الناس باسم السفيه الوقح .

ومثله « الغيبة » والحط من أقدار الناس فى غيبتهم ؛ والمغتاب لايستحق سوى احتقار كل شريف النفس من بنى آدم ، فنهش الأعراض وثلب النفوس وما إلى ذلك تأباه روح العدالة ، وتحتقره الآداب وتعده من سموم النفوس الدنيئة ، وأقذار العقول الشريرة وتنتهى الحال بالمغتاب إلى أن يعيش ذليلا محتقرا ، ووراء هذا كله القانون العادل الذى يشدد العقاب على القذف والطعن ، وثلب الأعراض.

ولقد يقصد المغتاب إظهار مهارته فى المجالس بمعرفة أخبار الناس ، ثم لايجنى إلا

احتقار من يسمعونه ، والواجب أن يشتغل بعيوبه قبل عيوب الناس ، وأن يبدأ بعداواة نفسه بدلا من الاجتهاد فى ذم غيره

والنميمة كالغيبة فى القبح ومخالفة العدالة وروح الآداب العالية ، ويقصد بها غالبا الانتقام من إنسان فى شرفه وعمله إذا تعذر الانتقام منه فى ذاته ، وهذا شر أنواع الرذائل وأخبث أنواع الكذب وكثيرا ما توجه الغيبة والنميمة ضد ذوى الشرف والاستقامة والأعمال النافعة ؛ فإن لم ير الشرير على سلوكهم غبارا وجه سهامه إلى مقاصد لهم تؤول تأويلا قد لا يكون خطر لهم على بال ، وليس له وجود إلا فى أدمغة النمامين والحسدة أعداء ذوى الاستقامة والنجاح فى الأمم . وهل هناك أعجب من أن يقول البعض إن فلانا لم يغمر المشروعات الخيرية بكرمه وعطفه إلا رياء وطلبا للسمعة ؟؟

والوشاية والسعاية من شر أنواع الغيبة والنميمة ؛ لأن هذه قد تكون لمجرد تشويه الأفعال والانتقام ، أما الوشاية والسعاية فتكون بإلقاء السوء إلى من يستطيع إيذاء الموشى به والسعى لإحلال الضغينة والحقد محل الصداقة والصفاء .

ويدخل فى هذه الرذيلة من أمورنا العصرية وشاية الزملاء إلى رؤسائهم ، والبلاغات الكاذبة ؛ وشهادة الزور ، وما إلى ذلك كله مما قد ينتهى بظهور الحق ، ووقوع الأشرار فى الحفرة التى حفروها لأعدائهم الأبرياء ومحسوديهم النبلاء . ولو بحثنا عن مصدر هذه العداوة الكامنة فى الصدور ومنشأ تلك الضغائن التى تغمر النفوس ما وجدنا إلا الجهل وضعف الوازع الأدبى وموت الضمير

انتهينا من البحث فى مقتضيات مبدأ العدالة الأدبية من حيث احترام حياة الإنسان وحريته فى عمله وشرفه وسمعته ، وبقى أن نبحث فى بقية مقتضيات العدالة التى لا يتم انتظام المجتمع إلا بها وهذه أربعة :

الأول احترام الإنسان فى اعتقاده وأفكاره ؛ لأن الإنسان خلق مفكرا ، فالفكر حق من حقوقه وهذا الحق لا ينحصر فى مجرد التفكير والاعتقاد ،

وإنما يتعدى إلى الكشف والإبانة عن هذه الأفكار .

وهذا الحق وإن كان أساس الحرية له حدود يجب الوقوف عندها أدبيا واجتماعيا ؛ حتى لا يتنافى والنظام والعدالة وحرية الأفراد ، فالحض على الجرائم، والحث على الفوضى والثورات ـ لا حرية للإنسان فيها ، والقانون يعاقب عليها. أما الآراء التي لا ضرر منها فلا يصح أن يحجر على أصحابها ، ولو خالفت المألوف. وحرية الفكر هي التي أوجدت أمور الجدل والنقد وما ترتب عليهما من كشف الأغلاط ، والوصول إلى الحقائق وتمحيصها ، فكانت داعية إلى الترقي والنهوض .

وحرية الفكر يقصد بها الآن حرية الصحافة قبل كل شيء ؛ لأنه إذا كان للأفراد الحق في حرية الفكر فالأجدر أن يتمتع بها المتصدرون للإرشاد ، ونشر الأخبار ، وبث الآراء بشرط مراعاة الأدب والكمال ، والقدرة على إلزام الحجة ، وطول الباع في صوغ الحقائق والإقناع . وكل تمويه وتضليل وتغرير لا يلبث أن تكذبه الحقيقة مهما يكن له من الإصغاء بادئ بدء . وفضل الصحافة لا ينكره أحد، ولاختلاف وجهتها ثمراته ، ولو كانت الأمة كلها متحدة الرأي ما احتك فكر بفكر ، وما بحث عن عيب ، أو أصلح خطأ . ولقد كان نابليون المشغوف بالسلطة المطلقة يرى ضرورة منح الحرية للصحافة التي هي آية ذلك العصر .

ويدخل في حرية الصحافة حرية التأليف والتصنيف .

أما حرية الاعتقاد فلا شك في أنها واجبة ؛ لأنها حق الوجدان والضمير الإنساني بموجب مبدأ العدالة . ويجب أن يحترم هذا الحق لأن النفس البشرية تميل بفطرتها إلى الاعتقاد بما فوق الطبيعة ، وتتطلب النزوع إلى تقديس خالق الأشياء جل شأنه ، فواجب العدالة أن تباح الحرية الدينية ليقوم الإنسان بعبادة ربه بالطريقة التي يختارها إلا إذا كان فيها ما ينافي المبادئ

الإنسانيـة : كتضحية الضحايا البشرية ، وتقديم القرابين الآدمية ، أو التصريح بقتل كل مخالف فى العقيدة، فحينئذ تقف العدالة حائلا بين تلك الأعمال الوحشية وضحاياها .

ومايجب احترامه فى باب حرية الفكر أمور الإنسان الذهنيـة والعلميـة حتى تتربى عند الأفراد ملـكة الاستقلال الفـكرى ، وأول مايشوه جمال ذلك الواجب التمويه ، والـكذب الذى إذا فشا فى أمة ضلت سبيل الرشاد ، والتهاون فى تعليم الأولاد منذ الصغر ، وهذا شر ماتجنى به النفوس بعضها على بعض ، لأن فى بقاء الجهل إبقاء على الجهالة والظلام ، وليس الإنسان أحوج إلى شىء منه إلى التحرر من ربقة الجهـل ، وأسر الظلام ، وهـذا يتم بقيام علمـاء الأمة بإنارة الأذهان وتثقيف العقول ، لتسعد الأمة وليعرف فضلهم كما قال الإمام على كرم الله وجهه :

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهم على الهدى لمن استهدى أدلاء

وواجب المجتمع أن يضطلع بواجب نشر العلم وإدارة شئونه والنهوض به .

الثانى: حرية الملـكية : وهذه يمكن تقسيمها إلى ملـكية أعيان مادية، وملـكية أشياء عقلية معنوية ؛ فـكل مايضـع المرء يده عليـه بحقه من أرض أو عقار عن طريق الشراء أو الـكدح أو الميراث هو مال حلال يتصرف فيه كيف شاء بكل أنواع التصرفات الشرعية ، ومثل ذلك ما يملـكه من الأمور الأدبية مثـل علم قرره ، أوشعر ابتدعه ، أواختراع أبرزه فـكره وهداه إليه عقـله ، فهذا كـله حق لصاحبه ، له امتيازه ، ولا يجوز لإنسان بموجب مبدأ الحرية أن ينازعه فيه أو يغتصبه منه أويدعيه لنفسه .

وحق الملـكية يتناول أيضا حرية التجارة ؛ لأن المنتجات الزراعية والصناعية وما إليهما لابد من تصريفها ، ولا سبيـل إلى ذلك إلا بالتجارة والحرية فيهـا ، على ألا يهضم التاجر حقوق غيره بطلب الأثمان الفاحشة ، والغش فى البضاعـة والبخس فى الـكيل والوزن ؛ فللتجارة واجباتها وآدابها كما لها حقوقها. وبالصدق

فى المعاملة يكسب التاجر ثقة الأفراد ويزداد ربحه .

أما الأمور التى تضر بالملكية فهى السرقة ، والخيانة ، والإتلاف ؛ فهذه وأمثالها لاحرية فيها ؛ لأنها جريمة ضد الفرد وضد المجتمع معا ؛ إنها تسلب الفرد ثمرة عمله الذاتى أو عمل أهله وذويه من قبل ، وتضر المجتمع ؛ لأنها تعبث بالأمن وتهدد الراحة العامة . والخيانة من شر وسائل السرقة ؛ لأنها تمتاز باغتصاب الأشياء بطريق الخداع والتضليل ، ومثلها النصب والتزوير .

والأدب كالشريعة : يعتبر كل مساعد فى الجريمة شريكا للمجرم .

ونذكر هنا أن العبث بالأملاك العامة مما هو حق الأمة كلها ممثلة فى حكومتها جريمة من أكبر الجرائم ؛ فهذه المتلكات يجب أن تحترم ، وألا تمس بخيانة أو عبث أو إتلاف أو إضاعة

على أن الأدب فى احترام الملكية يرمى إلى أبعد من ذلك ، فهو يحتم علينا إذا وجدنا مالا ضائعا أن نرده لصاحبه ، وإذا أتلفنا مال إنسان بجهلنا أو طيشنا أن نجتهد فى إصلاح ما أفسدنا .

الثالث : احترام الوعود والعهود : وفيه أكبر ضمان لحق الملكية ، ولتقدم المجتمع حسا ومعنى ؛ لأن أكثر المنافع المتبادلة والمعاملات بين الأفراد يستند على اتفاق وعهود سابقة ، فالوفاء بهذه العهود أمر واجب بالنظر إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية . واحترام النفس يتطلب الوفاء بالوعود والعهود بين البائع والمشترى والدائن والمدين وأمثال هؤلاء .

ولئن كانت أكثر المعاملات تتم بعقود كتابية إنه فى حال الارتباط الشفهى يجب على الإنسان أن ينفذ ما ربط به لسانه وشرف قوله ؛ لأن نقض العهود أحقر النقائص وأزرى بحق الإنسان الكامل وحسن السمعة فى الحياة .

ومما يجب التنبيه إليه ألا يكون فى العهود ما يشبه الإكراه وألا تخالف العرف والشرائع وأن تكون صريحة غير قابلة للتحوير والتأويل .

الرابع: الإنصاف ببذل المكافأة لمن يستحقها؛ لأن العدل إذا قضى علينا باحترام الإنسان في ماله وأفكاره وحياته فهو يلزمنا أن نساعد ونكافئ من يقوم بأكثر من الواجب عليه في سبيل الأمة؛ إذ التوانى القائم في المجتمع يجعل لنا نصيبا من هذه الفائدة؛ وكل ما يعلى قدر ذوى الأعمال الجليلة يرقى المجتمع ويشجع على الاقتداء به، وكل ما يكافأ به العلماء والقواد والمخلصون هو أسمى ما يتطلبه العدل والإنصاف .

ومما ينافي العدالة أن يترك الإنسان الدفاع عن بني جنسه لرغبة منه في تجنب عداوة الناس، أو لارتياب في فائدة ما يقدمه من المساعدة، أو للكسل وجمود النفس، أو لاشتغاله بشئونه الخاصة، وهذا نوع من الظلم المتجسم في إهماله الدفاع الواجب عليه .

ومثل هذا ما يراه بعض الناس من وجوب الاقتصار على العناية بالمصالح الخاصة بدعوى أن هذا يبرئ الإنسان من الظلم ؛ ففي هذا قيام بشطر من العدل الإنساني وإهمال الشطر الآخر ؛ لأن قصر العناية على النفس يجردها من رابطة التضامن الاجتماعي . ومنشأ هذا النوع من الظلم يرجع إلى أن من الناس مَن لا يتأثر بما يلحق بغيره من السعادة أو الشقاء بمقدار ما يتأثر بما يلحق بذاته، ونحن قد لا نحكم حكما واحدا على ما يخصنا وما يلحق غيرنا، وإذن تحتم العدالة على الإنسان أن يقيم في نفسه ميزانا، وأن يترك ما يريبه إلى ما لا يريبه .

ومما يقتضيه العدل أحيانا ألا يسلم المرء ما استودع، وألا يفي بما وعد، وأن ينكر الحقيقة وهو يعلمها، وفي مثل هذه الحالات يجب أن نقدر الغايات الشريفة والمصلحة العامة، ونجعلها أساسا نبني عليه العدل : فقد حكى عن (نبتون) إله البحر في خرافات القدماء أن الملك تزيوس طلب إليه في ثورة غضبه أن يسلط على ابنه من يقتله، ثم لما نفذ نبتون ما وعد به حزن الملك أشد الحزن .

ووعد الإنسان البسيط قد يسقط إذا قضت الضرورة ؛ فلقد تطرأ أحوال تحول بين الإنسان وتنفيذ ما وعد، فيصح له الاعتذار تقديما للأهم على المهم ،

أما الوعود والعهود المبنية على الغش والإكراه فليس هناك من يشك في أنها ساقطة من نفسها، والشرائع تحرمها وتبطل أثرها، وتعاقب عليها

ومن مخالفة العدل أيضا الافتتان في تأويل الشرائع تبعا للأهواء والشهوات، وكذلك التدقيق في مراعاة ألفاظ الشرائع وقشورها دون التفات إلى روحها وتحوير الوعود تخلصا من قيودها: كذلك القائد الذى يهادن العدو ثلاثين نهارا مثلا، ثم يخرب دياره ليلا بدعوى أن هدنته لا تتقيد إلا بالنهار.

فكل هذا ليس من العدل فى شيء، وإنما هو افتتان فى الغش والخداع.

ومن أسمى ضروب العدل أن نتجاوز عن إساءة من يسيء إلينا، لأن للانتقام حدودا معينة، وكثيرا ما يخجل المسيء ويندم حين نقابل إساءته بالإحسان فى حين لا يكسبنا الانتقام إلا زيادة الأحقاد والضغائن. وحل المشاكل بالحسنى يميزنا عن الحيوان الأعجم الذى لا يعرف لفض مشاكله إلا طريق القوة، فيجب على الإنسان ألا يلجأ إلى ما يلجأ إليه الحيوان الأعجم إلا عند الضرورة القصوى، ولأقوى الأسباب، وبعد إخفاق طريق الجدال بالتى هى أحسن،

وإن القصد فى الحرب لهو الوسيلة إلى تقرير السلام، وتجديد الصفاء والوئام، فيجب على الأمة التى تريد حفظ ملكها، وتلجأ فى ذلك إلى القوة ـ أن تستند فى حروبها على الأسباب الشريفة العادلة، وأن تفرق فى الأعداء بين من يقاتلها ليسلب بنيها فخار السلطة، ومن يحاربها رجاء سلبها الحياة كلها، ولا تستوى الحروب الأهلية والمنازعات على السلطة وحروب الأمم المغيرة الظالمة.

ويجب على الأفراد حين الحرب أن يفوا بما تعهدوا به: كما يحكى عن القائد (جولوس) فى حرب قرطاجنة الأولى حيث أخذ أسيرا، ثم التمس الإذن بالذهاب إلى قومه وتعهد بالرجوع، فلما وصل وأدى ما أراد بادر بالرجوع بالرغم من محاولة أهله وأصدقائه، وفضل عذاب السجن وذل الأسر على نقض

العهد !!

ونذكرهنا أيضا ما يقضي به العدل في معاملة الضعاف من الخدم ونحوهم، فإن لهم علينا حق المعاملة بالرفق واللين وعدم الاجهاد في العمل وإرهاقهم بما فوق طاقتهم ، والكرم في مكافأتهم على أعمالهم وإخلاصهم .

وليس هناك من ينسى أن القوة والحيلة هما وسيلتا الظلم وعدتا الجور ، ومتى ذكر الانسان أن الحيلة والخداع من صفات الثعالب ، وأن القوة والبطش من أعمال الوحوش المفترسة ـ أدرك أن الواجب عليه أن يترفع عن مجاراة الوحوش ، وأن يتعفف عن التسفل إلى أخلاق الثعالب والطبقات الدنيا من الحيوان ، ولنذكر دائما أن الخداع شر من القوة ، وأن أقبح الظلم ما برز تحت ستار مزيف من الغش والخديعة ظاهره الصفاء والولاء ، وباطنه الخبث والدهاء .

الحكمة والعدالة

تستند الحكمة على نشد الحقيقة والمعرفة التي هي أقرب الفضائل تعلقا بالإنسانية وشرفها، فنحن مسوقون بالرغبة النفسية إلى طلب العلم والمعرفة ، كما أنا نكره الجهل والاحتقار اللاحق بنا من أجله ، ونحن مكلفون التيقظ حيال هذا الميل الغرزي الكريم ، والاحتراس من الاندفاع في تيار الأضاليل دون الاهتداء بهداية العلم الصحيح ، وذلك بالفحص عن الأمور فحصا جيدا غير مدخرين في التحقيق جهدا ولا وقتا ، كما يجب أن نحترس من غلط بعض العقول التي تنساق في التعمق والتبحر ، فيسوقها الوهم إلى نتيجة لا يساوي النفع العائد منها ما بذل فيها من تعب وجهد ، ثم يجب ألا ننسى أن الإفراط في الاشتغال بالعلم إلى الحد الذي ينقطع الإنسان فيه عن واجباته وأعماله الأخرى مع عدم الظفر بفائدة صحيحة ـ يخالف الواجب نفسه ، فيجب أن نمارس فضيلة العلم بالقدر اللازم المعتدل مع التفرغ وقتا ما إلى الواجبات الأخرى ، اللهم إلا المنقطع للعلم المتخذه مهنة ؛ فهذا له شأن آخر . وأحر بالإنسان أن يكون له

فى تروضه الفكرى خير السبل للتنقل بين مايكسبه الراحة وينيله الغذاء الروحى والعلمى

وإذا كانت فضيلة الحكمة من أشرف مميزات الفرد فإن العدالة من أعظمها فائدة للمجتمع وأجمعها لشتات المنافع المشتركة بين البشر . والعدل نوعان : نوع يتمثل فى تلك القاعدة: « لاتصنع الشر مع إنسان إلا فى حال دفع عاديته عنك » وقاعدة الآخر : « عامل الناس بما هو حق الناس ، وعامل نفسك بما هو حق لك »

لقد نشأت الحقوق من الملابسات الطارئة بحكم العادة ، ومهما كان من حقوق الملكية فهى ترجع إلى مثل احتلال قديم قامت به القبائل والعشائر ، فنزلت الأراضى الخالية التى لا أصحاب لها ، أو اكتسبت حقوقها فيها بالفتح. هذا هو تاريخ الملكية ؛ فلكل جماعة حقوقها ، ولكل فرد حقوقه أيضا ، وقد منحته الجماعة إياها بحسب شرائعها وتقاليدها ، فكل اغتصاب أو عبث بحقوق غيرك إنما يعتبر اعتداء على المجتمع نفسه ، ولما كانت الحياة كما قال أفلاطون تقصر علينا ، وبما أن الإنسان ما وجد إلا لنفع الإنسان ـ فلنجعل سنة الخليقة نفسها دليلنا وقدوتنا فى تلك المهام الحيوية ، ولتكن كل مزايانا مشتركة بالتبادل فى الخدمات والخيرات ، ولنهب كل أعمالنا ومواهبنا وقوانا لتوثيق عرا الروابط الاجتماعية عن تبصر وإخلاص .

إن الإخلاص الجامع هو أساس العدل : الإخلاص فى العمل والصدق فى القول ، والوفاء بالعهود ، واحترام الحقوق .

والجور نوعان كذلك : نوع يقترفه الإنسان بنفسه ، ونوع يأتى بعدم منع الظلم مع المقدرة على المنع . وإن التعدى على إنسان بغير حق فى ثورة غضب أو لمحبة انتقام ، أو لشهوة فى النفس ـ ليس إلا إضرار الإنسان بنفسه فى شخص ذلك المعتدى عليه ، ومثل ذلك ترك دفع الشر عن شخص معتدى عليه مع القدرة على ذلك ، ولا يقل هذا الوزر عن وزر الفرار عن الدفاع

عن الأوطان .

على أن من الأحوال ما قد يضطر المرء فيه إلى ارتكاب القليل من الشر منعا للكثير منه ، وفى هذا يكون التسمح معقولا ، أما فيما عدا تلك الحالات فليس هناك أقبح وأفحش من الظلم .

لا لوم على امرئ يسعى بالطرق الشرعية الشريفة فى جمع المال وادخاره ؛ لأن المال وسيلة إلى التنعم برغبات النفس ، ووساطة لشراء المجد والشرف ، وإنما اللوم على كل ظالم غشوم يجمعه بظلم غيره وغش الناس وأكل أموالهم بالباطل ؛ وشر أنواع الظلم ما صدر عن روية وفكر وسوء قصد مرتب ؛ فتحت أردانه الشر والبلاء .

سياسة الرياسة ورعاية الرعية

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ : فَالأَمِيرُ رَاعٍ عَلَى رَعِيَّتِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْهُمْ وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ زَوْجِهَا وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُ وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْهُ »

وخير ما يتبعه الحاكم ألا يفرط فى البشاشة والهشاشة للناس وألا يقل منهما ؛ فإن الإكثار منهما يؤدى إلى الخفة والسخف ، والإقلال منهما يؤدى إلى العجب والكبر . وجدير به ألا يغضب ؛ لأن قدرته من وراء حاجته . وألا يكذب ؛ لأنه لا يقدر أحد على استكراهه . وألا يبخل ؛ لأنه لا عذر له فى منع الأموال . وألا يحقد ؛ لأنه يجب أن يترفع عن المجازاة . والواجب عليه قبل كل شىء أن يبدأ بتقوى الله وإصلاح سريرته بينه وبين خالقه ، ثم يتفكر فيما قلده الله من أمر قومه ، ورفعه عليهم ؛ ليعلم أنه مسئول عنهم فى دِقّ الأمور وجِلّها ، ومحاسب على قليلها وكثيرها ، ثم يتخذ وزيرا عاقلا صالحا عفيفا نصوحا ، وعمالا صالحين بررة راشدين ، وأعوانا مستورين .

ولا يستحق أحد اسم الرياسة حتى يكون فى ثلاثة أشياء : العقل ، والعلم ، والمنطق . ثم يتعرى عن ستة أشياء : عن الحدة والعجلة والحسد والهوى والكذب وترك المشاورة .

والواجب على من ملك أمور المسلمين الرجوع إلى الله جل وعلا فى كل لحظة وطرفة لئلا يطغيه ماهو فيه من تسلطه ، بل يذكر عظمة الله وقدرته وسلطانه وأنه هو المنتقم عمن ظلم والمجازى لمن أحسن ، فليلزم فى إمرته السلوك الذى يؤديه إلى اكتساب الخير فى الدارين ، وليعتبر بمن كان قبله من أشكاله ؛ فإنه لامحالة مسئول عن شكر ماهوفيه ومحاسب عليه .

ومن صحب الحاكم وجب عليه ألا يكتمه نصيحته ؛ لأن من كتم السلطان نصيحته والأطباء مرضه والإخوان بثه فقد خان نفسه ، وينبغى لمن اتصل بالحاكم أن يجانب معه كلام الملق والإكثار من الدعاء فى كل وقت وكثرة الانبساط ؛ فرب كلمة أثارت الوحشة ، بل يجتهد فى توقيره وتعظيمه عند الناس .

الحلم

الحلم إمساك النفس عن الاستشاطة فى الغضب وملك الجوارح عند اتقاد جمرة الشر والسكون عند الأحوال المحركة للانتقام ، والتثبت فى ترك تعجيل إنفاذ الحكم لما فى عواقب ذلك من وقوع الندم ، لاسيا مع تمكن القدرة ، وتحكم القوة ؛ فإن ذلك آية الرحمة ، وسعة الصدر ، وعلو الهمة ، وإيثار مكارم الأخلاق فما منع شيئا من دواعى الفضل من طبع عليه ، ولا قصر عن أرفع مراتب الخير من وفق إليه . كما أنه ماترك شيئا من الأحوال الذميمة وتأخر عن سبب من الأسباب المليمة من أنفذ غضبه ، واستعجل عند القدرة انتقامه .

والحلم (سددك الله) من أكرم الخلال ، وأتم الخصال ، وأفضل شمائل الرجال وأسنى مواهب الله المتعال . وهو أصل من أصول الدين ، وركن من أركان الطاعة مكين ، وحبل من حبال الشرع متين ، وحصن من حصون الإيمان حصين .

من استند إليه ، وتمسك به ، واعتمد عليه — استنارت له الظلم ، وأَمِنَ مِنْ عثار القدم ، وعصم من مواقع الندم .

وما زال الحلم يعرب عن نزاهة النفس ، وبعد الهمم ، والفوز بأوفر حظوظ الفضل والكرم ، ومن تحلى به واستعمله ، وأخذ به نفسه وامتثله — فقد استمسك من الصبر بكل سبب ، واستولى على دواعى الخير ومساعى البر فى كل أرب ، فما زال يطفئ جمرة الغضب ، ويسمو بصاحبه فى الدارين إلى أرفع الرتب .

وهو اسم من أسماء الله سبحانه ، وصفة من صفاته ؛ لأنه (جل ذكره) يرى عصيان العاصين ، ويطلع على خيانة الخائنين ، ويشاهد جور الظالمين ، ويحصى ذنوب الخاطئين ، فلا يحتجب عنه عمل عامل ، ولا يغيب عن علمه شيء فى عاجل ولا آجل ، وهو بحلمه لا يعجل بالانتقام مع القدرة ، ولا يستفزه الغضب مع إمكان القوة ، ولا تبعثه العجلة على إنفاذ حكمه مع وضوح الحجة ، بل يؤثر الحلم والإمهال ؛ ليكون له الفضل والمنة : وحسبنا قوله عز من قائل : « وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً » وقوله تبارك اسمه : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ »

وقد أثنى الله تعالى بالحلم على أنبيائه ، وخص به صفوة أوليائه ، ومنحه من أراد كرامته من أهل طاعته وأصفيائه ، فقال سبحانه : « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ » . وقال لرسوله صلى الله عليه وسلم : « خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ » . روى أنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام عند نزول هذه الآية : « مَا هَذَا ؟ » قال : « لاَ أَدْرِى حَتَّى أَسْأَلَ الْعَالِمَ » ثم عاد جبريل فقال : « يَامُحَمَّدُ ، إِنَّ رَبَّكَ أَمَرَكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِىَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَجَبَتْ مَحَبَّةُ اللهِ لِمَنْ أُغْضِبَ فَحَلُمَ »

وقال صلوات الله وسلامه عليه : « إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَكَانَ قَائِماً فَلْيَقْعُدْ ، وَإِنْ كَانَ قَاعِداً فَلْيَضْطَجِعْ »: يريد بذلك تسكين الغضب عند استشاطة النفس . وأتاه صلى الله عليه وسلم رجل ، فقال : « يارسول الله أوصنى » قال : « لاَ تَغْضَبْ » ثم أعاد عليه ، فقال : « لاَ تَغْضَبْ » ثم أعاد عليه ، فقال : « لاَ تَغْضَبْ »

وحكى عن بعض ملوك الفرس أنه كتب كتابا دفعه إلى بعض وزرائه وقال له : « إذا غضبت فناولنيه »: وكان قد كتب فيه: « مالك وللغضب ؟ وإنما أنت بشر . ارحم من فى الأرض يرحمك من فى السماء » وكتب أبرويز لابنه : « يابنى ، إن كلمة منك تسفك دماء ، وكلمة تحقن دماء ، وأمرك نافذ ، وكلامك ظاهر ، فاحترس فى غيظك من قولك أن يخطئ ، ومن لونك أن يتغير ، ومن جوارحك أن تخف ؛ فإن الملوك تعاقب قدرة ، وتعفو حلما »

وقالت الحكماء : « ليس الحليم من ظلم فحلم ، حتى إذا قدر انتصر ؛ إن الحليم من إذا قدر عفا » وقيل : « الحلم ترك المكافأة بالشر قولا وفعلا »

وقيل للأحنف بن قيس : « ممن تعلمت الحلم ؟ » قال : من قيس بن عاصم المنقرى : رأيته يوما قاعدا بفناء داره محتبيا بحمائل سيفه ، يحدث قومه ، إذا برجل مكتوف ، ورجل مقتول . فقيل له : « هذا ابنك قتله ابن أخيك هذا » فوالله ماقطع كلامه ، ولا حل حبوته . ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له : « ياابن أخى ، أنت رميت نفسك بسهمك ، وقتلت ابن عمك » ثم قال لابن له آخر : « قم يابنى ، فوار أخاك ، وحل كتاف ابن عمك ، واحمل إلى أمك مائة ناقة دية عن ابنها ؛ فإنها غريبة !! »

والحلم يحسبه السفيه من ضعف السنة ، واحتمال الذلة ، والعاقل يراه من كمال العزة وإسداء المنة ، ولذا قال الأحنف : لاتزال العرب عربا مالبست العمائم ، وتقلدت السيوف ، ولم تر الحلم ذلا ، ولا التراهب فيما بينها ضعة ، كما قال :

لايدرك المجد أقوام وإن كرموا حتى يذلوا وإن عزوا لأقوام
ويصفحوا عن كثير من إساءتهم لاصفح ذل ولكن صفح أحلام

وقال بعض الحكماء : « الحلم والأناة توءمان نتيجتهما علو الهمة » وقال على ابن أبى طالب رضى الله عنه : « أول مايرى الحليم من بركة حلمه أن الناس كلهم أعوانه على الجاهل »

وقال محمد بن كنانة : « إن أهل الجاهلية لم يكونوا يسودون رجلا حتى يكون حليما ، وإن كان أكرم الناس ، وأشجع الناس ، وأشرف الناس » وقال بعض العلماء : « ثلاث من لم تكن فيه لم ينفعه الإيمان : حلم يرد به جهل الجاهل ، وورع يكفه عن المحارم ، وخلق حسن يدارى به الناس »

وقال معاوية رحمه الله : « إنى لآنف أن يكون فى الأرض جهل لايسعه حلمى ، وذنب لايسعه عفوى ، وحاجة لايسعها جودى »

ومن تمام أحكام الحلم وكمال أسبابه واجتماع معانيه قبول العذر من صادق كان أو كاذب ، فإن الاعتذار دليل الندم ، والندم توبة . وقد يكون الاعتذار حياء من المعتذر ، والحياء من الإيمان .

المؤاخاة

عن أنس قال : آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبى الدرداء ، وآخى بين عوف بن مالك وبين الصعب بن جثّامة الصحابى .

وقال بعض الفلاسفة : خليق بالعاقل ألا يغفُل عن مؤاخاة الإخوان وإعداده إياهم للنوائب والحدثان وألا يعُد فى الأوِدَّاء إخاءً من لم يواته فى الضراء ولم يشاركه فى السراء ، وقد يكون أخو الإخاء خيرا من الأخ فى النسب .

ومِنْ أتم حفاظ الأخوة تفقُّد الرجل أمور من يوده . والود الصحيح هو الذى لايميل إلى نفع ، ولا يفسده منع ، والمودة أمْن كما أن البغضاء خوف . والعاقل لايؤاخى إلا من خالفه على الهوى وأعانه على الرأى ووافق سرُّه علانيته ، وليس

الغرض من المؤاخاة الاجتماع والمواكلة والمشاربة ، فالسُّراق يتجمعون ويشتركون فى المأكل والمشرب ولا يزدادون بذلك مودة ، ولكن من أسباب المؤاخاة التى يجب على المرء لزومها — مشى القصد ، وخفض الصوت وقلة الإعجاب ولزوم التواضع وترك الخلاف ، وألا يكثر على إخوانه المئونات فيبرمهم ، وألا يمنعهم شيئا يحتاجون إليه ليجبروا به مصائبهم أو يفرجوا به كربتهم .

والعاقل لا يؤاخى لئيما لأن اللئيم كالحية الصماء ليس عندها إلا اللدغ والسم ولا يصل اللئيم لأنه لا يؤاخى إلا عن رغبة أو رهبة ، والكريم يود الكريم على لُقْيَةٍ واحدة ولو لم يلتقيا بعدها أبدا ، والحذر من لم يستصغر الجفوة اليسيرة لأن من استصغر الصغير يوشك أن يجمع إليه صغيرا فإذا الصغير كبير .

وقد وضع عمر بن الخطاب رضى الله عنه للناس ثمانى عشرة كلمة حوت الكثير من أصول الأخلاق قال :

(١) ما كافأتَ من يعصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه.

(٢) ضع أمر أخيك على أحسنه حتى يأتيك منه ما يغلبُك .

(٣) لا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شرا وأنت تجد لها فى الخير محملا.

(٤) من تعرض للتهمة فلا يلومن من أساء به الظن.

(٥) من كتم سره كانت الخيرة فى يديه .

(٦) عليك بإخوان الصدق تعِشْ فى أكنافهم ؛ فإنهم زينة فى الرخاء وعدة فى البلاء.

(٧) عليك بالصدق وإن قتلك الصدق .

(٨) لا تعرَّض لما لا يعنيك.

(٩) ولا تسأل عما لم يكن؛ فإن فيما كان شغلا عما لم يكن .

(١٠) ولا تطلبن حاجتك إلى من لا يحب لك نجاحها .

(١١) ولا تصحبن الفاجر فتعَلَّمَ فجوره .

(١٢) اعتزل عدوك .

(١٣) واحذر صديقك إلا الأمين .

(١٤) ولا أمين إلا من خشى الله .

(١٥) وتخشع عند القول .

(١٦) وذل عند الطاعة .

(١٧) واعتصم عند المعصية .

(١٨) واستشر فى أمرك الذين يخشون الله ؟ فإن الله يقول : « إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاء »

وقال أبو حاتم : اللبيب لا يؤاخى إلا ذا فضل فى الرأى والدين والعلم والأخلاق الحسنة وذا عقل نشأ مع الصالحين ، ومن أضاع تعهد الود من إخوانه حرم ثمرة إخائهم وآيس الاخوان من نفسه ، ومن ترك الاخوان مخافة تعاهد الود يوشك أن يبقى بغير أخ ، وليس من السرور شىء يعدل صحبة الاخوان ، ولا غم يعدل غم فقدهم .

اتخاذ الاخوان وما يجب لهم

روى الأوزاعى عن يحي بن أبى كثير أن داود قال لابنه سليمان عليهما السلام : يابنى لا تستقل عدوا واحدا ، ولا تستكثر ألف صديق ، ولا تستبدل بأخ قديم أخا مستحدثا ما استقام لك .

وقال شَبِيبُ بن شَبَّة : إخوان الصفاء خير من مكاسب الدنيا : زينة فى الرخاء ، وعدة فى البلاء ، ومعونة على الأعداء .

وأنشد ابن الأعرابى :

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الصفاء الذخائر

وقال الأحنف بن قيس : خير الاخوان من إن استغنيت عنه لم يزدك فى المودة ، وإن احتجت إليه لم ينقصك منها ، وإن كوثرت عضدك ، وإن استرفدت رفدك ، وأنشد :

أخوك الذى إن تدعه لملمة   يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب

ومما يجب للصديق على الصديق النصيحة جهده ، فقد قالوا : صديق الرجل مرآته : يريه حسناته وسيئاته .

وقالوا : الصديق من صدقك وده وبذل لك رفده . وقالوا : خير الإخوان من أقبل عليك إذا أدبر الزمان عنك . وقال الشاعر :

فإن أولى الموالى أن تواليه   عند السرور لمن واساك فى الحزن
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا   من كان يألفهم فى المنزل الخشن

وأنشد محمد بن يزيد المبرد لعبد الصمد بن المُعَذّل فى إبراهيم بن الحسن :

يا من فدت نفسه نفسى ومن جعلت   له وقاء لما يخشى وأخشاه
أبلغ أخاك وإن شط المزار به   أنى وإن كنت لا ألقاه ألقاه
وأن طرفى موصول برؤيته   وإن تباعد عن مثواى مثواه
الله يعلم أنى لست أذكره   وكيف يذكره من ليس ينساه

وقيل لبعض الولاة : كم صديقا لك ؟ قال : لا أدرى ؛ الدنيا مقبلة على والناس كلهم أصدقائى ، وإنما أعرف ذلك إذا أدبرت عنى .

زيارة الإخوان وإكرامهم

عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِى قَرْيَةٍ فَأَرْصَدَ اللهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَقَالَ : أَيْنَ تُرِيدُ ؟ فَقَالَ : أُرِيدُ أَخًا لِى فِى هَـذِهِ الْقَرْيَةِ ، فَقَالَ : هَلْ لَهُ عَلَيْكَ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا (١) ؟ قَالَ : لاَ إِلاَّ أَنِّى أُحِبُّهُ فِى اللهِ . قَالَ : إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكَ ، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ »

من أجل ذلك وجب تعاهد الزيارة للإخوان وتفقد أحوالهم .

وكان عتبة الغلام يأوى المقابر والصحارى ، ثم يخرج إلى السواحل فيقيم بها

(١) تزيدها وتحفظها

فإذا كان يوم الجمعة دخل البصرة فشهد الجمعة ورأى إخوانه فسلم عليهم .

وقال عامر بن عبد قيس : إنما أجدنى آسف على البصرة لخصال : تجاوب مؤذنيها ، ولأن بها إخوانى ، ولأن بها وطنى .

والناس فى الزيارة على ضربين :

فمنهم من توثقت عرا الصداقة بينه وبين أخيه ، ومثل هؤلاء لا ضرر عليهم من الإكثار من الزيارة والإفراط فى الاجتماع ؛ لأن الإكثار من الزيارة بينهم لا يورث الملالة ، والإفراط فى الاجتماع يزيد فى المؤانسة .

والضرب الآخر من لم يستحكم الود بينه وبين من يؤاخيه ، ولم ترتفع الحشمة بينهما ، ومن كان بهذه الصفة فعليه الإقلال من الزيارة ؛ لأن الإكثار منها يؤدى إلى الملالة : قال صلى الله عليه وسلم : (زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا) وقال الشاعر :

إنى رأيتك لى محبا وإلىّ حين أغيب صبا
ففترت لا لملالة حدثت ولا استحدثت ذنبا
إلا لقول نبينا زوروا على الأيام غبا

وقال الآخر :

عليك بإقلال الزيارة إنها تكون إذا دامت إلى الهجر مسلكا
فإنى رأيت القطر يُسْأم دائبا ويسأل بالأيدى إذا هو أمسكا

التحبب إلى الناس

فى الحديث المرفوع : (أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ أَكْثَرُهُمْ تَحَبُّبًا إِلَى النَّاسِ) وفيه أيضا : (إِذَا أَحَبَّ اللهُ عَبْدًا حَبَّبَهُ إِلَى النَّاسِ) ومما قيل فى هذا المعنى :

وجه عليه من الحياء سكينة ومحبة تجرى مع الأنفاس
وإذا أحب الله يوما عبده ألقى عليه محبة للناس

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنهما : إن الله إذا

أحب عبداً حببه إلى خلقه ، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما للناس عندك . وقال أبو دهمان لسعيد بن مسلم وقد وقف إلى بابه فحجبه حينا ثم أذن له ومثل بين يديه : إن هذا الأمر الذى صار إليك وفى يديك قد كان فى يدى غيرك ، فأمسى والله حديثا إن خيرا فخير وإن شراً فشر ، فتحبب إلى عباد الله بحسن البشر وتسهيل الحجاب ولين الجانب ؛ فإن حب عباد الله موصول بحب الله وبغضهم موصول ببغض الله ؛ لأنهم شهداء الله على خلقه ورقباؤه على من اعوج عن سبيله .

وعن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ كُلُّ هَيِّنٍ لَيِّنٍ قَرِيبٍ سَهْلٍ) وقال بعض الحكماء : حرى بالعاقل أن يتحبب إلى الناس بلزوم حسن الخلق وترك سوء الخلق ؛ لأن الخلق الحسن يذيب النقائص كما تذيب الشمس الجليد ، وإن الخلق السيئ ليفسد العمل كما يفسد الخل العسل ، وقد تكون فى الرجل أخلاق كثيرة صالحة كلها وخلق سيئ ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الصالحة كلها .

وقال ابن عياض : إذا خالطت فخالط حسن الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى خير وصاحبه منه فى راحة ، ولا تخالط سيئ الخلق فإنه لا يدعو إلا إلى شر وصاحبه منه فى عناء .

وقال بعض الفلاسفة : حسن الخلق بذر اكتساب المحبة كما أن سوء الخلق بذر استجلاب البِغْضَة . وقال أيضا : الاستثقال من الناس يكون سببه شيئين :

أحدهما مقارفة المرء ما نهى الله عنه من المآثم لأن من تعدى حرمات الله أبغضه الله ، ومن أبغضه الله أبغضته الملائكة ، ثم يوضع له البغض فى الأرض فلا يكاد يراه أحد إلا استثقله وأبغضه .

والسبب الآخر هو استعمال المرء من الخصال ما يكره الناس منه ، فإذا كان

كذلك استحق الاستثقال منهم .

ومن أعظم ما يتوسل به المرء إلى الناس ويستجلب به محبتهم البذل لهم بما يملك من حطام هذه الدنيا واحتماله عنهم ما يكون منهم من الأذى : فلو أن المرء صحبه طائفتان إحداهما تحبه والأخرى تبغضه فأحسن إلى التي تبغضه وأساء إلى التي تحبه ، ثم أصابته نكبة فاحتاج إليهما — لكان أسرعهما إلى خذلانه وأبعدهما عن نصرته الطائفة التي كانت تحبه ، وأسرعهما إلى نصرته وأبعدهما عن خذلانه الطائفة التي كانت تبغضه .

ارشاد الانسان الى الحسن والقبيح

وسائل إرشاد الإنسان إلى الحسن والقبيح كثيرة :

١ ـ فمنها : ألسنة الناس ؛ إذ أن الإنسان يعمى عن عيوبه ، والناس بين قادح ومادح : قال على كرم الله وجهه : المرآة التي ينظر الإنسان فيها إلى أخلاقه هي الناس ؛ لأنه يرى محاسنه من أوليائه منهم ، ومساويه من أعدائه فيهم .

واعلم أن لسان العدو أكثر كشفا من لسان الصديق ؛ لأن الصديق قد يداهن ، ويخفي العيوب : قال على كرم الله وجهه : عدو الرجل قد يكون خيرا من صديقه ؛ لأنه يهديه إلى عيوبه ، فيجتنبها . فالعاقل هو من يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ؛ فإن عين السخط تبدى المساوى . ولعل انتفاع الإنسان بعدوّ مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتفاعه بصديق مداهن يثني عليه ويمدحه ، ويخفي عنه عيوبه إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه ؛ فإن مساويه لابد أن تنتشر على ألسنتهم .

٢ ـ ومنها : تنزيل الإنسان نفسه منزلة غيره ؛ لأن الإنسان تخفى عليه

عيوبه . وتتكشف له عيوب غيره ، فإذا نزل نفسه منزلة غيره ، ونسب الفعل له — تبين قبحه ، أو حسنه : قال أمير المؤمنين : كفاك أدبا لنفسك اجتناب ماتكرهه من غيرك. وقال عليه الصلاة والسلام: « السَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ ، وَالشَّقِيُّ مَنِ اتَّعَظَ بِهِ غَيْرُهُ » أخذه بعض الشعراء ، فقال :

إن السعيد له من غيره عظة وفى التجاريب تحكيم ومعتبر

وقيل لبعض الحكماء : ممن تعلمت العقل ؟ قال : ممن لا عقل له : كنت أرى الجاهل يفعل الشيء يضره ، فأجتنبه . وقال طاهر ابن الحسين :

إذا أعجبتك خصال امرئ فكنه تكن مثل مايعجبك
فليس على الفضل والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك

وقيل لعيسى عليه السلام : من أدبك ؟ قال : ماأدبنى أحد : رأيت جهل الجاهل شينا فاجتنبته .

٣ — ومنها : تنزيل الناس منزلة النفس : قال على رضى الله عنه : اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك ، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك ، واكره له ما تكره لها ، ولا تظلم كما لاتحب أن تظلم ، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك ، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك ، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولا تقل للناس مالاتحب أن يقال لك .

٤ — ومنها : مقابلة الشيء بنظيره ، أو بضده : قال الخليل : لا يعلم الإنسان خطأ معلمه حتى يجالس غيره . ومن أمثال العرب : (كل مجرٍ فى الخلاء يسر) : وأصله أن رجلا كان له فرس يقال له الأبيليق ، وكان يجريه فردا ليس معه أحد ، وجعل كلما مر به طائر أجراه تحته ، أو رأى إعصارا أجراه تحته ، فأعجبه مارأى من سرعته ، فقال : لو

راهنت عليه !! فنادى قوما فقال : إنى أردت أن أُراهن عن فرسى هذا ، فأيكم يُرْسِلُ معه ؟ فقال بعض القوم : إن الحلقة غدا . فقال : إنى لا أُرسله إلا فى مضمار . فراهن عنه ، فلما كان الغد أرسله فَسُبِقَ ، فعند ذلك قال : (كل مُجرٍ فى الخلا يسر) . وقد تبين من هذا أن الشىء لا يتبين حتى يقاس بغيره .

٥ ـ ومنها : اتفاق آراء العقلاء على أمر من الأمور الدنيوية ؛ فإنه كاشف عن حسن الشىء وعن قبحه ، ولسنا نقصد به الإجماع الشرعى ؛ فإن ذلك كاشف عن قول المعصوم عليه الصلاة والسلام . وإذا عرف هذا ينبغى للعاقل أن يأخذ نفسه باجتناب ما هو قبيح عند الجمهور العقلاء : قال على رضى الله عنه : من رضى عن نفسه كثر الساخط عليه . ويقال : الخطأ مع الجماعة خير من الصواب مع الفرقة وأنشد بعض أهل الأدب :

إذا اجتمع الناس فى واحد وخالفهم فى الرضا واحد
فقد دل إجماعهم دونه على عقله أنه فاسد

٦ ـ ومنها : عمل العقلاء ؛ فإنه كاشف عن صحة العمل وحسنه : يروى أنه ذكر عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه حلى الكعبة وكثرته ، فقال قوم : لو أُخذ وجهز به جيوش المسلمين كان أعظم للأجر ؛ وما نصنع بالحلى ؟ فهمَّ عمر بذلك ، وسأل عنه عليا كرم الله وجهه فقال : إن هذا القرآن أُنزل على محمد عليه الصلاة والسلام والأموال أربعة : أموال المسلمين ، فقسمها بين الورثة فى الفرائض ؛ والفىء ، فقسمه على مستحقه ؛ والخمس فوضعه الله حيث وضعه ، والصدقات فجعلها الله حيث جعلها ، وكان حلى الكعبة يومئذ فيها ، فتركه الله على حاله ولم يتركه نسيانا . فقال عمر : لولاك لافتضحنا . وترك الحلى بحاله .

وصعد سليمان بن عبد الملك يوم جمعة المنبر ، فسمع صوت ناقوس فقال : ماهذا ؟ قالوا : البِيعة يا أمير المؤمنين . فأمر بهدمها فهدمت ، فبلغ ذلك ملك الروم ، فكتب إليه : إن هذه البيعة أقرها من كان قبلك ، فإذا كانوا أصابوا فقد أخطأت ، وإن تكن أصبت فقد أخطئوا !!

٧ - ومنها : المشورة : قال بعضهم :

وإن باب أمر عليك التوى فشاور لبيبا ولا تعصه

وقال بعض البلغاء : إذا أنكرت من عقلك شيئا فاقدحه بعاقل.

وقال تعالى يمدح عباده الذين اتخذوا المشورة إماما لهم فى أعمالهم (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ) وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مواطن كثيرة لأصحابه : أشيروا على .وقد شاور أصحابه فى قصص كثيرة ، وقضايا متعددة :

منها : لما أراد مصالحة عتبة بن حصين ، والحارث بن عوف حين قصده الأحزاب يوم الخندق — أن يعطيهم ثلث أثمار المدينة ويرجعا عنه بمن معهما من غطفان ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : حتى أشاور السعود (سعد بن معاذ ، وسعد بن عبادة ، وسعد بن فزارة) فشاورهم ، فأشاروا ألا يعطيهم شيئا ، فعمل بمشورتهم .

ومنها : أنه شاورهم فى الخروج إلى أُحد ، فأشاروا عليه بذلك ، فحصل ماحصل من قرارهم . فلولم يشاورهم لتوهموا أن فى قلبه صلى الله عليه وآله وسلم من تلك المشورة شيئا ، فدفع الله ذلك التوهم بقوله : (وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ)

وقالوا : مادة العقل من العقول كمادة النهر من السيول .

ومن كلامهم : ينبغى للعاقل أن يجمع إلى عقله عقل العقلاء ، وإلى رأيه

رأى الحكماء .

ومن أمثال العرب : أول الحزم المشورة .

وقال لقمان لابنه : يابنى اجعل عقل غيرك لك فيما تدعوك الحاجة إلى فعله فقال ابنه : كيف أجعل عقل غيرى لى ؟ قال : تشاوره فى أمرك .

وقال بعضهم : الرجال ثلاثة : رجل ينظر فى الأمور قبل أن تقع فيصدرها مصادرها ، ورجل متواكل لا يتأمل ، فإذا نزلت به نازلة شاور أصحاب الرأى وقبل قولهم ، ورجل حائر بائر (١) لا يأتمّ راشدا ، ولا يطيع مرشدا .

واعلم أن المستشير وإن كان أفضل رأيا من المشير — يزداد برأيه رأيا كما تزداد النار بالسليط ضوءا ، فلا يقذفن فى روعك أنك إذا استشرت الرجال ظهر للناس منك الحاجة إلى رأى غيرك ، فيمنعك عن المشاورة ، فإنك لا تريد الرأى للتجربة ، ولكن للانتفاع به ، وذلك أفخر لذكرك ، وأحسن عند ذوى الألباب لسياستك : ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام أُمِر بذبح ولده عزمة لا مشورة فيها ، فحمله حسن الأدب وعلمه بموقعه من النفوس على الاستشارة فيه ، فقال عليه السلام بلسان القرآن الكريم يابنى : (إِنِّى أَرَى فِى الْمَنَامِ أَنِّى أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى) .

وقد سئل بعض العلماء : مابال العاقل ذى اللب لا تصيب مشورته على نفسه وتقصر عن إصابة الصواب ، وإدراك المطلوب ، ومشورة غيره له تظفره بذلك ؟ فقال : إن مشورة الإنسان لنفسه ممزوجة بالهوى ، ومشورة غيره له سالمة من ذلك ، ولا إصابة مع الهوى : وفى هذا المعنى قال بعضهم :

إذا عنَّ أمر فاستشر فيه صاحبا وإن كنت ذا رأى تُشير على الصحب
فإنى رأيت العين تجهل نفسها وتدرك ما قد حل فى موضع الشهب

وقال الأرّجانى :

شاور سواك إذا نابتك نائبة يوما وإن كنت من أهل المشورات

---

(١) لا نفع فيه

فالعين تلقى كفاحا ما نأى ودنا ولا ترى نفسها إلا بمرآة

وقلما رغب أحد فى المشورة وعمل بها إلا غنم ، ولا زهد فيها وأعرض عن قبولها إلا ندم :

حكى المؤرخون أن محمدا الأمين لما قصده عبدالله بن طاهر بعساكر المأمون وحصره ببغداد ، واشتد عليه الأمر ، وضاق بين يديه المسلك للنجاة — قال : من استشار ذا رأى ومعرفة وخالفه وقع فيما يكره ، وندم على التفريط ؛ فإنى قد أحضرت الشيخ أبا الحسن العُطَيْفى وكان ذا رأى ومعرفة بموارد الحوادث ومصادرها ، فحادثته فى أخى المأمون وما الذى أعتمده حتى يقع فى يدى ، وأطلعته على الحقيقة واستشرته فى كيفية العمل فى ذلك ، فقال : إن استعجلت لم تنتفع برأى ولا فعل ، وإن تمهلت وقبلت مشورتى تمكنت من أخيك ، وبلغت ما تأمل : وذلك أنك تدعو المترددين على خراسان ، وتجلس لهم مجلسا عاما ، وتقول لهم : إن أخى كتب إلى يمدحكم ، ويظهر حسن انقيادكم وجميل طاعتكم ، ثم تقول لهم : قد أطلقت عنكم الخراج سنة ، وأخوك فى خراسان ، وهى بلاد رجال بلا مال ، وليس له فى رد قولك حيلة ، وسيناله من ذلك خلل عظيم ثم ينتقض عليه أكبر أمره ، ثم تفعل فى السنة المقبلة مثل ذلك ؛ وتسقط عنهم خراج سنتين ، فإن لم يؤت بأخيك فى السنة الثالثة فى وثاق فاضرب عنقى . فخالفته وعجلت إلى خلع المأمون وعقد الأمر لابنى ، فوقع ما وقع .

واعلم أن من ترك المشورة وعدل عنها فلم يظفر بحاجته صار هدفا لسهام اللائمين ومضغة فى أفواه العاذلين . وفى بعض كتب الهند : من التمس الرخصة من الإخوان عند المشاورة ، ومن الأطباء عند المرض ، ومن الفقهاء عند الشبهة — أخطأ منافع الرأى .

من استشار ذوى الرأى والمعرفة فى فعل ما عناه ، فقبل المشورة منهم ، واقتدى بآرائهم فيها ، ولم يعدل عنها وعن قويم نهجها — قل أن يخفق فى مسعاه ، ويفوت مطلبه ؛ فإن أعجزه القدر فهو معذور غير ملوم .

وحكى عن الخليفة المنصور أنه كان صدر من عمه عبدالله بن على بن عبدالله ابن العباس أمور مؤلمة لاتحتملها حراسة الخلافة ، ولاتتجاوز عنها سياسة الملك ، فحبسه عنده ، ثم بلغه عن ابن عمه عيسى بن موسى بن على ، وكان واليا على على الكوفة — ماأفسد عقيدته فيه ، وصرف وجه ميله إليه عنه ، فتألم المنصور من ذلك ، وساء ظنه ، وتأرق جفنه ، وقل أمنه ، وتزايد خوفه ، فأدته فكرته إلى أمر دبره ، وكتمه عن جميع حاشيته واستحضر ابن عمه عيسى بن موسى ، وأجراه على عادة إكرامه ، ثم أخرج من كان بحضرته ثم أقبل على عيسى وقال له ، يا ابن العم ، إنى مطلعك على أمر لاأجد غيرك من أهله ، فهل أنت فى موضع ظنى بك ، وعامل مافيه بقاء نعمتك التى هى منوطة ببقاء ملكى ؟ فقال له عيسى بن موسى : أنا عبد أمير المؤمنين ونفسي طوع أمره ونهيه . فقال : إن عمى وعمك عبدالله قد فسدت بطانته واعتمد على ما بعضه يبيح دمه ، وفى قتله صلاح ملكنا ، فخذه إليك واقتله سرا . وعزم المنصور على الحج مضمرا أن ابن عمه عيسى إذا قتل عمه عبدالله ألزمه القصاص ، وسلمه إلى أعمامه إخوة عبدالله ليقتلوه ، فيكون قد استراح من الاثنين .

قال عيسى : فلما أخذت عمى وفكرت فى قتله رأيت من الصواب أن أشاور فى ذلك من له رأى عسى أن أصيب الصواب ، فأحضرت يونس بن قرة وكان لى حسن ظن فى رأيه ، فقصصت عليه القصص ، وقلت له : ما رأيك فى ذلك وما تشير به ؟ فقال : أيها الأمير ، احفظ نفسك بحفظ عمك وعم أمير المؤمنين فإنى أرى لك أن تدخله فى مكان داخل دارك ، وتكتم أمره على كل أحد من عندك ، وتتولى بنفسك حمل طعامه وشرابه إليه ، وأظهر لأمير المؤمنين أنك قتلته ، وأنفذت أمره فيه ، وانتهيت إلى العمل بطاعته، فكأنى به إذا تحقق منك أنك فعلت ما أمرك به ، وقتلت عمه أمرك بإحضاره على رءوس الأشهاد ، فإن اعترفت أنك قتلته بأمره أنكر أمره لك ، وأخذك بقتله .قال عيسى: فقبلت مشورة يونس ، وعملت بها ، وأظهرت لأمير المؤمنين أنى نفذت أمره .

ثم قدم المنصور من حجه ، وقد استقر فى نفسه أنى قتلت عمه عبدالله ، فدس إلى عمومته إخوة عبدالله وحثهم على أن يسألوه فى عبدالله ، فقال : نعم إن حقوقكم تقتضى إسعافكم بحاجتكم ، ثم أمر بإحضار عيسى بن موسى فأحضر لوقته ، فقال : ياعيسى ، كنت دفعت إليك عمى قبل خروجى إلى الحج ليكون عندك فى منزلك إلى حين رجوعى . فقال عيسى : قد فعلت ياأمير المؤمنين . فقال المنصور : قد سألنى فيه عمومتك ، وقد رأيت الصفح عنه فأتنا به الساعة . قال عيسى : ألم تأمرنى ياأمير المؤمنين بقتله والمبادرة إلى ذلك ؟ قال : كذبت لم آمرك بذلك ، ولو أردت قتله لأسلمته إلى من يتولى ذلك . ثم أظهر الغيظ ، وقال لعمومته : قد أقر بقتل أخيكم مدعيا أنى أمرته بقتله ، وقد كذب على . قالوا : يا أمير المؤمنين فادفعه إلينا لنقتله به . فقال : شأنكم به . فأخذونى ، واجتمع الناس على ، فقام واحد من عمومتى ، وسل سيفه ليضربنى به ، فقلت ياعم : أفاعل أنت ؟ قال : إى والله ، كيف لا أقتلك ، وقد قتلت أخى ؟ فقلت لهم : لا تعجلوا أوردونى إلى أمير المؤمنين فردونى إليه ، فقلت له : ياأمير المؤمنين ، إنما أردت قتلى بقتله ، وهذا عمك باق حى ، فإن أمرتنى بدفعه إليهم دفعته إليهم الساعة . فأطرق المنصور ، وعلم أن ريح فكره قد أصابت إعصارا ، ثم رفع رأسه وقال : آتنا به . فسلمته إليهم ، فسلمت روحى ، وزالت كربتى ، وكان ذلك بفضل الاستشارة .

ويشترط فى الاستشارة شرائط أربعة ، وهى : النصح ، والشفقة ، والعقل ، والتجربة ؛ وذلك لقول على رضى الله عنه فى بعض خطبه : أما بعد فإن معصية الناصح الشفيق العالم المجرب تورث الحسرة ، وتعقب الندامة . وهذه القيود الأربعة من صفات المشير معتبرة فى حسن الرأى ووجوب قبوله ، وقد نظم بعض الأدباء بعضا منها :

خصائص من تشاوره ثلاث ... فخذ منها جميعا بالوثيقة
وداد خالص ووفور عقل ... ومعرفة بحالك فى الحقيقة

أما كونه ناصحا فلأن الناصح يصدق الفكر ، ويمحص الرأى .

وأما كونه شفيقا فلأن الشفقة تحمل على النصح ، فتحمل على حسن التروى فى الأمر ، وإيقاع الرأى من تثبت واجتهاد، والباعث على هذين إما الدين أو محبة المستشير .

وأما كونه عالما ففائدته إصابته بعلمه وجه المصلحة فى الأمر ؛ فإن الجاهل فى الأمر أعمى لا يبصر وجه المصلحة فيه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اسْتَرْشِدُوا الْعَاقِلَ تُرْشَدُوا ، وَلاَ تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا »

وأما كونه مجربا فلأنه لا يتم رأى العالم مالم تنضم إليه التجربة : وذلك أنه وإن علم وجه المصلحة فى الأمر قد يشتمل على بعض وجوه المفاسد ، ولا يطلع عليها إلا بالتجربة مرة بعد أخرى ، وكان يقال : إياك ومشاورة رجلين : شاب معجب بنفسه قليل التجارب فى غيره ، وكبير قد أخذ الدهر من عقله كما أخذ من جسمه .

٨ – ومنها : مجانبة هوى النفس الأمارة بالسوء : قال بعض الحكماء : إذا عرض لك أمران ولم يحضرك من تثق بمشورته فتجنب أقربهما إلى هواك : وذلك أن الهوى عند الحكمة عدو العقل ؛ لأنه يخفى مكره حتى تنمو أفعاله على العقل فيتصور القبيح حسنا ، وهذا يدعو إليه أحد شيئين : إما أن يكون للنفس ميل إلى ذلك الشيء ، فيخفى عنها القبيح لحسن ظنها وتتصوره حسنا لشدة ميلها ؛ ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : (حُبُّكَ الشَّىْءَ يُعْمِى وَيُصِمُّ)

وإما لاشتغال الفكر فى تمييز ما اشتبه ، فيطلب الراحة فى اتباع ما استسهل ؛ حتى يظن أن ذلك أوثق أمريه ، وأحمد حاليه اعتذارا بأن الأسهل محمود ، والأعسر مذموم : ومن ثم جاء فى الحديث : (إِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ فَخُذْ أَثْقَلَهُمَا عَلَيْكَ وَدَعْ أَحَبَّهُمَا إِلَيْكَ) وأخذ هذا المعنى بعض العقلاء فقال :

إذا التبس الأمران فالخير فى الذى … تراه إذا كلفته النفس يثقل

فجانب هواها واطرح ما تريده   من اللهو واللذات إن كنت تعقل

لأن النفس تجمح عن الأفضل ، وهي به عارفة ، وتنفر عن الأحسن وهي له مستحسنة ، لأنها عليه غير مطبوعة ، فتصير منه أنفر ، ولضده الملائم آثر ، وقد قيل : ما أكثر من يعرف الحق ولا يعطيه .

ولا غرو ؛ فالهوى عن الخير صاد وللعقل مضاد ؛ لأنه يورث من الأخلاق قبائحها ، ويظهر من الأفعال فضائحها ، ويجعل ستر المروءة مهتوكا ، ومدخل الشر مسلوكا : قال عكرمة في قوله تعالى : (وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ) يعني بالشهوات ، (وَتَرَبَّصْتُمْ) يعني بالتوبة ، (وَارْتَبْتُمْ) يعني في أمر الله تعالى (وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ) يعني بالتسويف (حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ) يعني الموت ، (وَغَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ) يعني الشيطان . وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتباع الهوى ، وطول الأمل ؛ فإن اتباع الهوى يصد عن الحق ، وطول الأمل ينسي الآخرة .

العفو واصطناع المعروف

العفو عن أرباب الهفوات ، والتجاوز بإقالة العثرات ، والحلم عن مقترفي الزلات ، والصفح عن ذوي الهيئات ، وإسداء الإحسان ، وفعل الخيرات ، واصطناع المعروف ، وبخاصة أهل الدرايات ــ كل ذلك معدود من محاسن الحسنات ، ومكارم الأخلاق التي هي خير الصفات : وقد نطق بذلك القرآن الكريم في كثير من الآيات ، وصرحت به السنة النبوية على ألسنة الرواة الثقات : قال الله عزوجل : (وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) وقال تعالى : (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) وقال تعالى : (وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلاَ تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) وقال تعالى : (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ

لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ) وقال تقدس اسمه يخاطب نبيه : (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) وقال تعالى : (وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ) : ونقل عن أنس ابن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (رَأَيْتُ قُصُورًا مُشْرِفَةً عَلَى الْجَنَّةِ ، قُلْتُ : يَا جِبْرِيلُ لِمَنْ هَذِهِ ؟ قَالَ : لِلْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ) وقال أبو هريرة رضى الله عنه : « بَيْنَمَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا جَالِسٌ إِذْ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ ثَنَايَاهُ ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ : مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللهِ . قال : رَجُلَانِ مِنْ أُمَّتِي جَثَيَا بَيْنَ يَدَيْ رَبِّي ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا : يَا رَبِّ خُذْ لِي مَظْلَمَتِي مِنْ أَخِي : فَقَالَ اللهُ تَعَالَى : أَعْطِ أَخَاكَ مَظْلَمَتَهُ . فَقَال : يَا رَبِّ مَا بَقِيَ مِنْ حَسَنَاتِي شَيْءٌ . فَقَالَ : يَا رَبِّ فَلْيَحْمِلْ مِنْ أَوْزَارِي . فَفَاضَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَالَ : إِنَّ ذَلِكَ الْيَوْمَ لَيَوْمٌ عَظِيمٌ ، يَوْمَ يَحْتَاجُ النَّاسُ إِلَى أَنْ يُحْمَلَ عَنْهُمْ أَوْزَارُهُمْ ، ثُمَّ قَالَ : قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلطَّالِبِ حَقَّهُ : ارْفَعْ بَصَرَكَ إِلَى الْجَنَّةِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَرَأَى مَا أَعْجَبَهُ مِنَ الْخَيْرِ وَالنِّعْمَةِ ، فَقَالَ : لِمَنْ هَذَا يَا رَبِّ ؟ فَقَالَ : لِمَنْ أَعْطَانِي ثَمَنَهُ . قَالَ : وَمَنْ يَمْلِكُ قِيمَتَهُ يَا رَبِّ ؟ قَالَ : أَنْتَ . قَالَ : بِمَاذَا ؟ قَالَ : بِعَفْوِكَ عَنْ أَخِيكَ . قَالَ : يَا رَبِّ قَدْ عَفَوْتُ عَنْهُ . قَالَ : فَخُذْ بِيَدِهِ وَادْخُلْ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ ، ثُمَّ قَال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ »

العفو أن تعفو لا أن ترد الهفوة بمثلها

قال تعالى : « فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ » ونقل أيضا أبو هريرة أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مجلس، فجاء رجل فوقع فى أبى بكر رضى الله عنه ، وهو ساكت ، والنبى صلى الله عليه وسلم يتبسم ، ثم رد عليه أبو بكر رضى الله عنه بعض الذى قال ، فغضب النبى صلى الله عليه وسلم ، ثم قام ، فلحقه أبو بكر رضى الله عنه فقال : يارسول الله شتمنى وأنت تتبسم ، ثم رددت عليه بعض الذى قال ، فغضبت وقمت ، فقال صلى الله عليه وسلم: « حِينَ كُنْتَ سَاكِتاً كَانَ مَلَكٌ يَرُدُّ عَلَيْهِ ، فَلَمَّا تَكَلَّمْتَ وَقَعَ الشَّيْطَانُ، وَلَمْ أَكُنْ لأَقْعُدَ فِى مَقْعَدٍ فِيهِ الشَّيْطَانُ ، يَا أَبَا بَكْرٍ ، ثَلاَثَةٌ حَقٌّ : إِنَّهُ لَيْسَ عَبْدٌ يُظْلَمُ بِمَظْلَمَةٍ فَيَعْفُو عَنْهَا إِلاَّ أَعَزَّهُ اللهُ وَنَصَرَهُ ، وَلَيْسَ عَبْدٌ يَفْتَحُ بَابَ مَسْأَلَةٍ يُرِيدُ كَثْرَةً إِلاَّ زَادَهُ اللهُ قِلَّةً ، وَلَيْسَ عَبْدٌ يَفْتَحُ بَابَ عَطِيَّةٍ أَوْ صِلَةٍ إِلاَّ زَادَهُ اللهُ بِهَا كَثْرَةً »

العفو جماع مكارم الأخلاق

قال معاذ بن جبل رضى الله عنه لما بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن قال: « مَا زَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ يُوصِينِى بِالْعَفْوِ ، فَلَوْلاَ عِلْمِى بِاللهِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوصِينِى بِتَرْكِ الْحُدُودِ » وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ نَادَى مُنَادٍ : لِيَقُمْ مَنْ كَانَ لَهُ أَجْرٌ عَلَى اللهِ تَعَالَى، فَلاَ يَقُومُ إِلاَّ مَنْ عَفَا » وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ، وَتُعْطِىَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ » وقال صلى الله عليه وسلم : « أَتَى جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِمَكَارِمِ الأَخْلاَقِ فِى الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، قُلْنَا : مَا هِىَ يَارَسُولَ اللهِ ، قَالَ : قَوْلُ اللهِ

تعالى : « خُذِ العَفوَ وأْمُرْ بِالعُرْفِ وأَعْرِضْ عَنِ الجَاهِلِينَ »
ودخل معن بن زائدة على معاوية ، فقال له : يامعن ، كيف حبك لعلى بن أبي طالب ؟ فقال : أحبه على وجوه كثيرة : على حلمه إذا غضب ، وعلى صدقه إذا قال ، وعلى وفائه إذا وعد ، وعلى عفوه إذا قدر ، وإن رضى لايخرجه رضاه إلى الباطل ، وإن غضب لايخرجه غضبه عن الحق ، وإذا قدر لم يتناول ماليس له . وكان معاوية يقول : إنى لآنف أن يكون فى الأرض جهل لايسعه حلمى ، وذنب لايسعه عفوى ، وحاجة لايسعها جودى .

وكان للمأمون خادم ، وهو صاحب وضوئه ، فبينما هو يصب الماء على يديه إذ سقط الإناء من يده ، فاغتاظ المأمون ؛ فقال يا أمير المؤمنين : إن الله يقول : والكاظمين الغيظ . قال كظمت غيظى عنك . قال : والعافين عن الناس . قال : قد عفوت عنك . قال : والله يحب المحسنين . قال : اذهب فأنت حر .

وأمر عمر بن عبد العزيز بعقوبة رجل ، فقال له رجاء بن حَيْوَه : ياأمير المؤمنين ، إن الله قد فعل ماتحب من الظفر ، فافعل مايحب من العفو .

وقال الأصمعى : عزم عبد الله بن على على قتل بنى أمية بالحجاز ، فقال عبد الله بن حسين بن على بن أبى طالب كرم الله وجهه : إذا شرعت بالقتل فى أكفائك فمن تباهى بسلطانك ، فاعف يعف الله عنك .

ودخل ابن خريم على المهدى ، وقد عتب على بعض أهل الشام ، وأراد أن يغزيهم جيشا ، فقال : ياأمير المؤمنين ، عليك بالعفو عن الذنب والتجاوز عن المسىء ؛ فلأن تطيعك العرب طاعة محبة ـ خير لك من أن تطيعك طاعة خوف .

وقال الأحنف بن قيس : أحق الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة . وقال النبى صلى الله عليه وسلم : « أقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ غَضَبِ اللهِ إذا غَضِبَ » .
وتقول العرب فى أمثالها : ملكت فأسجح ، وارحم ترحم ، وكما تدين تدان ، ومن بر يوما يُبَرَّ به .

وعن أبى هريرة قال : أتى رجل ، فقال : يارسول الله إن لى قرابة أصلهم ،

ويقطعونى ، ويسيئون إلى وأحسن إليهم ، ويجهلون على وأحلم عنهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَئِنْ كَانَ كَمَا تَقُولُ لَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ ، وَلَا يَزَالُ مِنَ اللهِ مَعَكَ ظَهِيرٌ مَا زِلْتَ عَلَى ذَلِكَ » .

فالواجب على العاقل توطين النفس على لزوم العفو عن الناس كافة . وترك الخروج لمجازاة الإساءة ، إذ لا سبيل لتسكين الإساءة أحسن من الإحسان ، ولا سبب لنماء الإساءة وتهييجها أشد من مقابلتها بمثلها .

وقال عمر بن عبد العزيز : أحب الأمور إلى الله ثلاثة : العفو فى القدرة ، والقصد فى الجدة ، والرفق فى العبادة ، وما رفق أحد بأحد فى الدنيا إلا رفق الله به يوم القيامة .

وكتب الحجاج إلى عبد الملك : إنك أعز ما تكون أحوج ما تكون إلى الله ، فإذا تعززت بالله فاعف فإنك به تعز ، وإليه ترجع .

احتمال هفوات الإخوان

وسُمع الفضيل بن عياض يقول : احتمل لأخيك إلى سبعين زلة. قيل له : وكيف ذلك ياأبا على ؟ قال : لأن الأخ الذى آخيته فى الله ليس يزل سبعين زلة .

وقيل : أقبل الشعبى يوما فإذا هو برجلين من قومه من وراء جدار قصير ، فاستمع عليهما فإذا هما يقعان فيه ويشتمانه ، ويستنقصانه حتى أكثرا ، فلما أطالا أشرف عليهما الشعبى فقال :

هنيئا مريئا غير داء مخامر ... لعزة من أعراضنا ما استحلت

فقالا : والله ياأبا عمرو لا نقع فيك بعد اليوم .

وقال لقمان لابنه : كذب من قال : إن الشر يطفئ الشر ، فإن كان صادقا فليوقد نارا إلى جنب نار فلينظر هل تطفئ إحداها الأخرى ، وإلا فإن الخير يطفئ الشر : كما يطفئ الماء النار . وقال الشاعر :

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت قلبى من غم العداوات

إني أحيي عدوي عند رؤيته ... لأدفع الشر عني بالتحيات
وأظهر البشر للإنسان أبغضه ... كأنما قد حشا قلبي محبات

من أنبل ضروب العفو مقابلة الاساءة بالاحسان

لاغرو أن كريم الأخلاق لا يكود حقودا ، ولا حسودا ، ولا باغيا ، ولا ساهيا ، ولا لاهيا ، ولا فاجرا ، ولا فخورا ، ولا كاذبا ، ولا ملولا ؛ ولا يقطع إلفه ، ولا يؤذى إخوانه ولا يضيع الحفاظ ، ولا يجفو في الوداد ، يعطى من لا يرجو ، ويؤمن من يخاف ، ويعفو عن قدرة ، ويصل عن قطيعة ؛ وهو من يلين إذا استعطف ، واللئيم يقسو إذا ألطف ، والكريم يجل الكرام ، ولا يهين اللئام ، ولا يؤذى العاقل ، ولا يمازح الأحمق ، ولا يعاشر الفاجر ، يؤثر إخوانه على نفسه ، ويبذل لهم ما ملك ، وإذا أعطى أخاه من نفسه الإخاء لم يقطعه بشيء من الأشياء : كما قال المقنع الكندى :

فإن الذى بيني وبين عشيرتي ... وبين بني عمى لمختلف جدا
إذا قدحوا لى نار حرب بذنبهم ... قدحت لهم في كل مكرمة زندا
وإن أكلوا لحمى وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدى بنيت لهم مجدا
ولا أحمل الحقد القديم عليهم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا
وأعطيهم مالى إذا كنت واجدا ... وإن قل مالى لم أكلفهم رفدا

وقال الشعبي : إن كرام الناس أسرعهم مودة وأبطؤهم عداوة : مثل الكوب من الفضة : يبطئ الانكسار ، ويسرع الانجبار . وإن لئام الناس أبطؤهم مودة ، وأسرعهم عداوة : مثل الكوب من الفخار : يسرع الانكسار ، ويبطئ الانجبار .

ومن رائع ماأثر في العفو عند القدرة ماروى عن المأمون أنه لما خرج عمه إبراهيم ابن المهدى عليه ، وبايعه العباسيون بالخلافة ببغداد ، وخلعوا المأمون ، وكان إذذاك بخراسان ، فلما بلغه الخبر قصد العراق ؛ فلما دخل بغداد اختفى ابراهيم بن

المهدى ، وعاد العباسيون وغيرهم إلى طاعة المأمون ولم يزل المأمون متطلبا لإبراهيم حتى أخذه مستنقبا مع نسوة فحبس ثم أحضر حتى وقف بين يدى المأمون ، فقال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقال له المأمون : لا سلم الله عليك ولا قرب دارك ، استغواك الشيطان حتى حدثتك نفسك بما تنقطع دونه الأوهام . فقال إبراهيم : مهلا يا أمير المؤمنين ؟ فإن ولى الثأر يحكم فى القصاص والعفو ، والعفو أقرب للتقوى ، ولك من رسول الله صلى الله عليه وسلم شرف القرابة وعدل السياسة ، ومن تناوله الاغترار بما مدله من أسباب الرجاء أمن عادية الدهر على نفسه ، وهجمت به الأيام على التلف ، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب ، كما جعل كل ذى ذنب دونك ، فإن أخذت فبحقك ، وإن عفوت فبفضلك ، والفضل أولى بك يا أمير المؤمنين ثم قال :

ذنبى إليك عظيم وأنت أعظم منه
فخذ بحقك أولا فاصفح بعفوك عنه
إن لم أكن فى فعالى من الكرام فكنه

فلما سمع المأمون كلامه وشعره ظهرت الدموع فى عينيه وقال: يا إبراهيم ، القدرة تذهب بالحفيظة ، والندم توبة ، وبينهما عفو الله ، وهو أعظم مما يحاول ، وأكثر مما يؤمل ، ولقد حبب إلى العفو حتى خفت ألا أوجر عليه ، لا تثريب عليك . ورد أمواله جميعها إليه ، فقال فيه مخاطبا :

رددت مالى ولم تمنن على به وقبل ردك مالى قد حقنت دمى
فإن جحدتك ما أوليت من كرم إنى لباللؤم أولى منك بالكرم

ومن ذلك ما روى من أن الرشيد بن المهدى خرج عليه خارجى رام زوال ملكه وإفساد دولته ، فجهز له جيشا ، وأنهض الناس والجند للخروج لقتاله، فلما توجه الجيش إليه وظفروا به أحضروه إلى دار الخلافة، فلما دخل على الرشيد قال له : ما تريد أن أصنع بك؟ قال: اصنع بى ما تريد أن يصنع الله بك إذا وقفت بين يديه ، وهو أقدر

عليك منك على. فأطرق الرشيد مليا ، ثم رفع رأسه ، وأمر بإطلاقه ، فلما خرج قال بعض الحاضرين : ياأمير المؤمنين ، تَقتَتِلُ رجالك ، وتفنى أموالك ، وتظفر بهذا الذى خرج عليك ، وأفسد فى بلادك وتطلقه بكلمة واحدة !! تأمل يا أمير المؤمنين هذا الأمر ، فإنه يجرىء عليك أهل الفساد . فأمر الرشيد برده ، فلما عاد ومثل بين يديه علم أنه قد سعى به ، وأشير على الخليفة بقتله فقال: ياأمير المؤمنين ، لاتطع فى مشيرا يمنعك عفوا تدخر به عند الله يدا ، ويبعثك على الانتقام الذى ليس من مكارم الأخلاق ، واقتد بالله تعالى ؛ فإنه لو أطاع فيك مشيرا ما استخلفك طرفة عين ، وأحسن كما أحسن الله إليك . فأمر بإطلاقه وأحسن إليه . وقال : لا تعاودونى فيه .

الجهر باسداء النصح الخالص وسيلة العفو

يتجلى ذلك فيما روى أن المنصور كان يطوف بالكعبة ليلا إذ سمع قائلا يقول : اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من طمع . فخرج المنصور وجلس فى ناحية المسجد ، وأرسل إلى الرجل يدعوه ، فصلى ركعتين واستلم الركن ثم أقبل مع الرسول ، فسلم عليه بالخلافة ، فقال له المنصور : ما الذى سمعتك تقول وتذكر من ظهور البغى والفساد فى الأرض ، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أرمضنى .قال: ياأمير المؤمنين ، إن أمنتنى أنبأتك الأمور على جليتها وأصولها ، وإلا أجادل عن نفسى . قال له المنصور : أنت آمن على نفسك . فقال : إن الذى دخله الطمع حتى حال بينه وبين إصلاح ماظهر من البغى والفساد ــ أنت. قال : ويحك وكيف يدخلنى الطمع ، والبيضاء فى قبضتى ، والحلو والحامض عندى ؟ قال : وهل دخل أحدا من الطمع مادخلك؟

إن الله تعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر ، وأبوابا من الحديد ، وحجبة معهم الأسلحة ، وأمرتهم ألا يدخل

عليك إلا فلان وفلان وسميتهم ، ولم تأمر بإيصال الملهوف ، ولا الجائع ، ولا العاري ، ولا الضعيف ، ولا الفقير . وما أحد إلا له في المال حق . فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك ، وآثرتهم على رعيتك ، وأمرت ألا يحجبوا عنك تجبي الأموال فلا تعطيها ، وتجمعها ولا تقسمها ـ قالوا : هذا خان الله ، فما لنا لا نخونه ، وقد سخر لنا نفسه ؟ فاتفقوا على ألا يصل إليك من أخبار الناس إلا ما أرادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا أقصوه ونفوه حتى تسقط منزلته ، ويصغر قدره . فلما اشتهر ذلك عنك وعنهم عظمهم الناس ، وهابوهم . فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال ليتقووا بها على ظلم رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغيا وفسادا ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك ، وأنت غافل ؛ فإن جاء متظلم حيل بينه وبين الدخول عليك ، فإن أراد رفع قصة إليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، ووقفت رجلا ينظر في مظالمهم ؛ فإن جاء ذلك المظلوم إلى الرجل وبلغ بطانتك سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمته ، فإن المتظلم منه لهم بهم حُرْمَة ، فأجابهم خوفا منهم فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به ، ويشكو ويستغيث وهو يدافعه ، ولا يقبل عليه ، وإذا جهد واضطر وأحرج وقف وصرخ بين يديك فيضرب ضربا شديدا مبرحا ليكون نكالا لغيره ، وأنت تنظر ، ولا تنكر ، فما بقاء الإسلام على هذا ؟

وقد كنت يا أمير المؤمنين أسافر إلى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه فبكى بكاء شديدا ، فحثه جلساؤه على الصبر ، وقالوا له : علام تبكي ، وقد عهدناك صبورا تتحمل الشدائد ، ولا تكترث بالنوائب ، ولا توهنك المصائب ؟ فقال : لست أبكي للبلوى التي نزلت بي ، ولكنني أتألم لمظلوم يئن ، فلا أسمع أنينه ، ومستغيث يصرخ ، فلا يصلني صراخه ، ومع هذا فلئن ذهب سمعي ما ذهب بصري ، نادوا في الناس : أن يلبس كل مظلوم ثوبا أحمر . ثم صار يركب الفيل طرفي النهار علّه يرى مظلوما ، فأنصف رعيته وحكم بينهم بالعدل ، وعاش محبوبا ، ومات محبوبا ، وذلك جزاء العاملين . فهذا مشرك بالله تعالى غلبت رأفته

بالمشركين شح نفسه ، وأنت تؤمن بالله واليوم الآخر ثم من بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم غلبك شح نفسك :

فإن كنت إنما تجمع المال لولدك فقد أراك الله في الطفل يسقط من بطن أمه ، وماله على الأرض مال ، ومامن مال إلا دونه يد شحيحة تحويه ، فما يزال الله جل وعلا يلطف بذلك الطفل حتى يصبح كعبة القصاد ، ولست الذى يعطى ، بل الله يعطى من يشاء بغير حساب . وإن قلت إنما أجمع المال لتدعيم الملك وتقوية السلطان فقد أراك الله تعالى بني أمية ماأغنى عنهم ماجمعوا من الذهب والفضة ، وما أعدوا من الرجال والكراع والسلاح حين أراد الله بهم ماأراد . وإن قلت إنما أجمعه لطلب غاية هى أجسم من الغاية التى أنا فيها فوالله مافوق ماأنت فيه منزلة إلا منزلة لا تنال إلا بخلاف ماأنت عليه !! ياأمير المؤمنين هل تعاقب من عصاك بأكثر من القتل أو الصلب ؟ قال المنصور : لا . قال : كيف تصنع ياأمير المؤمنين يوم القيامة عند لقاء الله عز وجل الذى خولك ملك الدنيا ، وهو لا يعاقب من عصاه من عبيده وعمل بخلاف ماأمر به فى كتابه بالقتل ، ولكن يعاقبه بالخلود فى العذاب الأليم ؟ وقد ترى ماعقد عليه قلبك وحملته جوارحك ، ونظر إليه بصرك ، واجترحته يداك ، ومشت إليه قدماك ، هل يغنى ماشححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه من يديك ، ودعاك إلى الحساب على ماخولك ؟

فلما أتم الرجل كلامه ، والمنصور يتململ منه - بكى بكاء شديدا ، ثم قال : ياليت المنصور لم يخلق ، ثم قال : يا ويحك !! كنت أفكر فى الانتقام منك على ما جبهتنى به والآن فقد رأيت العفو عن مقالتك لصدق مقصدك أولى ، وشكرك على نصحك أحمد ، فكيف احتيالى لنفسى والسلامة مع مؤاخذة الله تعالى على ماأوضحته ؟ فقال الرجل : ياأمير المؤمنين ، إن للناس أعلاما يفزعون إليهم فى دينهم ، ويرضون بقولهم ، فاتخذهم لك بطانة يرشدوك ، واستعن بآدابهم وأقوالهم يسددوك .

قال المنصور : قد بعثت إليهم فهربوا منى . قال الرجل : خافوا منك أن تحملهم

على طريقتك ، فلم يرضوا بها ، ولكن افتح باب مجلسك وسهل حجابك ، وانظر في أمور الناس ، وانصر المظلوم ، واقمع الظالم ، وخذ الفيء والأموال مما حل وطاب ، واقسم ذلك بالحق والعدل على أهله ، وأنا الضامن لك أنك إذا فعلت ذلك أن يأتوك ، ويساعدوك على صلاح الأمة. فبينما هو والرجل في الحديث دخل المؤذنون، فسلموا عليه للصلاة فقام ، وصلى ، ثم انصرف الرجل . فما زال المنصور بعد ذلك يذكره ويقول إذا ذكره : كرهت كلامه ، ثم حمدته وانتفعت به

خاتمة

ومن لطائف الكلم وروائع الحكم في التنويه بالعفو ما يلي:

١ ـ ليس من عادة الكرام إسراع الانتقام فلا تأخذ بالنميمة ، ولا تنتقم مع مع القدرة ، ولا تزهد في العفو ، وارحم من دونك يرحمك من فوقك .

٢ ـ أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأحق الناس بالإحسان من أحسن الناس إليه

٣ ـ من أحب أن يعفو الله عن سيئاته ، ويتجاوز عنه ـ فليعف عن هفوات المذنبين ، ويتجاوز عن سيئاتهم مالم يكن فيه إسقاط حدٍّ من حدود الإسلام .

٤ ـ الانتقام من المذنب عدل والعفو عنه فضل ، ومحل الفضل أعلى والتحلي به أولى ، وذو الهمة العلية والنفس الزكية يرغب في الحظ الوافر والنصيب الأوفر

٥ ـ اصطناع المعروف يقي مصارع السوء ، ويزرع المحبة في القلوب ، ويكتب الشكر على الألسنة ، وينشر حسن السمعة في الدنيا ، ويستميل إلى مدح فاعله عند استغنائه عنهم ، وإلى تلبية دعائه وإجابة ندائه عند استغاثته بهم ، وإلى الأخذ بيده إن أحوجته حوادث الأيام إليهم ؛ ويورث

جزيل الأجر ، ويخلد جميل الذكر .

فضيلة قبول الاعتذار من المعتذر

حكى أن سليمان بن عبد الملك غضب على خالد بن عبد الله ، فلما دخل عليه قال : يا أمير المؤمنين، القدرة تذهب الحفيظة وأنت تجل عن العقوبة ، فإن تعف فأهل ذاك أنت ، وإن تعاقب فأهل ذاك أنا . فعفا عنه .

وقال بعض الحكماء : يجب على المرء ألا يعتذر بحيلة إلى من لا يجد له عذرا ، ويجب ألا يكثر من الاعتذار إلى أخيه ، فإن الإكثار منه هو السبب المؤدى إلى التهمة . ويستحب الإقلال منه على الأحوال كلها لأن المعاذير يعتريها الكذب ، ومن اعترف بالزلة استحق الصفح عنها ؛ لأن ذل الاعتذار عن الزلة يوجب تسكين الغضب عنها . والاعتذار يذهب الهموم ، ويجلى الأحزان ، ويدفع الحقد ، ويذهب الصد ، والإقلال منه تستغرق فيه الجنايات العظيمة والذنوب الكثيرة : قال الشاعر :

إذا اعتذر الصديق إليك يوما ... من التقصير عذر أخ مقر
فصنه عن جفائك واعف عنه ... فإن الصفح شيمة كل حر

وقال آخر :

أتيتك تائبا من كل ذنب ... وخير الناس من أخطا فتابا
أليس الله يستعفى فيعفو ... وقد ملك العقوبة والثوابا

المداراة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مُدَاراةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ) وقال بعض الحكماء : من الكياسة التزام المداراة من غير مفارقة المداهنة ؛ إذ المداراة كمال ، والمداهنة نقص لأنها ضرب من النفاق

مداراة أهل الشر

قال النبي صلى الله عليه وسلم : (شَرُّ النَّاسِ مَنِ اتَّقَاهُ النَّاسُ لِشَرِّهِ)
وقال الشاعر :

لي صديق يرى حقوقي عليه نافلات وحقه الدهر فرضا
لو قطعت البلاد طولا إليه ثم من بعض طولها سرت عرضا
لرأى ما فعلت غير كثير واشتهى أن يزيد في الأرض عرضا .

وقال صالح بن عبد القدوس :

تجنب صديق السوء واصرم حباله وإن لم تجد عنه محيصا فداره
ومن يطلب المعروف من غير أهله يجده وراء البحر أو في قراره
ولله في عرض السموات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره

وقال ابن الحنفية: ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بُدًّا حتى يأتيه الله منه بالفرج أو المخرج . وقال بعض الفلاسفة : من جرى في معاشرته الناس على إلزامهم نهجه ومذاهبه كدر على نفسه عيشه ولم تصف مودته لأن وداد الناس لا يستجلب إلا بمساعدتهم على ما هم عليه إلا أن يكون مأثما ؛ فإن كان فلا سمع ولا طاعة ، والبشر قد ركبت فيهم أهواء مختلفة ، وطبائع متباينة ؛ فكما يشق عليك ترك ما جبلت عليه فكذلك يشق على غيرك مجانبة مثله ؛ فليس إلى صفو ودادهم سبيل إلا بمعاشرتهم من حيث هم ، والإغضاء عن مخالفتهم فيما ليست فيه معصية .

وقال بعض الحكماء: من التمس رضا جميع الناس التمس ما لا يدرك ، ولكن يقصد العاقل رضا من لا يجد من معاشرته بداء وإن دفعه الوقت إلى استحسان أشياء من العادات مما كان يستقبحها واستقباح أشياء كان يستحسنها ما لم يكن مأثما ؛ فإن ذلك من المداراة ، وما أكثر من دارى فلم يسلم ، فكيف تتم السلامة لمن لا يدارى ؟ وقال : من لم يعاشر الناس على لزوم الإغضاء عما يأتون من المكروه

وترك التوقع لما يأتون من المحبوب كان إلى تكدير عيشه أقرب منه إلى صفائه وإلى أن يدفعه الوقت إلى العداوة والبغضاء أقرب منه إلى أن ينال منهم الوداد وترك الشحناء، والعاقل إذا دفعه الوقت إلى صحبة من لا يثق بصداقته أو صداقة من لا يثق بأخوته فرأى من أحدها زلة فرفضه لزلته بقي وحيدا لا يجد من يعاشر، فريدا لا يجد من يخادن: قال الحسن: يابن آدم، اصحب الناس بأى خلق شئت يصحبوك عليه.

معاتبة الصديق واستبقاء مودته

قالت الحكماء: مما يجب للصديق على الصديق الإغضاء عن زلاته، والتجاوز عن سيئاته؛ فإن رجع وأعتب (١) وإلا عاتبته بلا إكثار؛ فإن كثرة العتاب مدرجة للقطيعة. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه: لا تقطع أخاك عن ارتياب، ولا تهجره دون استعتاب. وقال أبو الدرداء: من لك بأخيك كله؟ وقالوا: أى الرجال المهذب؟ وقال بشار العقيلى:

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه؟

وقالوا: معاتبة الأخ خير من فقده. وقال الشاعر:

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقى العتاب

وقال أحمد بن أبان:

إذا أنا لم أصبر على الذنب من أخ وكنت أجازيه فأين التفاضل
ولكن أداريه فإن صح سرنى وإن هو أعيا كان فيه تحامل

وقال الأحنف: من حق الصديق أن يتحمل ثلاثا: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة. ولعبد الله بن معاوية:

ولست بباد صاحبى بقطيعة ولست بمفش سره حين يغضب
عليك بإخوان الثقات فإنهم قليل، فصلهم دون من كنت تصحب

(١) أعتبه: سره بعدما ساءه

وما الخدن إلا من صفالك وده ومن هو ذو نصح وأنت مغيب

فضل الصداقة على القرابة

قيل لبزرجمهر: من أحب إليك: أخوك أم صديقك؟ فقال: ما أحب أخي إلا إذا كان لي صديقا. وقال أكثم بن صيفي: القرابة تحتاج إلى مودة، والمودة لا تحتاج إلى قرابة. وقال عبد الله بن عباس: القرابة تقطع، والمعروف يكفر، وما رأيت كتقارب القلوب. وقالوا: إياكم ومن تكرهه قلوبكم، فإن القلوب مجاري القلوب. وقال عبد الله بن طاهر الخراساني:

أميل مع الرفاق على ابن أمي وأحمل للصديق على الشقيق
وإن ألفيتني ملكا مطاعا فإنك واجدي عبد الصديق
أفرق بين معروفي ومني وأجمع بين مالي والحقوق

وقال حبيب الطائي:

ولقد سبرت الناس ثم خبرتهم ووصفت ماوصفوا من الأسباب
فإذا القرابة لا تقرب قاطعا وإذا المودة أقرب الأنساب

وللمبرد:

ما القرب إلا لمن صحت مودته ولم يخنك وليس القرب للنسب
كم من قريب دوى الصدر مضطغن ومن بعيد سليم غير مقترب

وقال آخر:

فصل حبال البعيد إن وصل الـ ـحبل وأقص القريب إن قطعه
قد يجمع المال غير آكله ويأكل المال غير من جمعه
فارض من الدهر ما أتاك به من قر عينا بعيشه نفعه

استراحة الرجل بمكنون سره إلى صديقه

قالت الحكماء : لكل سر مستودع . وقالوا : مكاتمة الأدنين صريح العقوق : وقال الشاعر :

وأبثثت عمرا بعض مافى جوانحى وجرعتــه من سر ماأتجرع

ولابد من شكوى إلى ذى حفيظة إذا جعلت أسرار نفسى تطلع

وقال حبيب :

شكوت وما الشكوى لمثــلى عادة ولكن تفيض النفس عند امتلائها

وأنشد أبو الحسن المصرى :

لعب الهــوى بمعــالمى ورسومى ودفنت حيــا تحت ردم همــومى

وشكوت همى حين ضقت ومن شكا هما يضــيق به فغــير ملوم

ذم الزمان

قالت الحكماء : جبل الناس على ذم زمانهم ، وقلة الرضا عن أهل عصرهم . فمن قولهم : رضا الناس غاية لاتدرك . وقولهم : لاسبيل إلى السلامة من ألسنة العامة . وقولهم : الناس يعيرون ولا يغفرون والله يغفر ولا يعير .

ودخل مسلم ابن يزيد بن وهب على عبد الملك بن هارون ، فقال عبد الملك : أى زمان أدركت أفضل ؟ وأى الملوك أكمل ؟ قال : أما الملوك فلم أر إلا حامدا أو ذاما ، وأما الزمان فيرفع أقواما ويضع أقواما ، وكلهم يذم زمانه ؛ لأنه يبلى جديدهم ، ويفرق عديدهم ويهرم صغيرهم ويهلك كبيرهم . وقال أبو جعفر الشيبانى : أتانا يوما أبوميناس الشاعر ونحن فى جماعة فقال : ما أنتم ؟ وما تتذاكرون ؟ قلنا : نذكر الزمان وفساده . قال . كلا ؛ إنمــا الزمان وعاء وما ألقى فيه من خير أو شر كان على حاله . ثم أنشأ يقول :

أرى حللا تصان على أناس وأخلاقا تداس فلا تصان

يقولون الزمان به فساد وهم فسدوا وما فسد الزمان

وقال حبيب الطائى :

لم أبك فى زمن لم أرض خلته   إلا بكيت عليه حين ينصرم

الاتفاق والائتلاف

قال بعض الحكماء : سبب ائتلاف الناس وافتراقهم بعدهو تعارف الروحين، وتناكر الروحين ، فإذا تعارف الروحان وجدت الألفة بين نفسيهما ، وإذا تناكر الروحان وجدت الفرقة بين جسميهما : وإلى هذا يشير ابن عباس (رضى الله عنهما) إذ رأى رجلا فقال : « إن هذا ليحبنى » قالوا : « وما أعلمك ؟ » قال : « إنى لأحبه » . والأرواح جنود مجندة ، فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف كما جاء فى الحديث المشهور .

وأهل طاعة الله قلوبهم وأهواؤهم مجتمعة وإن تفرقت ديارهم ، وأهل معصية الله قلوبهم مختلفة وإن اجتمعت ديارهم : انظر قول أبى حاتم : « إن من أعظم الدلائل على معرفة ما فيه المرء من تقلبه وسكونه هو الاعتبار بمن يحادثه ويوده ، لأن المرء على دين خليله ، وطير السماء على أشكالها تقع . وما رأيت شيئا أدل على شىء ولا الدخان على النار مثل الصاحب على الصاحب . والعاقل يجتنب مماشاة المريب فى نفسه ، ويفارق صحبة المتهم فى دينه ؛ لأن من صحب قوما عرف بهم ، ومن عاشر امرأ نسب إليه . والرجل لا يصاحب إلا مثله أو شكله ، وإن من الناس من إذا رآه المرء يُعجب به ؛ فإذا ازداد به علما ازداد به عجبا . ومنهم من يبغضه حين يراه ثم لا يزداد به علما إلا ازداد له مقتا ، فاتفاقهما باتفاق الروحين، واختلافهما باختلافهما

ومن أوضح الدلائل أن الاتفاق والائتلاف من أكل الأغراض ما ورد فى الكتاب العزيز فى آيات متعددة فى مواضع من التنزيل : كقوله تعالى فى القرآن الكريم مخاطبا نبيه المصطفى المرسل داعيا إلى الدين القويم ، وهاديا إلى الصراط المستقيم : « هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ

لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَاأَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » وقوله عز وعلا : « وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » وكقوله تبارك وتعالى : «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا واذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » : والمراد بحبل الله تعالى المذكور فى الآية المعتصَمَ به هو القرآن الكريم كما فسره جماعة من أئمة التفسير ، واستدلوا عليه بما روى الحارث قال : دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا فى الأحاديث ، وأخذوا فى الاختلاف ، فأتيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فقلت : ياأمير المؤمنين ، ألاترى الناس قد وقعوا فى الأحاديث وأخذوا فى الاختلاف ؟ قال : وقد فعلوها ؟ فقلت : نعم. فقال : أما أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ » فقلت : يارسول الله ، فما المخرج منها ؟ قال : « كِتَابُ اللهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ وَخَبَرُ مَابَعْدَكُمْ وَحُكْمُ مَابَيْنَكُمْ ، هُوَ الْفَصْلُ الَّذِى لَيْسَ بِالْهَزْلِ ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ ، وَمَنِ ابْتَغَى الْهُدَى فِى غَيْرِهِ أَضَلَّهُ ، وَهُوَ حَبْلُ اللهِ الْمَتِينُ وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ ، وَهُوَ الَّذِى لاَ تَزِيغُهُ الأَهْوَاءُ ، وَلاَ تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ ، وَلاَ يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ ، وَلاَ يَخْلَقُ عَلَى كَثْرَةِ التَّرْدَادِ ، وَلاَ تَنْقَضِى عَجَائِبُهُ ، هُوَ الَّذِى لَمْ تَلْبَثِ الْجِنُّ حِينَ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا : « إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِى إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا » مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ ، وَمَنْ دُعِىَ إِلَيْهِ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »

ونقل عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « إِنَّ اللهَ تَعَالَى

رَضِيَ لَكُمْ ثَلاثًا : رَضِيَ لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا ، وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا لِمَنْ وَلاَّهُ تَعَالَى أَمْرَكُمْ ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ »

فقدوضح بذلك أن الحبل المعتصم به هو القرآن الكريم ، والتمسك به يوجب الاتفاق والائتلاف ، ويصد عن الشقاق والاختلاف .

وذكر قَبيصةُ بن جابر قال : « لما قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى دمشق نزل بباب الجابية (١) وقام خطيبا وقال للناس : « لقد قام فينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كمقامي فيكم . وقال: « من سره بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة » وهذا صريح فى التمسك بعروة الموافقة ، والتجنب لمعرة المخالفة . وقديما قيل : « مامن قوم وإن قل عددهم ، وضعف مددهم، وأشربوا فى قلوبهم محبة الائتلاف ، وقابلوا بعددهم القليل قوما كثيرين قد نشأ بينهم الخلاف ، وعمهم التنازع — إلا أظهرهم الله مع قلتهم ، ومكنهم منهم ، وإن كانوا أكثر عددا ، وأشد قوة ومددا » .

وإن نظرة فاحصة فى تاريخ الجماعات قديما وحديثا لتدل على أن نور التآلف ينسخ ظلمة العداوة من القلوب ، ويكون حصنا من هجوم الحوادث ، وسدا فى وجه الخطوب. وقد عاشبت نار العداوة فى القبائل فأحرقت ، وانبسطت يد المنازعة والمخالفة بينهم ففرقت ، واستلت فيهم سيوف الإحن والبغضاء ففرت ومزقت ، ولما هبت عليهم رياح التآلف تبدلوا بالإساءة إحسانا ، وبالخوف أمانا وبالمنافرة إذعانا وبالنقيصة رجحانا ، فعادوا بعد التباين صنوانا ، وأصبحوا بنعمة الله إخوانا .

وحسبك مثلا قصة الأوس والخزرج وملخصها : أن هاتين القبيلتين الأوس

(١) أحد أبواب دمشق

والخزرج كانت سوق الحرب بينهما جامعة وبروق الصوارم فيها لامعة ، ودام التقاتل بينهما مائة وعشرين سنة حتى صار أثرا فى وجه الدهر ، وخبرا إلى يوم الحشر ولم يسمع بقوم بينهم ما كان بين هؤلاء من الضغن حتى أزال الله عنهم ذلك ، ونسخ تلك الأحقاد وذلك العناد منهم . وكان سبب تألفهم وارتفاع عداوتهم أن سويد بن الصامت قدم مكة حرسها الله تعالى وكان رجلا شريفا فى قومه شاعرا جلدا يسميه قومه الكامل لأجل ذلك. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أول ما بعث، وأمر بالدعوة إلى الله سبحانه وتعالى ــ قد سمع بسويد، فتصدى له ودعاه إلى الله سبحانه والإسلام ، فقال له سويد : « فلعل الذى معك مثل الذى معى » فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما معك ؟ قال : حكمة لقمان . فقال عليه السلام : « اعرضها على » فعرضها، فقال: « إن هذا الكلام حسن، والذى معى أفضل من هذا: كلام أنزله الله عز وجل علىَّ نورا وهدى » فتلا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الله عز وجل والإسلام فلم يبعد عنه ، وقال : « إن هذا القول حسن » ثم انصرف عنه وقدم سويد المدينة فلم يلبث أن قتله الخزرج فى حربهم يوم بُعاث (١) . وكان رجال من قومه يقولون : « إنا لنراه قُتِلَ مسلما » ثم قدم أنس ابن رافع ومعه فتية من بنى عبد الأشهل فيهم إياس بن معاذ إلى مكة يلتمسون الحِلْف من قريش على قوم من الخزرج ، فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاهم فجلس إليهم فقال : « هل لكم فى خير مما جئتم له ؟ » فقالوا : « وما ذاك ؟ » قال : « أنا رسول الله إلى العباد ، أدعوهم ألا يشركوا به شيئا ، وأُنزِل علىَّ الكتاب » ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن فقال إياس بن معاذ وكان غلاما حدثا : « أى قومُ ، والله هذا خير مما جئتم له . » . فأخذ أنس ابن رافع حفنة من البطحاء فضرب بها وجه إياس بن معاذ فقال : « دعنا منك فلقد جئنا لغير هذا » فصمت إياس . وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) موضع بقرب المدينة

عنهم وانصرفوا إلى المدينة فكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج ؛ ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فى الموسم يعرض نفسه على كل من لقيه من قبائل العرب ويدعوه إلى الله سبحانه وتعالى فبينما هو عند العقبة فى الموسم إذ لقى رهطا من الخزرج قال : « أمن موالى يهود ؟ » قالوا : « نعم » قال : أفلا تجلسون حتى أكلمكم ؟ قالوا : نعم . فجلسوا معه ، فدعاهم إلى الله تعالى وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن . وكان هؤلاء الموالى أهل أوثان وشرك ، وإذا حدث بين يهود وبينهم شىء قالوا : « إن نبيا مبعوثا الآن قد أظل زمانه نتبعه ونقتلكم تحت لوائه قتلة عاد وإرم » فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله — قال بعضهم لبعض : « ياقوم تعلمون والله إنه النبى الذى توعدكم به يهود فلا يسبقنكم إليه » فأجابوه وصدقوه وأسلموا . وقالوا : « إنا تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم . وعسى أن يُجمع بينهم بك وستقدم عليهم وتدعوهم إلى أمرك ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزمنك . ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا . فلما قدموا المدينة ذكروا لقومهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشافيهم ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلا عشرة من الخزرج ، ورجلان من الأوس ، فلقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة ، وهى العقبة الأولى ، فبايعوه البيعة المشهورة ثم قال لهم : « إن وفيتم فلكم الجنة ، وإن غَشِيتُم شيئا من ذلك فأُخذتم بحده فى الدنيا فهو كفارة له ، وإن ستر عليكم فأمركم إلى الله : إن شاء عذبكم وإن شاء غفر لكم » فلما انصرف القوم بعث معهم رسول الله صلى الله عليه وسلم مصعب بن عمر بن هاشم وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ويفقههم . وكان مصعب يسمى فى المدينة المقرئ ، وكان أول مقرئ بالمدينة

وكان منزله على أسعد بن زرارة بن مسعود . فقال سعد بن معاذ لأسَيْد بن حُضَير : انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قدأتيا إلى دارنا ؛ ليسفها ضعفاءنا فازجرهما ، فإن أسعدا بن خالتى ، ولولا ذاك لكفيتك . وكان سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير سيدى قومهما من بنى عبد الأشهل ، وكلاهما مشركان فأخذ أُسيد بن حضير حربته ، ثم أقبل إلى أسعد ومصعب ، وهما جالسان ، فلما رآه أسعد قال لمصعب : « هذا سيد قومه قد جاءك فاصدق الله فيه » قال مصعب : « إن يجلس أُكلمه » قال : فوقف عليهما متشتما فقال : « ماجاء بكما إلينا تسفهان ضعفاءنا . اعتزلا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة » قال له مصعب: « أوتجلس فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا قبلته ، وإن كرهت كف عنك ماتكره » قال : « أنصفت » ثم ركز حربته ، وجلس إليهما ، فكلمه مصعب بالإسلام ، وقرأ عليه القرآن . قال : « والله لقد عرفنا فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله » فقال : ما أحسن هذا وأجمله ! ثم قال لهما : « إن ورائى رجلا إن اتبعكما لم يختلف عنكما أحدمن قومه ، وسأرسله إليكما الآن» فقام أُسيد ابن حضير ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس ، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا قال : أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم . فلما وقف على النادى قال له سعد : « مافعلت ؟ » قال : « كلمت الرجلين ، فوالله ما وجدت بهما بأسا وقدنهيتهما فقالا : نفعل ماأحببت . وقدحُدثت أن بنى حارثة خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه : وذلك أنهم عرفوا أنه ابن خالتك ليخفروك . فقام سعد مغاضبا مبادرا فأخذ الحربة منه وقال : والله ما أراك أغنيت شيئا . فجاءهما ، فلما رآهما مطمئنين عرف أن أُسيدا إنما أراد أن يسمع منهما ، فوقف عليهما متشتما ، ثم قال لأسعد بن زرارة : أبا أُمامة ، لولا ما بينى وبينك من القرابة مارمت هذا منى : تغشانا فى ديارنا بما نكره . وقد قال أسعد لمصعب : « جاءك والله سيد قومه ، إن يتبعك لم يخالفك منهم أحد » فقال له مصعب : أوتقعد فتسمع ؟ فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته

وإن كرهته عزلنا عنك » قال أسعد : أنصفت ، ثم ركز حربته وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن . قالا : « فعرفنا والله فى وجهه الإسلام قبل أن يتكلم فى إشراقه وتسهله » ثم قال : « كيف تصنعون إذا أسلمتم ودخلتم فى هذا الدين ؟ » قالا : تغتسل وتطهر ثيابك ثم تشهد بشهادة الحق ، وتصلى ركعتين . قال : فقام فاغتسل وطهر ثوبه وشهد بشهادة الحق ، وركع ركعتين ، ثم أخذ حربته وأقبل عائدا إلى نادى قومه ومعه أُسيد بن حضير ، فلما رأوه مقبلا قالوا : نقسم بالله لقد رجع سعد إليكم بغير الوجه الذى ذهب به من عندكم. فلما وقف عليهم قال : « يابنى عبد الأشهل ، كيف تعلمون أمرى فيكم ؟» قالوا: «سيدنا وأفضلنا رأيا ، وأيمنا عقلا » فقال : فإن كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى يؤمنوا بالله ورسوله. قال : فما أمسى فى دار من دور بنى عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما أو مسلمة . ورجع مصعب وأسعد بن زرارة إلى منزل سعد فأقاما يدعوان الناس إلى الإسلام حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال مسلمون خلا نفرا يسيرا تأخروا ثم أسلموا .

ثم إن مصعبا رجع إلى مكة ومعه سبعون رجلا مع حجاج من قومهم من أهل الشرك حتى قدموا مكة ، فوعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق وهى بيعة العقبة الثانية قال كعب بن مالك وكان شهد ذلك: فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التى واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام بن جابر أخبرناه وكنا نكتم من معنا من المشركين من قومنا أمرنا وكلمناه وقلنا : ياجابر نراك سيدا من ساداتنا وشريفا من أشرافنا وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون غدا حطبا للنار . ودعوناه إلى الإسلام فأسلم وأخبرناه بميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فشهد معنا العقبة ، وكان نقيبا من النقباء ، فبتنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتسللنا مستخفين تسلل

القطا حتى إذا اجتمعنا فى الشِّعْب ننتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءنا ومعه العباس بن عبد المطلب عمه وهو يومئذ على دين قومه غير أنه أحب أن يحضر مع ابن أخيه ويتوثق له ، فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : « يامعشر الخزرج ، إن محمدا منا حيث علمتم وقدمنعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا وهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وإنه قدأبى إلا الانقطاع إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وماتحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه ، فإنه فى عز ومنعة » قال : فقلنا : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يارسول الله ، وخذ لربك ولنفسك ماشئت . قال : فتكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلا القرآن ودعا إلى الله عزوجل ورغّب فى الإسلام ثم قال : « أبايعكم على أن تمنعونى مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم » فأخذ البَرَاء (١) بن مَعْرُور يده وقال : « والذى بعثك بالحق نبيا لنمنعنك مما نمنع منه أُزُرَنَا » فبايعنا يارسول الله صلى الله عليه وسلم . وحدث أن أبا الهيثم التيهان اعترض القول والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول الله : (إن بيننا وبين الناس عهودا ، ونحن قاطعوها . فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال : (الدم الدم ، والهدم الهدم ، أنتم منى وأنا منكم ، أُحارب من حاربتم ، وأُسالم من سالمتم) وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرجوا من بينكم اثنى عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس كفلاء عن قومهم بما فيهم كفالة الحواريين لعيسى بن مريم) . فأخرجنا اثنى عشر نقيبا . وقال العباس بن عبادة الأنصارى : (يامعشر الخزرج ، هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ إنكم تبايعونه على حرب الأبيض

(١) صحابى

والأسود ، فإن كنتم ترون أنكم إذا أنهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتل أسلمتموه فمن الآن فهو والله خزى فى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على تهلكة الأموال ، وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير فى الدنيا والآخرة) قالوا : فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأولاد والأشراف فما لنا بذلك يارسول الله إن نحن وفينا ؟ قال :(الجنة) قال: (ابسط يدك) فبسط يده فبايعوه . وأول من ضرب على يده البراء بن معرور . ثم تتابع القوم . فلما بايعنا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ارجعوا إلى رحالكم) فقال سعد بن عبادة : (والذى بعثك بالحق نبيا لئن شئت لنميلن غدا على أهل منى بأسيافنا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم) قال : فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى إذا أصبحنا غدت علينا أجلة قريش فجاءونا فقالوا : يامعشر الخزرج بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا . وإنه والله مامن حى من العرب أبغض أن ينشب الحرب بيننا وبينهم منكم . قال : فانبعث هناك بعض مشركى قومنا يحلفون لهم بالله ماهذا من شىء وما علمناه ، وصدقوا ؛ فإنهم لم يعلموا وبعضنا ينظر إلى بعض.

ثم انصرف الأنصار إلى المدينة وقد شددوا العقد ، فلما قدموا أظهروا الإسلام بها وبلغ ذلك قريشا ، فآذوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «إن الله قد جعل لكم إخوانا وجارا ومنزلا وبلدا تأمنون به» فأمرهم بالهجرة إلى المدينة ، واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، فأخذوا فى الهجرة إلى المدينة ، وتتابعوا إليها وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يؤذن له فى الهجرة إلى أن أذن الله تعالى له ، فقدم المدينة ، وأقام ، فجمع الله تعالى أهل المدينة أوسها وخزرجها بالإسلام وأصلح ذات بينهم ، وألف بين قلوبهم وأزال من بينهم العداوة والبغضاء ، ونسخ من صدورهم الإحن والشحناء . فذلك قوله جل وعلا : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعداء »:

معناه : يامعشر الأنصار إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . وفى هذه القصة مقنع وبلاغ عن الإطالة بذكر غيرها من وقائع العالم ، وحوادث الزمان .

وللحكماء فى التنويه بالاتفاق وجليل آثاره كثير من جوامع الكلم وبالغ الحكم منها :

١ ـ اتفاق الأيدى سلاح عتيد وعون حاضر وقوة تصول بها النفوس على المخالف لها.

٢ ـ عليكم بالاتفاق والتعاضد، فإن العز والانتصار مع الاتحاد و الاجتماع. واجتنبوا الخلاف والتباين فإن الذل والخذلان فى التنازع والافتراق.

٣ ـ كم من قوم عزوا باتفاقهم فلم يطمع فيهم ، فلما اختلفوا سُلِبوا عزهم ووهى ركنهم ، وكلَّ حدهم وذاقوا وبال أمرهم .

الكرم

الكرم جامع لمكارم الأخلاق ، فكل خصلة من خصال الخير وخلة من خلال البر وسجية تضاف إلى محاسن الطبائع والأعراق واقعة على اسم الكرم : قال الله سبحانه وتعالى : (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ)

ألا ترى أن التقى لا يكون إلا كريما بماله معطيا الحق من نفسه فى جميع أحواله حتى إنه ليبذل جوارحه فى كل عمل يقربه إلى ربه ، ويجود بنفسه مجاهدا فى سبيل خالقه : (والجود بالنفس أقصى غاية الجود)

ألا تنظر إلى قولهم: (نسب كريم) إذا كان يعطى الشرف والسؤدد وينم عن طيب المولد وكرم الهمة .

وقولهم : (مجلس كريم) إذا أفاد العلم والمعرفة وبذل الآداب والحكمة .

وقولهم : (خلق كريم) إذا وسم صاحبه بالبر والسماحة والبشر والكرامة وتحلى بالصفات الكاملة .

وقولهم : (فرس كريم) إذا أسرع فى العدو ونال السبق .

فالكرم بذلك كله صار راجعا إلى بذل الخلال المحمودة والجود بالأموال المفيدة ، فلما أخرجه العرف من هذا المضار وصيره راجعا إلى أنصع وجوهه - وضعناه فى هذا الباب حيث وضعه ، وقصدنا به المعنى الذى قصده : وهو السخاء ؛ لأنه أقوى أصوله وأجمع لفصوله .

وهو اسم من أسماء الله عزوجل وصفة من صفاته ؛ لأنه هو الذى انفرد بالملك والغنى وتوحد بالعظمة والسناء والسنا ؛ (فهو إذا عصى غفر ، وإذا اطلع أمهل وستر ، وإذا وعد وفى ، وإذا أوعد عفا ، لا يُضَيِّع من لجأ إليه ، ولا يُسلم من توكل عليه يداه مبسوطتان بالخيرات ، وله خزائن الأرض والسموات ، لا ينازع فى قسمة رزقه ، ولا يراجع فى تدبير خلقه ، فهو الكريم بالإطلاق) . (وكل من تعلق بشىء من هذه الخلال وتخلق بطرف من هذه الخصال وصف بقدر ما بلغ منها ونال)

والإنسان قد يكون غنيا كريما فتعترضه الموانع وتقف دونه القواطع فتصرفه عن عادته وتحول بينه وبين إرادته ، وقد يكون تكرم ابن آدم لدواع تضطره إليه ومعان تحمله عليه ، والله سبحانه أجل وأعظم وأعز وأكرم من أن يلحقه عائق وأن يوصف بغير الكمال الذى انفرد به دون الخلائق . كلا !! بل هو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء ، ورازق كل حى وهو على كل شىء قدير .

وقد وصف الله تعالى بالكرم أنبياءه وملائكته فقال عز من قائل : « إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ » وقال جل ثناؤه : « وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ » وقال عزوجل : « كِرَامٍ بَرَرَةٍ » .

وقال ابن عباس أيضا رضى الله عنهما فى مدح الكرم وأهله : سادة الناس : فى الدنيا الأسخياء وفى الآخرة الأتقياء .

وقال عليه السلام من حديث: (أَلاَ إِنَّ السَّخَاءَ مِنَ الإِيمَانِ وَالإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ) وقال صلى الله عليه وسلم : « الْمَعْرُوفُ كَاسْمِهِ وَأَوَّلُ مَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ الْمَعْرُوفُ وَأَهْلُهُ » وقال صلى الله عليه وسلم : « تَجَافَوْا عَنْ ذَنْبِ السَّخِيِّ فَإِنَّ اللهَ آخِذٌ بِيَدِهِ كُلَّمَا عَثَرَ »

والسخاء حال للنفس تدعو صاحبها إلى البذل فى موطن العرف على قدر ماينبغى. ويتفاوت السخاء بتفاوت الناس فى مراتب الثروة؛ فليس الذى يعطيه صاحب الألف كالذى يعطيه صاحب المائة ، فإنْ هما تساويا فى الإعطاء عد الأول بخيلا والثانى كريما . وإن كثيرا ممن يعدون من ذوى الثروة إذا أكرهوا على البذل أعرضوا ، وأخذوا يحشدون الأعذار ، ويسوقون الأحاديث على أنهم فى حاجة إلى بعض ماطلب منهم بذله ، والله يشهد أنهم لكاذبون ، وأنهم ماغلوا أيديهم إلا ليمتعوا أنفسهم بما لا تدعو إليه الحاجة فى حين لا يجد غيرهم من ذوى البأساء والضراء مايدفعون به ألم الجوع الذى يمزق أحشاءهم ، والمرض الذى يعتصر أرواحهم .

إن للفقراء واجبا على الأغنياء : فمن واجبهم أن يعلموهم ويبتنوا لهم الملاجئ يأوى إليها ضعيفهم والمستشفيات يؤمها المرضى منهم ، فإذا قصروا عن ذلك عدوا بخلاء .

ومن الأعذار التى يتلمسها كثير من الأغنياء البخلاء للتنحى عن هذا الواجب أن ذلك من شأن الحكومة ، وهو زعم باطل ؛ فإن على الحكومة من الواجبات مايثقل كاهلها ، وليس فى مقدورها أن تضطلع وحدها بمثل هذه الأعمال الكثيرة التى تضيق عنها أموالها :

هذه جماعة الإسعاف والجماعة الخيرية الإسلامية وجماعة المساعى المشكورة وغيرهن كثير من الجماعات الزراعية والرياضية تؤدى أعمالا للأمة تعجز الحكومة عن أدائها ، وإن للجماعات لأثرا أبين فى البلاد الراقية ؛ إذ هى التى تقوم بالأعمال

المهمة : فهى التى تبنى المدارس والملاجئ ، وتجيز العلماء والمؤلفين والمستكشفين ، وتمنحهم الألقاب العلمية ، وتسهل لهم سبل البحث بما تدر عليهم من خيرات لا تنقطع ومبرات لا تنفد .

ومن ضروب الكرم الإيثار : قالت عائشة رضى الله عنها : ماشبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ولو شئنا لشبعنا ، ولكنا نؤثر على أنفسنا .

ومن أعظم صنائع الإيثار ماحكاه أبو الحسن الأنطاكى قال : اجتمعنا ليلة وكنا بضعةً وثلاثين رجلا ، ولنا أرغفة معدودة لا تسع جميعنا ، فكسرنا الرغفان ووضعناها وأُطفئ السراج ، وتقدمنا للأكل ، فلما ظهر منا الفراغ وأردنا رفع ما كان عليه الطعام فإذا به على حاله لم ينقص منه شيء ، وما أكل واحد منه شيئا إيثارا لصاحبه على نفسه .

ومن أعظم ماجاء فى الإيثار على النفس حديث حذيفة العدوى قال: انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عم لى ومعى شيء من ماء وأنا أقول : إن كان به رمق سقيته منه ومسحت به وجهه ، فلما وجدته أشرت إليه أن أسقيه ، فقال لى ابن عمى : نعم . فإذا برجل يقول : آه . فأشار إلىّ ابن عمى أن انطلق إليه ، فجئته فإذا هو هشام بن عبد العاص ، فلما أشرت إليه سمع آخر يقول : آه . فأشار إلىّ هشام أن انطلق إليه ، فجئته فإذا هو قد مات ، فانصرفت إلى الثانى فإذا هو قد مات ، فانصرفت إلى ابن عمى فإذا هو قد مات . فأى شيء أعظم من هذا الإيثار؟ وأى صبر أجمل من هذا الاصطبار ؟ لقد تقصر الألسن عن تعديده وتكل الفهوم عن تحديده . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى السوق ومعه ثمانية دراهم فإذا بامرأة على الطريق تبكى فقال لها : مايُبْكيكِ ؟ قالت : بعثنى أهلى بدرهمين لأشترى بهما حاجتهم فأضللتهما . فأعطاها درهمين ومضى بستة فاشترى بأربعة قميصا ولبسه ، وانصرف وإذا بشيخ من المسلمين عار وهو ينادى : من كسانى

كساه الله من خُضر الجنة . فلم يتمالك صلى الله عليه وسلم أن خلع القميص وألقاه عليه ، ثم رجع إلى السوق فاشترى بدرهمين قميصا فلبسه ، وأقبل يبادرُ الليلَ ، فإذا بالمرأة حيث تركها تبكى ، فقال لها : مايبكيك ؟ فقالت : بأبى وأمى أنت يارسول الله طالت غيبتى عن أهلى وأخشى عقوبتهم . فقال لها : الحقى بأهلك . وجعل يتبعها حتى أتت دور الأنصار وإذا رحالهم خلوف ليس فيها إلا النساء فقال : السلام عليكن ورحمة الله . فسمعت النساء فعرفنه ولم يسمع مجيبا ، ثم عاد الثانية ثم الثالثة رافعا صوته ، فقلن بأجمعهن : السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته بآبائنا وأمهاتنا أنت يارسول الله . فقال : أما سمعتن ابتداء سلامى ؟ فقلن : بلى ، ولكننا أحببنا أن نكثر لأنفسنا وذريا تنا من بركة تسليمك . فقال : جاريتكن هذه أبطأت عنكن وخشيت العقوبة فهبوا لى عقوبتها . فقلن : قد شفعناك فيها يارسول الله ، ووهبنا عقوبتها ، وقد أعتقناها لممشاها معك فهى حرة لوجه الله العظيم . فانصرف صلى الله عليه وسلم وهو يقول : (مارأيت ثمانية أعظم بركة من هذه الثمانية : آمن الله بها خائفا ، وكسا بها عاريين ، وأعتق بها نسمة ، وما من مسلم يكسو مسلما إلا كان فى حفظ الله ما دامت عليه منه رقعة)

ومن ضروب الكرم السماحة والمعروف : قال الأصمعى : سمعت أعرابيا يقول لرجل أولى معروفا جزيلا : ياهذا ، إن النعم ثلاثة : نعمة راهنة ، ونعمة يرجى استقبالها ، ونعمة تأتى غير محتسبة . أبقى الله عليك ما أنت فيه ، وحقق ظنك بما ترجوه ، وتفضل عليك بما لاتحتسبه .

وقال أكثم بن صيفى : خير العطاء ماوافق الحاجة ، وخير العفو ما كان مع المقدرة .

وقال بعض الحكماء : شر الزمان إذا كانت السماحة عند من لامال له ، وكان المال عند من لاسماحة له . وقيل فى ذلك :

إذا كان من يعطى فقيرا وذو الغنى بخيلا فمن ذا يستعان على الدهر ؟

وقال رجل من بنى عامر بن صعصعة لعتبة بن أبى سفيان : والله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسنا ؟ فإن كان الإحسان منكم فما أحقكم بإتمامه !! وإن كان منا فما أحقكم بمكافأتنا عليه !! وأنا رجل يلقاكم بالعمومة ويختص إليكم بالخئولة ، وقد كثر عياله وقل ماله وتجهمه دهره وبه فقر وفيه أجر وعنده شكر . فقال له عتبة : أستغفر الله منك وأستعينه عليك وقد أمرت لك ولعيالك بغناك فليت إسراعى إليك يقوم بإبطائى عنك .

وقال بعض الحكماء : استجلب بالإنعام منك إنعام الله عليك تسترد بما تهب لغيرك ما يهبه لك ثم تستفد الشكر .

ومن صنوف الكرم الجود : روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : «الْجُودُ مِنْ جُودِ اللهِ فَجُودُوا يَجُدِ اللهُ عَلَيْكُمْ». وعن حماد الرواية قال : كانت عتبة بنت عفيف وهى أم حاتم أعظم الناس سخاء وأكثرهم عطاء ، فلما أسرفت على نفسها وأضر بها جودها حبسها إخوتها فى بيت سنة يطعمونها قوتها ولا يمكنونها من مالها ، وكانت موسرة ، ثم أخرجوها بعد سنة وهم يظنون أنها قد بلغ بها الأدب ، ودفعوا إليها صرة من مالها ، فأتتها امرأة من هوازن ، فسألتها ، فأعطتها الصرة ، ثم قالت فى ذلك :

لعمرى ليوما عضنى الدهر عضة ... فآليت ألا أمنع الدهر جائعا
فقولوا لمن قد لامنى اليوم أعفنى ... وإن أنت لم تفعل فعض الأصابعا
فما ما ترون اليوم إلا طبيعة ... فكيف بتركى يابن أم الطبائعا

ومدح أعرابى قوما فقال : أدبتهم الحُنْكَة وأحكمتهم التجارب ، ولم تعوزهم السلامة المنطوية على الهلكة ، ورحل عنهم التسويف الذى قطع الناس به مسافة آجالهم ، فانبسطت ألسنتهم بالوعد وأيديهم بالإنجاز ، فأحسنوا المقال ، وشفعوا بالفعال ، وابتاعوا المحامد بالأموال ، والثناء الجميل بالأفعال .

ومن الكرم طلاقة الوجه :

أجمعت الحكماء وأهل الفضل أن السيادة والمروءة وصفوة خلال البر فى جميل

العشرة وفى المسارعة إلى المعونة وفى العفو مع المقدرة وفى التودد إلى الناس ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَنْ تَسَعُوا النَّاسَ بِأَمْوَالِكُمْ فَسَعُوهُمْ بِبَسْطِ الْوُجُوهِ وَحُسْنِ الْبِشْرِ) وقالوا : مكتوب فى التوراة : (ليكن وجهك بسيطا تكن أحب إلى الناس ممن يعطيهم العطاء)

ورفع رجل إلى الحسن بن على رضى الله عنهما رقعة ، فقال له : قد قرأتها : حاجة مقضية . فقيل له : يا بن بنت رسول الله ، لو نظرت إلى رقعته وراجعته على حسب مافيها . قال : أخاف أن أسأل عن ذل مقامه بين يدى حين أقرأ رقعته ! !

وقال أنوشروان : من أعظم المصائب أن تقدر على المعروف فلا تصنعه حتى تُسأله . وكان سعيد بن العاص قد سامره قوم من أصحابه ليلة حتى مضى من الليل جزء فلما انصرفوا رأى رجلا قاعدا قد بقى معه ، فعلم أن له حاجة فأمر بإطفاء الشمعة وقال له : هات حاجتك يافتى . فذكر له حاجته فأمر له بأربعة آلاف درهم . وكان إطفاء الشمعة لئلا يلحق الفتى خجل أو استحياء فى مسألته .

وقد جاء فى هذا المعنى : (التبرع بالمعروف من كمل السودد ، وكتمانه من كمل الفضل) وكذلك قيل : أهنى المعروف مالم تبذل فيه الوجوه .

وقال البحترى :

واعلم بأن الغيث ليس بنافع مالم يكن للناس فى إبانه

ليس التكرم من الكرم

إن الذى يكون من النفس وتحمل عليه الطبيعة فيجود به صاحبه وهو متهلل الوجه منشرح الصدر هو الكرم المحض الذى يقود إليه الطبع ، وأما من جاد متحاملا على نفسه منازعا لإرادته فليس عمله بكرم ، وإنما هو تكرم ؛ فإنه ينم عن التكلف وعدم انقياد النفس إليه ، وتلك شنشنة من يحرص على المال ويحتجنه ، وهو بذلك لا يصح أن يكون كريما على حال ، وقلما يجتمع الحرص

والكرم .

وكذلك ليس من أهل الكرم من يمنعون مفروض الزكاة ، وربما جادوا بجزيل الهبات لاستعذاب المدح والثناء .

ومع هذا فمن سامحته نفسه وساعدته طباعه إلى بذل ماله والتكرم بنواله فإنه يسمى فى العرف جوادا إلا أنه غير موفق للطاعة ولا موافق للشريعة ، وكثيرا ماسقط الناس فى هذا الباب ؛ لأن المدح لذيذ والثناء محبوب ، وهو بحر قد غرق فيه الناس قديما وحديثا .

وكذلك ليس من الكرم وكمال أسباب البر أن يعمد الإنسان إلى إعطاء الخبيث من ماله : كما قال جل ثناؤه: « وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ » بل يجب أن يقصد به الطيب ويعمد فيه إلى الحلال المحض ، وهو الذى يقبل وترجى معه الزيادة والنمو ، وبه صلاح الدين إن شاء الله تعالى .

ومما ينافى الكرم المن ، ولذلك ينبغى لمصطنع المعروف أن يجتنب الامتنان به وأن يتناسى ذكره ؛ فإن ذلك من تمام الإحسان وتمام البر : قال تبارك اسمه : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إِيَّاكُمْ وَالامْتِنَانَ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنَّهُ يُبْطِلُ الشُّكْرَ وَيُحْبِطُ الأَجْرَ) ثم تلا الآية المتقدمة .

ومن كلام الحكماء : المن يفسد الصنيعة ويوجب القطيعة ويحقر العطايا الرفيعة وقال بعضهم : (مضض المن أثقل من الصبر على العدم) وقال محمد بن إدريس الشافعى ، (مَنّ الرجال على القلوب أشد من وقع الأسنة) .

ومن مقتضيات الكرم المبادرة بالحاجة :

من أوجب الأشياء على المسئول أن يبادر : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مِنْ أَعْظَمِ آفَاتِ الْكَرَمِ وَأَنْكَدِ حَالَاتِ السَّخَاءِ الْمَطْلُ) وقال عليه السلام : (مَنْ فُتِحَ عَلَيْهِ بَابٌ مِنَ الْخَيْرِ فَلْيَنْتَهِزْهُ فَإِنَّهُ

لَا يَدْرِي متى يُغْلَقُ عَنهُ) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (لكل شيء شرف وشرف المعروف تعجيله) ومن أمثال الحكماء : (وعد الكريم إنجاز وتعجيل ، ووعد اللئيم مطل وتعليل) وفي الحكم المنثورة : لا تؤخر المعروف فربما حالت بينك وبينه صروف

ومن كلام بعض الحكماء : التؤدة في كل شيء محمودة إلا في اصطناع المعروف ، فإن التؤدة فيه تنقيص له وفي تأخير المعروف دواع تفسد البر وتؤذي الحرُّ .

دواعي الكرم

والكرم له وجوه تدعو إليه وأسباب تبعث عليه :

فمنه ما يكون تدينا وتشرعا ، فإذا رأى الإنسان بأحد حاجة أو ظهرت منه إليه فاقة وهو قادر على سد خلته وإزاحة فاقته سارع إلى ذلك رغبة في الأجر ورجاء للمثوبة ، وهو أفضل الوجوه حالا وأحسنها مآلا ؛ فإنه لا يشوبه كدر ولا يغيره من ولا تلحقه آفة من الآفات التي قدمنا ذكرها .

ومنه ما يكون عن وفور مال واتساع حال تقضي به كثرة الثروة إلى تقديم ما وفق إليه ؛ ليجعله ذخرا للأخرى ، ويستجلب به الشكر في الدنيا مع الثقة بالكفاية والغنى عن الزيادة .

ومنه ما يكون رغبة في الحمد والشكر ومحبة في الثناء وطيب الذكر ، فتنفرد إرادته بحب عرض الدنيا ، فيتكرم ويسمح ليحمد ويمدح .

ومنه ما يكون حياء ، والحياء من الإيمان ، فيجود بنائله حياء من سائله ، وإن قل ماله ، ولم تساعده آماله .

ومنه ما يكون استجلابا لمنفعة أو استدفاعا لمضرة ، فيضطر إلى اصطناع المعروف وإن كان به غير معروف ؛ رجاء لبلوغ بغيته والوصول إلى أُمنيته ، فيأتيه تصنعا لا تطبعا .

ومنه ما يكون لحرامة مجد تقدم فيبذل معروفه محافظة على المكانة وحرصا على استدامة الصيانة ، ولا يخلو مثل هذا أن يكون طبيعة .

ومنه ما يكون لفرط حب واستجلاب مودة

التفاضل فى الكرم

تلاحى ثلاثة رجال بفناء الكعبة فقال أحدهم: أسخى الناس عبد الله بن جعفر وقال الآخر: قيس بن سعد بن عبادة. وقال الثالث: عرابة الأوسى. وكثر كلامهم فى ذلك، فقال لهم رجل: ليمض كل واحد منكم إلى صاحبه يسأله حتى ينظر لما يعطيه ويحكم على العيان:

فمضى صاحب عبد الله فصادفه قد وضع رجله فى غَرْز راحلته ليركب. فقال له: يا ابن عم رسول الله. قال: قل. قال: ابن سبيل ومُنْقَطَع به فثنى رجله وقال: خذ الناقة بما عليها ولا تُخْدَعن فى السيف؛ فإنه من سيوف على بن أبى طالب رضى الله عنه. فجاء نابالناقة عليها مطارف خز وأربعة آلاف دينار وأعظمها خطرا السيف.

ومضى الآخر إلى قيس فوجده نائما فقال له خادمه: هو نائم فما حاجتك؟ قال: ابن سبيل ومنقطع به. قال: حاجتك أيسر من إيقاظه. هذا كيس فيه سبعمائة دينار ما فى دار ابن سعد اليوم سواها، وسِرْ إلى معاطن الإبل بعلامة إلى مَنْ فيها، وخذ راحلة وعبدا، وامض لشأنك. وقيل: إن قيسا لما انتبه من منامه أخبره الخادم بما صنع، فأعتقه وقال: هلا أيقظتنى فكنت أزيده؟

ومضى صاحب عرابة فألفاهُ قد خرج من منزله يريد الصلاة وهو متوكئ على عبدين وقد كف بصره، فقال: يا عرابة. قال: قل. قال: ابن سبيل ومنقطع به. فخلى عن الغلامين وصفق بيديه وقال: أوَّه أوه والله ما تركت الحقوق لعرابة مالا، ولكن خذ العبدين. قال: ما كنت لأقطع جناحيك. قال إن لم تأخذهما فهما حران فإن شئت فخذ وإن شئت فاعتق. فتركهما وأقبل يلتمس الحائط بيديه. فأجمع الحاضرون أن عرابة أسخى الثلاثة لأنه جهد من مُقلّ، وأن الآخرين إنما أعطيا من فضل وسعة، وإن كانا فى فعلهما قد بلغا الغاية وتجاوزا الحد.

فضيلة اعطاء السائلين

عن جابر قال : ماسئل النبى صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال: لا. وقال أبو حاتم رضى الله عنه : ماضاع مال ورث صاحبه مجدا ، ولولا المتفضلون لمات المتجملون ومن كثرت فى الخير رغبته وكان اصطناع المعروف همته قصده الراجون وتأمله المتأملون . ومن كان عيشه وحده ولم يعش بعيشه غيره فهو وإن طال عمره قليل العمر .

والحكمة كل الحكمة أن يبدأ بالصنائع والإحسان الأقرب فمن يليه : يبدأ بأهل بيته ثم بإخوانه وجيرانه ويتحرى المعروف والإحسان فى أهل الدين والعلم منهم ، ويبتدئ بالصنائع قبل أن يسأل ، لأن الابتداء بالصنيعة أحسن من المكافأة عليها .

وأهنأ الصنائع وأحسنها فى الحقائق وأوقعها بالقلوب وأكثرها استدامة للنعم واستدفاعا للنقم ـ ما كانت خالية عن المن فى البداءة والنهاية، متعرية عن الامتنان ، وذلك هو الغاية فى الصنيعة ، والنهاية فى الإحسان .

فضيلة التفريج عن الناس بقضاء الحوائج

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ نَفَّسَ عَنْ أَخِيهِ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيا نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيامَةِ وَمَنْ سَتَرَ عَلَى مُسْلِمٍ سَتَرَ اللهُ عَلَيْهِ فِى الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَاللهُ فِى عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِى عَوْنِ أَخِيهِ) . وكان الحسن يقول : قضاء حاجة أخ مسلم أحب إلى من اعتكاف شهرين .

وقال بعض الحكماء : حقيقٌ بمن علم الثواب ألا يمنع ماملك من جاه أو مال إن وجد السبيل إليه قبل حلول المنية ، وألا يتوسل فى قضاء حاجته بالعدو ولا بالأحمق ولا بالفاسق ولا بالكذاب ولا بمن له عند المسئول طعمة، ولا يتسخط ما أعطى وإن كان تافها لأن من لم يكن له شيء فكل شيء يستفيده ربح ، ويجب

ألا يسأل الحاجة كل إنسان فرب مهروب منه أنفع من مستغاث إليه ، ومن سئل فليبذل ، ويجب أن يكون السؤال فى ديار القوم ومنازلهم لا فى المحافل والمساجد والملأ : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : لا تسألوا الناس فى مجالسهم ومساجدهم فتفحشوهم ، ولكن سلوهم فى منازلهم ، فمن أعطى أعطى ، ومن منع منع . وقال الشاعر :

وإذا طلبت إلى كريم حاجة ... فلقاؤه يكفيك والتسليم

وقال آخر :

يبقى الثناء وتنفد الأموال ... ولكل دهر دولة ورجال

ما نال محمدة الرجال وشكرهم ... إلا الصبور عليهم المفضال

فضيلة الضيافة وإطعام الطعام

عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ) . وقال أبو حاتم رضى الله عنه : إنى لأستحب للعاقل المداومة على إطعام الطعام والمواظبة على قرى الضيف . ومن عرف بإطعام الطعام شرف عند الشاهد والغائب وقصده الراضى والعاتب وقرى الضيف يرفع المرء وإن لم يشرف نسبه إلى منتهى بغيته ونهاية محبته ، ويشرفه برفيع الذكر وكمال الذخر .

والعرب لم تكن تعد الجود إلا قرى الضيف وإطعام الطعام ، ولا تعد السخى من لم يكن فيه ذلك حتى إن أحدهم ربما سار فى طلب الضيف الميل والميلين . ونعم الله إن لم تؤد حقوقها بالإنفاق منها فى وجوه الخير ترجع من حيث بدأت ، ثم لا ينفع من زالت عنه التلهف عليها ولا التفكير فى الظفر بها ، وأبخل البخلاء من بخل بإطعام الطعام ،

ومن إكرام الضيف طيب الكلام وطلاقة الوجه والخدمة بالنفس ؛ فإنه

لا يَذلُّ من خدم أضيافه، كما لا يعز من استخدم ضيفه، أو طلب لقراه أجرا: قال الشاعر:

وإنى لطلق الوجه للمبتغى القرى
وإن فنائى للقرى لرحيب
أضاحك ضيفى عند إنزال رحله
فيخصب عندى والمحل جديب
وما الخصب للأضياف أن يكثر القرى
ولكنما وجه الكريم خصيب

الشفقة

معناها النفسى:

هى ضرب من انجذاب النفس إلى النفس عند حدوث الألم لها، وأثر من آثار الانفعالات الطبيعية التى يثيرها العلم بما أصاب الناس من الأذى، ومن مظاهرها المادية فيض العيون بالدموع إلا أنها لا تلبث أن تخمد وتنطفئ، إن لم يثبتها الإنسان فى نفسه بالتصور والفكر؛ ولذلك ترى بعض الناس الذين تنقصهم قوة التصوير وتدبر الفكر يشاهدون حلول الألم بإخوانهم ولا يتألمون، فلابد لاستكمال هذه الفضيلة فى النفوس حينئذ من شرطين: حدة التصور وكثرة التجارب:

أما حدة التصور فإنها تجعل الإنسان أهلا لأن يدرك انفعال غيره ويحس ألمه، بل يحل محله فى الإحساس بالألم، وهو نوع من وحى النفوس بعضها إلى بعض حتى يصير قلب الإنسان كالمرآة ينطبع فيه ما ينزل بقلب صاحبه.

وأما التجارب فلأنها تمكن الإنسان من الإحاطة بمقدار الألم فى غيره، ومعرفته له بما كابد من أمثاله؛ ولذلك نجد أن من كان أقل الناس آلاما وأحزانا يكون أبعد من سواه عن التوجع لأحزانهم، ولا يعظم إدراك الإنسان

لا لام أخيه إلا بما جربه منها فى نفسه .

وقصارى القول أن نمو الشفقة فى النفس لا يكون إلا بمقدار قوة الحافظة لأن التجارب ليست إلا عبارة عن مجموع من آثار ما مر على النفس مدخرا .

ومما تقدم يتبين أنها حال نفسية تحمل صاحبها على الميل إلى غيره والعطف عليه ، فتمتد يده بالإحسان إليه فى مقام الإحسان ، ويسعى لمواساته إذا نابته نائبة أو عرته ضائقة ، وتارة تذرف عينه الدموع من أجله فى مقام البكاء .

ويتفاوت هذا الميل فى الناس بتفاوت تربيتهم واختلاف البيئة التى نشئوا فيها : فمنهم من تجده يكاد يذوب ألما وحسرة إذا رأى مريضا يتملل من مرضه أو فقيرا دفعت به الحاجة إلى ذل السؤال ، ومنهم من قست قلوبهم فكانت كالحجارة أو أشد قسوة فلا تزعج نفوسهم المناظر المؤلمة ولا يأبهون لحادث وإن جل مالم تصبهم قارعة قريبا من دارهم .

والشفقة قوة تؤلف بين الأفراد فتجعل منهم أسرا متحدة فى ميولها وأغراضها ، فهى كالجذب الذى يؤلف بين الكواكب ويربط بعضها ببعض ، فيجعل منها جماعة يدور أصغرها حول أكبرها على وتيرة واحدة ونظام محكم واتصال وثيق لا انفصام لعروته .

وكلما ازداد هذا الميل فى الجماعة توثقت عرا المحبة بينها وأحكمت روابط الألفة فيها فسعوا للخير متعاضدين متسابقين .

الشفقة أمر طبعى فى الإنسان والحيوان : انظر إلى الآباء والأمهات تجدهم يتعهدون أولادهم ببرهم إذ هم أجنة فى بطون أمهاتهم وإذ هم أطفال فى مهادهم ، يكدون لهم تحت حر الشمس اللافح وبرد الشتاء القارس فإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا مسرورين ، يدخرون لهم فى حياتهم ، ويبيحون لهم ما جمعوه بعد موتهم ، ويعلمونهم العلم النافع والأدب الرائع ليرفعوا من شأنهم ، ويعظموا من قدرهم .

سل الآباء عن السرور الذى يغمر قلوبهم إذا ظفر أولادهم بالنجاح أو نالوا

فى حياتهم قسطا من السعادة وافرا تعلم أنهم أنعم الناس بالا وأهدؤهم حالا حتى أنك لو سألت واحدا منهم عما يتمناه فى الحياة بعد هذا فربما لا تجد له مطمعا ولا غاية : وسبب هذا ما استقر فى نفوس الآباء من الشفقة على الأولاد .

والشفقة على الأولاد غاية يجب الوقوف عندها ، وإلا كانت عليهم بلاء ونقمة :

فالوالد الذى تحمله شفقته على أن يمنع ابنه من السفر إلى بلد غير بلده ليرد منهل العلم صافيا ويعود إنسانا كاملا نافعا لنفسه وللناس قد أساء إليه بشفقته أكثر مما نفعه .

والوالد الذى لا يعاتب ولده إذا فاته درك مالم يكن ليفوته لولا إهماله وتقصيره يعد مقصرا ومن صواب الرأى أخذ الوالد لولده بالشدة فى موضع الشدة واللين فى موضع اللين :

فقسا ليزدجروا ومن يك حازما فليقس أحيانا على من يرحم

وإنك إن تقرأ قول بعض الأدباء لمعلم ولده ـ تستنبط منه مقدار الشفقة المنطوية عليها نفسه والطريق الذى اختاره لتأديبه : وذلك هو :

ترك الصلاة لأكلب يلهو بها طلب الهراش مع الغواة الرجس
فليأتينك غاديا بصحيفة يغدو بها كصحيفة المتلمس
فإذا أتاك فعضه بملامة أوعظه موعظة الأديب الكيس
واعلم بأنك ما فعلت فإنه مع ما يجرعنى أعز الأنفس

وانظر إلى الطير فى أوكارها فإنها تغدو إلى الحقول فى طلب القوت لفراخها خماصا ثم تعود بطانا بما جمعته لها فى حواصلها فتزقها ، وإلى الهرة تأخذ أولادها بأنيابها تقربها من أعدائها فلا تنفذ أنيابها فى إهابها !!

والشفقة كما تكون واجبة من الإنسان للإنسان تكون واجبة أيضا من الإنسان للحيوان ذلك الذى عجز عن حماية نفسه من عدوان الإنسان والدلالة على حاجته بنقصان البيان فيه .

والشفقة عليه تكون بالإحسان إليه. فتطعمه إذا جاع، وتسقيه إذا عطش، وتداويه إذا مرض، وتريحه إذا تعب، فمنه نتخذ قوتنا وملابسنا وفرشنا وأثاثنا، وهو الذي يساعدنا في استثمار الأرض بحرثها وريها: « وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ، وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ. وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً »

وإنه ليروعك ما تراه كثيرا من أولئك النفر الذين يقسون على الحيوان إلى أقصى غاية، فيحملونه فوق طاقته، ويرهقونه بالسير في وعثاء الطرق فإذا ونى ألحوا عليه بأسواطهم، فمزقوا جلده، وهرءوا لحمه، وأسالوا دمه. وكأني بك إذ ترى هذا تسمع قول أبي العلاء المعري وهو ينشد ويتأوه:

لقد رابني مغدى الفقير بجهله على العير ضربا ساء ما يتقلد

كان فرضا على الحكومات والعقلاء أمام هذا الاعتداء الذي لا تبيحه شريعة أن يحموا الحيوان من ظلم أولئك الطغاة القساة، لهذا أنشئت المستشفيات في الحواضر، ونيط بالشرط في الطرق أن يأخذوا المعتدين عليه، ويقتادوهم إلى حيث يلقون جزاء ما كسبت أيديهم، ويأخذوا الحيوان إلى حيث يجدوا راحته، ويداوى من مرضه.

قد يجد الزارع والمكاري وصاحب العجلة من حاجته إلى الحيوان لكسب رزقه باعثا على العناية به، ولكنها عناية مقصورة على ما يملكه أحدهم دون ما يملكه غيره، والأولى أن يفهم هذا النفر أن الشفقة على الحيوان أمر جاءت به الأديان على اختلافها، وأنه يحرم تعذيبه والتمثيل به: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تعليما لنا وإرشادا: « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ

وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ »

قيمتها الخلقية

هذه الفضيلة تعلو على سائر الأخلاق الفاضلة التى ترجع فى الأصل إلى طلب الإنسان المنفعة .

ومن أقصى مايمدح به الرجل الفاضل أن يحسن إلى من أساء إليه . والشفقة فى كمالها إن تكاملت لاتفرق بين القريب والبعيد ، ولا بين العدو والصديق ، ولا تتناول من تألفه النفس وحده ، بل تتناول من يخالفها وينافرها ؛ إذ تزيل مابين النفوس من الحجب ، وتعتبر الناس فى تأثرهم بآلامهم على السواء .

حقا إن فضيلة الشفقة مصدر لكثير من الفضائل ، وناهيك أن الفضيلتين اللتين هما جماع الخير بين بنى الإنسان فى الوجود ، واللتين نوه بهما الخالق عز وجل ونبه خلقه إلى اتباعهما ، وأخذ الناس بوجوب العمل بهما فى قوله سبحانه وتعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ » ـ ناشئتان عن هذه الفضيلة ؛ لأن الشفقة تكفنا عن مباشرة الأذى ، وتحجبنا عن إيقاع الإيلام بغيرنا ؛ فهى منبع العدل وذلك تعريفه ، ثم إنها تبعث النفس على تخفيض الآلام عن الناس ، وتدعو إلى فعل الخير معهم ، وهو أصل الإحسان ، وذلك تحديده ؛ كما أنها تدعو إلى المساواة بين الناس فى التألم لهم ، وتقررها كما يقررها العقل ؛ لأن من أصول الشفقة أن يضع الإنسان نفسه فى منزلة غيره ، ويحل فى محله ، ويعنى بأحوال الناس عنايته بأحوال نفسه ، فيكره لهم ما يكره لها ، ويحب لهم مايحب لها ، وهذا هو معنى المساواة فى أكمل مظاهرها ، وكل ما كان من معانى التكافل والتضامن والتعاضد والتعاون فى الجماعة البشرية داخل تحت معنى الشفقة .

وكفاها رفعة بين الفضائل أنها تتجاوز بالإنسان دائرة العمل بها فى الإنسانية إلى دائرة العمل بها فى الحيوانية ، وليس فى نظر الإنسان أبشع ولا أفظع من إيقاع الألم بالحيوان ، وليس فى جميع الأعمال السيئة التى يأتيها الناس بعضهم مع بعض ، ويفعلها

بنفسه أقبح وأشنع من عدم التأثر مما يقع على الحيوان الأعجم من الألم، فإذا تبلد الناس وجمدوا وأغفلوا هذه الفضيلة، وتقاعسوا عما تدعو إليه من فعل الخير والإحسان، ومعاونة إخوانهم فى الإنسانية عند حلول الآلام بهم ونزول المصائب عليهم - فإن منزلة إخوانهم لديهم تكون أدنأ من منزلة الحيوان، ومنزلتهم فى أنفسهم أدنأ من منزلة الجماد!!

المعروف

حقيقته:

المستفيض بين الناس أن كل واحد منهم لا يعتبر نفسه مدينا لك بالشكر إلا بمقدار ما أسديته إليه: فمنهم من يقدره بمقدار الخطر الذى أنقذته منه، ومنهم من يقدر معروفك عنده بمقدار ما نقدته من المال:

فلو أعطيته مائة درهم كان شكرانه لك على قدرها، ولو أعطيته مائتين كان شكره على حسب العدد وهلم جرا، فقيمة الجميل فى زعمهم منوطة بالمادة، ترتفع وتنخفض عندهم بارتفاع الأعداد وانخفاضها. وذلك من الخطأ بمكان عظيم:

ذلك بأن العطايا والهدايا والصلات والمساعى إنما هى علامات ظاهرة تدل على المعروف قلت أو كثرت، وليست هى المعروف بذاته؛ لأن المعروف لا يحس بالنظر، ولا يمس باليد ولا يدخل فى الكيس، وإنما هو ما يدخل فى القلب، ولا يقدر قدره إلا ضمير الإنسان، والفرق عظيم بين السعى الذى تسعاه لصاحبك وبين الحاجة التى تسعى له فيها؛ فليس الذهب والفضة وما إليهما المعروف فى الحقيقة، ولكن المعروف فى باب الأخلاق هو نية الفاعل للخير عند فعله وعقد العزيمة على تحصيله، وهذا هو الذى يجب تقديره فى النفس وإسداء الشكر عليه دون نظر إلى ما يترتب عليه من غنم مادى، ولذلك لا يقال فى القليل إنه قليل، ولا فى الكثير إنه كثير، وإن كان الناس لا يأخذون إلا بالظواهر، ولا يلتفتون إلا إلى مقدار

مايعطى ومايؤخذ جاهلين قيمة المعروف فى ذاته ،

من أجل ذلك كان المعروف هو الفعل الذى يصدر من تلقاء النفس لمجرد الرغبة فى الخير ، ويستمد مسديه لذته من اللذة التى يشعر بها المسدى إليه ، فالنية هى التى تقوّم الأشياء وتُقدرها قدرها : وهذا مصداق قوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّمَا الأعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » ؛ فرب صغير من الإحسان يكون كبيرا بصفاء النية فيه ، ورب صلة عظيمة يحط من قدرها كدر النية فيها .

على هذا كان خير وصف الكريم أنه هو الذى ينسى ماهو فيه من الاحتياج عند رؤية المحتاج ، وهو الذى يكون مغرما بالإعطاء فى كل وقت من الأوقات ، وهو الذى يرى نفسه كأنه الآخذ ، والآخذ منه كأنه المعطى له : كما قال الشاعر :

تراه إذا ما جئته متهللا كأنك تعطيه الذى أنت سائله

وهو الذى إذا رددت إليه معروفه نسى أن له عندك معروفا ، وعدَّه يدا لك عليه ؛ وهو الذى لا ينتظر أن يأتيه صاحب الحاجة ، بل يسعى فى البحث عنه ، ومن كان على خلاف ذلك فهو تاجر مُرْبٍ تأخذ منه المعروف أخذك الدين من الغريم .

المعروف ضربان

ضرب عام يقتضى الجهر والإعلان له ، وضرب خاص لا يبغى له غير الإخفاء والكتمان : فمن الضرب الأول ما يكون المجد فى إعلانه والشرف : مثل صدقات الفرائض وغنائم الجيوش ، ومكافأة الملوك على الأعمال الصالحة بعلامات الشرف ، ومايشابهها مما يزيد الجهر بها والإعلان لها قيمتها : قال الله تعالى : « إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ

وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » وقال ابن عباس رضى الله عنه : « صدقات السر فى التطوع تفضل علانيتها سبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بسبعين ضعفا »

والضرب الآخر هو الذى لا تكون العطايا فيه من شأنها ارتفاع القدر ، وازدياد الشرف ؛ بل من شأنها سد الحاجة ، ودفع العوز ، ومداركة الافتضاح ، وهذا يجب فيه الكتمان وجوبا محتوما ، وألا يعلم بالصنيع أحد سوى المقصود وحده بها ، وبعض المحققين يذهبون إلى أن جمال الصنيعة لا يتم إلا بكتمانه عن نفس المسدى إليه أيضا ؛ ولذلك فإن كثيرا من ذوى المروءات يعمدون إلى طرق الاحتيال فى وجوه صلتهم لأصحابهم حتى يخف عليهم احتمالها ، وقد أخذوا ذلك من قوله تعالى : « إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ . وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » وقوله عليه الصلاة والسلام من حديث : (وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفَاهَا حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا صَنَعَتْ يَمِينُهُ »

كيف يكون المعروف مقبولا مستساغا ؟

الطلاقة والبشاشة والإجابة قبل السؤال مما يجعل المعروف متقبلا ؛ حتى لا يضطر الطالب إلى مضاضة الرجاء ، وذل السؤال ؛ فإن صاحب الحاجة لا يسأل حاجته إلا وهو فى حيرة وتردد يترقرق فى وجهه ماء الحياء ، فإذا كفيته مؤنة السؤال ضاعفت قيمة المعروف ؛ فإن أغلى الأشياء قيمة ما أرقت فى سبيله ماء الحياء ، وأخلقت فيه أديم الوجه :-

ما اعتاض باذل وجهه بسؤاله ... بدلا وإن نال الغنى بسؤال

وإذا السؤال مع النوال وزنته ... رجح السؤال وخف كل نوال

ويجب أن يضاف إلى بشاشة الوجه وارتياح النفس عند إسداء المعروف لطف العتاب لصاحبك لتقاعده عن قصدك إلى هذا الحين : كأن تقول له إنى لا أغفر لك ترددك وتقاعدك عن طلب حاجتك ، كما أنى أشكرك على أن خصصتنى بها من

دون أصحابك لحسن ظنك بى ، وثقتك بحسن مودتى ، واعلم أننى منذ اليوم رهين أمرك فيما تكلفنى إياه من خدمة ، ولقد سامحتك فى استتارك منى بستار الخجل والحياء عند الطلب فى هذه المرة : إنك إن فعلت ذلك زدت فى مقدار الصنيعة ، وأسست فى قلب صاحبك ركنا من الشكر والحمد لا يهدمه النسيان ، ولا يودى به مرور الزمان .

أهل المعروف

أهل المعروف حقا من يفعل الخير لمجرد حب الخير ، ومن لا تثنيهم كثرة أهل الكفران عن معاودة إسداء المعروف ، فالكريم لا يبالى : كفر الناس نعمته أم شكروها . ويكفيه أن يستمرئ حلاوة الصنيعة حين إسدائها ، وهى اللذة التى يُطرفه بها الإسداء : وقد قال الشاعر فى ممدوحه :

لو كفر العالمون نعمته   لما عدت نفسه سجاياها

فهو يصنع الجميل ولو كان يعتقد أنه ليس فى العالم قلب شكور ، ويؤثر أن يضيع إحسانه سدى على الانقباض عن إسداء الإحسان ، والامتناع عن فعل الخير .

وليس إسداء المعروف من باب التجارة ولا من حساب الدخل والخرج ، وماله إلا باب واحد ، وهو باب الخروج والإنفاق ، فإن دخل فيه شىء من الشكران كان ذلك ربحا ، وإن لم يدخل فيه منه شىء فلا خسارة فيه ، فلا يجوز إذن لمحسن أن يقول يوما خسرت الجميل ، وقد استمرأ لذته عند الإسداء .

ومن خلال أهل المعروف أنهم يسدلون دونه سترا من النسيان يبقى المعروف وراءه مستورا حتى تنكشف عنه يد الشكر من المسدى إليه ؛ لأنهم يعلمون أن المعروف رأس مال طرحه فى يد الكنود خير من حبسه فى يد المحسن لجواز أن يربو بالشكر فى نفس الكنود يوما من الأيام على مرور الزمن ، ولا يبعد عليه أن يتعلم منه حسن المثال فى إسداء الصنيعة .

ولا يقتصر إسداء المعروف على بذل المال ، بل يتناول المال ، والجاه ، والسلطان ، والنصح والإرشاد ، وحسن المعاملة .

وليس الإنسان وحده هو الذى يدرك معنى حسن المعاملة ، بل الحيوان الكاسر والأسد الضارى إذا عودته الحسنى انتهى به الأمر إلى الاستئناس والخضوع ، ولا شىء أقتل للكفران فى النفوس من المواظبة على دوام الإحسان ، فمن أسدى معروفا ولم يشكر عليه فى المرة الأولى فلا يبعد أن يشكر عليه فى المرة الثانية ، فإذا قاوم الكفران الإحسان مرتين فعليك أن تعززهما بثالثة تذكر المسدى إليه بالاثنتين .

فساد المعروف

وفى الناس فريق يتبع معروفه بطول المن والتذكير به ، وهؤلاء هم أسوأ أهل المعروف والإحسان عملا ، وأقبحهم فعلا ، وأشدهم على النفوس ألما وكربا ، وأولاهم بالكراهة والحقد عليهم بدل الشكر والامتنان ؛ وكفى بهذا الخلق السيئ شناعة وفظاعة ماورد فيه من الآيات المتعددة فى الكتاب الكريم : فمنها قوله عز وجل :

« الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » ، « قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ » ، وقال تعالى : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ ، وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » ومن جوامع الكلم قولهم : « صنوان من منح سائله

ومَنّ ومن منع نائله وضن » :

الامور التى تذهب ببهاء المعروف

أهم هذه الأمور كثرة الوعود ، وطول التسويف . ومن الناس من يقصد ذلك ، ويتعمده للتباهى بتردد القصَّاد عليه ، وإقامه الوفود ببابه ، كأنما فعل الخير عنده سلطان لديه يتمتع بمظاهر أبهته وجلاله أمام حاشيته وأتباعه ، ولا حق لمثل هؤلاء فى الشكر على الصنيعة ، بل هم الذين يلجئون الناس بهذه الأفعال إلى الكفران ؛ لأن كل مايدخل فى حساب الوعد والمطل يخرج من حساب الشكر والاعتراف بالمعروف وربما أدى طول الانتظار وكثرة الوعود إلى البغض والحقد فى نفس صاحب الحاجة .

لماذا يقابل المعروف بالكفران ؟

السبب الرئيسى فى انتشار رذيلة الكنود والكفران خبث نفس المسدى إليه ، ولؤم طبيعته ، وإقفار نفسه من الفضيلة ، وإمعانه فى الإساءة إلى من أحسن إليه ، ولا عجب فقد أبان رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك النفس بقوله : « جُبِلَتِ النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ عَلَى أَلاَّ تَخْرُجَ مِنَ الدُّنيَا حَتَّى تُسِيءَ إِلَى مَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهَا »

ومع هذا كله فإن كثرة أهل الجحود والكنود لا توجب تثبيط همتنا ، ولا تحول وجوهنا عن إسداء المعروف : ألا ترى أن كفران نعمة الله لم تغير من نعمته علينا ، وما زالت نعمته تتناول الشاكر والكافر ؟ وإنا لنستحق خيبة الرجاء فى الشكر إذا كنا أعطينا ما أعطيناه على نية انتظار الجزاء والمكافأة عليه ، كما أننا لا ينبغى أن نمتنع عن المعروف إذا تكررت لنا منه حوادث الكفران والكنود ، فكثيرا ما خاب ظن المرء فى امرأته وولده ، فما منعه ذلك معاودة الزواج وتربية الأولاد ، وإشرافنا على الغرق مرة لا يمنعنا من ركوب البحر مرة أخرى ، والنكوص عن صنع الجميل بحجة عدم المكافأة عليه يدل على التطلع إلى استجلاب الفائدة من ورائه وعلى ذلك يكون ما أعطيناه كالقرض ننتظر معه الوفاء .

الصبر

يحمل الصبر على معان ثلاثة : هى حبس النفس على المكاره ، واحتمال المصائب من غير جزع ، ومقاومة هوى النفس فيما يعود منه ضرر على العقل أو الجسم ، أو ينتقص المروءة والشرف .

ويُفَسَّر الهوى غالبا باسترسال النفس فيما ليس مباحا لها مما ليست فى حاجة إليه . وبعض هوى النفس قد يكون لمصلحة الجسم وبقائه كالأكل والشرب والنوم بقدر الحاجة وقد أبانت الشرائع الحد الذى يحسن الوقوف عنده ؛ فمن الحكمة اتباع ماأمرت به واجتناب مانهت عنه ؛ فالأكل وهو مباح إذا جاوز حده أسرع إلى المعدة الفساد : وفى الأمثال : « رب أكلة حرمت أكلات » ويدخل هذا فى باب الإسراف المذموم شرعا ، وكذلك النوم . وكل شىء يتطلبه بقاء الجسم سليما إذا زاد على حده كان إسرافا ، وإذا نقص كان تفريطا .

وقد حرم الدين الإسلامى مجاوزة حد الاعتدال حتى فيما كان من أُمور الدين ففى الحديث الشريف : « إنَّ المُنْبَتَّ لاَ أرْضاً قَطَعَ وَلاَ ظَهْراً أبْقَى » ولعل سبب هذا أن الإفراط فى شىء يكون بجانبه التفريط فى شىء آخر غالبا كما أنه حرم التفريط لما يصحبه من الضرر ، وضياع المصلحة عادة .

وبعض هوى النفس قد يكون فيما يضر بمصلحة الجسم أو العقل أو هما معا ؛ فإن الذين فقدوا صفة الصبر ، وجعلوا إلههم هواهم — وقعوا فى صنوف من الشقاء : فمريض يشكو ألما لايجد منه برءا ، ومفلس ضاع ماله ، فأصبح يجتدى ، وقد كان مجديا ، وآخر قد اختلط عقله فبات سجين (البيمارستان) بين أصفاد وأغلال لايزايله حتى تزايله الحياة .

وأما احتمال المصائب فمن صفات النفس الكبيرة التى لا تطير شعاعا لحادث ، ولا تجزع لنائبة لعلمها أن الجزع لايغنى فتيلا ، ولايرد فائتا ، وأن الناس فى

هذه الحياة غرض الحوادث فمن أخطأته سهامها اليوم أصابته غدا ، وأن كل شيء يبدو في الوجود صغيرا ثم يكبر إلا المصائب ؛ فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر .

والصبر على المصائب محمود الأثر ، شريف الغاية ، ولو لم يكن فيه إلا أنه مظهر من مظاهر الكمال اللائقة بكل إنسان لكفى :

فلو كان يغنى أن يرى المرء جازعا ... لحادثة أو كان يغنى التذلل
لكان التعزى عند كل مصيبة ... ونائبة بالحر أولى وأجمل

ومن الجاهلين من يسترسل في جزعه إذا نابته نائبة ، ويتملك قلبه الحزن تملكا فينصرف عن عمله ، ويهمل النظر في مصالحه . وليس هذا من صفات العقلاء في شيء . وقد أجزل الله سبحانه وتعالى المثوبة لهؤلاء الصابرين لعلمه بفداحة ما يحملون من أثقال الحياة وأرزائها ، فقال جل شأنه : « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

وأما حبس النفس على المكاره فهو شأن قليل من الناس ممن امتازوا بالشجاعة ، وآثروا حسن الذكر على كل شيء دونه . وهذا الذي عناه قَطَرِىّ بن الفجاءة بقوله يخاطب نفسه :

أقول لها وقد طارت شعاعا ... من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم ... على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبرا فى مجال الموت صبرا ... فما نيل الخلود بمستطاع
سبيل الموت غاية كل حى ... فداعيه لأهل الموت داعى
ومن لا يغتبط يسأم ويهرم ... وتسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خير من حياة ... إذا ماعد من سقط المتاع

ومن هذا الثبات فى مواقف النضال عن الحق ، حتى يستقر فى نصابه ، والجهاد لنصرة مبدإ من المبادئ السامية ، أو عقيدة نافعة ، أو إزالة بدعة من البدع الشائنة فى أمة جاهلة .

والصبر على المكروه ضرورى لكل إنسان يزاول عملا من الأعمال كى يتمه، ومن فقد هذه المزية تراه يبدأ العمل، ثم ينصرف عنه إلى غيره، فيضيع وقته، ويضنى بدنه، ولا يحصل على ثمرة تعبه؛ لأن كثيرا من الأعمال إن لم يكن كلها لا تدرك ثمرتها إلا بتمامها .

ومن الصبر ما يكون تفضلا كمن وصل إليه أذى من قول أو فعل فى نفس أو مال وهو قادر على الانتصار بظاهر الحق وموجب الشرع، فترك ذلك تفضلا وتطولا، ورده بالصبر تشرعا وتورعا : قال الله عز وجل : « وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ » فالصبر على الأذى مع القدرة على الانتصار من أرفع مراتب الصبر .

والصبر لازم فى جميع الأحوال، لا يستغنى عنه أحد، ولا يجد بدا منه، وكيفما تصرف المرء فى جميع أموره، وتصرف به دهره فى مكروهه ومسروره ــ فخير شىء أن يكون الصبر قرينه، والثقة تعينه، والهدى يسدده، والتقى يؤيده : ألا ترى الزارع كيف يفرق بذره ويقدم صبره، وهو لا يدرى متى ينزل المطر، ولا يعرف ما الله صانع فيه ؟ فهو صابر واثق .

وقوة الثقة بالله هى الباعثة على الصبر لأمر الله تعالى، كما أن القنوط يبعث على الجزع، ويصد عن الورع .

قبح الجزع ومعايبه

الجزع (وقاك الله) خلة ذميمة : تعظم الخطب، وتوهن النفس، وتدل على خور الطبيعة، وتبعث على مخالفة الشريعة، قد ركبت فى هذه النفوس الأمارة، وقرنت بالطبائع الخوارة، فهى تألف العقول المختلة، وتسكن فى القلوب المعتلة : قال الله عز من قائل : « إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ، إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ، إِلَّا الْمُصَلِّينَ ... » الآية، فأوقع الاستثناء على الجامعين لحدود الله، المستمسكين بعرا اليقين ؛ فإن الجزوع لا محالة غير واثق بربه، قد

كن الخور فى قلبه ، وأيئسه القنط من زوال خطبه ، فلايزال أبدا فى بلاء من نفسه متوقعا من غده أسفا على أمسه . إن حدثته نفسه بصبر أو عزاء كذبها ، وإن تعرضت له عوارض سلوان أو تأنيس تحاماها وتجنبها ، فهو لايجد لما فات خلفا ، ولا يأمل لما ينتظره نصفا ، حتى يهلك نفسه حسرة وأسفا : قال بعض الحكماء : « الجزع على الفائت آفة ، وعلى المتوقع سخافة » فهو لايخلو عمره من النكد ، ولا يستفيق من التعذب والكمد ؛ لأنه لاينفك عن حالين : إحداها استعظام مانزل به ، والأخرى تخوف مايستقبل ، فلايزال معذبا بما لا يقدر على دفعه متوقعا لما عساه ألاّ ينزل به : وقال أبو العتاهية :

ترى الشىء مما يتقى فتهابه ومالا ترى مما يقى الله أكبر
وقد يهلك الإنسان من باب أمنه وينجو بحول الله من حيث يحذر

وكفى بهذا حزنا دائما ، وهما لازما ، وما أحوج الإنسان إلى أن يأخذ نفسه بالصبر ويلجأ فى جميع الأحوال إلى التسليم : كما قال لقمان لابنه بلسان القرآن : « وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » فإن الإنسان إذا أطاع نفسه وأهملها ، وأسلمها ليد الجزع وأغفلها ، ولم يحملها على الصبر فيما دهمها قد بخسها حقها وحرمها ، وهانت عليه وما أكرمها ، فسكنت إلى الجزع ، وامتنعت من السلوان ، فقل الأمن ، واستولى الجزع ، وعظم الخطب وتضاعف الكرب : كما قال ابن الرومى :

إن البلاء يطاق غير مضاعف فإذا تضاعف صار غير مطاق

وقالت الحكماء : « من قل صبره ، وعظم عليه أمره ، وضاق عن حمل مانزل بصدره ــ فقد تبين كفره » ومن الحكم المنثورة : « من أكثر الشكوى عظمت عليه البلوى » وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « الصبر قاطع الحدثان ، والجزع من أعوان الزمان » وقال عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : « فيم الجزع فيما لا بد منه ؟ وفيم الطمع فيما لا يرجى ؟ » ومن كلام بعض العلماء : « من كثر جزعه كثرت زلته ، وعظمت علته ، وبعد أمله ، وحبط عمله » ولا يؤمن

على من كان الجزع من شأنه أن يذهب بإيمانه ، فيقع فيما لا طاقة به لحامله .

الصبر والشجاعة

هما من الخلال الشخصية التى ينبغى للمرء أن يتدرع بهما ، ويروض نفسه عليهما منذ من الحداثة . والصبر فى أصل معناه اللغوى الحبس، وهو باعتبار متعلقه ينقسم ثلاثة أقسام : (الصبر عن ...) ، (والصبر على ...) ، (والصبر فى ...) :

فالأول : حبس النفس عن فعل السوء والشر ، ودواعى الهوى والشهوة ، و كل ما يمس كرامة الإنسان ، ويشوه سمعته .

والثانى : الصبر على المكروه والألم . وتحمل الرزايا والمصائب ، وكل ما يقلق الراحة ، وينغص العيش . ومن ذلك الصبر على ما يفوت الإنسان من المآرب والحظوظ الدنيوية .

والثالث: الصبر فى مواطن الخوف والذعر، بل فى مواطن الخطر أحيانا. دفاعا عن حق أو حماية لمصلحة، أو وقاية لعرض وشرف . وهذا النوع من الصبر يسمى الشجاعة والإقدام فالشجاعة إذ ذاك ضرب من الصبر قال تعالى: «وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ »

وقال بعض الحكماء : « ليس الصبر الممدوح صاحبه أن يكون الرجل قوى الجسد على الكد والتعب لأن هذا تشاركه فيه الدابة ، ولكن أن يكون للنفس غلوبا ، وللخطوب حمولا ، ولجأشه عند الحفاظ مرتبطا » أى مالكا نفسه عند الغضب .

وإن أعز شعوب هذا العصر ، وأرفعها شأنا ، وأوسعها سلطانا ــ هو الشعب الذى عرف من أخلاقه الصبر والثبات فى مواطن الأخطار ، ولدى اشتداد الأهوال ، فهو يعد للأمور عدتها ، ويهيء لها أسبابها ووسائلها ، ثم يصبر صبرا بعد صبر ، حتى يحين الوقت ، ويتضح الأمر . وإذ ذاك يجنى ثمرته ، ويحتجن فائدته . هذا الخلق يصح أن نسميه (الخلق القرآنى) لكثرة ما ذكر فى القرآن

من التنويه به . والحض عليه فى أكثر من سبعين آية : من ذلك قوله تعالى : « وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ » : ومعنى كون الصبر من عزم الأمور أنه مما يتأكد طلبه ، ويجب على الشخص ممارسته من أمور الأخلاق .

« وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ » ، « إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » ، «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا »

وأما الاستسلام إلى المكروه والصبر على المصيبة ، والتقاعد عن دفعها بالطرق والوسائل المشروعة الممكنة ـ فليس مما يرضاه الشرع ولا العقل لنا ، ولا يكون الصبر حينئذ صبرا محمودا ، ولا خلقا مشكورا :

ينزل بالمرء فقر أو ضائقة ، وله عيال يتضورون جوعا ، وأسباب الرزق ممهدة بين يديه ، فيعرض عنها ويقول : « إنه صابر وإن الصبر مفتاح الفرج »

يصاب المرء بمرض مؤلم ، ويكون له علاج أو دواء ناجع أو مخفف بإذن الله ، فيتقاعد المريض عن تناول ذلك العلاج ، ويقول عن نفسه : « إنه صابر ، وإن الصبر سلاح المؤمن »

يعتدى معتد عليك ، أو يغتصب بعض حقك ، ويكون فى مكنتك كف أذاه بإحدى الطرق والوسائل ، لكنك لا تفعل ، بل تذل وتخضع ، وتدعى أنك صابر ، وأن الله مع الصابرين .

وغير ذلك كثير من أحوال الناس وأطوارهم التى تتكرر مشاهدها تحت مواقع أبصارنا من وقت إلى آخر . .

كل أولئك ليس من الصبر ولا من الشجاعة فى قليل ولا كثير ، ولا ينبغى أن يقرظ صاحبه عليه ، وإن استنكار ذلك وبعده عن الأخلاق ، ومنافاته للخلال الفاضلة ـ أمر ظاهر لا يحتاج إلى استدلال ، بل يكاد يكون الشعور باستنكاره أمرا بدهيا . .

وقدمنى المسلمون فى أخريات أيامهم بشىء كثير من هذا الذى يسمونه صبرا وتوكلا ، فساءت حالهم ، ووهنت عزائمهم ، وكلت هممهم ، فصاروا أكلة لآكل ، وغرضا لنابل .

منزلة الصبر

والصبر أصل تفرعت منه فروع البر والإحسان ، وأس بنيت عليه قواعد الطاعة والإيمان : قال صلى الله عليه وسلم : « الصَّبْرُ نِصْفُ الإِيمَانِ ، وَالْيَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ ، وَلَنْ يَفْتَرِقَا » : واليقين هو المعرفة بالله عز وجل الباعثة على طاعته ، والصبر هو العمل بمقتضى المعرفة التى تحمله على الطاعة وإن شقت ، وتصرفه عن المعصية وإن عذبت ولذت. وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : « الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد »

وفى حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل النبى صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال: « أَمُؤْمِنُونَ أَنْتُمْ ؟ » فسكتوا . فقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : نعم يارسول الله . قال : « فَمَا عَلَامَةُ إِيمَانِكُمْ ؟ » فقال : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء . فقال : « مُؤْمِنُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ » وروى عن أبى الدرداء أنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ماسمعته قبلها ولا بعدها قال : « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ لِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ : يَاعِيسَى إِنِّى بَاعِثٌ بَعْدَكَ أُمَّةً إِنْ أَتَاهُمْ مَايُحِبُّونَ حَمِدُوا وَشَكَرُوا ، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا وَصَبَرُوا . أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي وَعِلْمِي »

وقال ابن عباس رضى الله عنه : (أفضل العدة الصبر عند الشدة) لما فى ذلك من محمود العاقبة فى العاجل والآجل . وأكثر الناس يصبرون ، ولكنهم

لا يستحقون اسم الصبر ، لأن الصابر على الحقيقة لا يشك أن الذى يصيبه من المصائب وينزل به من الحوادث هو خير له لعلمه بحسن لطف الله تعالى به وجميل صنعه له كمثل غارس الجنة الذى لا يزال يجيد عمارتها ، ويوالى سقيها ، ودفع الضر عنها ، وهو مع ذلك يتعهدها بتقليم أغصانها ، وتعريتها من بعض أوراقها ؛ لما يعلم فى ذلك من المنفعة لها ، ويرجوه من دفع المضرة عنها . فلو علم ابن آدم قدر لطف الله تعالى به وميز جميل صنعه فيه ، وعرف حسن تدبيره له — لأيقن رفقه ووفى الصبر حقه ، وعلم النعمة فى المنع هى النعمة الطائلة الدائمة ، وأن النعمة فى الإعطاء والاتساع فى أحوال الدنيا ربما كان مؤديا إلى منع نعيم الأخرى : ألا ترى إلى قول الله عز وجل : « إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى »

وقال لقمان لابنه : « يا بنى الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء » وقال الفضل بن عياض : « إن الله ليتعهد عبده المؤمن بالبلاء ، كما يتعهد الرجل أهله بالخير » ولولا أن فى حلول الكوارث ونزول الحوادث تخفيفا من الأوزار وحطا من الذنوب ، ومحوا من السيئات — ما استطعنا عليها صبرا ، ولولا أن فى موافقة اللذات ، ومفارقة الشهوات أنواعا من المكاره وأصنافا من الشدائد — ما وجدنا عنها صبرا ، ولكثر إليها إسراعنا ، وقل عنها امتناعنا .

لا جرم أن جميع خلال الخير ، وخصال البر ، وأحوال الطاعة ، وما جعل الله فى الإنسان من حسن الشيم ، وكرم الأخلاق ، وأسباب الديانة ودواعى الإيمان — إنما هى كلها مرتبطة بالصبر ، وراجعة إلى الصبر ومحمولة على الصبر ، وجارية مع الصبر كيفما تأملتها ، وعلى أى حال تدبرتها ؛ فإنه قطب تدور عليه جميع الأفعال المحمودة : ألا ترى أن الكرم صبر على مفارقة المال وعلى حبه ، وأن العدل صبر على إمضاء الحكم وإن شق ، وأن الصدق صبر فربما خالطه شوائب تكره ، وأن الحلم جامع لأشتات الصبر ، فما منح الله الصبر عبدا من عبيده ، وهو يريد به شيئا سوى الخير : روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَنْ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقَالَ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ : (إِنَّا لِلهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ

رَاجِعُونَ) اللَّهُمَّ آجِرْنِي فِي مُصِيبَتِي ، وَأَعْقِبْنِي خَيْراً مِنْهَا ـ إلا فعل الله ذَلِكَ بِهِ)وقال عليه السلام : (مَنْ أُعْطِيَ فَشَكَرَ ، وَمُنِعَ فَصَبَرَ وَظُلِمَ فَغَفَرَ ، وَظَلَمَ فَاسْتَغْفَرَ ـ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ)

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : (ما أنعم الله على عبد نعمة فانتزعها منه ، وعوضه الصبر ـ إلا كان ماعوضه الله أفضل مما انتزعه منه)

فضيلة الرضا بالشدائد والصبر عليها

اعلم أن الصبر محمود العاقبة ، يثمر النجح ، ويورث المقصود ، ويكبت العدو ويغيظ الحسود ، ويقضى لصاحبه بالسيادة ، ويكسوه فضيلة الحزم ، ويدفع عنه نقيصة الحرمان ، فمن هداه الله بنوز توفيقه ألهمه الصبر فى مواطن طلباته ، والتثبت فى حركاته وسكناته . وكثيرا ما أدرك الصابر مرامه أو كاد ، وفات المستعجل غرضه أو كاد ، ولهذا قال أمير المؤمنين المأمون (وقدذكر عنده بعض عظماء دولته : نعم من ذكرتم لولا عجلة فيه. وقال الأشعث بن قيس : دخلت على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، فوجدته قد أثر فيه صبره على العبادة الشديدة ليلا ونهارا ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، إلى كم تصبر على مكابدة هذه الشدة؟ فما زادنى على أن قال :

اصبر على مضض الادلاج فى السحر وفى الرواح على الطاعات فى البكر
إنى رأيت وفى الأيام تجربة للصبر عاقبة محمودة الأثر
وقل من جد فى شىء يؤمله واستشعر الصبر إلا فاز بالظفر

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « أَوَّلُ مَاخَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ ، ثُمَّ أمره فَكَتَبَ مَايَكُونُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » فالأشياء كلها فرع منها : فمنها ماهو كائن لامحالة ، وما لا تكون فلاحيلة فى تكوينها للخلق فإن دفعه الوقت إلى حال شدة يجب أن يتزر بإزار له طرفان : أحدهما الصبر ، والآخر الرضا ، ليستوفى كمال الأجر بفعله ذلك؛ فكم من شدة قد صعبت وتعذر

زوالها على العالم بأسره ، ثم انفرجت فى أقل من لحظة .

وعن أبى حجاج الأزدى قال : سألنا سلمان: « ما الإيمان بالقدر ؟ » قال : « إذا علم العبد أن ما أصابه لم يكن ليخطئه » وعن معمر قال : « لما حاصر الحجاجُ ابن الزبير بمكة جعلت الحجارة تضرب الحائط فقيل له : « لا نأمن عليك أن يصيبك منها حجر » فقال ابن الزبير :

هون عليك فإن الأمـــــور بكف الإله مقاديرها

فليس يأتيك منهيها ولا قاصر عنك مأمورها

فالرجولة توجب أن يلزم المرء عند ورود الشدة عليه سلوك الصبر ، فإذا تمكن منه حينئذ يرتقى من درجة الصبر إلى درجة الرضا ، فإن لم يرزق صبرا فليلزم التصبر ؛ لأنه أول مراتب الرضا . ولو كان الصبر من الرجال لكان رجلا كريما ؛ إذ هو بذر الخير وأساس الطاعات . وعن سفيان بن عيينة قال : سمعت رجلا من أهل الكتاب أسلم قال : « أوحى الله إلى داود : ياداود ، اصبر على المئونة تأتك منى المعونة »

ولما صبر يوسف الصديق صلى الله عليه وعلى آبائه ارتقى إلى معارج العلا ، ومدارج الآلاء . وقيل له : « بم نلت الملك ، ودانت لك الأمور ، وذلت لديك العظماء ، وخضعت لأمرك الفراعنة ، وأطاعك من عصى على سواك ؟ فقال ما معناه : (نلت ذلك بصبرى على غيابة الجب ، وضيق السجن ، وفراق الإلف ، والبعد عن الوطن) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله عنها : (يَاعَائِشَةُ ، إنَّ اللهَ تَعَالَى لَمْ يَرْضَ مِنْ أُولِى الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ إلاَّ بِالصَّبْرِ ، وَلَمْ يَرْضَ إلاَّ أنْ كَلَّفَنِي مَا كَلَّفَهُمْ ، فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ : (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ) وإنِّى وَاللهِ لَأَصْبِرَنَّ كَمَا صَبَرُوا)

وإن ملكة الصبر التى لا تكون رجلا إلا بها إنما هي نتيجة الشدة ، ولا يمكنك

أن تكون واسع النظر بعيد الغور تام المعرفة إلا إذا تقلبت فى الأطوار المختلفة والأحوال المتباينة . ثم لك بعد ذلك من معرفة الله عز وجل وأحكامه ما يرقيك إلى درجة المقربين ويرفعك إلى أعلى عليين ، فمرحبا بالشدائد تحفز العزائم ، وبالآلام تستثير كامن المواهب وتحيي ميت الفضائل ، وبالمصائب تصقل الأفكار وتورث الأنوار .

وإنى أعتقد أن العقبة الكأداء هى حالتك النفسية وعدم يقينك القلبى ، فأزل هذه العقبة من طريقك تفز بكل ما تريد ، ولو ذقت ما ذاقه أهل الرضا والكمال لعلمت أن التحلى بفضيلة الصبر والتلذذ بالرضا وما يلقيه الله فى قلبك من الأسرار والأنوار والمعارف واللطائف هو خير من الدنيا وما فيها قال تعالى: (فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ)وقد وصل بعض الكاملين من الرضا والاغتباط بما هو فيه إلى حد أنه يقول :

أتيه فلا أدرى من التيه من أنا   سوى ما يقول الناس فى وفى جنسى
أتيه على جن البلاد وإنسها   فإن لم أجد شخصا أتيه على نفسى

وعلى كل حال يجب أن تكون عبدا لربك لا لنفسك، ومن ملك نفسه فقد ملك الوجود بأسره :

فيا صاحبى قف بى مع الحق وقفة   أموت بها وجدا وأحيا بها وجدا
وقل لملوك الأرض تجهد جهدها   فذا الملك ملك لا يباع ولا يهدى

ويقول الله تعالى : (وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) وقال الشاعر :

كن عن همومك معرضا   واصبر إذا نزل القضا
فلرب أمر مسخط   لك فى عواقبه الرضا

والله يفعل ما يشـــاء فلا تكن متعرضا
ولربما اتسع المضيـــق وربما ضاق الفضا
وهو الحكيم وكم له من حكمة فيما قضى

التجلد

قد ركب فى الطباع حب التفضيل على الجنس ، فما أحد إلا يحب أن يكون أعلى درجة من غيره ، فإذا وقعت نكبة أوجبت نزوله عن مرتبة سواه ينبغى له أن يتجلد بستر تلك النكبة ؛ لئلا يرى بعين نقص ، وليتجمل المتعفف حتى لا يرى بعين الرحمة ، وليتحامل المريض لئلا يشمت به ذو العافية : وقد قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه حين قدومه مكة وقد أخذتهم الحمى فخاف أن يشمت بهم الأعداء حين ضعفهم عن السعى : « رَحِمَ اللهُ مَنْ أظهَرَ مِنْ نَفسِهِ الجَلَدَ فَرَمَلُوا » والرمل شدة السعى . وقد زال ذلك السبب وبقى الحكم فى أعمال الحج ؛ ليتذكر السبب فيفهم معناه .

واستأذن أناس على معاوية وهو فى الموت ، فقال لأهله : أجلسونى . فقعد متمكنا يظهر العافية . فلما خرج العواد أنشد :

وتجلدى للشامتين أريهم أنى لريب الدهر لا أتضعضع
وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع

ومازال العقلاء يظهرون التجلد عند المصائب والفقر والبلاء ؛ لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء ، وإنها لأشد من كل نائبة . وكان فقيرهم يظهر الغنى ، ومريضهم يظهر العافية .

ثمَّ نكتة ينبغى التفطن لها : ربما أظهر الإنسان كثرة المال وسبوغ النعم فأصابه عدوه بالعين ، فلا يفى ما تبجح به بما يلاقى من انعكاس النعمة ، والعين لا تصيب إلا ما يستحسن للشىء ، ولا يكفى الاستحسان فى إصابة العين حتى يكون من حاسد ، ولا يكفى ذلك حتى يكون من شرير الطبع ، فإذا اجتمعت هذه

الصفات خيف من إصابة العين ، فليكن الإنسان مظهراً للتجمل مقدار ما يأمن إصابة العين ويعلم أنه فى خير ، وليحذر الإفراط فى إظهار النعم ؛ فإن العين هناك محذورة : وقد قال الله تعالى على لسان يعقوب لبنيه عليهم السلام : « لاَ تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ » وإنما خاف عليهم العين فليفهم هذا الفصل ، فإنه ينفع من له تدبر .

لا ينال النفيس الا بتعب وصبر

تأملت عجبا : وهو أن كل شيء نفيس خطير يطول طريقه ويكثر التعب فى تحصيله ؛ فإن العلم لما كان أشرف الأشياء لم يحصل إلا بالتعب والسهر والتكرار وهجر اللذات والراحة ، حتى قال بعض الفقهاء : بقيت سنين أشتهى الهريسة لا أقدر ؛ لأن وقت بيعها وقت سماع الدرس .

ونحو هذا تحصيل المال ؛ فإنه يحتاج إلى المخاطرات والأسفار والتعب الكثير . وكذلك نيل الشرف بالكرم والجود ؛ فإنه يفتقر إلى جهاد النفس فى بذل المحبوب ، وربما آل إلى الفقر . وكذلك الشجاعة ؛ فإنها لا تحصل إلا بالمخاطرة بالنفس : قال الشاعر :

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

ومن هذا الفن تحصيل الثواب فى الآخرة ؛ فإنه يزيد على قوة الاجتهاد والتعبد ، أو على قدر وقع المبذول من المال فى النفس ، أو على قدر الصبر على فقد المحبوب ومنع النفس من الجزع . وكذلك الزهد يحتاج إلى صبر عن الهوى ، والعفاف لا يكون إلا بكف كف الشره ، ولولا ما عانى يوسف عليه السلام ما قيل له أيها الصديق . ولله أقوام ما رضوا من الفضائل إلا بتحصيل جميعها ، فهم يبالغون فى كل علم ويجتهدون فى كل عمل ، ويثابرون على كل فضيلة ، فإذا ضعفت أبدانهم عن بعض ذلك قامت النيات نائبة وهم لها سابقون . وأكمل أحوالهم إعراضهم عن أعمالهم ، فهم يحتقرونها مع التمام ، ويعتذرون من التقصير .

ومنهم من يزيد على هـذا فيتشاغل بالشكر على التوفيق لذلك ، وهم من لا يرون ماعملوا أصلا لأنهـم يرون أنفسهم وعملهم لسـيدهم . وبالعكس من المذكور عن أرباب الاجتهاد حال أهل الـكسل والشره والشهوات : فلئن التـذوا بعاجل الراحة لقد أوجبت ما يزيد على كل تعب من الأسف والحسرة .

ولقد تأملت نيل الدر من البحر فرأيته بعـد معاناة الشدائد . ومن تفكر فيما ذكرته مثلا بانت له أمثال ، فالموفق من تلمح قصر زمن العمل ، وامتـداد زمان الجزاء الذى لا آخر له فانتهب حتى اللحظة ، وزاحم كل فضيلة ، فإنها إذا فاتت فلا وجه لاستدراكها .

فضيلة جهاد النفس

تأملت جهاد النفس ، فرأيتـه أعظـم الجهاد ، ورأيت خلقا من العلماء والزهاد لا يفهمون معناه ، لأن فيهـم من منعها حظوظها على الإطـلاق ، وذلك غلط من وجهين : أحدهما : أنه رب مانع لها شهوة أعطاها بالمنع أوفى منها : مثل أن يمنعها مباحا فيشتهر بمنعه إياها ذلك ، فيرضى النفس بالمنع لأنها قد استبدلت به المدح ، وأخفى من ذلك أن يرى بمنعه إياها مامنع أنه قد فضل عن سواه ممن لم يمنعها ذلك ، وهذه دقائق تحتاج إلى منقاش فهم يخلصها ،

والوجه الآخر : أننا قد كلفنا حفظها ، ومن أسباب حفظها ميلها إلى الأشياء التى تقيمها ، فـلابد من إعطائها مايقيمهـا ، وأكثر ذلك أو كله ماتشـتهيه ، ونحن كالوكلاء فى حفظها ؛ لأنها ليست لنا بل هى وديعـة عندنا ، فمنعها حقوقها على الإطلاق خطر ، ثم رب مضـيق على نفسه فرت منه ، فصعب عليه تلافيها ، وإنمـا الجهـاد لهـا كجهاد المريض العاقـل : يحملها على مكروهها فى تناول ماترجو به العافية ، ويذوب فى المرارة قليلا من الحلاوة ، ويتناول من الأغذية مقدار مايصفه الطبيب ، ولا تحمله شهوته على موافقة غرضها من مطـعم ربمـا جر جوعا ، ومن

لقمة ربما حرمت لقمات : فكذلك المؤمن العاقل : لا يترك لجامها ، ولا يهمل مقودها ، بل يرخى لها فى وقت والطول بيده ، فما دامت على الجادة لم يضايقها فى التضييق عليها ، فإذا رآها قد مالت ردها باللطف ؛ ، وإلا فبالعنف ، ويحبسها فى مقام المداراة : كالزوجة التى مبنى عقلها على الضعف والقلة ؛ فهى تدارى عند نشوزها بالوعظ ، فإن لم تصلح فبالهجرة فإن لم تستقم فبالضرب . وليس فى سياط التأديب أجود من سوط العزم . هذه مجاهدة من حيث العمل ،

فأما من حيث وعظها وتأنيبها فينبغى لمن رآها تسكن للخلق ، وتتعرض بالدناءة من الأخلاق ـ أن يعرفها تعظيم خالقها . فيقول : ألست التى قال فيك خلقتك بيدى ، وأسجدت لك ملائكتى ، وارتضاك للخلافة فى أرضه ، وراسلك ، واقترض منك واشترى ، فإن رآها تتكبر قال لها : هل أنت إلا قطرة من ماء مهين ، تقتلك شرقة ، وتؤلمك عِلة ؟ وإن رأى تقصيرها عرفها حق الموالى على العبيد ، وإن ونت فى العمل حدثها بجزيل الأجر ، وإن مالت إلى الهوى خوفها عظم الوزر ، ثم يحذرها عاجل العقوبة الحسية : كقوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ » . والمعنوية كقوله تعالى : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » فهذا جهاد بالقول ، وذاك جهاد بالفعل .

الاقتصاد

الاقتصاد التوسط فى الإنفاق من غير إسراف ولا تقتير ، ففى الإسراف الفقر والذل ، وفى التقتير الحسرة واللوم . ومن سلك سبيل الاعتدال فى غناه وفقره فقد استعد لنوائب الدهر ، وصار بمأمن من عوادى الزمان وطوارئ الحدثان كالمرض والعطل وفقد القدرة على الكسب أو نقصها ، وسهل عليه إدراك الكثير من مطالب الحياة التى يعز نيلها بغير المال ، وعاش عزيز النفس حميد السيرة جليل الأثر .

وللاقتصاد منزلته في حياة الفرد والأمة : وقد أبان ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : « الاقتِصَادُ نِصفُ المَعِيشَةِ » لهذا كان رائد الحكومات المنظمة في أعمالها النافعة ، وسبيل العقلاء في كل زمان ومكان .

والاقتصاد باعتبار أنه علم ــ هو تدبير المال وتقليبه في الوجوه المختلفة ليغزر وينمو ، وهو من أشهر العلوم العصرية ومن أهم ما يعنى به أهل الاجتماع والإدارة من بين علوم الحضارة والعمران في هذه الأزمان، وأكثر ما يراد « بالاقتصاد » في اصطلاح الكتاب ــ ما نريده نحن في هذا الفصل : وهو الإبقاء على شيء من المال وإرصاده لأيام الحاجة إليه ومثله (التوفير) ، لكن هذا المعنى لا يفهم من تينك الكلمتين في أصل الوضع اللغوى ؛ لأن (الاقتصاد) في اللغة معناه القصد في النفقة وهو العدل فيها والتوسط بين الإسراف والتقتير : كما أن (التوفير) معناه اللغوى تكثير المال وتنميته : وذلك بإضافة غيره إليه، غير أنه لما كان الاعتدال في النفقة والتوسط بين التقتير والتبذير من شأنه أن يؤدى إلى استبقاء بقية من المال ، كما يؤدى إلى تراكم هذه البقايا وتكاثرها بإضافة غيرها إليها وقتا فوقتا وسنة فسنة ــ سموا الاستبقاء على هذه الصورة (اقتصادا) و (توفيرا) وضدها (الإسراف) و (التبذير) .

وهناك كلمة تفيد استبقاء شيء من المال في أصل الوضع اللغوى ، وحبذا لو يشيع استعمالها بين الكتاب ، وهي (الإفضال) ومثلها (الاستفضال) : يقال (أفضل) الرجل (واستفضل) إذا أبقى فضلا وبقية : وقد ورد هذا المعنى في الحديث الشريف ، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (رَحِمَ اللهُ امْرَأً كَسَبَ طَيِّبًا وَأَنفقَ قَصْداً وَقَدَّمَ فَضْلاً لِيَوْمِ فَقرِهِ وَحاجَتِهِ)

فما أحسن هذا النهج الشرعى !! وما أشد حاجة الناس إليه على اختلاف أدوارهم وأطوارهم !!

فضله ومزاياه

من الآيات الخاصة على الاعتدال فى النفقة قوله تعالى : (وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا) ،(وَلاَ تَجعَلْ يَدَكَ مَغلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبسُطهَا كُلَّ البَسطِ فَتَقعُدَ مَلُومًا مَحسُورًا)

والأحاديث فى هذا المعنى كثيرة : منها قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (مَنِ اقتَصَدَ أَغنَاهُ اللهُ وَمَنْ بَذَّرَ أَفقَرَهُ اللهُ) ،(مَا عَالَ مَنِ اقتَصَدَ) (التَّدبِيرُ نِصفُ المَعِيشَةِ)

ومحصل القول أن الاقتصاد واستفضال شىء من النفقة أساس التدبير المنزلى، ومن أول الواجبات الشخصية ، وهو الملجأ الأمين الذى يأوى إليه أرباب الأسر ، فيجدون فيه الهدو والراحة والسرور وحرية التمتع بالنعم والخيرات التى أفاضها الخالق تعالى عليهم : قال بعض كتاب الغرب : قد عاينت الأمور وعانيتها ثم بعد تفكر عميق فى الحياة لم أجد سوى أمرين ربما جلبا السعادة : (الاعتدال فى مطالب النفس ، وحسن التصرف فى الثروة) .

وقد سمى النبى صلى الله عليه وآله وسلم ذلك الذى يحرص على ماله ، فلا ينفقه ولا ينتفع به (عبدا ملعونا) إذ قال :

(لُعِنَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ لُعِنَ عَبْدُ الدِّينَارِ) :

أى طرد من رحمة الله ذاك الذى كأنه يعبد درهمه وديناره من فرط حرصه عليهما وملازمته لهما .

ومما ورد فى الحث على التمتع بالمال والانتفاع به قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

(إِذَا آتَاكَ اللهُ مَالاً فَليُرَ عَلَيْكَ ؛ فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَهُ

عَلَى عَبْدِهِ حَسَنًا وَلَا يُحِبُّ الْبُؤْسَ وَلَا التَّبَاؤُسَ » : والبؤس : شدة الاحتياج . والتباؤس : أن يظهر ذلك من نفسه بقوله أو فعله : كأن يلبس خشنا ويأكل تافها .

ومن جملة ما علمنا إياه الشارع من الآداب الاقتصادية ما جاء في قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

(أَقْلِلْ مِنَ الدَّيْنِ تَعِشْ حُرًّا) :

أى اجتهد فى الاقتصاد والاستفضال والموازنة بين دخلك وخرجك ، فلا تدع نفسك تحتاج إلى الدين فتعتاده فتترا كم عليك الديون ، فيطاردك الدائنون ويُعْسِرُوكَ فتفقد حريتك وتصبح عبدا لهم . وورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال :

(الْغَفْلَةُ فِى ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ) وعد منها : (غفلة الرجل عن نفسه فى الدَّين حتى يركبه)

ومن وصاياه صلى الله عليه وسلم المفيدة في حفظ الثروة وعدم التفريط فيها ـ الاحتفاظ بالعقار : فلا يبيعه صاحبه ، وإذا باعه كان عليه أن يبادر إلى شراء غيره ، لأن المال النقد سريع الفرار وشيك الضياع فقال : (مَنْ بَاعَ دَاراً أَوْ عَقَاراً فَلَمْ يَرُدَّ ثَمَنَهُ فِى مِثْلِهِ فَذَلِكَ مَالٌ قَمِينٌ أَنْ لَا يُبَارَكَ لَهُ فِيهِ)

ومن محاذير بيع العقار للأجنبي خاصة ضياع الوطن وإفلاته من يد أبنائه شيئا فشيئا ، فإن الوطن يبقى لهم ماداموا يملكون أرضه .

وفى فضل الاقتصاد يقول بعض العلماء : الناس فريقان : فريق اقتصد وفريق أسرف : فجميع السفن التجارية والسكك الحديدية والمعامل الصناعية وسائر المشروعات الاقتصادية التى تأسست عليها هذه المدنية ـ هى كلها من أعمال الفريق الذى اقتصد ، أما الفريق الذى أسرف ثم اضطر أن يستدين لسد حاجاته فقد أصبح على تمادى الأيام رقيقا للفريق الأول وهى سنة الله فى

خلقه .

ولئن كان الملبس الأنيق والمسكن الفخم والتمتع بنعيم الحياة وطيبات الرزق مما تطلبه النفس الشريفة ويسعى إليه الإنسان فى الدنيا سعياً حثيثا - إن المال سبيله . وإن كانت الشهوة الواسعة والذكر الحسن وتحصيل العلوم المفيدة وعمل ما يكسب الإنسان فخر الأولى والآخرة مما يَجِدّ فى طلبه العقلاء فالمال وسيلته :

ولم أر بعد الدين خيراً من الغنى ولم أر بعد الكفر شرا من الفقر

ولا سبيل إلى توفير المال ليبذل فى هذه الأوجه الشريفة غير الاقتصاد

أما من فقد المال فقد فقد النصير وعز عليه أن يعيش كريما وصار بموضع حاجة ، ومن كان محتاجا استهان به الناس وانصرفوا عنه وعدوا الاتصال به نقصا وعارا ، وأصبح فيهم مسخوط الأخلاق مذموما حتى ما كان منها مدحا لسواه عدوه نقصا فيه وعيبا : فإن كان شجاعا قيل أهوج ، وإن كان صموتا قيل عيي ، وإن كان متأنيا قيل بليد ، وإن كان فصيحا قيل ثرثار :

متى ما ير الناس الغني وجاره فقير يقولوا عاجز وجليد

إن كثيرا ممن نقرأ أنباءهم فى الصحف كل يوم ممن يتجرعون لإعسارهم غصص الموت راضين إذا فتشت عنهم وجدتهم ممن كانوا ينفقون عن سعة ولا يدخرون شيئا مما كسبت أيديهم ، فلما حلت بهم نوازل الدهر وقوارعه لم يجدوا إلا الموت ملجأ يفرون إليه ! !

فالناس جميعهم على اختلاف زمانهم وتفاوت درجاتهم فى الغنى والفقر وسائر وسائل الكسب فى حاجة إلى الاقتصاد لدرء غوائل الزمان التى تصيب الناس على غرة منهم فتذهب بما ملكت أيديهم : فكم رأينا من غنى افتقر ، وعزيز قوم ذل ، وصانع مبدع أصبح متعطلا ، وقوى ذهبت الأيام بقوته وجلادته ، ولم تبق له غير ما ادخره من غناه لفقره ومن شبابه لشيبه ومن عمله لفراغه ، فإن لم يكن شيء من هذا وهو أكثر ما يكون فيمن لم تؤدبهم الأيام وتعركهم حادثاتها

نال منهم العدم وأذلهم الفقر

ومن فقد الاقتصاد فقد السخاء والمروءة وعزة النفس، وعدمن الجمل والحق، وقصر به وُجْده عن الوفاء بحق نفسه وأهله وذوى قرابته، ودفعته حاجته فى كثير من المواطن إلى الدين وبَذْل عرضه وشرفه:

هذه شركات الملاحة والمبانى وسكك الحديد والنور والماء والمصارف الكبرى التى انتظمت العالم بأعمالها فبلغت به أسمى مكانة فى الحضارة إنما قامت بما ادخره الناس ولا سيما فقراءهم والأوساط منهم مما فضل عن حاجتهم

وفى الناس من يجمع الدرهم إلى الدرهم ويحرص عليه حرصه على حياته، ويرى هذا غاية سعادته، فيقصر همه عليه، ويُقَصِّرُ فى حق نفسه وأهله وذوى الحقوق عليه، فيبسطون إليه أيديهم وألسنتهم بالسوء، فهو يعيش فى الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب فى الآخرة حساب الأغنياء، وهو من خوف الذل فى الذل ومن خوف الفقر فى الفقر:

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر

فهذا وأشباهه لا تجد أتعس منهم حالا ولا أقلق بالا ولا أحط منزلة فى الناس، والفقراء أقل منهم عذرا لأن الفقراء إنما قصروا عن حاجة وأولئك قصروا وأسباب الوفاء لديهم موفورة والمال فى أيديهم كثير

ومن الأمور الذميمة التى تقف فى سبيل الاقتصاد أن يغير الإنسان حالة معيشته، ويتصل بمن هم فوق طبقته لسبب المصاهرة أو الرغبة فى الشهرة من غير طريقها المألوف، فيحاكيهم فى أساليب معيشتهم، فيستدرجه هذا إلى الدين، وحسبه منه أنه هم بالليل ومذلة بالنهار

ومن أكبر آفاته الميل مع الهوى والاستسلام إلى دواعى النفس، والهوى إذا تغلب على إنسان ذهب بماله وشرفه وكل عزيز لديه:

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى بعض مافيه عليك مقال

ولما كان الاقتصاد من أهم أسباب السعادة فى الحياة وتوفيرها للإنسان وجب

على الآباء والمربين أن يأخذوا الأطفال منذ نشأتهم بالاقتصاد ، ويعودوهم هذه الخلة ، وقد قامت الحكومة بنصيب وافر من هذا الواجب ، فأنشأت صناديق الادخار ، وشجعت التلاميذ عليه بما تمنحه من الأرباح المنشطة لهذا الخلق فيهم وبما يجدونه بعد قليل من النقود الكثيرة التي جمعوها من قليل ادخروه، فيذوقون طعم الاقتصاد ويعتادونه ، فيشبون عليه : ومن شب على شيء شاب عليه :

كما يجب عليهم أيضاً أن يفهموهم أن الاقتصاد بعد هذا شيء يأمر به الدين وأن يحفظوا من الآيات الكريمة ما يحببه إليهم ، ويبغضهم في التبذير والتقتير ، وذلك كقوله تعالى : « وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا » وقوله جل شأنه في الثناء على عباده المقتصدين : « وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا »؛ ليتبين لهم الرشد من الغي ، ويعلموا منزلة الاقتصاد من الدين. وتلخص مزايا الاقتصاد فيما يلي :

(١) هو طريق الغنى ، والمال مما يجعل الإنسان قادرا على إسعاد نفسه والقيام بمطالب الحياة وما يحتاج إليه وتربية أولاده وصلة رحمه ونفع أمته والقيام بما عليه لنفسه ودينه ووطنه

(٢) حفظ النفس من الدين ومذلته وما قد يجر إليه من المماطلة والكذب والنفاق

(٣) اتقاء الفقر الذي يدفع إلى الاجرام والسرقة والخيانة

(٤) كثرة الأصدقاء والخلان

(٥) الانتفاع بالمال المدخر عند حلول النكبات

(٦) حفظ الإنسان من المعاملات التي تضر بماله ودينه كالربا والشراء نسيئة وكل مافيه غبن وضياع للمال

(٧) عدم التطلع إلى مافى يد غيرك

وسائل الاقتصاد

(١) اتقن عملك لتزيد موارد رزقك .

(٢) ليكن إنفاقك أقل من دخلك وإلا كان عملك سفها شائنا

(٣) ابتعد عن الاستدانة ؛ فالدين هم بالليل ومذلة بالنهار

(٤) اشتر ما أنت فى حاجة إليه فحسب لا كل شىء تشتهيه نفسك ؛ فإن شهوات النفس ورغائبها لا تقف عند حد ، أما حاجات الإنسان فقليلة محدودة .

واجتهد فى أن تشترى ما تحتاج إليه من أجود الأصناف ؛ فإن ذلك أدعى لطول الاستعمال والانتفاع

(٥) ابتعد عن مواضع اللهو ومواطن الإسراف ، فإنها مضيعة للمال مذهبة للشرف وأخصها الميسر وشرب الخمر وتعاطى المخدرات المهلكات

(٦) اجتنب حب الظهور ؛ فإنه يقصم الظهور

(٧) يجب أن يحصر الإنسان دخله وخرجه ، ويدون هذا فى دفتر يكون مرجعا له وقت الحاجة ، وأن يجعل نفقته أقل من دخله ، ويدخر الفضل لوقت الحاجة ، وإذا قصر الدخل عن الخرج لسبب طارئ وجب عليه أن يغير نظام معيشته ، وليس فى هذا من عيب عليه ولا غضاضة ، ولكن العيب كله أن يمد يده إلى غيره مستدينا .

ومما يساعد على الاقتصاد أن يحصى الإنسان نفقاته اليومية ثم الشهرية والسنوية ليستبين مقدار ما ينفقه فى اليوم والشهر والسنة ، ويوازن بينه فى السنوات المختلفة ليعرف : أناهج هو سبيل الاقتصاد

أم منحرف عنه ؟ ويعلم أن مايملكه ما احتكمت فى تصريفه يداه لا ماسيصير إليه من طريق الحدس والتخمين،فكثير من الناس يخطئون هذا الطريق فى حساب دخلهم ، فيتوسعون فى النفقة ويسلكون سبيل البذخ والاسراف حتى إذا ما انتهى العام كذبتهم ظنونهم ، ووجدوا ما كانوا يعدونه حقا لاريب فيه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ، فيقعون فى ذل الدين وحبائل المرابين القساة ، وتدركهم الحيرة ، فلا ينجون من ورطتهم إلا بفقد ماملكت أيديهم كله أو بعضه

تربيته

ويربى الاقتصاد فى نفس الناشئ بالاعتدال فى استعمال الأدوات المدرسية، وبتعويده الادخار فى صندوق التوفير ، وبالقدوة الصالحة ، وذكر أمثلة لرجال اغتنوا من الاقتصاد ، وبتعليم مبادئ الاقتصاد السياسى .

الاقتصاد فى القوى : وكما يكون الاقتصاد فى ادخار المال يكون أيضا فى استعمال قوى الإنسان الجسمية والعقلية باعتدال ، حتى يسلم من العلل والأسقام : فكم من أناس ذهبوا ضحية الاسراف فى العمل ونسيانهم حظهم من الراحة والسكون ، وكثير منهم أفرط فى الإهمال وترك الأعمال فكانت عاقبة أمره خسرا . وقوله عليه الصلاة والسلام : « إنَّ لِبَدَنِكَ عَلَيْكَ حقًّا » ، « إنَّ الْمُنْبَتَّ لاَ أَرْضًا قَطَعَ وَلاَ ظَهْرًا أَبْقَى » ـ أبين سبيل إلى الاعتدال وأهداه .

الاقتصاد فى الزمن : ومن الاقتصاد تدبير الزمن وتقسيم الوقت بين الراحة والعمل واستعمال كل قسم فيما أعد له وعدم قتل الوقت بالجلوس فى الشوارع والطرقات وعلى المقاهى مما يضيع الوقت سدى (والوقت هو الحياة)

وسبيل ذلك :

(١) الحرص عليه : باستعماله فيما يعود بالخير وعدم ترك جزء منه يذهب بغير اغتنام منفعة فيه

(٢) تنظيمه : نجعل للعمل وقتا وللراحة وقتا ؛ لتتيسر الأعمال ولا تمل، فنقوم بها خير قيام ، ونحوز الصحة والنجاح

(٣) التبكير : وتتجلى مزايا التبكير فى كلام بعض الأطباء وهو: « نهوض المرء مبكرا أدعى إلى طول عمره ، والفوق على أقرانه ، وزيادة نفعه ، والتمتع بحياته ؛ إذ أن المبكر إلى عمله يكون عنده متسع من الوقت ، فيؤدى العمل بتؤدة وهدوء واطمئنان ، وقلما يخطئ فيه أو يرتبك »

(٤) المواظبة : وهى سبيل النجاح ، فمتوسط النباهة بمواظبته على جده يفوق النبيه غير المواظب ، ولولا مثابرة الكاتبين والمؤلفين والمخترعين والعاملين على أعمالهم ما تم لهم عمل ، وما وصل العالم إلى هذه المدنية الحاضرة : قال عليه الصلاة والسلام : « أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلَّ »

(٥) تأدية الواجبات فى أوقاتها : لكل يوم عمل لا يتسع لغيره ، فمن أخر عمل يوم إلى غده أسرع فى العملين فلم يتقنهما ، أو أهمل واحدا منهما فحرم ثمرته ، ولهذا فرضت الشرائع العبادات فى أوقات محدودة ، وكلفت الوزارات والمصانع عمالها أداء الواجب فى أزمنة معينة

النظام دعامة الأخلاق للفرد والجماعة

النظام حال للنفس تدعوها إلى حسن ترتيب الأشياء وتقديرها ، وهو ضرورى لكل إنسان وفى كل عمل جليلا كان أو حقيرا :

فهو واجب فى الأكل والشرب والنوم والعمل لتبقى للإنسان هناءته ، ومن فقد النظام فى شىء من هذا فقد صحته وتملكته الأمراض ، فنغصت عليه حياته حتى ما يرى شيئا يسره .

والذى لا يراعى النظام فى ملبسه وإن كان غالى الثمن تقذاه العيون ، وتقتحمه الأنظار ، ويزدريه الناس .

أما من يعنى بنظام ملابسه وحسن هندامه فتراك تقبل عليه تحدثه ، وتستمع لقوله ، وأنت تُصَعِّد بصرك فيه ، وتصوبه ، وقد يحملك جمال ما ترى من حسن بزته على أن تسأل عمن قدر هذه الثياب وخاطها ، ثم إذا قام عنك أتبعته بصرك معجبا به .

انظر إلى الشمس فى حركاتها والكواكب فى دوراتها والرياح فى هبوبها وركودها تجدها تسير على نظام محكم بديع ، ولولا هذا لذهب العالم هباء وانتثرت الكواكب ومارت بصدمة واحدة فكانت كالعهن المنفوش ، وتعذر على الناس أن يزرعوا ماهم فى حاجة إليه لاختلاف أوضاع الشمس التى تجرى إذ ذاك على غير نظام وفى أوقات غير مضبوطة .

هذه قطر سكك الحديد تسير على نظام متقن ، فتجتاز المحاط فى أوقات معلومة ، وتقف فيها زمنا معلوما ، ولولا هذا النظام لزهقت أرواح كثيرة ، وانصرف الناس عنها إلى ما دونها من الخيل والبغال والحمير .

تمر بمحال التجارة فيبهرك أحدها بحسن روائه وجمال تنسيقه ، فلا تستطيع أن تجتازه حتى تقف أمامه مشدوها معجبا بما ترى من عرض بضاعته فى أشكال جذابة وأوضاع خلابة وقد يحملك هذا على أن تشترى منه بعض الشىء وإن لم تكن فى حاجة

إليه ، ثم تمر بآخر فلا تلتفت إليه التفاتة مكترث له ، وقد تجد فى صدرك حرجا مما رأيت يحملك على أن تسير فى جانب من الشارع غير الذى فيه (الدكان) .

ترى البيت فتحتقره لمرآه حتى إذا اجتزت سدته دهشت لجمال نظامه وحسن ترتيبه فى أدواته واختيار الأوضاع المناسبة ، وانشرح صدرك بما رأيت ، فينطلق لسانك بالثناء ويقر فى نفسك احترام صاحب البيت والقائمين بأمر تدبيره ، وتزور بيتا آخر فترى أثاثه على غير نظام وأدواته على حال من الاتساخ تشمئز منها نفسك وتصرفك عن النظر إليها وتود الانصراف منه سريعا ، وإذا قدم إليك شىء قد لا تجد من نفسك مواتاة على أخذه ، فتتناوله مجاملة وأنت مكره مأخوذ ، فهو ضرورى للسيدة فى منزلها حتى تجعل منه جنة يأوى إليها الضجر ، فيزول ما به من ضجر ونصب ، وتحفظ الكثير من وقتها الذى تضيعه فى التماس الأشياء وتطلبها عند الحاجة إليها .

والمؤلف الذى لا يعنى بالنظام فى تأليفه يخرجه للناس فى حال غير مقبولة ، فينصرف الناس عنه ، وإن كان جليل الفائدة عظيم الخطر : هذه دواوين كثير من الشعراء وكتب الفقهاء والأدباء ومعجمات اللغة تجدها غير مرتبة فى أوضاعها وأبوابها فإذا التمست شيئا فى أحدها أضعت الوقت الكثير ، ولم تحصل على غير القليل من الفائدة ، فإذا كنت ممن يقضون عامة يومهم فى البحث والتنقيب فى كتب الأدب واللغة أضعت وقتك على غير جدوى :

ولأضرب لك مثلا كتاب الأغانى وهو الكتاب الذى لا غنية لمتأدب عن مطالعته ولا لعالم عن النظر فى تضاعيفه واستخراج دقائقه والرجوع إليه : كم كنت تقاسى قبل وضع فهرسه من الآلام والمتاعب ، ويتولاك الضجر فتنقطع عن البحث عما تريده وهو أكثر ما يكون منثورا فى تضاعيف الكتاب وفى أجزائه الواحد والعشرين كلها ؟

والنظام ضرورى للمدرس فى درسه وللخطيب فى موقفه وللمدره فى محكمته ؛ حتى يستطيع كل واحد من هؤلاء أن يصل إلى الغاية التى يسعى لها . والمعلم الذى يسوق

درسه إلى تلاميذه غير مرتب ، والخطيب الذى لا يعنى بترتيب الفكرة وتنسيق العبارة ، والمدره الذى لا يأتى فى كلامه بالمقدمات ثم النتائج ـ كل أولئك بشرهم بالخذلان وسوء المنقلب .

ولما كان النظام من الأخلاق الفاضلة التى لها الأثر الجليل فى الحياة قامت المدارس على أسس منه منبثة فى كل أعمالها لتطبع نفوس الأحداث على الأخذ به فى سائر أحوالهم وأعمالهم لينتفعوا به كبارا كما انتفعوا به صغارا .

وجملة القول أن النظام من أسباب توفير السعادة للإنسان فى حياته ، وعامل من عوامل الثروة والاقتصاد .

انتهاز الفرص

إن من أكمل مزايا النفس المؤيدة وأحسن صفاتها اليقظة فى الأمور والمسارعة إلى إحراز قصب السبق فى مضمارها ، والمسابقة إلى نيل المقاصد بانتهاز فرصها قبل فواتها ، ومجانبة أسباب الغفلة والتحرز عن آفاتها ، ولذلك أمر الله سبحانه وتعالى عباده فى السور المنزلة بمحكم آياتها ، فقال جل وعلا تارة : « وَسَارِعُوا » وتارة : « وَسَابِقُوا » تنبيها على أن يقظة النفس ومبادرتها إلى مصالحها من سعادتها ، وغفلتها وتوانيها عن واجب ذلك من شقاوتها .

فمن سمت نفسه إلى جسيم رتب المعالى ، وترامت همته إلى استخدام بيض الأيام وسود الليالى وأحب انتظام الأمور إليه فى سلك مطلوبه الدائم ومرغوبه المتوالى تسربل بملابس اليقظة ، فهانت لديه عظائم الأمور ، وعظمت مهابته فى الصدور ، وتحامى الناس أن يعاملوه بشىء من المحظور والمحذور . ومتى آثر على تعب التيقظ راحة الإهمال وركن إلى دعة التوانى الداعية إلى الاغفال وأخلد إلى مساكن الغافلين عما يئول إليه حال المغترين بمآلهم اللاهين عن مستقبلهم ـ كان جديرا بانتقاض مُبْرَمِ ما ركن إليه وإعراض الناس عنه بعد إقبالهم عليه ، وآل أمره إلى ندامة يعض منها على يديه .

ويكفى فى نقيصة الغفلة وذم المتصف بها أن الخسارة لازمة له فيما غفل عنه بسببها فإن كان فى أمر مُلك أودنيا فاته نصيبه منهما وبات ملوما محروما ، وإن كان فى حال الآخرة فقد خسر خسرانا مبينا ، وقد أنفذ الله عز وجل حكمه فى ذلك وأبرمه وقصه فى كتابه العزيز الذى أنزله وأحكمه ، فقال عز من قائل فى حق من سبق قضاؤه فيهم بدمارهم ، وجرى القلم فى القدم ببوارهم : « أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ »

وكما أن الخسارة من لوازم الغفلة فكذا الربح من لوازم اليقظة : ومن هذا قال أبو سعيد الحسن البصرى : التوانى رأس خسران الدنيا والآخرة .

وجاء فى حكم الأقدمين : انتهز الفرصة فإنها خُلسَةَ ، وإياك والعجز فإنه أوضع مركب ، واحذر التوانى فإنه يجلب أنواعا من البلاء :

هذا كسرى عظيم الفرس خص ببقاء الذكر واشتهار السمعة وانتشار الصيت واستقامة الحال وحراسة الملك وحفظ الرعايا وحماية البلاد وانقياد الناس له وميل القلوب بمحبتها إليه ومخافة الأعداء منه ، كل ذلك يسره الله تعالى بما ألهمه إياه من من كمال التيقظ الذى لم يسبقه أحد بمثله حتى نقل أنه كان من أشد الناس تطلعا إلى خفايا الأمور ، ومن أكثرهم بحثا عن أسرار الصدور ، وكان يبث العيون على الرعايا والجواسيس فى البلاد ، ليقف على حقائق الأحوال ، ويطلع على غوامض القضايا ، فيعلم المفسد فيقابله بالتأديب، والمصلح فيجازيه بالإحسان، ويقول ما معناه : متى غفل الملك عن تعرف ذلك فليس له من الملك إلا اسمه ، وسقطت من القلوب هيبته ، ولا يأمن دخول خلل عليه فى ملكه ، وانبسطت أيدى حاشيته باتباع هواها ، وتسلطت عماله على إقطاع أمواله وإفنائها ، وصارت رعاياه فوضى ؛ ولا غرو فقد علم كسرى أن سلوك سبل اليقظة يهدى إلى الصلاح ، فصلح ملكه باتباعه وانتهاجه .

وهكذا كل من اقتفى فى اليقظة طريقته وأثره وارتقى فى نهج معراجه أمن على نظام ملكه من اختلاله وعلى حاله من اعوجاجه .

ومن نتائج الغفلة والتوانى ماحل بأبى جعفر المنتصر بن المتوكل على الله ، فإنه لما اتفق وجماعة من مقدّمى الدولة على قتل أبيه المتوكل ودخلوا عليه فى مجلسه وقتلوه وبايعوا المنتصر بالخلافة وأجلسوه ـ لم يلبث إلا أياما يسيرة حتى صار يسترسل فى مجلسه غافلا ، ويهمل مايوجبه التيقظ والتحفظ ، وتصدر منه فى حق أُولئك الذين قتلوا أباه حركات منطوية على إضمار قتلهم وفلتات لسان تنم عن نية الإيقاع بهم ، وأهمل التيقظ والاحتراز إعلانا وإسرارا ، وأغفل انتهاز الفرص توانيا لا استكبارا ، ولم يضع على حركاتهم وسكناتهم من يطالعه بها إخبارا كل ذلك أثار عندهم بالتوعد الصادر عنه داعية إعمالهم الحيلة فى سرعة الخلاص منه ، فاجتمعوا وهم من أعيان دولته ، واتفقوا على المسارعة إلى إهلاكه ومبادرته وأن يسبقوه قبل أن تسبِق إليهم سيوفُ نقمه ، فاستحضروا طبيبه جبريل بن بختيشوع ، وأفضوا إليه بسرهم ليوضح لهم إلى نجح سعيهم سبيلا ، وبذلوا من المال ماأحضروه لديه قدرا جليلا ، فأجاب نداءهم ، واستصوب آراءهم ، وحاز المال الذى بذلوه ، والتزم إنجاز ماأمَّلوه ، فلم يلبث المنتصر إلا أياما حتى أحضر جبريل ليفصده ، ففصده بمبضع قدسمه فمات من ليلته .

فانظر إلى عاقبة الإغفال ووبالها ومايجلبه ترك التحفظ والاستيقاظ من استحالة الأحوال واختلالها ، فهذا المنتصر لم يبق بعد أبيه إلا أياما قليلة ، فاقتنصته الأقدار لتوانيه بشبك حبالها وأشراك احتيالها .

ومما هو أبلغ فى سوء عاقبة الغفلة والإهمال ماروى من أن جبريل بن بختيشوع الخائن من ائتمنه على مهجته الخاتل من كساه من وارف نعمته وجداه ثارت بعد أيام به حرارة أحوجته إلى فصد ، فأحضر تلميذا له ليفصده ، وأخرج المباضع التى له ، فاتفق أن أخرج ذلك المبضع المسموم الذى فصد به المنتصر معتقدا أنه غيره ، ودفعه إلى تلميذه ، ففصده به فمات من ساعته جزاء وفاقا !!

فضيلة القناعة

عن ابن عمر قال : أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبي فقال : « كُنْ فِي الدُّنْيَا كأنَّكَ غَرِيبٌ أوْ عَابِرُ سَبِيلٍ » وقال أكثم بن صيفي لابنه : « يابنى من لم يأس على مافاته وَدُعَ بدنه ، ومن قنع بما هو فيه قرت عينه » .

ومن أجل مواهب الله لعباده وأعظمها أثرا القناعة ؛ فليس شيء أروح للبدن من الرضا بالقضاء ، والثقة بالقَسْم ، ولو لم يكن فى القناعة خصلة تُحمد إلا الراحة وعدم الدخول فى مواضع السوء لطلب الفضل ــ لكان الواجب على العاقل ألا يفارق القناعة على حال من الأحوال .

وإن من عدم القناعة لم يزده المال غنى ، فتمتع المرء بالمال القليل مع قلة الهم أهنأ من الكثير مع التبعة ، ومن قنع لم يتسخط وعاش آمنا مطمئنا ، ومن لم يقنع لم يكن له فى الفوائت نهاية لرغبة ، ومن لبس ثوب القناعة ثم حسد الناس على ما فى أيديهم فليس قانعا .

إيثار الزهد والورع

الزهد على ثلاثة أوجه :

الأول : الزهد الذى ليس فوقه زهد أن يكون المرء لا يسره أن الدنيا كلها له يُعَمِّرُ عمرها ويحتوى ملكها ولا يصل إليه شىء من مكارهها ، فلا يسأل عليها ولا يرضى بها ولا يتمناها لنفادها وانقراضها ، فهذا هو الزهد الذى ليس فوقه زهد، وهو غير موجود إلا ما بقى ذكره فى الكتب ويتردد على الألسنة منه فى المحاضر .

الوجه الثانى : أن يزهد الإنسان فى الدنيا وقلبه معلق بها محب لها مائل إليها ،

فهو يمنع نفسه قسرا عنها مخافة سوء عواقبها ، فهو من نفسه فى جهاد ومن علاجها فى اجتهاد ، فهو زاهد صابر .

والوجه الثالث: أن يزهد فيما حرم الله عليه ، وهو اللازم للعباد والمفروض عليهم الذى ليس للعبد فيه عذر ولا له عليه حجة ، وهو دون الوجه الثانى وله فيه نجاة من النار برحمة الله العزيز الغفار : قال بعض العلماء : « لن يصل الإنسان إلى ما يريد من الطاعة ، ولن يبلغ إلى بغيته من العبادة - إلا بالزهد فى الدنيا والصبر على تركها » .

وقد اختلف العلماء فى تعيين وجوه الزهد ، وكل أقوالهم راجعة إلى أصل ومبنية على أُس، وهو ما قدمناه من رفض الدنيا ودواعيها لسوء عواقبها ومساويها وما تفرع من ذلك وتشعب .

قال أبو سليمان الدارانى : ليس الزاهد من ألقى هموم الدنيا عن نفسه فاستراح منها بتلك الراحة ، إنما الزاهد من زهد فى الدنيا وأتعب نفسه فيها لنيل الآخرة .

وقد أجمعت الأمم من أهل الملل والمتفلسفين وأرباب النحل على الزهد فى الدنيا وترك التشبث بها ، وتابعهم طوائف من الدهرية وأمثالهم ممن لا يؤمنون ببعث ولا حساب ولا يوقنون بثواب ولا عقاب ؛ إذ نظروا إليها فوجدوها كثيرة الآفات وشيكة الذهاب شأنها التحول والانقلاب ، لا يدوم لها نعيم ، ولا يخلد فيها مقيم ، تنقل أهلها من الشباب إلى الهرم ، ومن الصحة إلى السقم ، ومن الوجود إلى العدم ، تضع الرفيع ، وترفع الوضيع ، وتعاند العالم العاقل ، وتساعد الجاهل الخامل ، فلا تنفك عن محال ، ولا تستقر على حال ، فحملهم ذلك على الزهد فيها والرغبة عنها ، فكيف بمن نظر وحقق وآمن وصدق وأيقن بالبعث والحساب ولم يشك فى الثواب والعقاب وصدق بالنبوة والكتاب ؟ لقد كان أحق بالزهد فيها والانتباذ منها مكانا قصيا : قال تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنِ ازْدَادَ فِى

الْعِلْمِ رُشْداً وَلَمْ يَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا زُهْداً لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللهِ إلاَّ بُعْداً» وفى بعض الآثار : بينما رجل يشيع جنازة إذ رفع إليه شيخ فسمعه يقول : ما رأيت مثل مصرع هؤلاء وأشار إلى الأموات، ولا مثل غفلة هؤلاء وأشار إلى الأحياء، ثم قال : اللهم فرغنى لما خلقتنى، ولا تشغلنى بما تكفلت لى به، ولا تحرمنى وأنا أسألك، ولا تعذبنى وأنا أستغفرك .

وجلى أن الزهد فى الدنيا ليس بإهمال النفس وحرمانها المتاع المباح وإضعاف الجسم وإدخال الضرر بتقتير العيش والتعرض للمعاطب والتصدى إلى المهالك؛ فإن استعمال ما تصح به القوى وتحيا به النفس ويعين على العمل واجب متعين

الاقتصار عن الرغبة والجشع

الجشع (عافاك الله) من أقبح الخلائق وأذمّ العلائق وأرث الحبائل وأشأم الشيم والشمائل يدل على الأخلاق البهمية والطبائع السبعية، وهو من أعظم الآفات الدينية وأكره العاهات المشنوءة، لا يزال صاحبها أبدا مذموما وبأقبح الصفات موسوما، قد ملك الجشع طباعه، فلا تعرض له القناعة، ولو كانت الدنيا بأسرها متاعه، غمر حب الدنيا قلبه، وغمر التهافت إليها عقله، فهو لا يحتقر اليسير، ولا يقنع بالكثير، بل شأنه أكل الدنيا خضما وقضما، ولو استطاع ما استوجب فيها أحد سهما، فلا تراه أبدا إلا منهوما لا يشبع وجامعا لا يقنع وناهضا فى السرف لا يرجع ومقيما على الطمع لا يقلع، وقلما يخلو عن الحسد ولا يستفيق من الكمد، قد جعل الدفر نصب عينيه، وأصبح واثقا بما فى يديه لا يتوكل على خالقه، ولا يقنع بقسمة رازقه فما أخسر صفقته، وما أجل مصابه !! يجمع ولا يدرى أهو مالكه أم تاركه ؟ وينصب وهو لا يدرى أفائز به أم هو هالكه ؟ .

روى أنه وجد فى بعض الكتب المنزلة : يا ابن آدم، لو كانت الدنيا كلها لك لم يكن لك منها إلا القوت، فإذا أنا أعطيتك منها القوت وجعلت حسابها على غيرك فأنا لك محسن . وقال ابن مسعود : ما من يوم إلا ينادى فيه ملك من تحت العرش :

يابن آدم ، قليل يكفيك خير من كثير يطغيك . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ مَعَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا »وقال بعض العلماء: إذا أحب الله العبد زهده فى الدنيا يكره مايكره الله ، وإذا أبغضه رغّبه فى الدنيا فأحب ما أبغض الله . وقالوا : أطيب العيش القناعة وأنكد العيش الجشع .

القناعة والمال

المال ضرورى للحياة والحاجة إليه لازمة لايعرى منها بشر ، ومن عدم المال الذى هو مادة الحياة لم يستقم له دين ولا دنيا ، ولحقه الوهن فى نفسه ومروءته وأخلاقه ، وأسباب كسبه كثيرة متنوعة ترجع إلى أصول ثلاثة : هى الزراعة والتجارة والصناعة . وماعداها من الأعمال متفرع عنها وراجع إليها .

والمال ليس من الكمال الذى يطلب لذاته كالعلم وفضائل الأخلاق وإنما يطلبه من يطلبه لأمور :

منها منازعة الشهوات التى لاتنال إلا بوفر المال ، وليس لشهوات المرء حد تقف عنده ولا غاية تصل إليها ، ولهذا يكون مايصيب من اللذة بما جمعه من المال غير واف بما يعانيه من استدامة كده وتعبه مع ماقد لزمه من ذم الانقياد لمتابعة الشهوات ،وهذه حال لايكف المرء عنها فى الغالب عقل زاجر ولا قانون وازع،فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : (مَنْ أَرَادَ اللهُ بِهِ خَيْرًا حَالَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ شَهَوَاتِهِ) .

ومنها أن يطلب المال ويلتمس كثرته لينفقه فى وجوه البر ويصطنع به المعروف عند أهله ، وصاحب هذا أجدر بالحمد وأحرى بالتبجيل وأولى باحترام الناس وبقدر مايبذل فى ذلك من الإفادة والاستفادة يكون حظه من الخير وحسن العاقبة ومن فعل هذا فقد أصاب بالمال وجهه ووضعه فى موضعه ؛ لأن المال آلة للمكارم وعون على الدين ومتألف للإخوان ، ومن فقده من الناس قلت الرغبة

فيه والرهبة منه ، ومن لم يكن موضع رغبة ولا رهبة استهان به الناس ولو كانوا أقاربه الأدنين وخلانه الأوفين : ولهذا قيل: (من استغنى كرم على أهله) ولعظم خطره سماه الله تعالى خيرا فى كثير من آياته قال تعالى : (إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ) وقال تعالى : (فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا) وقال : (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ)

وتواترت أقوال الحكماء والكتب السماوية فى مدحه وتحبيب الناس فى طلبه قال بعض الحكماء : « من أصلح ماله فقد صان الأكرمين : الدين والعرض » وقال بشر الضرير :

كفى حزنا أنى أروح وأغتدى ... ومالى من مال أصون به عرضى
وأكثر ما ألقى الصديق (بمرحبا) ... وذلك لا يكفى الصديق ولا يرضى

وقال آخر :

أجلك قوم حين صرت إلى الغنى ... وكل غنى فى العيون جليل
وليس الغنى إلا غنى زين الفتى ... عشية يقرى أو غداة ينيل

وقد اعتبره القرآن الكريم زينة الحياة الدنيا وجعله فى منزلة البنين : قال تعالى : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » وعد العلماء الغنى خيرا من الصبر فقالوا : غنى شاكر أفضل من فقير صابر ، لأن الغنى واجد من المال ما يسعفه بحاجته فى الخير والشر ، فانصرف عن الشر إلى الخير . وأما الفقير فقد غل يده الفقر ولم يجد مواتاة من حاله على الخير والشر فانصرف عنهما جملة . وليس يعلم إلا الله ماذا كانت تكون حاله لو اتسع له ماله ورفهت حاله .

ومنها أن يطلب المال ليدخره لولده مع ضنه به على نفسه وإنفاقه فيما يكسبه الحمد ويدفع عنه اللوم إشفاقا عليهم من الطلب وخوف أن يبتذلهم ذل السؤال . وهذا من الأخسرين أعمالا الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ؛ لأنه مأخوذ بما جمع سيئ الظن بالله واثق ببقاء هذا المال على

ولده ، وهو عرض زائل وظل منتقل ودولة بين الناس .

وأسوأ مايعقبه هذا العمل أن يصرف الأبناء عن السعى فى طلب العلم والمال لاعتمادهم على ما سيصير إليهم من مال آبائهم ، ولقد كان هذا سببا فى فساد أخلاق كثير من الشبان وانصرافهم إلى اللهو واللعب حتى أضاعوا كل ما ورثوه من مال ، وتبع هذا فقدان الشرف والصحة .

ومنها أن يجمع المال حبا فيه واستحلاء لجمعه ، وهذا أسوأ الناس حالا ، وأقلهم حظا من دنياه ، وأكثرهم عناء بما جمع من المال ومايستلزمه من التدبير والقيام عليه ، والعمل لتنميته ، لأن من كانت رغبته هذا لايجد مايصرفه عنها أو يقلل تلك الرغبة فى نفسه حتى يلقى حتفه . وفى هذا يقول سبحانه وتعالى : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ »

ومن كانت غايته جمع المال وادخاره استولى عليه بعد الأمل ، وهو سبب الشح الذى يصيب كثيرا من الناس فيصرفهم عن أداء الحقوق الواجبة لله ولأنفسهم وللناس ، ويبعثهم على التورط فى المحرمات ومايستهلك دينهم وأعراضهم وأخلاقهم إذ ليس للحريص غاية يقف عندها ولانهاية يقنع بالوصول إليها .

وليس ينجى الإنسان من شرك استعباد المال وخطر استهوائه للأفئدة غير القناعة ؛ فإنه لاغنى إلا بغنى النفس ، ومن لزم القناعة زالت عنه صفة الفقر ، ولهذا قيل :

غنى النفس مايكفيك من سد خلة فإن زاد شيئا عاد ذاك الغنى فقرا

وملاك القناعة الرضا والانصراف عما يثير فى النفس الحرص والجشع ، وطلب الدنيا بأسباب لاتحل مباشرتها . وتتفاوت درجات القناعة فى الناس :

فنهم من يرضى بما يتبلغ به من دنياه ، وينصرف عن كل ماسواه ، وهذه حال وإن كانت ترتاح إليها نفوس كثير من الناس أشبه بالعجز وأليق

بالنوكى والكسالى ومن لا يرون لهم حظا من دنياهم يجب أن يحرصوا على طلبه ويجدوا فى إدراكه .

ومنهم من يطلب ما يكفيه من الدنيا لنفسه ولأهله ولأصحاب الحقوق عليه ولا يمدّنّ عينيه إلى ماوراء ذلك مما يزيد عناءه ويكثر آلامه ، وهذه حال لا بأس بها لمن أراد أن يبقى على نفسه وشرفه .

ومنهم من يقنع بما سنح له قليلا كان أو كثيرا ، وتقر عينه بما صار إليه من متاع الدنيا . وإن فاته شىء منها لم يجد فى طلبه ، ولم يحزن لفوته ؛ لعلمه أن لا شىء من خير الدنيا وشرها إلا وهو بقدر ، وما كان له منها أصابه على ضعفه ، وما كان عليه منها لم يدفعه بقوته ، وهذه حال كثير من العقلاء ممن فيهم أناة وصبر وحسن تصريف للأمور ونظر فى العواقب مع عدم استسلام لهوى النفس وخدعها الكاذبة ، وبها يصيرون إلى الراحة واطمئنان النفس وعدم المؤاخذة ، وفى هذا يقول أبو تمام :

لا تأخذنّى بالزمان فليس لى تبعًا ولست على الزمان كفيلا

من كان مرعى عزمه وهمومه روض الأمانى لم يزل مهزولا

ومن قنع اتصف بكثير من صفات الكمال : كعزة النفس ، والمروءة ، والشرف ، والسخاء ؛ واستبقى لنفسه راحة البال والطمأنينة .

فضيلة صون اللسان

جدير بمن يقصد الكمال أن يبلغ مجهوده فى حفظ اللسان حتى يستقيم له ؛ إذ اللسان هو المورِدُ للمرء موارد العطب ، والصمت يكسب المحبة والوقار . ومن حفظ لسانه أراح نفسه ، والصمت منام العقل والمنطق يقظته .

والواجب على اللبيب ألا يغالب الناس على كلامهم ولا يعترض عليهم فيه ؛ لأن الكلام حينئذ قد يؤدى إلى فوز مؤقت غير أنه لو أرجئ إلى حينه لكان الفوز أدوم وأبقى : قال الأحنف بن قيس : الصمت أمان من تحريف اللفظ ،

وعصمة من زيغ المنطق ، وسلامة من فضول القول ، وهيبة لصاحبه .وقال بعض المريين : الواجب على العاقل أن يلزم الصمت إلى أن يلزمه التكلم ؛ فما أكثر من ندم إذا نطق وأقل من يندم إذا سكت ، وأطول الناس شقاء وأعظمهم بلاء من ابتلى بلسان جامح .

واللسان فيه عشر خصال يجب على العاقل أن يعرفها ويضع كل خصلة منها فى موضعها : فهو أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وناطق يُرَدُّ به الجواب ، وحاكم يفصل به الخطاب ، وشافع تدرك به الحاجات ، وواصف تعرف به الأشياء ، وحاصد يذهب الضغينة ، ونازع يجذب المودة ، ومُسَلٍّ يذكى القلوب ، ومُعَزٍّ تُرَد به الأحزان ، ولقد أحسن الذى يقول :

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل المقال

قال عمر بن الخطاب : يا أحنف ، من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، وأنشد الأبرش :

ماذل ذو صمت ومامن مكثر إلا يذل وما يعاب صموت
إن كان منطق ناطق من فضة فالصمت در زانه الياقوت

قال على بن بكار : جعل الله لكل شىء بابين وجعل للسان أربعة : الشفتين مصراعين والأسنان مصراعين . وقال أبو حاتم : الواجب على العاقل أن ينصف أذنيه من فيه ويعلم أنه إنما جعلت له أذنان وفم واحد ليسمع أكثر مما يقول ؛ لأنه إذا قال ربما ندم ، وإن لم يقل لم يندم ، وهو على رد مالم يقل أقدر منه على رد ما قال ، والكلمة إذا تكلم بها ملكته وإن لم يتكلم بها ملكها ورب كلمة سلبت نعمة .

قال ابن مسعود : والله الذى لاإله غيره ماشىء أحق بطول سَجْن من لسان وقال الأصمعى : بينا أنا أطوف بالبادية إذا أنا بأعرابية تمشى وحدها على بعير لها فقلت : ياأمة الجبار ، من تطلبين ؟ فقالت : (مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلاَ مُضِلَّ لَهُ

وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ) قال: فعلمت أنها قد أضلت أصحابها ، فقلت لها كأنك قد أضلت أصحابك . قالت: (فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً) فقلت لها : ياهذه من أين أنت ؟ قالت : (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) فعلمت أنها مقدسية فقلت لها : كيف لا تتكلمين؟فقالت: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) فقال بعض أصحابي : ينبغي أن تكون هذه من الخوارج فقالت: (وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً) فبينما نحن نماشيها إذ رفعت لنا قباب وخيم فقالت:(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) فلم أفطن لقولها ، فقلت: ماتقولين ؟ فقالت : (وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ) قلت بمن أصوت وبمن أدعو؟فقالت:(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ)؛(يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ)، (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ) قال: فإذا نحن بثلاثة إخوة كاللآلئ ، فقالوا أمنا ورب الكعبة أضللناها منذ ثلاث . فقالت : (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ)فأومأت إلى أحدهم فقالت: (فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ) فقلت إنها أمرتهم أن يزودونا فجاءوا بخبز وكعك فقلت :لا حاجة لنا في ذلك . وقلت للفتية:من هذه منكم ؟ قالوا:هذه أمنا ما تكلمت منذ أربعين سنة إلا من كتاب الله مخافة الكذب . فدنوت منها وقلت:يا أمة الله أوصني . فقالت: (لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى)

واللسان أنفع الجوارح إذا صلح ، وأضرها إذا فسد ، ولذا جعل نصف

الإنسان : قال عليه الصلاة والسلام : « المَرْءُ بِأَصْغَرَيْهِ قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ » وعثرته لا تداوى :

يصاب الفتى من عثرة بلسانه ... وليس يصاب المرء من عثرة الرجل
فعثرته بالقول تذهب رأسه ... وعثرته بالرجل تبرا على مهل

وصيانته وصلاحه بقصر كلامه على جلب نفع أودفع ضرر ، وفساده بالسب والشتم والكذب والغيبة والنميمة وكثرة المزاح والسخرية وما إلى تلك من الرذائل التى تحط من قدر صاحبها ، وتفرق بينه وبين أهله وعشيرته .

وجدير بمن يتصف برقة اللفظ وجمال القول أن يدرك ما يبتغيه وينجو من الشر وذويه وقد قيل : لا يستقيم إيمان المرء حتى يستقيم قلبه ، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه .

من أجل ذلك قدم لقمان الحكيم لسيده قلب الشاة ولسانها على أنهما أخبثا مافيها ، وعرضهما مرة أخرى على أنهما أطيبا مافيها . ولما سئل عن ذلك قال: ياسيدى ، لا أخبث منهما إذا خبثا ، ولا أطيب منهما إذا طابا .

فضيلة المزاح المقبول

قال بعض المربين: جدير بالمثقف أن يستميل إليه قلوب الناس بالمزاح وترك التعبس . والمزاح نوعان محمود ومذموم :

فالمحمود هو الذى لا يشوبه ما كره الله عز وجل ، ولا يكون بإثم ولا قطيعة رحم ،

والمذموم هو الذى يثير العداوة ويُذهب البهاء ويقطع الصداقة ويجرؤ الدنىء عليه ويحقد الشريف به .

وقيل: المزاح فى غير طاعة الله مَسلَبة للبهاء ، مقطعة للصداقة يورث الضغن وينبت الغل ، وإن من المزاح ما يكون سببا لتهييج المراء ، والواجب اجتنابه ؛ لأن

المراء مذموم فى الأحوال كلها ، ولا يخلو الممارى من أن يفوته أحد رجلين فى المراء: إما رجل هو أعلم منه فكيف يجادل من دونه فى العلم ؟ أو يكون ذاك أعلم منه فكيف يجارى من هو أعلم منه ؟

وقال بعضهم : المزاح إذا كان فيه إثم — يسود الوجه ويدمى القلب ويورث البغضاء ويحيي الضغينة ، وإذا كان من غير معصية يسلى الهم ويحيي النفوس ، ومن مازح رجلا من غير طبقته اجترأ عليه وإن كان المزاح حقا ؛ لأن كل شيء يجب ألا يسلك به غير مسلكه ، ولا يظهر إلا عند أهله .

فضيلة إظهار البشر

أنشد الأبرش :

أخو البشر محبوب على حسن بشره
ولن يعدم البغضاء من كان عابسا

وقال بعض الحكماء : البشاشة إدام العلماء وسجية الحكماء ؛ لأن البشر يطفئ نار المعاندة ويحرق هيجان المباغضة ، وفيه تحصين من الباغى ومنجاة من الساعى، ومن بش للناس وجها لم يكن عندهم بدون الباذل لهم ما يملك .

وعن هشام بن عروة عن أبيه قال : أخبرت أنه مكتوب فى الحكمة : يا بنى، ليكن وجهك بسطا ولتكن كلمتك طيبة تكن أحب إلى الناس من أن تعطيهم العطاء: قال الشاعر :

الق بالبشر من لقيت من النا
س جميعا ولاقهم بالطلاقة
تجن منهم جنى ثمار فخذ
ها طيبا طعمها لذيذ المذاقة

وقال الآخر :

فتى مثل صفو الماء أما لقاؤه
فبشر وأما وعده فجميل
يسرك مفترا ويشرق وجهه
إذا اعتل مذموم الفعال بخيلُ
عيي عن الفحشاء أما لسانه
فعف وأما طرفه فكليل

الرفق فى الامور

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَنْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ فَقَدْ مُنِعَ حَظَّهُ مِنَ الْخَيْرِ)

ومن أجل ذلك وجب الرفق فى الأمور كلها وترك العجلة والخفة فيها ؛ فإن الله تعالى يحب الرفق فى الأمور كلها ، ولا يكاد المرء يتمكن من بغيته فى سلوك قصده فى شىء من الأشياء إلا بمقارفة الرفق ومفارقة العجلة . والرافق لا يكاد يسبق ، كما أن العَجِل لا يكاد يلحق ، والعَجِل يقول قبل أن يعلم ، ويجيب قبل أن يفهم ، و يحمد قبل أن يجرب ، ويندم بعد ما يحمد ، ويعزم قبل أن يفكر ، ويمضى قبل أن يعزم . والعجل تصحبه الندامة ، وتعتزله السلامة ، و كانت العرب تكنى « بأم الندامات » عن العجلة

والإقدام على العمل بعد التأنى فيه أحزم من الإمساك عنه بعد الإقدام عليه . وقال خالد بن برمك : « من استطاع أن يمنع نفسه من أربعة أشياء فهو خليق ألا ينزل به كبير مكروه : العجلة ، واللجاجة ، والعجب ، والتوانى : فثمرة العجلة الندامة ، وثمرة اللجاجة الحيرة ، وثمرة العجب البغضة ، وثمرة التوانى الذل

وشهد أعرابى عند معاوية بشهادة فقال معاوية : كذبت . فقال الأعرابى : إن الكاذب المتزمل فى ثيابك . فقال معاوية : هذا جزاء من يعجل

وقالت الحكماء : يدرك بالرفق مالا يدرك بالعنف، ترى أن الماء على لينه يقطع الحجر على شدته . وقال النابغة :

الرفق يمن والأناة سعادة ... فاستأن فى رفق تلاق نجاحا

وقالوا:« العجل بريد الزلل » . أخذ القطامى التغلبى هذا المعنى فقال :

قد يدرك المتأنى بعض حاجته ... وقد يكون مع المستعجل الزلل

الشكر

من الأشياء ما جعله الله متاعا مباحا للناس ، لا يحتاجون فى الانتفاع به إلى معاوضة ولا ثمن ، فهم فيه سواء لا تمييز بين غنى وفقير ، وقوى وضعيف : كالماء ، والهواء،وضوء الشمس والقمر . ولشدة حاجة الناس إليها لم يختص بها سبحانه وتعالى قوما دون قوم ولا مكانا دون مكان ؛ ليعظم الانتفاع بها ، وليكون هذا أظهر لفضله تعالى ، وأتم لنعمته على خلقه .

ومن الأشياء مالا يمكن الانتفاع به أو امتلاكه إلا بثمن ، فإذا وصل إلى الإنسان شيء بدون عوض كان جزاء فاعله شكره والثناء عليه بما هو أهله ؛ لأنه اختصه ببره ، واصطنع الإحسان إليه دون عوض . فشكره على هذا والاعتراف بجميله أقل ما يكافأ به على إحسانه : قال عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أُودِعَ مَعْرُوفًا فَلْيَنْشُرْهُ ؛ فَإِنْ نَشَرَهُ فَقَدْ شَكَرَهُ . وَإِنْ كَتَمَهُ فَقَدْ كَفَرَهُ »

وحب الثناء طبيعة الإنسان ، والميل إلى سماع عبارات الحمد والتنزه عما يقبح من الأفعال غاية يسعى إليها الناس جميعهم حتى من لم تحسن أفعالهم ، ولم تستقم أمورهم ، ولم يكونوا للحمد أهلا ، ولا للشكر موضعا . وأبين مايكون هذا فى الأطفال والنساء . وإنك لتجد الطفل يباهى بحلة يلبسها فى كل يوم عيد أوحفل ، ويمر أمام الناس مرة بعد أخرى ، يرجو أن يسمع كلمة ثناء عليه ، وإعجاب بحلته ،

وقد عرف التجار هذا الميل فى النساء وشدة رغبتهن فى الثناء، فهم لا يفتئون يعلنون عن بضائعهم وسلعهم بما يستهوى أفئدتهن ويحملهن على اقتنائها ، وإن غلا ثمنها ، وقل غناؤها ، وإنهن ليبادرن إلى محدثة الأزياء ويسبقنها رغبة فى الظفر بعاجل الثناء .

والشكر المتعارف بين الناس هو إظهار النعمة والتحدث بها ، وبسط اللسان بالمحمدة ، والتعظيم للمنعم بها ، والتنويه بذكره ، ورفع قدره . وقد انعقد الإجماع على وجوب الشكر للمنعم عقلا وشرعا ، وإن من أنعم الله عليه وأحسن إليه ، ولم يمدح المنعم ، ويشكر المحسن ـ لجدير أن يحكم عليه بلؤمه وخساسته ، وأن يسلب النعمة ، وينقطع عنه مددها .

ولقد أنصف بعض بنى أمية ، وقد سئل بعد زوال ملكهم ، وانقراض سعادتهم ، وانقضاء دولتهم : « ما كان سبب هذا الحادث المجحف بكم ، والبلاء النازل عليكم ؟ » . فقال :

قلة شكرنا لله تعالى على ما أنعم الله به علينا ، واشتغالنا بلذتنا عن النظر فى مصالحنا ، وتفويضنا أمورنا إلى من لا دين له ، ولا أمانة عنده ، وظلمنا بنا لرعايانا ، وغفلتنا عنهم ، ففسدت علينا النيات ، واختلف علينا الجند لقلة عطاياهم ، فاستدعاهم أعداؤنا ، فأجابوهم ، وأعانوهم علينا ، واستترت عنا الأخبار لقلة الأنصار ، وآل أمرنا إلى ما آل ! !

وأوجب الشكر شكر الله تعالى ؛ لأنه أفاض النعم على الإنسان من حيث يعلم ، ومن حيث لا يعلم حتى حارت العقول فى وصف بعض نعمه ، والإحاطة بشىء من فضله .

وليس شكره تعالى ثمنا لنعمه ؛ فإنها تجل عن كل ثمن ، وينقطع دون الوفاء بحقها كل عد وثناء ، وإنما هو للاستزادة من فضله ، وطلب المزيد من كرمه : قال (تعالى) : « لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ »

وشكره جل شأنه يكون باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، وصرف ما أنعم به من صحة ، ومال ، وعلم ، وجاه - فيما ينفعه ، وينفع الناس .

ويكون الشكر للآباء والمربين ومن فى منزلتهم باحترامهم ومحبتهم، والاعتراف لهم بفضل التأديب والتربية ، ومساعدتهم عند الحاجة ، ولقائهم بالبشر والسرور؛ إذ هذا أقل ما يجزون به على ما أسدوا من معروف لا كفاء له .

ويكون لمن فى منزلة الإنسان بالمكافأة بمثل فعله ؛ فإذا أهدى إليك إنسان فى منزلتك شيئا كان شكره أن تهدى إليه مثل هديته أو فوقها ، وإذا أعانك فى ضائقة كنت له عونا فى مثلها .

ويكون لمن دونك بالأجر ؛ فالفقراء أكثر ما يكونون رغبة فى الثواب من مال ونحوه دون عذب القول ، وجميل الشكر ، لأن حاجتهم إلى المال أشد ، ورغبتهم فيه أبلغ . على أن فى بعض الفقراء من كبرت نفوسهم ، وعظمت هممهم ، وشرفت مقاصدهم ، فهؤلاء يطربهم الحمد ، ويزدهيهم الشكر ويبلغ من نفوسهم ما لا يبلغه المال . وينبغى أن يعود الأحداث الشكر ، ويعتادوا قول « أشكرك » لمن يتقدم إليهم بشىء ، ويفهموا معنى هذا .

الشكر فى كثير من مواطنه يكون مستوجبا للمزيد ، وداعيا إلى متابعة الإحسان ، والاستزادة من فعل الجميل ، كما يكون مهذبا للنفوس الخيرة ، مقوما للأخلاق والآداب . وهو مما لا يستغنى عنه أحد .

ومن ثمرته أن تتم به الألفة بين الشاكر والمشكور ، وتتوثق المحبة بينهما : قال رجل لرجل شكره فى معروف أسداه إليه :

لقد نبتت فى القلب منك محبة كما نبتت فى الراحتين الأصابع

واصطنع رجل رجلا فسأله يوما : أتحبنى يا فلان ؟ قال : « نعم : أحبك حبا لو كان فوقك لأظلك ، أو كان تحتك لأقلك . » : ذلك لأن من شكر الإحسان ، ونشر فضل المنعم - قد أدى حق النعمة ، وقضى موجب الصنيعة . ولهذا قيل : المعروف رق ، والمكافأة عتق .

كما أن شكر المنعم يستدر أخلاف الازدياد فكذلك كفران النعم يعرضها للزوال والنفاد ، ويلبس جاحدها لباس سوء النعمة بين العباد ، وقديما خص الازدياد من شكر ، وحل الانتقام بمن كفر . وفى قضية مكة حفظها الله تعالى وحال أهلها عبرة لمن استبصر ، وموعظة لمن تذكر ؛ فإن الله تعالى لما أفاض على أهلها سوابغ نعمه ، وجعلها بلدا آمنا ، وشرفه ، فوسمه بحرمه ، ومنحهم من من لطائف رفده فضلا ومنا ، وأوسعهم غاية مرامهم غنى وأمنا ، فقال فى كتابه العزيز : « أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا . » ثم بعث من بينهم محمدا عليه الصلاة والسلام رسولا من أنفسهم ، فدعاهم إلى الإيمان ، وتلا عليهم القرآن وأمرهم بالمعروف ونهاهم عن المنكر ، وحرضهم على صلة الرحم ، وحثهم على مكارم الأخلاق ، فكذبوه وكفروا نعمة الله التى أنعمها عليهم ـ لما كان كذلك سلط عليهم أنواع الانتقام ، وضرب بهم المثل لذوى الأفهام فقال سبحانه وتعالى : « وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ ، فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ . وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ . » وفى هذا تنبيه لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

فضيلة المجازاة على الصنائع

عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ لَا يَشْكُرِ النَّاسَ لَا يَشْكُرِ اللَّهَ) فقمين بمن أسدى إليه معروف أن يشكره بأفضل ، أو مثله ، لأن الإفضال على المعروف فى الشكر لا يقوم مقام ابتدائه ، وإن قل ، والحر لا يكفر النعمة ولا يتسخط المصيبة ، بل عند النعم يشكر ، وعند المصائب

يصبر ، ومن لم يكن لقليل المعروف عنده وقع أو شك ألا يشكر الكثير منه ،

والنعم لا تستجلب زيادتها ولا تدفع الآفات عنها إلا بالشكر لله جل وعلا، ولمن أسداها إليه ، ويحمد الإنسان المعروف على حسب وسعه وطاقته : إن قدر فبالضعف ، وإلا فبالمثل ، وإلا فبالمعرفة بوقوع النعمة عنده مع بذل الجزاء له بالشكر ، وقوله : جزاك الله خيرا .

ومن الناس من يكفر النعم ، وكفران النعم يكون من أحد رجلين :

رجل لا معرفة له بأسباب النعم والمجازاة عليها لما لم يركب فيه من التفقد لمراعاة العشرة ، فإذا كان كذلك وجب الإغضاء عنه ، وترك المناقشة على فعله ،

ورجل عاقل لم يشكر النعمة استخفافا بالمنعم واستحقارا للنعمة ، فإذا كان كذلك وجب عليه ترك العود إلى فعل مثله ، والخروج باللائمة على نفسه ،

ويلزم المرء أن يشكر الصنائع ، والسعي فيها من غير قضائها إذا كان المنعم من ذوى الاهتمام بالصنائع ، لأن الاهتمام ربما فاق المعروف ، وزاد على فعل الإحسان ، والاهتمام لا يكون إلا من فرط عناية وفضل ود ، فالعاقل يشكر الاهتمام أكثر من شكره للمعروف : قال الشاعر :

لأشكرنك معروفا هممت به ... إن اهتمامك بالمعروف معروف
ولا ألومك إن لم يمضه قدر ... فالشيء بالقدر المجلوب مصروف

وقال آخر :

يد المعروف غنم حيث تسدى ... تحملها شكور أم كفور
كفى شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور

فضيلة الاعتبار والاتعاظ

عن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَنْ أصْبَحَ مُعَافًى فِي بَدَنِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا) ، (يَابْنَ جُعْشُمَ يَكْفِيكَ مِنْهَا مَا سَدَّ جَوْعَتَكَ وَوَارَى عَوْرَتَكَ فَإِنْ يَكُنْ ثَوْبًا تَلْبَسُهُ فَذَاكَ وَإِنْ كَانَتْ دَابَّةً تَرْكَبُهَا فَبَخٍ ؛ فِلَقُ الْخُبْزِ وَمَاءُ الْجُبِّ وَمَا فَوْقَ الإِزَارِ حِسَابٌ عَلَيْكَ) ومن أجل ذلك كان حريا بالمنصف لنفسه ألا تصرفه الدنيا وزهرتها وحسنها وبهجتها عن الآخرة الباقية ونعمها الدائمة ، بل ينزلها حيث أنزلها الله لأن عاقبتها لامحالة تصير إلى فناء يخرب عمرانها ويموت سكانها وتذهب بهجتها وتبيد خضرتها ، ومن أُوتى من الدنيا أشياء ثلاثة فقد أُوتى الدنيا بحذافيرها : الأمن والقوت والصحة .

لا يغتر بشيء منها إلا كل خداع ، ولا يركن إليها إلا كل مناع ، فالعاقل يعلم أن ما لم يبق لغيره عليه غير باق ، وأن ما سلب عن غيره لا يترك عليه ، فالقصد إلى ما يعود بالنفع فى الآخرة للعاقل من الدنيا أحرى من السلوك فى قصد الضن بها والجمع لها من غير تقديم ما يقدُم عليه فى الآخرة من الأعمال الصالحة مع ترك الاغترار بها والاعتبار بتقلبها بأهلها .

والسبب المؤدى للعاقل إلى إنزاله الدنيا منزلتها ترك الركون إليها مع تقديم ما هو ضرورى منها للمعيشة ، والنعيم المقيم ترك طول الأمل ومراقبة ورود الموت فى كل لحظة وطرفة لأن طول الآمال قطع أعناق الرجال : كالسراب أخلف من رجاه وخاب من رآه . فالعاقل يعتبر بمن مضى من الأمم السالفة والقرون الماضية : كيف عفت آثارهم ، فما بقى منهم إلا الذكر ولا من ديارهم إلا الرسم ، فسبحان من هو قادر على بعثهم وجمعهم للجزاء والعقاب : قال الشاعر :

كنا على ظهرها والعيش ذو مهل
والدهر يجمعنا والدار والوطن
ففرق الدهر ذوالتصريف أُلفتنا
فاليوم يجمعنا فى بطنها الكفن
كذلك الدهر لا يبقى على أحد
تأتى بأقدارها الأيام والزمن

وقال الآخر :

ما راح يوم على حى ولا ابتكرا
إلا رأى عبرة فيها إن اعتبرا
ولا أتت ساعة فى الدهر فانصرفت
حتى تؤثر فى قوم لها غيرا
إن الليالى والأيام أنفسها
عن غيب أنفسها لم تكتب الخبرا

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (أَكْثِرُوا ذِكْرَ هَازِمِ اللَّذَّاتِ الْمَوْتِ) وقال أبو حاتم رضى الله عنه : الواجب على العاقل أن يلزم ذكر الموت على الأوقات كلها وترك الاغترار بالدنيا فى الأسباب كلها ، إذ الموت رحى دوارة بين الخلق ، وكأس يدار بها عليهم لابد لكل ذى روح أن يشربها ويذوق طعمها ، وهو هادم اللذات ومنغص الشهوات ومكدر الأوقات ومزيل العاهات ، فكم من أمة قد أبادها الموت وبلدة قد عطلها وذات بعل قد أرملها وذى أب أيتمه وذى أخوة أفرده ، فالعاقل لا ينسى حالة لا محالة هو مواقعها ، إذ الموت طالب حثيث ، لا يعجزه المقيم ، ولا ينفلت منه الهارب ، وإن الله جل وعلا خلق آدم وذريته من الأرض ، فأمشاهم على ظهرها ، فأكلوا من ثمارها ، وشربوا من أنهارها ، ثم لا محالة تنزل المنية بهم وتحرمهم السعى والحركات مع تعطل الجثث والآلات ، ثم تعيدهم إلى الأرض التى

منها خلقهم ، فالقبر أول منزل من منازل الآخرة وأول منزل من منازل الدنيا ، فطوبى لمن مهد فى دنياه لقبره ؛ وقدم منها لآخرته : قال الشاعر :

أموالنا لذوى الميراث نجمعها
ودورنا لخراب الدهر نبنيها
والنفس تكلف بالدنيا وقد علمت
أن السلامة فيها ترك مافيها
فلا الإقامة تنجى النفس من تلف
ولا الفرار من الأحداث ينجيها
وكل نفس لها زَوْرٌ يُصبحها
من المنية يوما أو يمسيها

الرضا عن الله عز وجل

من أراد أن يعلم حقيقة الرضا عن الله عز وجل فى أفعاله وأن يدرى من أين نشأ الرضا فليفكر فى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فإنه لما تكاملت معرفته بالخالق سبحانه رأى أن الخالق مالك والمالك التصرف فى مملوكه ، ورآه حكيما لا يصنع شيئا عبثا ، فسلم تسليم مملوك لحكيم ؛ فكانت العجائب تجرى عليه ولا يوجد منه تغير ، ولا من الطبع تأفف ؛ ولا يقول بلسان الحال لو كان كذا ، بل يثبت للأقدار ثبوت الجبل لعواصف الرياح . هذا سيد الرسل صلى الله عليه وسلم بعث إلى الخلق وحده ، والكفرُ قد ملأ الآفاق ، فجعل يفر من مكان إلى مكان ، واستتر فى دار الخيزران ؛ وهم يضربونه إذا خرج ويرمون عقبه ويضعون السلى على ظهره وهو ساكت ساكن ، ويخرج كل موسم فيقول : من يؤوينى من ينصرنى! ثم خرج من مكة فلم يقدر على العود إلا فى جوار كافر ، ولم يوجد من الطبع تأفف ، ولا من الباطن اعتراض ؛ إذ لو كان غيره لقال : يارب أنت مالك الخلق وقادر على النصر : فلِمَ أُذل ؟ كما قال عمر رضى الله عنه يوم صلح الحديبية :

ألسنا على الحق ، فلِمَ نعطى الدنية فى ديننا ؟ ولما قال هذا قال له الرسول صلى الله عليه وسلم : إنى عبدالله ولن يضيعنى . فجمعت الكلمتان الأصلين اللذين ذكرناهما : فقوله : إنى عبدالله ـ إقرار بالملك ، وكأنه قال : أنا مملوك يفعل بى مايشاء . وقوله : لن يضيعنى ـ بيان حكمته ، وأنه لا يفعل شيئا عبثا . ثم يبتلى بالجوع فيشد الحجر ، ولله خزائن السموات والأرض . وتقتل أصحابه ، ويشج وجهه ، وتكسر رباعيته ، ويمثل بعمه ، وهو ساكت ، ثم يرزق ابنا ويسلب منه ، فيتعلل بالحسن والحسين فيخبر بما سيجرى عليهما ، ويسكن بالطبع إلى عائشة رضى الله عنها فينغص عيشه بقذفها ، ويبالغ فى إظهار المعجزات فيقام فى وجهه مسيلمة والعنسى وابن صياد ، ويقيم سنة الأمانة والصدق ، فيقال : كذاب ساحر . ثم يشدد عليه الموت ، فيسلب روحه الشريفة وهو فى كساء ملبد وإزار غليظ ، وليس عندهم زيت يوقد به المصباح ليلتئذ .

هذا الشىء ما قدر على الصبر عليه كما ينبغى نبى قبله . ولو ابتليت به الملائكة ما صبرت .

هذا آدم عليه السلام تباح له الجنة سوى شجرة فلا يقع ذباب حرصه إلا على العقر . ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول فى المباح : مالى وللدنيا ؟

وهذا نوح عليه السلام يضج مما لاقى فيصيح من كمد وجده بلسان القرآن الكريم : «لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون .

وهذا الكليم موسى صلى الله عليه وسلم ، يستغيث عند عبادة قومه العجل على القدر : كما جاء فى القرآن الكريم : « إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » ويوجه إليه ملك الموت فيقلع عينه .

وعيسى صلى الله عليه وسلم يقول : إن صرفت الموت عن أحد فاصرفه عنى . ونبينا صلى الله عليه وسلم يخير بين البقاء والموت فيختار الرحيل إلى الرفيق الأعلى .

وهذا سليمان صلى الله عليه وسلم يقول : هب لى ملكا . ونبينا صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتا . هذا والله فعل رجل عرف الوجود والموجد ، فماتت أغراضه وسكنت اعتراضاته ، فصار هواه فيما يجرى .

التوكل على الله

التوكل هو نظام الإيمان وقرين التوحيد وسبيل الراحة ، وما توكل أحد على الله جل وعلا حق التوكل حتى كان ما عند الله أوثق عنده مما حوته يده ، ولم يكله الله إلى عباده ، وأتاه رزقه من حيث لم يحتسب .

وهو قطع القلب عن العلائق برفض الخلائق وإضافته إلى محول الأحوال ، وقد يكون المرء موسرا فى ذات الدنيا وهو متوكل صادق فى توكله إذا كان العدم والوجود عنده سواء ، لافرق عنده بينهما : يشكر عند الوجود ، ويرضى عند العدم . وقد يكون المرء لايملك شيئا من الدنيا بحيلة من الحيل وهو غير متوكل إذا كان الوجود أحب إليه من العدم ، فلاهو فى العدم يرضى خالقه ، ولا عند الوجود يشكر مرتبته .

صفات النفوس الكبيرة

تمتاز النفوس الكبيرة بصفتين كريمتين : احتقار الظواهر المزيفة الباطلة ، والشجاعة الحقة التى تحملها على اقتحام الصعاب فى سبيل كل عمل نافع .

ولئن كانت الشجاعة تمتاز بالعظمة إن عزة النفس هى أساس المجد الحقيقى ، وهذه الصفة تتمثل فى حالتين :

الأولى اعتقاد النفس أن لا خير إلا فيما هو شريف ، والتخلص من ربقة الشهوات ، والترفع عن السفاسف والصغائر .

والأخرى تحمل الآلام مهما كانت مريرة ، والصبر على المكاره مهما كانت شديدة بدون أن ينزل الإنسان عن مستوى ما رفعته إليه فطرته ومن غير أن يتنازل باظهار الجزع ، ونسيان ما اتصفت به نفسه الكبيرة التى لاتضطرب

ولا تزعزعها الحادثات .

ويجدر بنا أن نحترس من غرور الفخر الكاذب ؛ لأنه يسلبنا حريتنا الصحيحة ويجعلنا فى شبه قيد من المظاهر المزيفة الباطلة كذلك يلزمنا أن نتعود ضبط النفس فى حالى الحزن والفرح حتى لا تقتلها ثورة الحزن ، أو تعبث بعقلها ثورة السرور ، ولا شىء يكسبنا العظمة أكثر من الرزانة والهدوء والاعتدال .

كثيرا ما بعد بعض الرجال عن مشاغل الأعمال العامة ، فاستراحوا وطابت لهم العزلة ، وغمرتهم بفيوض الهناءة والسعادة ؛ ومثل هؤلاء يرتفعون إلى مصاف الحكماء ؛ فقد جفت نفوسهم ما عليه الجمهور من مشاغل وقيود ، وأبت عليهم نفوسهم الكبيرة أن يأخذوا حظهم من حياة بنيت على الزيف والرياء ، فزهدوا فى العالم ، واستطابوا العزلة مؤثرين المعيشة الخلوية على كل لذة محوطة بالصخب والضجيج .

لسنا نشك فى أن محبى المجد يتلهفون إلى السعادة كهؤلاء الذين آثروا الراحة والعزلة ، ولكن كلا من الفريقين اتبع طريقا مختلفة وإن اتحدا فى الرغبة الواحدة: أما محبو المجد وعشاق الشهرة والثروة فقد اشتروا نعيمهم بالمال والمجد كما يقولون ، وأما الفريق الآخر فرأى السعادة فى الزهد والعزلة ، وكلتا الخطتين لا يمكن الحكم عليهما إلا بالتحفظ ؛ لأن حياة المتباعد عن مشاغل العالم ومناصب الدولة خفيفة الحمل قليلة الخطر على صاحبها ، بينما يكون المشتغلون بالأعمال العامة أنفع للناس ، وأكثر فائدة للمجتمع . فإذا استغل المعتزلون مواهبهم وخبرتهم فى صالح المجتمع تاركين المناصب لسواهم فأولئك هم قادة الخير فى الأمة ، وهم موضع إعجاب الأفراد وتقديرهم ، ولا لوم عليهم إذا آثروا تلك الخطة ؛ فسمو النفس قد يغرى الإنسان باستصغار تزاحم الناس وتنافسهم على المناصب وتهالكهم على الشهرة . وعلى أى حال فإن النزاهة وسمو النفس يجب ألا يقتصرا على الرجال الذين يعتزلون الأعمال ، فهما ضروريان فى كل عامل فى المجتمع .

لقد تعود الناس أن يجعلوا للأعمال الحربية من الأهمية والاحترام أكثر مما

يجعلون للأعمال المدنيـة الأخرى ، وهـذا خطأ يجب علينا إصلاحه ؛ فكثير من الناس يجاهدون فى الحرب لمجرد إظهار الشجاعة والبسالة ومحبة الشهرة فى حين أن هناك أعمالا مدنية لا تقل أهمية وخطرا عن الأعمال الحربية إن لم تفقها؛ فلئن كانت واقعة (سلامين) مثلا قد أفادت الأمة اليونانيـة نصرا ، وتوجت رأس القائد (تيموستكل) بالفخر — إن شرائع الحكيم « سولون » قد أفادتها قوة وعظمة أخلاق بقيتا أمدا طويلا .

ولو وازنا بين أعمال الكثيرين من القواد فى الأمم وأعمال مشاهير مشترعيهم وساستهم لرأينا أعمال الأخيرين أخلد أثرا وأبقى على الزمن من أعمال القواد .

لسنا ننكر فضل الأعمال الحربية ، ولكن يجب ألا ننسى أن للأعمال المدنية المجيدة أجل الآثار فى تقدم المجتمع ورقيه دون أن يصحبها ما يصحب الحرب من ويلات وخسائر فى الأرواح والأموال .

الجمال والكمال

جرى بعض الناس أن يجعلوا الجمال خاصا بالنساء وزينتهن وتظرفهن ، والكمال خاصا بالرجال ؛ والحقيقة أن المرأة أحوج إلى الكمال منها إلى الجمال ، والكمال فى الرجل ضرب من الجمال ، فالرجل الفاضل هو الذى يطلب الجمال من طريق الكمال ، ويحتقر كل زينة غير لائقة به ؛ ويمقت كل ما يستدعى سخرية الناس من قول أو عمل .

وخير آيات الجمال ازدهاء الوجه بالنور الطبعى الذى هو نتيجة نشاط العمل وطيب النفس ، فليضف الإنسان إلى ذلك النظافة المستحبة ، مع عدم الإسراف فى التأنق ؛ وأن يراعى فى الملبس البساطة والنظافة ؛ وأن يمشى معتدل القامة فى غير عجب ولا مرح ولا إسراع ؛ فإن هـذه تسبب النفس اللاهث ، واحتقان الوجه ، كما أنه دليل الخفة والنزق .

وجلى أن التكلف ليس من الجمال فى شىء ، فعلى الإنسان أن يعمل بقوة وعزم

على تجنب خروج النفس عن أحوالها الطبيعية المعتادة؟ ووسيلة ذلك ألا يدخر الانسان وسعا فى مقاومة الانفعالات غير الصادقة مع مراعاة الأدب والاحتشام؟ وإذ أن للنفس حركتين حركة الفكر وحركة الارادة وأن الفكر يحملنا دائما على تحرى الصواب والحق، والارادة تقوينا على العمل بهما ـ كان من الواجب صرف الفكر إلى أكمل الأحوال، ثم الحكم على إرادتنا وشهوات نفوسنا بأن تتبع سلطان العقل.

ومن ضروب الجمال أن يحسن الانسان الأدب والذوق فيما يقول، وأن يكون فى كل أقواله متلطفا لفظا ومعنى غير متكلف مع ذلك فيه إلا ما يحسن التكلف فيه.

ولقد عنى بذلك جماعة قديما وحديثا، فبرعوا فى الكلام ونجحوا، وملكوا الألباب بآدابهم وظرفهم، وشهى حديثهم، وإن لم يمتازوا علما ومادة؛ فإذا كنا نحب أن نقتدى بهم فلنراع اللطف والظرف فى أحاديثنا، وليكن من كمال أدبنا فى هذا الباب أن نستمع كما يستمع لنا، وأن ننصت لكلام غيرنا كما نحب أن ينصت لكلامنا، وأن نراعى الأحوال والمناسبات، فللجد أوقات وللهزل مثلها، وأن نتجنب الغيبة والسعاية والوشاية والحط من أقدار الناس فى أحاديثنا، فليس هناك ما هو أشأم على الانسان منها، وأن نلتزم فى عتابنا الحسنى والتمسك بالحجة والبرهان دون غضب أو ثورة؛ وأن نحسن الحيلة فى إظهار وجه كدرنا دون أن نلجأ إلى السفاهة وبذىء القول، فالانسان الماهر قد يظهر أن غضبه لم يكن إلا لمصلحة من يلومه، ومثل هذا جدير بامتلاك القلوب واستيلائه على النفوس.

الطيبة

الحياة ملأى بالمتاعب، والانسان يصيبه الشر من معاشرة أخيه الإنسان فالقوى قد لا يتعفف عن هضم حقوق الضعيف واستعباده، وهذا مما يبعث على فتور همة الانسان وقنوط نفسه وانقطاع أمله، ولكن الله جل شأنه أوجد بحكمته

فى نفس الإنسان قوة تقاوم كل هذه المؤثرات العارضة فتحيى الأمل ، وتضاعف الهمة ، وتجدد نشاط النفس وترغبها فى الحياة على الرغم من كل مايحيق بها من المكاره والصعاب .

تلك هى الطيبة ، وهى كامنة فى نفس الإنسان فى أطوار حياته ، والإنسانية مدينة لها بكل مافيها من الخير والمعروف ، ولكن على الرغم من آثارها الجليلة ترى بعض الناس لايقدرونها ، بل هم يعيبون عليها فى كثير من الأحوال مزاياها النافعة ومقتضياتها المخففة لآلام التعساء : وسر هذا أن الناس ركب الشر فى طبعهم ، والشر لايتفق والطيبة .

الطيبة كامنة فى النفس ، ولكنها تنبعث فتؤثر فى نفس صاحبها تأثيرها الطيب : إنها تطهره ، وتجعله ذا نفس كبيرة سامية ، وتؤثر فى نفوس غيره فتشعرهم بالسمو : كما تنبعث حرارة الشمس ، فتدفئ غيرها ، وتبعث الحركة والقوة والحياة .

وسلطان الطيبة على النفس غير جائر ، فلايتحكم ولا يؤلم ، بل يشعر بها كل من يقارب صاحبها كما يشعر بدفء النار من يقترب منها :

أفرأيت الضال سواء السبيل فى الليلة الدهماء : كيف يأنس وينعشه الأمل حينما يلمح ضوء نور يشير إلى وجود مسكن عامر أو إنسان مؤنس ؟ هكذا تبعث الطيبة نور الأمن والطمأنينة ، وترسل إلى النفوس المظلمة نور السلوى والأمل والهدوء .

إن الأذكياء بين الناس قليلون ، والعباقرة أقل ، والغنى قد يرجع إلى الحظوظ أكثر منه إلى الاستحقاق ، وشرف الحسب لايدل على شرف ذات الإنسان ، وإنما على تفرعه مصادفة من أصل كريم .

أما الطيبة فإنها فى متناول يد الجميع ، لاتنحصر فى طائفة معينة ، بل هى من نصيب الغنى والفقير من غير أن تكترث بالمراكز الاجتماعية ، والأنواع البشرية والمعتقدات الدينية .

إن البراعة تحتاج إلى الإعجاب بها ، والغنى يفتقر إلى بهر العيون ، أما الطيبة فإنها فى غنى عن هذا كله ؛ لأنها كائنة بذاتها ، وقيمتها من ذاتها ، ونفعها عائد على غير ذاتها ، وهى تكاد توجد من القليل كثيرا ، ومن الشر خيرا ، ومن الضعف قوة ، ومن البغضاء حبا ، ومن اليأس رجاء .

وكل عمل ينسب إلى الطيبة ، ولا يكون صادرا من القلب ، وبدافع الشعور ، بعد إقرار العقل إياه ـ يكون بعيدا عن الطيبة ، وفى نسبته إليها ظلم لها ؛ فقد يؤدى عدم تمييز مقتضياتها من مقتضيات الإهمال والتفريط إلى الشر بدلا من الخير ، وإلى تقوية روح الخبث والشر ، وإلى فساد نظام المجتمع .

الطيبة الحقة هى غير الإفراط فى التراخى والضعف ، ولولا التباس الأمر على الناس ولولا تنكبهم عن تمييز الفارق بين التسمح وبين التفريط والخنوع ـ ما استعبدت الأمم الأمم ، ولا استكان المسلوب الحق للقوة الباغية عليه .

ويتوهم البعض أن الطيبة غريزة فطرية ثابتة ، والحال أنها اكتسابية : فهى توجد وتقوى بممارسة التطبع بها ، وإذن فما أحرانا بتدبر أسباب تقويتها ، واختيار مواضع العمل بها

ومظاهر الطيبة كثيرة ، متنوعة : منها الحب ، فهو يجىء فى إثرها كمجىء الحرارة إثر إشراق الشمس الصاحية ، فالإنسان يحب من أحسن إليه ، ويحسن إلى من يحبه ، وعلى هذا يكون الحب ثمرة طيبة من ثمرات الطيبة ، بل إنه مندمج فيها متمم لها ، ومجرد وجودهما فى القلب يبعث فيه النشاط ، ويرقق العواطف ويعلم الإنسان نبل التضحية ولذة القيام بالواجب .

والطيبة والحنو من مستلزمات السعادة ، بل من أهم دواعيها ؛ فهى بدونهما كزهرة الشوك فى جمال المظهر ؛ وحقارة الأصل ، ودناءة القيمة ، وهى بهما أدنى إلى التشبيه بالورود العطرة فى الحديقة المخصبة .

الطيبة والحب والسعادة ثلاثة أشياء لا تتجزأ ، إذا تحقق وجودها جميعا فى نفس بشرية تجاوزت هذه النفس حدود الإنسانية المألوفة ، وسمت إلى أسمى من أفقها .

إن للحب فى كل الأزمان منزلة أقرّها كل الناس حتى أهل التصوف، وقرر علماء الاجتماع أنه أمتن دعائم التوائق العام، ولكن هذا الإقرار لم يَحْدُ الإنسان إلى إجلال شأن الحب بصورة صادقة عادلة.

إن معالم الحياة تتبدل مع الحب، وتكثر صورها، وإذا احتملت النفس شيئا من المتاعب فى سبيله أوضحت بشىء فإنها تربح أضعاف ماضحت عوضا منه من اللذة والانتعاش.

وقد ينحرف ميل العواطف إلى حيث لا تتحقق آمال المحب، أو يكون انبعاث نفسه لمن لا يستحق العطف عليه والعناية به، ولكن هذا لا يقلل من مزايا الحب واللحظات القليلة التى يتعرف فيها القلب لذة الحب أثمن من أن تقدر، ولا يتأتى بحال من الأحوال منع تأثيرها العجيب فى النفس.

كل من فى الوجود يتوق إلى الطيبة وينشدها، كما يتوق إلى الصدق ويطلب الحقيقة، ولكن الإنسان بتصرفاته السيئة ينكب عن جادة ما يتوق إليه، ويفتن فى الكذب على رغم علمه أن الصدق من مقتضيات الطيبة. وهل السياسة التى يفتخر البعض من أبناء هذا العصر بكونهم من أساطينها إلا نوع من الإبداع فى الكذب، والافتنان فى التضليل لنيل أمنية أو دفع جائحة أو إقرار ظلامة؟

وهل المهارة فى السياسة إلا التبريز فى إلباس الباطل ثوب الحق بحيث يلتبس على الأبصار ويحول فى اعتبار الناس منزلة الصدق؟ ولكن التمادى فى غش الناس أوجد فيهم نزعة إلى استنكاف هذه الحال: نزعة تبشر بانقلاب جديد تقوم المعاملات فيه على الصدق وتقارض المنافع، فلو عاد الصدق إلى منزلته من نفوس الناس لجاءت فى إثره الطيبة، ولتعاونت وإياه على إصلاح ما تعاضد الكذب والخبث على إفساده، فالطيبة من عقاقير الطب الروحانى التى تسكن آلام الحياة، وتخفف شقاء العيش.

كل ما فى الوجود من علم وحكمة يؤكد ضرر المشاحنة، وتحكيم السيف والنار بين الناس؟ ولو زال الجشع من النفوس وشعر الإنسان بالعطف على أخيه الإنسان لزالت أضرار التزاحم على الصورة الوحشية التى نشهدها.

ولكن هذا لا يعني عدم وجود الطيبة ؛ لأن مجرد ظهور الدال على وجود شيء يكفي للإيمان به ، فكذلك يكفي وجود بعض الشيء للدلالة على وجود الطيبة ، على الرغم من وضوح قسوة الإنسان ووحشية البعض من الناس .

ولا ينكر أحد أن التوائق العام بين الأفراد الآن أقوى منه في العصور السالفة ، والأصوات ترتفع الآن من كل صوب تطلب تضحية المنافع الشخصية في سبيل المنفعة العامة ولصالح الاجتماع ، وعدد من يموتون في خدمة الإنسانية يزداد من يوم لآخر ، والأطباء يعرضون أنفسهم للأخطار لاجتلاء ما غمض من أسرار العلم لنفع النوع الإنساني ، والقائمون بالثورات لإحداث الانقلابات السياسية كلهم يقدمون على أعمالهم ، ويتعرضون للموت وهو في طريقهم إلى غايتهم ، وذلك لخدمة الجماعة .

كل هذا يشير إلى وجود عاطفة في الإنسان تدفعه إلى الإشفاق على غيره والرثاء له ، وإلى السعي في تخفيف آلامه ، وتلطيف أنواع الشقاء الذي يرزح تحت أعبائه الثقيلة .

ليس من شك في أن جل مساعي الإنسان لا يتحقق ، ولكن هذا لا يمنع من أن نتخذ السعي دليلا على وجود فكرة التوائق ، وعاطفة التضحية ، وكلتاهما من دلائل الطيبة .

وما ينزع إليه الناس الآن من إيجاد المستشفيات وملاجئ العجزة ، ودور رعاية الأطفال والأيتام ، وجمعيات إسعاف الجرحى ، وإنقاذ البائسات من براثن تجار الرقيق الأبيض ، ومقاومة انتشار البغاء ــ يدل دلالة صريحة على وجود الطيبة ، وعلى نهضتها ، وتحفزها للقضاء على كثير من شرور العالم .

إن اليوم الذي يتطهر فيه المجتمع الإنساني من شرور الإنسان بعيد جدا ، لا لتعذر تحقيق الرغبة فيه ، ولا لطول الطريق بيننا وبينه ، وإنما لصعوبة معرفة الناس حقيقة الطيبة لخفاء كنهها على كثير منهم وعدم أخذهم بها ، ولولا هذا لصلح حال الاجتماع .

لمحة تاريخية فى الصدق

الصدق المحض من أندر الفضائل ، والذين يحسبون أنهم صادقون تماما لا يمضى يوم دون أن يقع منهم من الإفراط والتفريط فى أقوالهم الشىء الكثير ، فإن المبالغة تكاد تكون شائعة ، والدأب على استعمال كلمة (جدا) حيث لا داعى إليها يدل على رسوخ عادة التمويه وشيوعها مع أن المموهين قد يكونون من أكبر أدعياء الصدق : فتراهم يحثون عليه ثم يقولون أقوالا يستعملون فيها المبالغة والإطناب حيث لا داعى إليها ويصورون ذلك صورا منطبقة على الحقيقة فى شكلها بعيدة عنها فى لونها وبرقشتها .

وليس من غرضنا الآن أن نتكلم عن الأقوال والأحكام المخالفة للحقيقة بل عما كان منها مناقضا لها ، ولا سيما إذا كانت هذه المناقضة ناشئة من مصلحة شخصية كالإضرار بالناس واستجلاب النفع أو النجاة من قصاص أو مضرة أو مظلمة أو للتزلف إلى شخص والانتفاع منه ؛ لأن محبة الصدق لذاته من غير التفات إلى النتائج أمر نادر .

وهاك بعض الأمثلة التى تدل على تمكن الكذب من بعض الشعوب والصدق من بعض آخر : إن الذين ساحوا بين الشعوب المتمدينة التى تعيش بالحرب والغزو يشهدون أن الكذب شائع بينها كما هو شائع بين الخاضعين للولاة المستبدين: قال بَرْتْش عن هنود دِكُوتَا : « إنهم مثل غيرهم من المتوحشين لا يقولون الصدق مطلقا »

وقال غَرْفث عن قبائل المِشْمِس : إن الصدق قليل القيمة عندهم حتى لا يقدر الإنسان أن يثق كثيرا بما يقولون

ويقال عن أهالى أواسط آسيا : إن الصدق آلة بيد القوى ، ومَن يحكم باللين قلما يكرم .

وقال ولمس عن الفيجيين : إن الميل إلى الكذب شديد فيهم حتى إنهم

لا ينكرونه وقد مهروا فى الكذب لأنهم يعولون عليه كثيرا فى إخفاء مقاصد الرؤساء ودسائسهم فإن للكذوب الماهر قيمة كبيرة عند الرئيس منهم ، والصدق فى لغة الفيجيين مرادف للكذب . ومثل ذلك أهالى أوغندة : فقد قيل : إن الصدق محتقر عندهم كما هو محتقر عند سائر المتوحشين ، والكذاب الماهر فى الكذب معدود من النوابغ الذين يستحقون أن يعجب بهم .

وكان أهالى أواسط أميركا كذلك : فقد قال « ده لايت » عن قوم منهم خاضعين لحكومة استبدادية سفاكة : إنهم كذبة .

ومثلهم الهنود الحاليون الذين حافظوا على أخلاق أسلافهم : فقد قال دنلوب عنهم :

إننى لم أجد فى أواسط أميركا أحدا من الوطنيين يسلم أن الكذب رذيلة ، وإذا نجح أحدهم فى خديعة غيره قال الأهلون : إنه رجل ماهر مهما تكن الواسطة التى استعملها قبيحة .

ويشبه ذلك ماقاله « نورمن » عن أهالى جزائر فيلبين : فقد قال : إنهم لا يعتبرون الكذب خطيئة بل حيلة محللة .

وإذا تصفحنا كتب الأمم القديمة رأينا أنه لم يكن للصدق عندهم منزلة كبيرة : فقد وصف هوميروس الآلهة فى الإلياذة بأنهم يخدعون الناس ويخدع بعضهم بعضا ، وأن الرؤساء لا يتورعون عن كل نوع من الكذب . وقال : إن إلهة الحكمة « بلاس أثينا » كانت تحب عولوس لأنه خداع .

وقد قيل عن الكريتيين : إنهم دائما كذابون ولكنهم لم يمتازوا بذلك على غيرهم من اليونان امتيازا جوهريا .

ووصف بعض المؤرخين اليونان فى العصور الخالية قائلا : إن اليونانى الذى يصدق فى كلامه نادرة من النوادر .

ويظهر من تاريخ أوروبا أن عدم الاحتفال بالصدق كان شائعا فى أيام الحروب التى فشت فيها فى عصر الدولة الأولى من دول فرنسا وهو عصر سفك الدماء :

فقد كان الولاة يقسمون الأيمان المغلظة وأيديهم على المذابح ثم يحنثون فى أقسامهم حتى قال سلفيان: إذا حنث الفرنجى فلا عجب؛ لأنه لا يحسب الحنث ذنبا بل صورة من صور الكلام .

ثم توالت الحروب فى أوروبا إلى القرن العاشر وانتشر فيها الغش والخداع حتى امحت أصول الفضائل عن النفس كما قال مرتن

ولما استتب الملك لملوك فرنسا بقى الأمراء والأشراف مظهرا للخيانة، ولم يكونوا يحفلون بالصدق ولا بالأمانة ولا بالشهامة ولم يكونوا يؤمنون على الحياة ولا على العرض، وحتى الآن تجد بونا شاسعا بين أهالى أوروبا فى أنحائها الشرقية والغربية، بل أكثرهم حروبا أكثرهم كذبا وخداعا .

غير أننا إذا أمعنا النظر لم نجد التكلم بالكذب نتيجة لازمة للحرب وسفك الدماء ولا أن الصدق نتيجة السلم والدعة .

نعم إن السلم ولين الجانب يسهلان الصدق، والحرب والعداوة تسهلان الكذب، وستظهر علاقة كل حالة من هاتين الحالتين بأحوال الإنسان بعد أن نذكر الشواهد الآتية :

إن أمما كثيرة طردها الغزاة من مواطنها إلى مواطن حقيرة لا يطمع فيها وتركت هناك متمتعة بالراحة التامة أو غير مضطرة لتختصم مع جيرانها فنمت فيها الفضائل ولم تضطر إلى أن تبدل بها الرذائل .

وقال شورت عن أهالى الجبال التى فى الهند الجنوبية : إنهم لا يعرفون الكذب ولم يبلغوا من الحضارة مبلغا يمكنهم من اختراعه .

وقد رأيت آخرين ينسبون عدم اعتياد الكذب إلى البلاهة، وهو أمر لا يمكن إثباته، ولاسيما أن الأطفال والحيوان تكذب بأفعالها كما يكذب البالغون والناطقون بأقوالهم .

وقال «فورست» فى أهالى أواسط الهند الجبلية الأصليين : إنهم صادقون، وقلما ينكر أحد منهم مالا اقترضه من آخر أو جريمة ارتكبها . وقال سنكلر :

إن قبائل الراموسيس (من قبائل الهند) ـ كذابون كأكثر الشعوب المتمدينة بخلاف القبائل الساكنة الجبال : فقد أخبرني أحد البراهمة : « إنهم لبلاهتهم يصدقون دائما بلا موجب » وقد روى ذلك أيضا عن كثير من سكان جبال الهند وحراج سيلان وشمالي آسيا الممتازين بالصدق والاستقامة. ومن الغريب أن الصدق مرعى أيضا عند الشعوب العائشة بالحرب وسفك الدماء كما هو مرعى عند بعض الشعوب العائشة بالسلم والطمأنينة : فالهوتنتوت كثيرو الحرب مع جيرانهم ، ولكنهم لا يكذبون ولا يخلفون وعدا كما قال بروكلين . وقال مورغان عن الأروكواز (من هنود أميركا) :

إن محبة الصدق من مزاياهم ولكنهم في حرب دائمة مع جيرانهم

وأهالي بتاغونيا كثيرو الحرب بعضهم مع بعض ومع الإسبانيين الذين اجتاحوا بلادهم ، ولكن قال فيهم (سنو) : إنهم يشمئزون من الكذب أشد الاشمئزاز .

وقبائل الخُنْد الذين يعتقدون أن الصدق من أقدس الفرائض التي افترضها الآلهة على الناس عائشون بالحرب مع جيرانهم

وقيل عن قبائل « الكولى » سكان جبل دخان : إنهم ذوو شهامة وبساطة وصدق ولكنهم لصوص قساة .

فما الجامع بين الشعوب المتصفة بالصدق والدعة ، والشعوب المتصفة بالصدق والحرب ؟ : الجامع هو عدم الخضوع في الحالتين للقهر والاستبداد : فالهوتنتوت المشار إليهم آنفا حكومتهم شورية وحكامهم منهم وحكمهم بأكثرية الأصوات وسلطة رؤسائهم قليلة جدا .

وعند الأروكواز مجلس شورى فيه خمسون عضوا ينتخبهم الأهلون ويعزلونهم حينما يشاءون ، وإذا اجتمعوا لغزو قدموا عليهم أشدهم بسالة . وحكومة البتاغونيين ضعيفة فيخضع الأهلون لرؤسائهم ، ويهجرونهم حسبما يشاءون ،

وكذا حكومة الخند : فإن الأهلين متساوون ولا سلطة لرؤسائهم إلا ما يخولهم إياه مقامهم الأدبي ، والقهر والاستبداد غير معروف عندهم . وخلاصة ماذكره السائحون أن شيوع الصدق أو الكذب بين قوم متوقف على كونهم عائشين فى ظل العدل أو تحت لواء الظلم حتى قال (لفنِستون) : « إن الكذب ملجأ الضعيف المظلوم »

وهذا يصدق على أهل الحضارة الذين بلغوا شأوا فى مدارج العمران ؛ فإن شيوع الصدق أو الكذب بينهم هو بنسبة شيوع العدل أو الظلم والحرية أو الاستبداد ، فللظلم والاستبداد اليد الطولى فى جعل الناس يجنحون إلى الكذب ويمعنون فى الخداع ، وللعدل والإنصاف اليد الطولى فى جعلهم يفضلون الصدق ويتمسكون به ،

والغالب أن السلم حليف العدل والإنصاف ، والحرب حليفة الظلم والقهر ، ولذلك يكثر الصدق بين أهل السلم لانتشار العدل بينهم ، والكذب بين أهل الحرب لانتشار الظلم بينهم ، ولكن الصدق والكذب ليسا نتيجتين لازمتين للسلم والحرب ، بل للعدل والظلم ، فالصدق ابن العدل ، والكذب ابن الظلم

الصدق

اللغة

قال الراغب فى كتابه مفردات القرآن : أصل الصدق والكذب فى القول ماضيا كان أو مستقبلا وعدا كان أو غيره ، ولا يكونان بالقصد الأول إلا فى الخبر ، وقد يكونان فى غيره كالاستفهام والطلب .

والصدق مطابقة القول الضمير والمخبر عنه . فإن انخرم شرط لم يكن صدقا ، بل إما أن يكون كذبا أو مترددا بينهما على اعتبارين : كقول المنافق : محمد رسول الله فإنه يصح أن يقال له : صدقٌ ؛ لكون المخبر عنه كذلك ، ويصح أن يقال : كذب ؛ لمخالفة قوله لضميره .

والصدّيق من كثر منه الصدقُ . وقد يستعمل الصدق والكذب فى كل ما يحق فى الاعتقاد ويحصل نحو : صدق ظنى . وفى الفعل نحو : صدق فى القتال . ومنه : « قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا » هذا ما قال الراغب .

وقال الجمهور : الصدق ما طابق الواقع ، والكذبُ ما خالفه .

وقال آخرون : الصدق ما طابق الاعتقاد ، والكذب ما خالفه .

ويرى بعض المحققين أن الخبر ثلاثة أقسام :

(١) صادق (٢) وكاذب (٣) وغير صادق ولا كاذب : وبيان ذلك أن الحكم :

إما مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له ، أو عدم اعتقاده :

وإما غير مطابق للواقع مع اعتقاد المخبر له ، أو عدم اعتقاده :

فالأول : وهو مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاد المخبر له هو الصدق : كقول العالم بالجغرافيا : نهر النيل يجرى من الجنوب إلى الشمال .

والثالث : وهو عدم مطابقة الحكم للواقع مع اعتقاد المخبر عدم المطابقة هو الكذب: كقول العالم بالجغرافية : نهر النيل يجرى من الشمال للجنوب .

والثانى : وهو مطابقة الحكم للواقع مع عدم اعتقاد المخبر إياه لا يوصف بصدق ولا كذب : كقول من يعتقد أن نهر النيل يخرج من الجنة : إنه آت من بحيرات الاستواء .

والرابع : وهو عدم مطابقة الحكم للواقع مع عدم الاعتقاد لا يوصف بصدق ولا كذب كسابقه : كقول العالم بالجغرافية : النيل يجرى من الشمال إلى الجنوب مع عدم اعتقاده صحة هذا .

وإنما اعتبرت فى الصدق موافقة الواقع زيادة على الاعتقاد إشارة إلى أن الصفة الكمالية إنما تكون على وفق القوة الحكمية التى هى إدراك حقائق الأشياء

وخواصها ومايحسن وما يقبح من الأعمال على ماهي عليه في الواقع بقدر الطاقة البشرية .

وليس إخبار الإنسان بما يعتقد أنه الحق مقصورا على القول بل يتناول الإشارة باليد وهز الرأس ونحوهما ، لا بل يشمل السكوت ، فالسكوت إقرار : فمن ارتكب إثما ثم رأى غيره يعاقب على ارتكابه وسكت كان كاذبا .

إن الصدق وإن أوقعه الناس على القول ـ يتصرف على جميع الأحوال والأفعال الخالصة من الشوائب الصافية من الأكدار تشبيها بالقول الصادق الخالص من الزور والبهتان : فيقال : فلان صادق المودة إذا تخلصت من الغش والحقد ، وفلان صادق السريرة والضمير إذا صفيا من الارتياب والالتباس ، وفلان صادق الظن إذا أصاب به الحق ووافق به اليقين : كما قال الله عزوجل : « وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ » وهو في الكلام إصابة الحق واجتناب التحريف والتغيير والتبديل ، وكذلك هو في أكثر الأفعال القصد إلى مكارمها والخروج عن ملائمها .

وقد صرفته العرب في غير ماشيء فقالت : فلان صادق الطعنة والضربة إذا ما أصاب المقتل وطبق المفصل . ومثل هذا كثير في كلامهم مصرف في جميع أحوالهم ، فمن تحلى به فقد أحرز الفضل بكماله وجمع الخير في أقواله وأفعاله .

ولذلك قالت الحكماء : الصدق أوضح دلائل العقل وأعدل شواهد الخير وأرفع منازل البر وأقرب إلى السلامة وأبعد من الملامة وأجدر بالغبطة والكرامة .

الحاجة الى الصدق

(١) ـ هذا الخلق من خواص الإنسان وأحد الأركان التي عليها مدار نظام المجتمع البشري في جميع حركاته وسكناته :

فإن التاجر إن لم يعتمد على غلبة صدق المقال لا ينتقل من بلد لآخر لأجل البيع والشراء ، وكذلك الذي يشترى منه إن

لم يصدق التجار فيما يقولونه من الأثمان ومايروى إليه من الأخبار فى هذا الصدد لايقدم على الشراء . ومثل ذلك يقال فى الزراعة والصناعة ، بل قد يتجاوز ذلك إلى الحاكم والمحكوم : فإن الحاكم إن لم يغلب لديه صدق المتكلم فى دعوى ظلامته لايهتم بشكواه ، وإذا لم يترجح لديه صدق الشهود والصكوك لايتسنى له رد الحقوق إلى أربابها ولا إنصاف المظلوم من الظالم ولا إثابة المحسن ومعاقبة المسىء ، فتثور الأقوياء الظلمة للاعتداء ، وتمتد أيدى العابثين إلى الفساد ، وكل ذلك يخل بالمقصود من المجتمع الإنسانى ، فيتصدع بناء الوحدة ، ويختل نظام العدالة ، فتصبح الأمم أفرادا لايرعى كل فرد إلا فائدة نفسه دون غيره ، فتقصر الأمة عن الوصول إلى الرقى والسعادة ؛ لأنها إذا لم يتعاون أبناؤها على ذلك لما بينهم من وسائل التكافل لاتنال بغية ولا تصل إلى مقصود ؛ فإن اجتماع قدر الأفراد على العمل أدعى للوصول إليه ، بخلاف مالو تنافرت القلوب وعمل كل لنفسه ، فإن ذلك يؤدى إلى الانقباض عن الأعمال ؛ لأن كل ضعيف لا يأمن على نفسه وماله وما يحق له الدفاع عنه من تسلط يد القوى العابث ، بل قد يتعدى ضرره إلى مافوق ذلك كالشرائع والديانات ، فإنا إذا لم نصدق ماجاء فيهما من عظيم الآداب وصادق التشريع كنا همجا لاندين بدين .

ومن ذلك يتجلى أن الصدق عليه مدار نظام المجتمع الإنسانى ، وأن الكذب مخل به هادم لأحكامه ، كيف والمتصف به فاقد مزية النطق الذى من شأنه أن يكون إعرابا عن الحقيقة ؟ فهو من هذه الجهة منحط عن درجة الإنسانية إلى درك الحيوانية ، بل هو شر من ذلك : قال تعالى : « إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً » .

(٢) – إن حياة المجتمع الإنسانى من ضرورياتها التعاون والتآزر بين الأفراد والجماعات ، فلا يمكن أن يعيش الإنسان منفردا مستقلا عن غيره فى جميع شئونه ، بل لابد له من الاستعانة بغيره والاستناد عليه فى كثير من ضروريات الحياة ، وإذا فلابد من التفاهم مع غيره على أساس صحيح كى يتيسر له أن يتعاون معه ، فإذا لم يوجد الصدق فقد التعاون الذى هو أهم شىء فى هذه الحياة .

(٣) – إن الميزة التى امتاز بها الإنسان عن الحيوان إنما هى العلم والمعرفة والعلم مشتمل على قضايا ونظريات ؛ فإذا نقلت كاذبة انقلب العلم جهلا وعدمت الحقائق العلمية وفقد الإنسان ميزته التى امتاز بها عن الحيوان .

(٤) – إن الإنسان محتاج للعظة والاعتبار بأخبار الأمم الماضية والحاضرة ولا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بالصدق .

(٥) – إن قصوى غايات الإنسان نيل السعادة الباقية ، وهذه لاتتم إلا فى الدار الآخرة ، فلابد حينئذ من نقل أخبار تلك الدار صادقة ، ولا مناص من معرفة الوسائل الموصلة إلى تلك السعادة على وجه صحيح ، وهذا لا يكون إلا بالنقل عن الله سبحانه وتعالى بوساطة رسله ، فإن لم يكن الصدق شعارهم تعذرت معرفة ماعند الله تعالى ؛ لأنهم هم أمناؤه على وحيه وإبلاغنا ماغاب عنا .

(٦) – وإنما كان الصدق فضيلة لأنه من أهم الأسس التى تبنى عليها المجتمعات ، ولولاه ما بقى مجتمع ؛ لأنه لابد للمجتمع من أن يتفاهم أفراده بعضهم مع بعض ؛ إذ أنه بدون التفاهم لايمكنهم أن يتعاونوا وقد وضعت اللغات لهذا التفاهم الذى لا يمكن أن يعيشوا بدونه ، ومعنى الإفهام أن يوصل الإنسان مافى نفسه من الحقائق إلى الآخرين وهذا هو الصدق .

وأحوج ما يكون الصدق فى المجتمعات الصغيرة كالأسرة والمدرسة ؛ فكلاهما لا يبقى إلا بالصدق ، فلو كذب الطلاب فى جميع ما يتكلمون وكذب عليهم مدرسوهم فيما يلقون ما بقيت المدرسة وكذلك المنزل .

وإذا كان لا بقاء لمجتمع إذا كان كل ما يتكلم فيه كذبا كان من الواضح أنه يناله من الأذى بقدر ما فيه من الكذب : فقد يبقى إذا غلب فيه الصدق على الكذب ، بيد أنه يكون فاسدا منحطا .

ومما يجعل الصدق أمرا لا غنى عنه أن أغلب المعارف التى وصلت إلينا بالسماع أو القراءة مبناها على الصدق ، وعليها يعول الإنسان فى معاملاته وتصرفاته ، فلو كانت كذبا لكانت الأعمال المبنية عليها خطأ وضلالا ، وما وصل إلينا من العلم إلا شىء قليل وهو ما يمكننا أن نجربه بأنفسنا ، وهو لا يغنى فى الحياة .

ومن أجل هذا كان الصدق أساسا كبيرا من أسس الفضائل وعنوانا لرقى الأمم وانحطاطها .

(٧) — وإذا علمت ما يترتب على الصدق من الفوائد فى المجتمع الإنسانى فقد علمت مقداره من الفضيلة ، وأكبرت من يتصف به :

إذا صدق التاجر وفر على المشترى قدرا من الزمن يضيع فى المساومة وجزءا من ماله كان ذاهبا بغير حق لو كذب عليه فى قيمة المبيع ، وبذلك يقبل عليه المشترون إقبالا عظيما متى علموا منه ذلك الخلق الفاضل فيتبادلون المنفعة .

وإذا صدق المعلم فيما يلقيه من المعلومات ووقف عندما يعلمه ولم يقف ما ليس له به علم ، وعلم المتعلمون صدقه فيما يقول فعرفوا منه معلومات حقة ، ووثقوا بما يقول ولم يضيعوا أزمانهم فى الأباطيل — أحسنوا الاستماع إليه وأكبروا من شأنه .

وإذا صدق الحاكم فى الحكم على ماتقتضيه القوانين العادلة وأنفذ أحكامها سارع المحسن إلى الإكثار من إحسانه وارتد المسىء عن إساءته .

وإذا أصبح الصدق خلقا للإنسان جنى من ثماره حسن السمعة فقلده فيه خلانه ومخالطوه من أسرته وأحبائه وبخاصة الأطفال فإنهم إذا نشئوا بين أسرة كريمة الأخلاق صادقة المقال شبوا على الصدق فى القول متحلين بفاضل الأخلاق .

فلينظر من ليس بصادق فى جنايته على أولاده بما ورثوه عنه من الأكاذيب وسيىء الأخلاق ، وكذلك من يكفلهم ، فعلى رب الأسرة أن يباعد بينها وبين الأقاصيص الباطلة والخرافات التى توصل فى نفوسها المخاوف وتصديق الخرافات واعتبار الأكاذيب .

مكانة الصدق

لما تقدم كان الصدق أفضل خصال الإنسان وأوضح دلائل الإيمان وأجل مواهب الإحسان وأكمل نعم الملك الديان ، وهو دال على جلالة القدر ونزاهة النفوس وبعد الهمة وصلاح الشيم والشمائل ، وبه تمام المكارم والفضائل ، ومازال يحجب عن المكاره صاحبه ، ويثبت فى الصالحات مآثره ومناقبه ، ويحسن فى جميع أحوال الدنيا والدين عواقبه .

وهو ركن وثيق من أركان الدين وحبل من حبال العصمة متين : وعلامة صادقة لأولياء الله المتقين ، وبرهان واضح لعباده الصالحين ، وقد وصف الله به نفسه وأضافه سبحانه وتعالى إلى ذاته فقال عزوجل : « وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلاً » وقال تعالى : « وَإِنَّا لَصَادِقُونَ » وقال تبارك اسمه : « قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا » وأثنى به على نبيه إسماعيل عليه السلام فقال :

« إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيًّا » ووصف به تعالى نبيه وصاحبه فقال جل شأنه : « وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ » وخص به عباده فقال جل وعز : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ » ثم جعله صفة لجزيل ثوابه وكريم مآبه فقال سبحانه : « وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ » وقال جل ذكره : « فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » وقال تبارك وتعالى : « يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ » وقال جل شأنه : « لِيَجْزِيَ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ » وهذا كثير فى كتابه العزيز. وقال ابن مسعود رحمه الله : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا، وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا » رواه البخارى ومسلم :

وظاهر من الحديث أنه يهدى إلى البر ويرشد إلى التوسع فى الخير : ذلك أنه منبت الفضائل وجذع شجرتها ، وهل الإيمان بالله والتصديق برسله ووحيه إلا شعبة من الصدق ، فالصادق موفق للخيرات مقيم للمبرات .

والبر طريق الجنة بل مفتاحها الذى لا تفتح بغيره : قال تعالى « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ »

وقد بين لنا الرسول صلى الله عليه وسلم فى الحديث المشار إليه مسألة هى أهم مسائل الأخلاق : وهى طريقة تربية الخلق وتكوينه وتقويته فى النفس وتثبيته ، وجعله فى صف الطبائع : ذلك أن يتحرى الإنسان القول الجميل أو الصنع المجيد ويعمله المرة

بعد المرة حتى يؤثر في نفسه أثراً ، ويتخذ منه مجرى يزداد تعمقاً كلما تتابع العمل ، فإذا بذلك الأثر الخلق والفضيلة التي تصدر عنها الأعمال الطيبة بسهولة :

فمن رغب أن يكون الصدق شيمته وخلقه فليتحر الصدق في أقواله وأعماله ، وليتابع ذلك ؛ فإذا بالصدق خلقه ، وإذا به الصديق .

ومن رغب أن يكون الشجاع المقدام والبطل المغوار فليخض غمار الشدائد كلما دعته ، وليناضل الخطوب كلما داهمته فإذا بالشجاعة خلقه .

ومن أراد نفسه على الكرم فليبذل من ماله كلما أهاب به داعي الإحسان فإذا به الجواد الكريم .

ومعنى كتابة الله عز وجل من تحرى الصدق وتعوّده صدّيقاً ضبطُ ذلك في سجله وحسبانه في زمرة الصديقين ، وإعلانُ ذلك في الملأ الأعلى فرحاً به ورفعاً لذكره ، والوحيُ إلى قلوب العباد بذلك ؛ ليحترموه ويجلوه ويوقروه ويكبروه .

وكما أن الصدق أس الفضائل فإن الكذب أس الرذائل : به يتصدع بناء المجتمع ، ويختل سير الأمور ، ويسقط صاحبه من العيون ، ولا يصدقونه في قول ، ولا يثقون به في عمل ، ولا يحبون له مجلساً ، أحاديثه منبوذة ، وشهادته مردودة ،

لذلك نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم ، وفي القرآن كثير من الآيات المقبحة للكذب المنفرة منه المتوعدة عليه بالعذاب الشديد :

قال تعالى : «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ؛ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللهِ الْكَذِبَ ؛ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ، مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» .

« إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ ، وَأُولَئِكَ

هُمُ الْكَاذِبُونَ »

والكذب أيضا يجرى مجرى الصدق : فيكون فى القول والعقيدة والعمل: فقول مالا يطابق الضمير أو الواقع أوهما معا ، أولا يوافق النية ـ كذب . واعتقاد مالا يساير الوجود كذب .

وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الكذب يهدى إلى الفجور ، ويبعث إلى الشر ، ويهتك ستر الديانة ، فإذا بصاحبه مرتطم فى المعاصى متهالك عليها : وهل الشرك واتخاذ الند الذى هو أكبر جريمة إلا كذب . وبين صلى الله عليه وسلم أن الفجور يهدى إلى النار ، ويرمى بصاحبه فى دركها الأسفل قال تعالى : « وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ »

وكما أن الأعمال الحميدة بتحريها وتعودها تتكون الأخلاق العالية التى هى مصدر الخيرات : كذلك الأعمال السيئة إذا تحراها الإنسان وتَعَوَّدَها وضَرِيَ بها كونت فى نفسه الأخلاق السيئة التى هى مصدر الشر والآثام ، فمن سمح لنفسه بكذبة مرة وأتبعها بأخرى وعززها بثالثة فرابعة وهكذا أصبح الكذب خُلُقًا له ، وصار الكذاب المهين .

وكتابة الله متعودَ الكذب كذابا ـ تدوين ذلك فى صحيفته السوداء وحُسبانُه من طبقة الكاذبين المنافقين ، والتشهيرُ به فى الملأ الأعلى ، وإلهامُ النفوس أن تمجه وتحتقره وتزدريه وتمقته ؛ فإذا به بين الناس الطريدُ المهينُ الكريه البغيض .

ومن كلام سقراط الحكيم : من اتخذ الصدق سنة كان له أحصن جنة. وقال لبعض أصحابه : لا تستحى أن تقبل الحق ممن أتاك به وإن كان ذميا ، فإن الحق عظيم فى نفسه ويعظم صاحبه لعظمه .

ومن كلام عمر بن الخطاب رضى الله عنه : ليس فيما دون الصدق من الحديث خير . وفى بعض الحكم: الصدق يوجب الأمانة والكذب دليل الخيانة . وقال جعفر بن محمد : من صدق لسانه زكا عمله ومن حسنت نيته زيد فى رزقه، ومن

كثر بره بأهل بيته زيد فى عمره .

وقيل أيضا : من أحب أن يشارك أهل النعم فى نعيمهم وأهل الأموال فى أموالهم فليلزم صدق الحديث .

وقال أكثم بن صيفى : الصدق منجاة والكذب مهواة . وقال الشعبى : عليك بالصدق حيث تعلم أنه يضرك ، فإنه ينفعك . وإياك والكذب حيث ترى أنه ينفعك ؛ فإنه يضرك .

وقال بعضهم: لا جنة أوفى من الصدق ، ولا شىء أقوى من الحق ، ولا سبيل أخوف من الكذب ، ولا حادث أقبح من الزور

وقيل للأحنف بن قيس : ما المروءة ؟ فقال : صدق اللسان ومواساة الإخوان وذكر الله فى كل مكان .

وقيل : الصدق أصدق صديق يحملك على التحقيق ويخرجك من الضيق ، ويوضح لك الطريق . وقيل : الصادق ناصح وإن ثقل كلامه ، والمائن غاش وإن خف كلامه .

وقال بعض العلماء الصادق لا يغش ولا يفحش . وقال بعض الزهاد : أربع من كن فيه بدل الله سيئاته حسنات : الصدق والشكر والحياء وحسن الخلق .

وقال الفضل بن عياض : ما تزين الناس بشىء أفضل من الصدق والله سائل الصادقين عن صدقهم . وقيل لبعض الحكماء : ما عنوان الصدق ؟ قال: الإخبار بما تحمله العقول ، وأصدق القول ما كان عليه دليل من العمل .

وقال ابن المعتز : لو تميزت الأشياء لكان الصدق مع الشجاعة والكذب مع الجبن والتعب مع الطمع والراحة مع اليأس والحرمان مع الحرص والذل مع الدين .

وقال بعض حكماء الفرس : أربع يسودن الرجل : الصدق ، والعفة ، والأمانة ، والأدب . وقال رجل من الحكماء : الصادق بين مهابة الدنيا وثواب

الآخرة ، والكاذب بين مهانة الدنيا وعذاب الآخرة .

وروى أنه جلس الحجاج يوما ليقتل أصحاب عبد الرحمن بن الأشعث فقدم إليه رجل منهم فقال : أصلح الله الأمير ، إن لى عليك حقا. قال : وماهو ؟ قال : سبك عبد الرحمن يوما فقمت دونك . فقال الحجاج : ومن يعلم ذلك ؟ فقام الرجل عند أصحابه وقال : أناشد الله رجلا سمع ذلك منى ، فشهد لى . فقام رجل منهم وقال : قد كان ذلك أيها الأمير .فقال: خلوا عنه . ثم قال للشاهد : فما منعك أن تفعل مثل ما فعل ؟ قال : بغضى فيك . فقال الحجاج : وخلوا عن هذا الصدقه. فنجا من حيث لم يتوهم ، وتخلص من حيث لم يعلم .

وكان الحجاج على ما كان منه يعجبه الصدق ويؤثره ويطفئ غضبه ويكسره :

فمن ذلك أن رجلا رماه يوما فقال : انظروا من هذا ؟ فإذا رجل قد أومأ بيده ليرميه ثانية ، فقدم إليه وقد ذهب عقله ، فقال له الحجاج : أنت رامينا منذ اليوم : قال نعم . قال : فما حملك على ذلك ؟ قال : البغى والله . قال : خلوا سبيله فقد صدق .

وحكى عن ابن خراش : أنه لم يكذب قط، فأقبل ابناه من خراسان ، وكان الحجاج يجد عليهما ويجد فى طلبهما ، فأعلمه بعض العرفاء بوصولهما : فبعث الحجاج إلى ابن خراش ليختبر حقيقة ما وصف به ، فلما جاءه قال له : أيها الشيخ ! قال: ماتريد؟ قال : مافعل ابناك ؟ قال : الله المستعان هما فى البيت . قال الحجاج : لا جرم ، والله لا أسوءك فيهما أبدا وهمالك .

وقال سفيان الثورى لبعض أصحابه : ياأخى ، عليك بتقوى الله وصدق اللسان، فإنه ما أوتى العبد شيئا فى الدنيا أحسن من لسان صادق .

وقال بعض الصالحين : اصبر على الحق وإن غُلِبْتَ به وتنكب الباطل وإن غَلَبْتَ به ؛ فلأن تموت بحق خير من أن تعيش بباطل . وقال بعض الحكماء : من من شرف الصادق أنه يصدق على عدوه .

الرذائل

لم يرتق الإنسان بعد فى الأخلاق إلى درجة أن يتطهر من النزعات البهمية ، فهو ذو أطماع وأثرة ، يستصعب الإذعان للحق ، ويلتبس عليه الصواب بالخطإ ، وهو لا يسلم من اصطدامه برغبه المجتمع ، ومن حبه لأن يكون غالبا فائزا ؛ لأن فى نفسه ميلا إلى الشر كما فيها ميل إلى الخير ، وكلما صفت نفسه وتهذبت وقرب من الحق وألقى أدران الحيوانية صار بعيدا عن الرذائل التى تحجب عنه نور الفضيلة بما تراءت له فيه من ثوب مموه باللذة وأسباب تغريه إرضاء لميوله الوقتية التى لا تلبث أن تزول ، ويعقبها حزن دائم وحسرة أبدية على مافرط فى جانب الفضيلة وما آثر من لذة النفس غير مكترث بالعواقب ، وقد يعمى فى كثير من الأحيان عن الخير إلى أن تصبح مناقضته له غاية يعمل لها كل مافى وسعه : كأن يماطل فى سد الضرائب ، أو يلقى قمامات منزله فى الطرق ، أو يهمل إبلاغ الحكومة عن مرض معد ، وهو يعتقد أنها ليست جرائم مادامت عين الحكومة لا تقع عليها ، وقد يخدع نفسه ويتلمس لها الأعذار مع أنه يعد ذلك من غيره إثما كبيرا :

وسبب ذلك أن الواجبات الاجتماعية تمنع غرائز الإنسان عن كثير مما تهواه : «وأحب شىء إلى الإنسان مامنع» ولذلك يعد الشرائع أمرا ثقيلا وحملا لا يطاق : قال تعالى : «أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ» ولو عرف أن خير المجتمع خير له ونظامه نظام لشخصه ــ لسلك سبيل الفضيلة ، وخلا من نزعات الشر ، وخالف نزغات النفس والشيطان .

وتختلف مظاهر الرذيلة باختلاف الأحوال الملابسة لها ، فهى شر أو خطيئة أو جريمة :

فالشر سجية فى النفس تدعو الإنسان إلى ارتكاب الموبقات ، والشرير تأصلت فيه تلك السجية بقطع النظر عن سلوكه ؛ فقد لا تساعده الملابسات على إتيان مايريده ، وقد يأتى من المبرات مايوهم أنه فاضل مع أنه خلو من الفضيلة ، والفضيلة

لا تمت إليه بنسب ، ولذلك لا يكون الحكم الخلقى على الظواهر ، بل يكون على ما فى الضمير : جاء فى الأثر : إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم. فثبوت الشر لا يتوقف على التحقق الخارجى الذى قد تضعف الأدلة عن إثباته ، ولذلك يشترط أن يكون القلب صالحا ، ومتى صلح القلب صلحت الجوارح ، وإذا عجز منفذ القانون عن إثبات جريمة توجب عقاب مرتكبها فالضمير القائم على الشريعة الخلقية هو الشاهد والقاضى والمعاقب .

أما الخطيئة عند علماء الأخلاق فلا تتناول الشر المضمر ، فلا يقال فلان ارتكب خطيئة الكذب إذا نوى الكذب ولم يحصل منه بخلاف الشر الذى يعتبر رذيلة خفى أو ظهر ، وبين الشر المضمر والشر الظاهر تفاوت فى المنزلة كما بين الفضيلة المضمرة والفضيلة المتجلية فى الأعمال الصالحة : فالتفاوت فى الشر كأن يتفق اثنان على سرقة ثم يتردد أحدهما ويعدل عنها خوف العقاب وينفذها الثانى، فكلاهما شرير وإن كان الثانى شرا من الأول . والتفاوت فى الفضيلة كأن ينوى شخصان أن يعملا عملين خيرين فينفذ أحدهما نيته ويسوف الآخر متحينا وقتا ملائما وأسبابا أسهل ، فلا تواتيه الأوقات ولا تتهيأ له الأسباب ، فهما فاضلان والأول أفضل ، ويظهر هذا التفاوت بوجهيه فى صور أربع :

(١) نوى شخص نية صالحة ولم ينفذها .

(٢) نوى شخص نية صالحة ونفذها .

(٣) نوى شخص شرا ولم ينفذه .

(٤) نوى شخص شرا ونفذه .

فالثانى فى الفضيلة أسمى مقاما ، والرابع فى الشر أطول باعا ، وكثيرا ما تنعكس هذه القاعدة لأسباب مختلفة : كما إذا كان المانع من تنفيذ النية الصالحة سببا قهريا خارجا عن إرادة الإنسان كالموت والفقر والضعف ، وتكون قيمة العمل الصالح أقل من النية إذا قصد به نفع شخص ولم يكن الخير غاية ، بل كان وسيلة . لهذا كان فى الغالب إحسان المقل بالقليل أفضل من إحسان المكثر بالكثير :

ليس العطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

مما تقدم يتجلى أن الشر أعم من الخطيئة لأن الخطيئة تتناول عمل الشر الظاهر ولا تتناول انتواءه والشر يحكم به الضمير ، والرأى العام إن ظهرت آثاره ، والخطيئة يحكم بها الرأى العام .

وأما الجريمة فهى الخطيئة التى فرض القانون لها عقوبة ويستطيع القضاء أن يثبتها فيخرج من دائرة الجرائم :

الآثام التى يتعذر سن قانون لها : كالتقصير فى النظافة الشخصية .

والآثامُ التى يكفى فى العقاب لها سوء السمعة ومقت الرأى العام : كالبخل والطمع وخلف الوعد وإنكار الجميل .

والجرائم التى لها عقوبات مقررة ولا يستطيع القضاء إثباتها : كإقراض المربى المال بربا فاحش واعتصامه بضروب الحيل فرارا من القضاء .

يتضح مما سبق أنه ليس كل شر خطيئة ، لأن الشر يشمل النية والفعل معا أو النية فقط ، والخطيئة مقصورة على الفعل فقط . وليس كل خطيئة جريمة ، لأن الخطيئة تشمل ما يستحق العقاب وما لا يستحق قانونا والجريمة مقصورة على ما يستوجب عقوبة قانونا ، ويستطيع القضاء إثباتها .

موازنة بين الفضيلة والرذيلة

تتمثل الفضيلة فى المثابرة على عمل الخير ، والإخلاص فى الواجب ، والعمل بمشورة العقل فى تدبير الأمور ، واتباع شرعة الأخلاق ، وتتمثل الرذيلة فى ضد ذلك .

الفضيلة تهدى الإنسان إلى الغاية التى يُسَرُّ لها ، والرذيلة تضله إلى سواء السبيل

والفضيلة ترفع من شأنه ، والرذيلة تهوى به إلى درك الانحطاط والتدهور

العقل ، والفضيلة والحرية ، والقوة المعنوية ، والشرف – كلها معان متجانسة،

و كذلك الشهوة : والرذيلة ، والاسترقاق ، والجبن، والخزى .

ليست الفضيلة جبلة غرزية ، ولا الرذيلة نقصا طبعيا كما يقول بعضهم، وإنما الفضيلة ثمرة مجاهدة الإرادة ، ومغالبة العادة ، والرذيلة نتاج الضلال والغفلة . ولولا مغالبة النفس وقهر شهواتها ما كان لصاحب الفضيلة فضل على غيره من أهل الضلال وذوى الخبث ، وأحلاس الآثام .

عرف أفلاطون الفضيلة بأنها : التشبه بالمولى عز وجل ، وقال (مالبرنش) : إنها حب النظام . والمعنى واحد ؛ لأن أفعال الإله قائمة على النظام والتناسق والحكمة .

وحب النظام هنا ما كان صادرا عن إرادة تامة ، لا مجرد ابتهاج بالنظام ، بل يكون ذلك الحب أثرا فى النفس من الرغبة والرهبة ، حتى يصير مبدأ من مبادئها التى تمتزج بدم صاحبها فلا يتحول عنها فى السر والعلانية

وقال آخر : الفضيلة فناء النفوس فى النظام . وقال (مالبرنش) : إن الرذيلة هى التورط فى حب اللذات، والفضيلة ألا ترى النفوس شيئا سوى النظام ، وهذا هو جماع الأخلاق الكريمة .

متى تتحقق الفضيلة ؟

إن الشرط الأول من شروط تحقق الفضيلة هو أن يكون المتحلى بها عالما بما يعمل، عارفا بالقيمة الخلقية لعمله ، قاصدا عمل الخير منه : قال الشهير بوسويه : « ويل لمن عرف الفضيلة ولم يول وجهه شطرها وسعى لها . » ولا يكفى لعمل الخير والثبات عليه كما تقتضيه الفضيلة معرفة الإنسان للخير من تعلق القلب بحب الخير ذاته، وعلى ذلك كان الشرط الثانى لتحقق الفضيلة هو حب الخير حبا صادقا « بالعقل والقلب» وهو إرادة الخير والتعلق به

ولا يكون لمعرفة الخير وحبه أثر فى الأخلاق إلا بمجهود الإرادة وهو الشرط الثالث لتحقق الفضيلة .

فلاجرم أن قيمة الخير الذى يناله المرء يكون على قدر مجاهدته لشهواته وغاياته ، فكلما كان ذلك المجهود عظيما كان الفضل أعظم .

عرفنا الفضيلة بأنها اعتياد النفس عمل الخير ، ولا يتأتى هـذا الاعتياد إلا بقوة النفس المطمئنة ، ودوام كفاحها فى سبيل البر حتى يصير لها بمنزلة السجية :

فالثبات والتغلب على منازع الشهوات ، وخوادع الحواس ، وصرف أمانى حب الذات ، والخضوع للقانون طوعا واختيارا حبا فيه وإجلالا لشأنه ، ودفع النفس إلى فعل الخير والواجب بعزم مؤكد وجهد متجدد ، وتحذيرها من صغائر الإثم واللمم ، وتطهيرها من أرجاسها بالنصح والتوبة والإصلاح ، والسير إلى الأمام فى كسب الفضائل والمحامد ، والترقى فى مدارجها ـ كل أولئك وجوه الفضيلة ومظاهرها .

محاسن الفضيلة ومساوى الرذيلة :

الفضيلة تغرس السلام فى القلوب والنظام والطمأنينة فى النفوس ، والرذيلة اختلال نظام النفس ، فهى لذلك تورث قلق الخاطر ، وحرج الصدر ، وشجى القلوب ، واضطراب النفس ، هى تلك الأحزان المظلمة التى قد يكون لها أحيانا ستر من المسرات يحجبها عن النواظر حينا ، ثم تكون عاقبتها غالبا اليأس ، أو الجنون ، أو الانتحار ،

الرذيلة ترد الإنسان أسفل سافلين ، فقواه تعمل لغير ما خلقت له : تعمل لسقوطه وإفساد ملكاته التى فطر عليها لعلوه وكماله .

الفضيلة تغرس المحبة فى القلوب ، والرذيلة تنتزعها : ذلك بأن المحبة هى الإخلاص والخروج عن الذات أو إنكار الذات ، وإن الشهوة والرذيلة والحواس لا تحب ولا تخلص ، بل تتبع هواها للافتراس والتهام الغنيمة ؛ وإن المحبة قوة ومرتبة شرف ونعمة ، والرذيلة ضعف وسقوط ونقصان .

دليل المحبة السماحة فى العطاء وتوالى الهبات والصلات .

من شرائط الفضيلة العمل بها مع الارتياح والسرور ، أى العمل على تحقيقها لا رهبا ولا طاعة لأمر بل حبا فيها وتفانيا فى ذلك الحب

الجندى إذا خاض غمار الحرب طوعا للنظام العسكرى فقط كان بعيدا عن الفضيلة مجردا عنها تجردا مطلقا ، إنما يقربه من الفضيلة شجاعته وحماسته للدفاع عن حوضه ، والذياد عنه

وللفضيلة درجات شتى لاعدادلها ، حدها الأدنى الفضائل العامة التى بدونها لايكون الانسان أمينا ، وحدها الأقصى تلك الفضائل العالية التى تخلق الأبطال ورجال التاريخ

أثر الفضيلة والرذيلة فى النفوس

مما سبق يتجلى ما يأتى :

إن الفضيلة نور قدسي يشع فى نفوس الفضلاء ، وهدى يسكن فى قلوب الأبرار منزلا معه السكينة والإيمان ، فترى ذا الفضل وكأنما اشتملت عليه السعادة ، وحف به الحبور ، وكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها وطالعته الأفلاك بسعودها ، فلا تزال تراه منشرح الصدر ، مثلوج الفؤاد ، مغتبط النفس ، هنىء العيش ، يخوض غمرات الحياة آمنا مطمئنا ، لا يكاد يُرى إلا فرحا مستبشرا ، إذا أصابته مصيبة استرجع لها فلا تزيده إلا إيمانا ، ولا نماؤه إلا يقينا ، وهل يكون كذلك إلا لدنوه من الكمال الروحى الذى هو طلبته القصوى وبغيته العليا ؟ وهل كتب الله الفوز إلا للفضلاء الأبرار ؟

وأما الرذيلة فهى عناء الحياة ، واضطراب العيش ، وظلام النفوس ، وقيد الأرواح : فلا تكاد ترى صاحبها إلا كاسف البال قلق الخاطر ، كأنما تعاورته المصائب ، وحلت به النكبات ، واشتملت عليه الأحزان ، وطوقه الشقاء ، يقطع الحياة وكأنه فى بحر لجى يغشاه موت الجزع ، وتعلو به أثباج الفزع ، تهوى به عوامل الهلع ، فهما يخادع وينغش بها غواشى المسرات الكاذبة ،

وينلها صرف اللذات الخادعة ـ لا يستطيع التخلص مما هو فيه من كآبة ظاهرة على محياه ، ولا من جوى مستكن فى أعماق نفسه يلهب صدره ويذيب فؤاده ، وأكثر ما تكون خاتمة مطافه ـ الجنون أو الانتحار ،

ولو فكر هذا المنكود فى سر ما هو عليه من شقاء ، وما انتابه من بلاء ـ لعلم أن مصدر بلائه وعلة شقائه استسلامه لنفسه وإنالتها مشتهياتها :

ذلك بأن الأثرة أو حب الذات فيها معنيان :

حب اللذات ، والإعجاب بالنفس : أعنى فوق القوتين على شخصية الإنسان الحرة ، كما أن الفضيلة هي فوق العقل والحرية على هاتين القوتين ، فبالرذيلة يكون الإنسان مقهورا مغلوبا محكوما ، وبالفضيلة يكون قاهرا آمرا حاكما :

قال شيشرون : من أراد أن يكون حرا فعليه أن يكبح شهواته ولذاته ويفل غضبه ، ويجعل حدا لشحه وبخله ، ويعالج جراحات نفسه ، ولا ينصح لغيره حتى ينتصح هو ، فيعصى شهواته المسلطة عليه وهما الفضيحة والعار ، فليس الحر غير الرجل الحكيم ، وما الرق إلا طاعة هوى النفس وشهواتها

وما أحسن ما قاله حكيم فى خداع الشهوات :

الشهوات فى جملتها كاذبة تريد أن تتوارى عن أعين الناس ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، وقد تخفى على نفسها أيضا ، فما من رذيلة إلا ولها شبه كاذب بفضيلة من الفضائل ! ! ! يريد أن للرذائل مظاهر خادعة تصرف الأذهان وقتاما عنها ، فيختلط أمرها بالفضائل : وذلك عندما يسمون الخوف أو الجبن مثلا حذرا وبعد نظر ، والبخل اقتصادا وتبصرا ، والإسراف جودا وسخاء ، والإعجاب بالنفس احتفاظا بالكرامة الشخصية والغضب بأسا ورجولية ، والعنف قوة ، والعناد ثباتا فى الخلق ، والتذلل أدبا ولطفا ، والكسل راحة ، والحسد إنصافا وعدلا ودفاعا عن الحقيقة ، والتشدد والتعصب غيرة ، وطول الدعوى علما وأدبا ، والدناءة بسالة وتواضعا ، والبلادة رزانة وتعقلا .

أنجع علاج للشهوات

تعالج الشهوات إجمالا بالاحتراس منها ، وحفظ الحواس أن تتأثر بها، والهرب من الشر مهما تكن صورته ، وتعالج تفصيلا بما يلي :

(١) بالعمل؛ فهو أقوى سبل الخلاص من الرذيلة ، وأما البطالة فهي بابها وسبيلها المعبد :

إن الشباب والفراغ والجدة مفسدة للمرء أي مفسدة

(٢) تعهد السريرة في كل يوم ، وملاحظة مايطرأ على سلوكها من تغير وتحول ، والوقوف على أسبابه آنا بعد آن ، وعرض مايبدو على العقل والقانون الخلقي

(٣) مخافة الله تعالى : فرأس الحكمة مخافة الله ، والطمع في ثوابه والخوف من عقابه من أسباب طرد الرذيلة عن القلوب ، وليكن للإنسان ميل غريزي لحفظ كيانه الأدبي كميله الغريزي لحفظ حياته، ومقاومة الشر لا تكفي بل عمل الخير هو السبيل الوحيد لاجتناب الشر؛ فقد قال حكيم : إن الجيش المدافع في رأى أهل العلم بالجندية إذا اقتصر على الدفاع دون الهجوم فقد نصف قوته؛ وكذلك الإرادة : متى طالبتها الشهوات بالبخل قابلتها بالجود والسخاء ، وإذا زينت لها الكبرياء والإعجاب أجابتها بالخضوع والتواضع، فعلاج الشهوات مخالفتها .

ومن مساوى الشهوات أنها لاتقف مضارها على الحياة الأدبية ، بل تتخطاها إلى الحياة الجسمية ، فإنها كالنار تلتهم مايقع فريسة لها ، والشهوات كالأمراض لها تاريخ أوحياة ، فهي تكون في أول الأمر فكرة ترد على الذهن ، ثم تخيلا شديدا ، ثم لذة إلى أن تنتهي أخيرا فتكون سلطانا قاهرا :

قال (بوسيه) : إن الشهوات كالنهر المتدفق من علو : يعسر وقف تياره بسد مجراه،

ولكن من الميسور تحويله . وكذلك يقول : إن أنجع الطرق للوقاية من الرزيلة شغل الذهن بالمبادئ الحكيمة والتعاليم الصالحة فى أيام الشباب الغض حتى إذا أتت الرذيلة وجدت المكان مشغولا .

الشهوات لا عقل لها ، فلا تعرف طرق الإقناع ، بل هي شديدة عنيفة عمياء نافرة ، ومن أخص صفاتها أن ليس لها قانون ، ومن شأنها الإخلال والتهجم على العقل ، وإطفاء سراج الضمير .

وقال بوسيه أيضا : من العبث مقاومة الشهوة بقوة الدليل والبرهان إذا كانت الشهوة هائجة ، فقد يزيدها ذلك ثباتا ورسوخا من حيث تبغى صرفها ، بل الحكمة تسكين ثورتها بتحويلها ثم إلقائها جانبا ، وعدم مقابلتها وجها لوجه .

الهوى

للهوى سلطان شديد يخدمه شيطان مريد ، فمن أطاع سلطانه ختم الله على قلبه وحرم الرشاد من ربه فأصبح صريع غيه غريق ذنبه : قال الله عزوجل : « أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ » وقال سبحانه : « وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » وقال تعالى لنبيه داود عليه السلام : « وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ » إلى غير ذلك من الآيات .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلَاثٌ مُنْجِيَاتٌ وَثَلَاثٌ مُهْلِكَاتٌ فَالْمُنْجِيَاتُ خَشْيَةُ اللهِ فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ وَالْحُكْمُ بِالْعَدْلِ فِي الرِّضَا وَالْغَضَبِ وَالِاقْتِصَادُ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى . وَالْمُهْلِكَاتُ شُحٌّ مُطَاعٌ وَهَوًى مُتَّبَعٌ وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ »

لينال حاجته ، ولا يقاربه كل المقاربة فيجترئ عليه ، ولا يعادى ماوجد إلى المحبة سبيلا ، ولا يعادى من ليس له منه بد .

وأحزم الأمور فى أمر العدو ألا يذكره بسوء إلا عند الفرصة ، وإن من أكبر الظفر بالأعداء اشتغال بعضهم ببعض ، وإن مما يستعين به المرء على عدوه مجانبة من يعاشره ومصاحبة عدوه ، والعاقل لا يخاطر بنفسه فى الانتقام من عدوه ، والمعاداة بعد الخلة فاحشة عظيمة لا يليق بالعاقل ارتكابها ، فإن دفعه الوقت إلى ركوبها ترك للصلح موضعا .

التلون فى المودة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاَ خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لاَ يَرَى لَكَ مِنَ الْحَقِّ مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ) وقال رجل من الأعراب : (أعجز الناس من قصر عن طلب الإخوان ، وأعجز منه من ظفر بذلك منهم فأضاع مودتهم ، وإنما يحسن الاختيار لغيره من أحسن الاختيار لنفسه) وما أبلغ قول بعض الحكماء : إذا رزقك الله ود امرئ صحيح الود فحافظ عليه وتمسك به ، ثم وطن نفسك على صلته إن صرمك ، وعلى الإقبال عليه إن صد عنك ، وعلى البذل له إن حرمك ، وعلى الدنو منه إن باعدك ، حتى كأنه ركن من أركانك .

وإن من أعظم عيب المرء تلونه فى الوداد قال الشاعر :

وكم من صديق وده بلسانه   خئون بظهر الغيب لا يتندم
يضاحكنى كرها لكيما أوده   وتتبعنى منه إذا غبت أسهم

والعاقل لا يقصر فى تعاهد الوداد ، ولا يكون ذا لونين وذا قلبين ، بل يوافق سره علانيته وقوله فعله ، ولا خير فى متآخيين ينمو بينهما الخلل .

وإن من أعظم الأمارات على معرفة صحة الوداد وسقمه ملاحظة العين إذا لحظت ، فإنها لا تكاد تبدى إلا ما يضمر القلب من الود ، ولا تكاد تخفى ما يجنه الضمير من الصد ، فالعاقل يعتبر الود بقلبه وعين أخيه ، ويجعل له بينهما

وقال لقمان لابنه : يابنى أول ما أحذرك من نفسك ، فإن لكل نفس هوى وشهوة ، فإن أعطيتها شهوتها تمادت وطلبت سواها ؛ فإن الشهوة كامنة فى القلب كمون النار فى الحجر : إن قدح أورى وإن ترك توارى . وقال بعضهم :

إذا ما أجبت النفس فى كل دعوة دعتك إلى الأمر القبيح المحرم

وقال الأصمعى: كان عبد الملك بن مروان كثيرا ماينشد (وقيل إنه لهشام بن عبد الملك) :

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى إلى كل مافيه عليك مقال

وكان المعتصم يقول : إذا ظهر الهوى بطل الرأى . وفى منثور الحكم : العقل صديق والهوى عدو . وقال بعض الصالحين : الهوى مركب ذميم يسير بك فى ظلمات الفتن ، ومرتع وخيم يقعدك فى مواطن المحن ، فلا تحملنك شهوة النفس على ركوب المذمات والقعود فى مواطن الخطيئات . وقال بعض الشعراء :

واعلم بأنك لن تسود ولن ترى طرق الرشاد إذا اتبعت هواكا

وقيل فى بعض الحكم : « أشرف الناس من عصى مراده ولم يعط الهوى قياده » وكانوا يقولون : أيدى العقل تمسك أعنة الهوى وعيون البصائر تدرك أعمال البر والتقى . ومن أمثالهم : من تملكه هواه خسر دنياه وأخراه . ومنهم من فرق بين هوى الشهوات وهوى الحب ، وقال :

إن هوى الحب يعرض لأهل الآداب وذوى الألباب ، ولم يزل موجودا فى أجلة العظماء وأكابر العلماء والفضلاء على بعدهم عن موافقة الشهوات وركوب الدنيات . وفى مثل ذلك يقول أبو منصور الثعالبى : هوى الحب داء قديم لم تسلم منه قروم الأقدمين وأئمة الأمم وأعلام الإسلام .

وهوى الشهوات لايفارق أهل الجهالة المتمسكين بعرا الضلالة والبطالة ، وهما وإن افترقا فى حال قد جمعتهما الإرادة المركبة فى النفس الكامنة فيها

فإذا قهر الإنسان سلطان حبه وملك أعنة قلبه فركب العفاف سجية — فقد قدر الله حق قدره ، كأن مالك نفسه عن شهواتها وصارفها عن موافقة لذاتها وهو

قادر على تمكينها من إرادتها ـ قد بلغ الغاية من الطاعة وبذل في إرضاء خالقه جهد الاستطاعة ، وكلاهما من نفسه في الجهاد الأكبر قد فاز من التقى بالحظ الأوفر .

وقال أفلاطون : في الإنسان أربع طبائع : العقل والهوى والعفة والشهوة .

والإنسان مسلط على مشيئته فمن عمل خيرا جوزى به ومن عمل شرا كوفئ عليه .

ودعا رجل لرجل فقال : هناك الله بما أعطاك ، وجعل رأيك غالبا لهواك ، وشغلك بدنياك عن أخراك . وقال بطليموس : أعدل الناس من أنصف عقله من هواه .

وأرفع درجات الإنسان وأصلح حالاته أن يموت مجاهدا لنفسه قاهرا لشهوته ، والحرب بينهما تارة له وتارة عليه ، فإن تملك النفس قسرا وقمع سلطان الهوى قهرا درجة عالية لا يبلغها إلا أهل الكمال : وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا مِنْ أَحَدٍ إلاَّ لَهُ شَيْطَانٌ وَإنَّ اللهَ قَدْ أعانَنِي عَلَى شَيْطَانِي » وقال في شأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ما سلك عمر فجا إلا سلك الشيطان فجا غيره)

ولا يزال الإنسان المسخر لهواه الغافل عن صلاح دينه ودنياه منتظر الصلاح مرجو الخير والفلاح ما لم يجاوز حد الفتوة إلى حد الاكتهال ، ولم يكن قد سلك سنن الصلاح والاستقامة ؛ فإنه في مجرى العادة تنقطع منه أسباب الرجاء ، وقد أعيا داؤه ، وعز دواؤه ، وتعذر على المعاني شفاؤه : قال عبد الله بن المبارك : علامة الإيمان غلبة العقل على الهوى . وقال أيضا : خير الناس رجل جعل العقل بينه وبين هواه ، فما سكن إليه العقل أخذ به وما نفاه العقل نبذه

الجهل

من الخلال المذمومة الجهل ، وهو مضمار العثار ، والدليل على جمود الخاطر واعتلال الذهن : قال بعض الحكماء : عمى الجهل أشد من عمى العين .

أقسام الجهل

كما ينقسم العقل إلى غرزى ومكتسب ينقسم أيضا إلى بسيط ومركب :

أما الأول فهو نقصان العقل المكتسب وفقدان التجربة ومنه البله وأمثاله ، والجاهل البسيط إذا تنبه إلى الخطأ علمه وذلك لسلامة الغريزة : قيل فى المثل : أبله من باقل : وهو رجل اشترى ظبيا بأحد عشر درهما فسئل عن ثمنه ففتح يديه وأخرج لسانه فهرب الظبى من يده . ومن البله أن هشام بن عبد الملك عرض الجند فتقدم رجل جاء بفرس كلما قدمه تأخر ، فقال له هشام : ما هذا ؟ قال : ياسيدى ، فاره ولكنه شبهك ببيطار كان يعالجه فنفر .

وأما القسم الثانى وهو نقصان أصل الغريزة فيطلق عليه الجهل المركب : والفرق بين الجهل البسيط والمركب أن الجاهل البسيط إذا نُبه تنبه ، والمركب إذا نبه يزداد جهلا : قال هشام : قيل لبعضهم : ما فعل أبوك بحماره ؟ فقال : باعِه (بالجر) فقيل : لم قلت باعِه بالجر ؟ فقال : ولم قلت أنت بحماره بالجر ؟ فقلت : إنى جررته بالباء . فقال : لم باؤك تجر وبائى لا تجر ؟

وقيل : جاء رجل إلى سيبويه ليصلح له شعرا قال أنشدنى فأنشد :

ما العيش إلا مع الحبيب إذا تلقاك من قريب

فقال سيبويه : جيد . فقل :

إذا تأملته طويلا أكاد من حبه أموت

فقال سيبويه : ويحك : البيت الأول آخره باء والثانى آخره تاء : كيف يكون

هذا ؟ فقال : يا سيدنا لا تنقط فلا أحد يدرى ماهو ؟ فقال سيبويه :فآخر الأول مجرور وآخر الثانى مرفوع . فقال : ما أجهلك ! ! أنا أقول لك لا تنقط وأنت تشكله ! !

وإذا انضم إلى الجهل المركب غرور فهذا الداء العضال .

وقد عصم الله منه أنبياءه وحذر منه أولياءه فقال عز من قائل :

« وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ »

وذم الجهل كثير فى كتاب الله تعالى .

وقال بعض العلماء : لا يحملنك إقبال النعمة على الجاهل – على الرغبة فى الجهل ولا إدبارها عن العالم – على الرغبة عن العلم ؛ فإن إقبالها على الجاهل اتفاق وإقبالها على العالم استحقاق ، وليس مستحق النعمة ومستوجبها كحاملها بغير استحقاق . وقيل لبزرجمهر : ما أعجب الأشياء ؟ قال : نجح الجاهل وإكداء العالم . ومن أقوال العلماء : نعمة العالم تظهر محاسنه وفضائله ، ونعمة الجاهل تظهر عيوبه ورذائله . وقال رجل من الجهال لسقراط الحكيم : ما أشد فقرك !! فقال له : يابن أخى ، لو علمت الفقر لأشغلك التوجع لنفسك عن التوجع لسقراط .

وكانت ملوك الفرس إذا غضبت على العالم وأرادت عقوبته حبسته مع الجاهل ، وكانوا يقولون : أشد حوادث الدنيا عالم يجرى عليه حكم الجاهل . وقال أكثم بن صيفى : ويل للعالم من الجاهل .

وقال أرسطاليس : العالم يعرف نقص الجاهل لأنه قد كان جاهلا ، والجاهل لا يعرف فضل العالم لأنه لم يك عالما .

فصل

ومما ينبغى لمن لم يتحل بنصيب من العلم والفهم أن يلزم الصمت ويأخذ به نفسه ؛ فإن ذلك حظ كبير من أدب النفس ونصيب وافر من التوفيق لأنه

لا يأمن من الغلط ودواعى السقط :

حكى أن رجلا كان يلازم مجلس الفقيه أبى يوسف فيطيل الصمت فقال له أبو يوسف يوما : مالك لا تتكلم وتسأل عما بدالك ؟ فقال : بلى أيها الفقيه ، إننى سائلك عن شىء . فقال : سل . فقال : متى يفطر الصائم ؟ قال: إذا غربت الشمس. قال : فإن لم تغرب الشمس إلى نصف الليل. فتبسم أبو يوسف وتمثل بقول القائل:

وللصمت ستر للغبى وإنما صحيفة لب المرء أن يتكلما

وقيل لبعض الحكماء: أى الزمان خير ؟ فقال : إذا كان العالم مرفوعا والجاهل موضوعا . قيل : وأى الزمان شر ؟ قال: إذا ساد الجهول وصحب أهل المعرفة الخمول . قيل : فأى الناس خير ؟ قال : الذى يعرف قدر نفسه . قيل : فأيهم شر ؟ قال: الذى جهل أمر دنياه. قيل : فبماذا نعرف صلاح دنيانا من فسادها والإحاطة بذلك لا تمكن ؟ قال : ميزان ذلك أولو الأمر ومن بيدهم الحل والعقد : فإن سرتك حالهم فالدنيا صالحة ، وإن ساءك تصرفهم فما أحراك أن تصف الزمان بالفساد !! ولا جرم فما أسوأ زمانا يتولى الأمر فيه ذوو الجهالة والأخلاق المشنوءة، ويتأخر فيه أهل العلم والخلال المحمودة .

والجاهل أبدا شبيه بالبهائم المخدوعة بما ينصب لها فى مصائدها من الخدع ، فتقع فى حبائل القانع بكثرة الشره والطمع .

فإذا تورطت فيه لم تنل ما خدعت به ولا قدرة لها على التخلص مما وقعت فيه ، فهلكت دون ما حسبت أنها تناله فهو أبدا شقى فى جميع أحواله : يخسر وهو يظن أنه يربح ، ويشقى وهو يظن أنه يسعد ، ويألم وهو يظن أنه يرتاح .

غفلة الإنسان عن عيوب نفسه

لهذه الرذيلة عواقب سيئة :

منها ثقل النصيحة ، فإن النصيحة من حيث هى نصيحة تتميز القلوب غيظا منها ، وتنفر النفس عنها بمخالفتها الهوى ، ولأن النفس ميالة إلى الفساد والنصيحة داعية إلى الرشاد : قال ابن مسعود : ما نصحت لأحد قط إلا وجدته يفتش فى عيوبى ، وليس ذلك إلا لثقلها عليه . ومن أمثال العرب : إن كثير النصيحة يهجم على كثير الظنة : أى إذا بالغت فى النصيحة اتهمك من تنصحه . ومن هذا تلطف العقلاء فى إيصال النصائح والمواعظ إلى النفوس البشرية بضرب الأمثال كالذى فى كليلة ودمنة وغيره ؛ إذ النصح الصريح ثقيل على النفس والنفس تميل إلى اللهو ، فطووا لها المواعظ فى حكايات ملهية لتنبُّهَ البصيرة بها .

ومنها الظلم وعدم الإنصاف : قال أبو الطيب المتنبى :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وقفت امرأة قبيحة على عطار ماجن فلما نظر إليها قال متمثلا بالآية الكريمة : (وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ) فقالت متمثلة بالآية الكريمة : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ)

ومن نتائج الظلم وعدم الإنصاف المماطلة فى حقوق الناس . ومن أمثال العرب : « الأكل سَلجان والقضاء لِيَّان » : يضرب لمن يأخذ مال الناس ، فيسهل عليه فإذا طولب بالقضاء دافع وصعب عليه .

ومما يحجب العقل العجب النفسانى وهو من نتائج حب الإنسان نفسه أيضا .

والعجب إما بالنفس أو بالرأى ، وكلاهما يحجبان البصيرة :

فأما العجب بالنفس فقد قال بعض الحكماء : إنه نهاية البعد من الفضل : وذلك لأن المرائى أسوأ حالا من الكاذب لأن المرائى يكذب فعلا والكاذب

يكذب قولا والفعل أشد من القول ،

والمعجب بنفسه أسوأ حالا منهما لأنهما يريان نقص أنفسهما ويريدان إخفاءه ، والمعجب بنفسه قد عمى عن عيوبها فيراها محاسن فيبديها . وقيل للحسن : من شر الناس ؟ قال : من يرى أنه خيرهم . وقال: من رضى عن نفسه كثر الساخط عليه .

وحقيقة العجب ظن الإنسان بنفسه استحقاق منزلة هو غير مستحق لها : فإن أعجب برأيه وعمله وعقله منعه ذلك من الاستفادة والاستشارة والسؤال ، فيستبد برأيه ونفسه ، ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأى الخطأ الذى خطر له ، فيفرح بكونه من خاطره ، ويقدم عليه فيكبه ويرديه .

معاشرة الأحمق الجاهل

خليق بالفطن اللبيب البعد عن الأحمق الجاهل ؛ لأنه إن لم يعدك حمقه تدنست بعشرته ، والأحمق يتوهم أنه أعقل من ركب فيه الروح وأن الحمق قسم على العالم غيره ، والأحمق مبغض فى الناس مجهول فى الدنيا غير مرضى العمل ولا محمود عند الله وعند الأخيار .

ومن آيات الحمق التى يجب للعاقل تفقدها ممن خفى عليه أمره سرعة الجواب ، وترك التثبت والإفراط فى الضحك وكثرة الالتفات ، والاختلاط بالأشرار .

والأحمق إذا أعرضت عنه اغتم ، وإن أقبلت عليه اغتر ، وإن حلمت عليه جهل عليك ، وإن جهلت عليه حلم عنك ، وإن أسأت إليه أحسن إليك ، وإن أحسنت إليه أساء إليك ، وإذا ظلمته انتصف منك ، ويظلمك إذا أنصفته قال الشاعر :

لى صديق يرى حقوقى عليه … نافلات وحقه الدهر فرضا
لو قطعت الجبال طولا إليه … ثم من بعد طولها سرت عرضا

لرأى ما صنعت غير كبير واشتهى أن أزيد فى الأرض أرضا

وقال غيره :

لا تصحب الجاهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى حليما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا هو ماشاه
وللشىء من الشىء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

عشرة الأشرار

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ مَثَلُ الْعَطَّارِ إِنْ لَمْ يَنَلْكَ مِنْهُ أَصَابَكَ مِنْ رِيحِهِ وَمَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ مَثَلُ الْقَيْنِ إِنْ لَمْ تُصِبْكَ نَارُهُ أَصَابَكَ شَرَرُهُ) وفى ذلك يقول بعض المربين : الزم صحبة الأخيار وفارق صحبة الأشرار ؛ لأن مودة الأخيار سريع اتصالها بطىء انقطاعها ، ومودة الأشرار سريع انقطاعها بطىء اتصالها . وصحبة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار : قال أبو الدرداء : لصاحب صالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من صاحب السوء ، ومملى الخير خير من الساكت ، والساكت خير من مملى الشر . وقال مالك بن دينار : إنك إن تنقل الحجارة مع الأبرار خير من أن تأكل الخبيص مع الفجار . وقال عبد الواحد بن زيد :

جالسوا أهل الدين من أهل الدنيا ولا تجالسوا غيرهم ، فإن كنتم لا بد فاعلين فجالسوا أهل المروءات ؛ فإنهم لا يرفثون فى مجالسهم .

المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه

المصيبة العظمى رضا الإنسان عن نفسه واقتناعه بعلمه ، وهذه محنة قد عمت أكثر الخلق ، فترى اليهودى والنصرانى يرى أنه على الصواب ، ولا يبحث ولا ينظر فى دليل نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وإذا سمع مايلين قلبه مثل القرآن المعجز هرب لئلا يسمع . وكذلك كل ذى هوى يثبت عليه : إما لأنه مذهب أبيه وأهله ، أولأنه نظر نظراً بادىء ذى بدء فرآه صوابا ، ولم ينظر فيما يناقضه ، ولم يباحث العلماء ليبينوا له خطأه ، ومن هذا حال الخوارج على أمير المؤمنين على رضى الله عنه ، فإنهم استحسنوا ما وقع لهم ولم يرجعوا إلى من يعلم ، ولما لقيهم عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فبين لهم خطأهم رجع عن مذهبه منهم ألفان ، وممن لم يرجع عن هواه ابن ملجم ، فرأى مذهبه هو الحق فاستحل قتل أمير المؤمنين رضى الله تعالى عنه ، ورآه دينا حتى أنه لما قطعت أعضاؤه لم يمانع ، فلما طلب لسانه ليقطع انزعج وقال : كيف أبقى ساعة من الدنيا لا أذكر الله ؟ ومثل هذا ماله دواء .

وكذلك كان الحجاج يقول : والله ما أرجو الخير إلا بعد الموت . هذا قوله وكم قد قتل من لا يحل قتله : منهم سعيد بن جبير ، وقد أخبرنا عبد الوهاب وابن ناصر الحافظ قالا : أخبرنا المبارك بن عبد الجبار قال : أخبرنا الحسين بن محمد النصيبى قال : أخبرنا إسماعيل بن سعيد قال : حدثنا أبو بكر بن الأنبارى قال : حدثنا أبو عيسى الختلى قال : حدثنا أبو يعلى قال : حدثنا الأصمعى قال : حدثنا أبو عاصم عن عباد بن كثير عن قحذم قال :

وجد فى سجن الحجاج ثلاثة وثلاثون ألفا ما يجب على واحد منهم قطع ولا قتل ولا صلب .

قلت : وبعض السلاطين يقتلون ويقطعون ظنا منهم جواز ذلك ، ولو سألوا العلماء بينوا لهم . وعموم العوام يبارزون بالذنوب اعتمادا على العفو وينسون

العقاب ، ومنهم من يعتمد أنه من أهل السنة ، أو أن له حسنات قد تنفع ، وكل هذا لقوة الجهل .

فينبغي للإنسان أن يبالغ في معرفة الدليل ولا يساكن شبهته ، ولا يثق بعلم نفسه . نسأل الله السلامة من جميع الآفات

الاعجاب بالنفس

كثير من أهل العلم والزهاد يبطنون الكبر : فهذا لا ينظر في موضعه وارتفاع غيره عليه ، وهذا لا يعود مريضا فقيرا يرى نفسه خيرًا منه ، حتى أني رأيت جماعة يومأ إليهم : منهم من يقول لا أدفن إلا في دكة أحمد بن حنبل ، ويعلم أن في ذلك كسر عظام الموتى ، ثم يرى نفسه أهلاً لذلك التصدر . ومنهم من يقول : ادفنوني إلى جانب مسجدي ظنا منه أنه يصير بعد موته مزوراً كمعروف الكرخي. وهذا خلة مهلكة ولا يعلمون : قال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْ غَيْرِهِ فَقَدْ تَكَبَّرَ » وقلّ من رأيت إلا وهو يرى نفسه. والعجب كل العجب ممن يرى نفسه :

أتراه بماذا رآها !! إن كان بالعلم فقد سبقه العلماء ، وإن كان بالتعبد فقد سبقه العباد ، أو بالمال فإن المال لا يوجب بنفسه فضيلة دينية . فإن قال : قد عرفت ما لم يعرف غيري من العلم في زمني فما عليّ ممن تقدم ؟ قيل له : ما نأمرك يا حافظ القرآن أن ترى نفسك في الحفظ كمن يحفظ النصف ، ولا يا فقيه أن ترى نفسك في العلم كالعامي ، إنما نحذر عليك أن ترى نفسك خيراً من ذلك الشخص المؤمن وإن قل علمه فإن الخيرية بالمعاني لا بصور العلم والعباد . ومن تلمح خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير ، وهو من حال غيره على شك . فالذي يحذر منه الإعجاب بالنفس ، ورؤية التقدم في أحوال الآخرة .

وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : إن مت ندفنك في حجرة رسول الله

صلى الله عليه وسلم . فقال : لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب إلى من أن أرى نفسى أهلاً لذلك .

وقد روى أن رجلاً من الرهبان رأى فى المنام قائلا يقول له : فلان الإسكافى خير منك. فنزل من صومعته فجاء إليه فسأله عن عمله ، فلم يذكر كبير عمله فقيل له فى المنام : عد إليه وقل له : من أى شيء صفرة وجهك ؟ فعاد فسأله فقال : ما رأيت مسلما إلا وظننته خيرا منى. فقيل له : فبذاك ارتفع .

الكبر
حقيقته وأقسامه

ينقسم الكبر إلى باطن وظاهر : فالباطن خلق فى النفس ، والظاهر أعمال تصدر عن الجوارح . واسم الكبر بالخلق الباطن أحق ، وأما الأعمال فإنها ثمرات لذلك الخلق ، فإذا ظهر على الجوارح يقال تكبر ، وإذا لم يظهر يقال فى نفسه كبر ، فالأصل هو الخلق الذى فى النفس وهو الاسترواح والركون إلى رؤية النفس فوق المتكبَّر عليه ؛ فإن الكبر يستدعى متكبرا عليه ومتكبرا به ، وبه ينفصل الكبر عن العجب ؛ فإن العجب لا يستدعى معجبا عليه ، بل لو لم يخلق الإنسان إلا وحده لأمكن أن يكون معجبا ، ولا يتصور أن يكون متكبرا إلا أن يكون مع غيره .

ولا يكفى فى المتكبر أن يستعظم نفسه ليكون متكبرا ؛ فإنه قد يستعظم نفسه ، ولكنه يرى غيره أعظم من نفسه أو مثل نفسه فلا يتكبر عليه ، ولا يكفى أن يستحقر غيره ؛ فإنه مع ذلك لو رأى نفسه أحقر لم يتكبر بل يرى لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ، ثم يرى مرتبة نفسه فوق مرتبة غيره ، فإذا استقر فى نفسه أن ليس أحدا أعظم منه ولا مثله حصل خلق الكبر ، وأوجَد فى القلب اعتدادا وهزة وفرحا وركونا إلى ما اعتقده ، وعز فى نفسه بسبب ذلك ، وتلك العزة والهزة والركون إلى العقيدة هى خلق الكبر ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « أَعُوذُ بِكَ مِنْ

نَفْخَةِ الْكِبْرِيَاءِ »

هذه العزة تقتضى أعمالا فى الظاهر ، ويسمى ذلك تكبرا .

البواعث على الكبر وأسبابه

قد تقدم أن الكبر خلق باطن ، وأن الأفعال ثمرته ونتيجته تسمى تكبرا .

وهذا الباطن له باعث واحد ، وهو العجب الذى يتعلق بالتكبر كامر معناه؟ فإنه إذا أعجب بنفسه أو علمه استعظم نفسه وتكبر .

وأما الكبر الظاهر فأسبابه ثلاثة : سبب فى المتكبر ، وسبب فى المتكبر عليه ، وسبب يتعلق بغيرهما :

أما السبب الذى فى المتكبر فهو العجب ، والذى يتعلق بالمتكبر عليه فهو الحقد والحسد ، والذى يتعلق بغيرهما فهو الرياء ، فتكون الأسباب بهذا الاعتبار أربعة : العجب والحقد والحسد والرياء :

أما العجب فيورث الكبر الباطن ، وكبر الباطن يثمر التكبر الظاهر فى الأقوال والأفعال والأحوال : قال بعض العلماء : من أثبت لنفسه تواضعا فهو التكبر حقا : ووجهه أن التواضع ليس إلا عن رفعة فمن أثبت لنفسه تواضعا فقد أثبت لها رفعة : قال بعض العارفين : مادام الإنسان يظن أن فى الخلق من هو شر منه فهو متكبر .

وأما الحقد فإنه قد يحمل على التكبر من غير عجب كالذى يتكبر على من يرى أنه مثله أو فوقه ، ولكنه قد غضب عليه بسبب سبق ، فأورثه الغضب حقدا ، فهو لذلك لا تطاوعه نفسه على التواضع لواحد من الأكابر لحقده عليه أو بغضه له ، ويحمله ذلك على رد الحق إذا جاء من جهته وعلى ألا يستحله وإن ظلمه .

وأما الحسد أيضا فإنه يوجب البغض للمحسود وإن لم يكن من جهته وسبب يقتضى الغضب والحقد . والحسد يدعو إلى جحد الحق ويمنع من قبول النصيحة ، فهو يعرض عنه ويتكبر عليه مع معرفته بأنه يستحق التواضع بفضل عمله مثلا ، ولكن

الحسد يبعثه على أن يعامله بأخلاق المتكبرين .

وأما الرياء فهو أيضا يدعو إلى أخلاق المتكبرين حتى أن الرجل ليناظر من يعلم أنه أفضل منه ولا حسد بينهما ولا حقد ، ولكن يمتنع من قبول الحق منه ولا يتواضع له خيفة أن يقال إنه أفضل منه ، فيكون باعثه على التكبر الرياء المجرد ولو خلا معه بنفسه لا يتكبر عليه . وأما الذي يتكبر بالعجب أو الحقد أو الحسد فإنه يتكبر أيضا عند الخلوة به ، وكذلك قد ينتمي إلى نسب شريف كاذب وهو يعلم أنه كاذب ، ثم يتكبر به على من ليس ينسب إلى ذلك النسب ، وهو عالم باطنا أنه لا يستحق ذلك ، ولا كبر في باطنه لمعرفته أنه كاذب في دعوى النسب ، ولكن يحمله الرياء على أفعال المتكبرين .

ويظهر التكبر في شمائل الرجل كصعره في وجهه ونظره شزرا ، وكذلك يظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وفي تعاطيه لأفعاله ، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله ، ومنهم من يتكبر في بعض ، ويتواضع في بعض :

فمنها التكبر بأن يحب قيام الناس له أو بين يديه وألا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلفه .

ومنها ألا يزور غيره .

درجات المتكبر عليهم

قد خلق الإنسان ظلوما جهولا ، فتارة يتكبر على الخالق ، وتارة على الخلق ، فالتكبر باعتبار المتكبر عليهم ثلاثة أقسام :

الأول التكبر على الله ، وهو أفحش أنواع الكبر ولا مثار له إلا الجهل والطغيان مثل ما كان من نمرود ؛ فقد كان يحدث نفسه بأن يقاتل رب السماء ، وكما فعل فرعون من ادعائه الربوبية ، فإنه لتكبره قال : أنا ربكم الأعلى . واستنكف أن يكون عبدا لله لذلك قال تعالى : «إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَنْكِفُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ »

الثاني التكبر على الرسل من حيث تعزز النفس وترفعها عن الانقياد لبشر مثل سائر الناس ، وذلك يصدف صاحبه عن التفكر والاستبصار ، فيبقى فى ظلمة الجهل ويمتنع عن الانقياد ، وهو ظان أنه محق فى ذلك ، وتارة يمتنع من المعرفة ، ولكن نفسه لا تطاوعه للانقياد للحق والتواضع للرسل : كما حكى الله عنهم فى القرآن الكريم : « أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا » وقولهم بلسان القرآن الكريم : « وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ » ، « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا » وقال تعالى فى حق فرعون : « وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » فتكبروا على الله وعلى رسله جميعا .

وقال بعض المفسرين : إن موسى قال له : آمن ولك ملكك . فقال : حتى أشاور هامان. فشاوره فقال له : بينما أنت رب تعبد إذ صرت عبداً تعبد . فاستنكف عن عبودية الله تعالى وعن اتباع موسى عليه السلام. وقالت قريش فيما أخبر الله عنهم فى القرآن الكريم : « لَوْلَا أُنْزِلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » : قال بعض المفسرين : عظيم القريتين هو الوليد بن المغيرة وأبو مسعود الثقفى : طلبوا من هو أعظم رئاسة من النبى إذ قالوا غلام يتيم ، وكيف بعثه الله إلينا ؟ قال تعالى : « أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » وقالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف نصدق بك وعندك هؤلاء ؟ وأشاروا إلى فقراء المسلمين . فازدروهم بأعينهم لفقرهم وتكبروا عن مجالستهم فأنزل الله تعالى : « وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » ثم أخبر الله تعالى عن تعجبهم حين دخلوا جهنم إذ لم يروا الذين ازدروهم فقالوا : مالنا لا نرى رجالا كنا نعدهم من الأشرار ؟ قيل : إنهم يعنون عمارا وبلالا وصهيبا والمقداد رضى الله عنهم .

ثم كان منهم من منعه التفكر والمعرفة فجهل كونه صلى الله عليه وسلم محقا

ومنهم من عرف ومنعه الكبر عن الاعتراف : قال تعالى مخبرا عنهم: « فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ » وهذا الكبر قريب من التكبر على الله عز وجل وإن كان دونه .

القسم الثالث التكبر على العباد : وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره ، فتأبى نفسه الانقياد لهم ، وتدعوه إلى الترفع عليهم ، فيزدريهم ويستصغرهم ، ويأنف من مساواتهم . وهذا وإن كان دون الأول والثانى هو أيضا عظيم من وجهين :

أحدهما أن الكبر والعز والعظمة لاتليق إلا بالملك القادر ، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذى لا يقدر على شىء فلا يليق بحاله الكبر ، فإن تكبر العبد فقد نازع الله تعالى فى صفة لاتليق إلا به .

الوجه الثانى أن الكبر يدعو إلى مخالفة الله تعالى فى أوامره ؛ لأن المتكبر إذا سمع الحق من عبد من عباد الله استنكف قبوله وجحده ، ولذلك ترى الناظرين فى مسائل الدين يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين ، ومهما يتضح الحق على لسان واحد منهم يأنف الآخر من قبوله ويحتل لدفعه بما يقدر عليه من التلبيس ، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين إذ وصفهم الله تعالى بقوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ »

بعض ما أثر فى التكبر وضده

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ وَلَا زَادَ اللهُ عَبْداً بِعَفْوٍ إِلَّا عِزّاً وَلَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ لِلَّهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ » وقال بعض المربين : خليق بالمثقف لزوم التواضع ومجانبة التكبر ، ولو لم يكن فى التواضع خصلة تحمد إلا أن المرء كلما كثر تواضعه ازداد بذلك رفعة لكان الواجب عليه ألا يتسم بغيره . والتواضع

تواضعان : أحدهما محمود ، والآخر مذموم :

فالمحمود ترك التطاول على عباد الله والازدراء بهم .

والمذموم هو تواضع المرء لذى الدنيا رغبة فى دنياه ، فالعاقل ينبذ التواضع المذموم على الأحوال كلها ، ولا يفارق التواضع المحمود أبدا .

وقال بعض الحكماء : جدير بذى المروءة مجانبة التكبر لما فيه من خصال ثلاث مذمومة :

إحداها أنه لا يتكبر على أحد حتى يعجب بنفسه ويرى لها على غيرها الفضل .

وثانيتها ازدراؤه بالعالم ، لأن من لم يستحقر الناس لم يتكبر عليهم ، وكفى بالمستحقر لعباد الله طغيانا .

وثالثها منازعة الله عز وجل فى صفاته إذ الكبرياء والعظمة من صفات الله جل وعلا ، فمن نازعه إحداهما ألقاه فى النار إلا أن يتفضل عليه بعفوه . وقال بعض الحكماء : ثمرة التواضع المحبة كما أن ثمرة القناعة الراحة ، وإن تواضع الشريف يزيد فى شرفه كما أن تكبر الوضيع يزيد فى ضعته ، وأفضل الناس من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وأنصف عن قوة ، وما استجلبت البغضة بمثل التكبر ، ولا اكتسبت المحبة بمثل التواضع .

الكبر معوق للرقى الاجتماعى

ربما تعب الباحث دون أن يجد موضوعا غير الكبر يثبت به أن العقبات التى توجد فى طريق الرقى الاجتماعى يخلقها الإنسان لا الملابسات .

ولو كانت المصالح المتباينة هى وحدها سبب الخصومات لساد السلام بين المتكافئين والحال أن أشد العداوة ما كانت بين المتناظرين المتساويين فى الجاه أو الثروة أو المهنة ولو أنصف الناس لاعترفوا بأن سبب الخصام إنما هو فى الحقيقة الغطرسة والكبر .

الناس لا يسوءهم أن كثر مال زيد ، ولـكن يؤلمهم أن يجرح الرجل عواطفهم بتعاليه حتى ليفترض عدم وجودهم وغناه وفقرهم .

إن هذا الداء كثير الشيوع حتى ليكون الـكبر على قدر الثروة ، ولذا هام الناس بالتطلع إلى مافوق آفاقهم والوقوف فى غير مصافهم ، فنشأ عن ذلك التزاحم والعراك والمنافسة والشقاق ، وليس الفقر هو السبب الرئيسى ، وإنما الـكبر والصلف :

من الأغنياء من ورثوا الثروة عن آبائهم ، ولذا علت نفوسهم وطابت قلوبهم ولـكنهم يجهلون أن ظهورهم بالبذخ والإسراف يخلق الحسد فى قلوب ذوى الفاقة :

أليس من الذوق اجتناب القوى الممتع بالصحة ذكر مايتمتع به من راحة فى نومه وفى أكله وشربه أمام المريض الذى يدنو من حافة القبر ؟ كذلك تنقص الـكثير من الأغنياء قلة الذوق ؛ لأنهم بأعمالهم يثيرون على أنفسهم سواهم ويحركون عوامل الحسد .

من الخطأ الاعتقاد بأن الثروة من الصفات الشخصية التى ترفع قدر الإنسان فقيمة الشىء فى ذاته لا فى الغلاف الذى يحتويه ، فالمتـكبر مغرور ، وكثيرا ماينسى أن التملك عارض يزول ، فيجب أن يكون عمله موجها للصالح العام .

والغنى الذى يعرف أن الثروة ليست إلا وسيلة لتأدية واجباته هو الإنسان الـكامل ، فبدلا من أن يكون غليظا صلفا نراه وديعا لطيفا . إن هـذا الرجل ليخفض من حقد الناس على الأغنياء الذين يثيرون سخط الجهور بما طبعوا عليه من الـكبر والعتو .

الدعة والطيبة لا تنزعان الحسد من القلوب ، إنما تدعوان إلى استمالة الناس ومحبتهم .

وأضر من الـكبر الذى يسببه الغنى العتو الذى ينشأ عن السلطة ، والمراد بالسلطة كل نفوذ يخوله المنصب سواء أكان مقيدا أم بلا قيد . والخوف كل الخوف هو

جهل (الموظفين) استعمال نفوذهم فيما وضع له وعلى قـدر ما يسمح به النظام العام بدون تعد على الحرية الشخصية وبدون مس كرامة الناس بلاحق .

والاستبداد فى ذاته نوع من الجنون النوعى يتسلط على عقول الحاكمين ، ويجب ألا ننسى أن فى كل نفس شعورا داخليا ينفرها من الحكم المطلق والإذعان لغير النظام العام .

إن الاستبداد مما يزهق النفوس الحرة ويحولها إلى نفوس مستعبدة ، ولـكنه ينفث روح الثورة والفوضى . والمشاهد أن الجندى فى الجيش أشد صلفا وقسوة من الضابط ، وهـذا أقسى على مرءوسيه من القائد على الجميع ، والسيدة الجاهلة أكثر قسوة على الخدام من بنات البيوتات العالية وذوات التربية الفاضلة .

من خطأ الحاكمين بجاهم أن الواجب الأول على ذى السلطة الدعة والخشوع لأن الغلظة والصلف ليستا من السلطة فى شىء بل هما تدلان على الضعف وتنشئان الحماقة ؛ وليس من يعرف الحـكم وروح الطاعة غير المعتدلين الذين لا يرهقون العباد، فتراهم ودعاء عنـد الشدة تلطف كلماتهم وقر القسوة ، ويخفف لينهم وطأة النظام ، وينفذون ما شاءوا من غير حاجة إلى الاعتساف ووسائل القوة، ومن شاء أن يطلب إلى الناس عمـلا أو تضحية فعليه أن يبـدأ هو قبـل أن يطلبها من غيره .

وإن العين ترى كثيرا من القواد المستبدين فتحسبهم أشداء وماهم إلا ضعاف وقت الحاجة ، وكم منهـم ودعاء كأنهـم من الجنس اللطيف ؛ وإذا ما تأججت نار الوغى كانوا روحا تنشط وتشدد العزائم ، فمن شاء أن يطاع فعليه بالاعتدال فى الحـكم ، ومن السهل الخضوع مع الحب، ومحال ذلك عليها مع البغض والـكراهة .

إن الرجل الذى ينفخ أوداجه وتعميه الخيـلاء حتى يقول : أنا القانون ـ هو ذلك الأحمق الذى يهيج روح الثورة ، وأخطر منـه من لا يريد أن يخضع لروح النظام .

فى الناس كثيرون من هـذا النوع الفاسد يسوءهم سوء النظام ، ويرون كل سلطة وإن كانت شرعية تعديا على الحرية الشخصية ، أولئك فوضى لا يعترفون بسلطة ما ، ولا يرون من المصلحة العامة إلا ما كان منطبقا على مصالحهم الشخصية وهم أشد خطرا على البلاد من الأمراض الوبائية .

ويدخل فى عـداد المتـكبرين كل مرءوس يشمخ بأنفه ولا ترضـيه معاملة رئيسه ، فهؤلاء فريق لا يستطيع أكرم الناس إرضاءهم ، وهم يؤدون أعمالهم بتذمر كأنهـم مسخرون ، وعسير عليهم أن يؤدوا عملهم تاما جيـدا ، وكثيرا ما يـكونون سببا فى المشاكل بينهم وبين من يعملون معهم

ومن يعن بدرس الطبائع البشرية ير الـكـبر متفشيا وله مواطن بين من اشتهروا بالتواضع ، والـكبر سواء ظهر أم كمن فى النفس من أردإ الصفات التى تجرد صاحبها من الإنسانية ، والمتـكبر فقيرا كان أم غنيا يقضى حياته محزونا معتلا منعزلا عن الناس ، ويسبب دائمـا من المشاكل ما يشقيه ، ويتعب من يربطهم به العمل .

ومعظم البغضاء بين الناس تنشأ من هـذا الداء الوبيل ، نعم إن اختلاف المصالح العامة تولد العداوة بين الناس ، ولـكن الـكبر ينشئ سدودا سميكة يقف المتـكبر خلفها وجلا يندب حظه حيث انقطعت كل علاقة بينه وبين الناس .

كل من يضن بعلمه على الجمهور هو من أخذ الـكبر بخناقه لأنه قصر فى نشر التعليم الصحيح .

ومن عداد المتـكبرين كل عاقل يحتقر من ارتـكب وزرا أو أتى أمرا إدًّا ؛ فمن لوازم الإنسانية الشفقة به وقبول معذرة المخطئ .

ومن الخطأ الحط من قدر المواهب والمقدرة الشخصية بافتراضها واسطة للظهور والـكبر ، واستعمال الثروة والجاه والسلطة لمجرد الزهو والـكبر يقلل من فائدتها العامة ، وتـكون سببا للشقاق لأنها لا تثمر إلا إذا أحسن استعمالها مقرونة

بالتواضع والحكمة

كل دين يجب أداؤه ، والشريف يدفع ماعليه راغبا لا رهبة من الوسائل القهرية والشرف الاعتراف بالحق ووفاؤه بغير مكابرة ، وكل مايملكه الإنسان من متاع أو يحصل عليه من ثمرات العقول دين عليه للناس يؤدى لهم ثمنه ، وليس فى استطاعة الرجل أداء كل الحقوق ، فواجب عليه الغض من كبريائه لأن المدين المعسر لا يرفع رأسه عتوا وخيلاء أمام الدائن الملح ، وخير لذى المنصب والنفوذ أن يكون متواضعا لا غليظا ولا فظا لأن الواجبات الجمة التى عليه أكبر من قوته مهما يؤت من المقدرة والكفاءة ، والعاقل من يحكم على نفسه بالتقصير بدلا من الفخر ، ولكن الاتضاع من صفات العالم الضليع ؛ لأن العلم يدل المرء على قدر نفسه وحقارة معلوماته الكثيرة بالنسبة للمجهول الغامض ، فليكن الاتضاع من صفات ذوى الحكمة والفضائل .

ولا يدرى المرء مايخبئه له المستقبل والسقوط أكثر إمكانا من الارتقاء ومن لا يعذر الناس نفس عليه القلوب وتصم الآذان دون نجدته .

إن الرفعة لا تخلى العظيم من المسئولية ، ومن الغرور نبذ التواضع تظاهرا بالارتقاء والرفعة واللوم على الإنسان إن لم يعرف كيف يكتسب محبة الناس .

والمشاهد أن كل راغب فى الرفعة يخفض من كبريائه ويقوم من اعوجاجه ويظهر ودودا وديعا حتى مع من يتحتم عليهم احترامه ، وعلى قدر تواضعه تكون منزلة القلوب ، فكأن الاحترام والكبر خلقا على نسبة عكسية فى كل أدوار الحياة وبين كل أفراد المجتمع مهما تختلف الأزمان والمناسبات والأسباب .

الغضب

الغضب حركة نفسية يهتاج لها الدم فى القلب فيثور وينتشر فى العروق ويرتفع إلى أعالى البدن كما ترتفع النار إذا شبت والماء فى القدر إذا أغلى ، ويحكى الدماغ إذ ذاك كهفا اضطرمت فيه النار ، فأظلمت نواحيه ، وتكاثف

دخانه وفيه مصباح ضئيل يضيئه فانطفأ ، فيحمر الوجه والعينان وظاهر الجلد لصفائه وينم بحمرته على لون الدم الثائر من القلب إلى ظاهر البدن كما تنم الزجاجة الصافية على لون مافيها من سائل أحمر ، ويتبع هذا انتفاخ الودجين وتقلص الشفتين وعبوس الوجه وانطلاق اللسان بالسب والشتم ، ثم تتحرك الأعضاء للفتك كالوحوش الضارية إذا همت بالافتراس .

وإنما يكون هذا إذا غضب الإنسان على من دونه واستشعر القدرة عليه ، فإذا كان غضبه على من فوقه وخشى منه الانتقام استكن الدم فى القلب ونقص فى ظاهر الجلد ، فتقلصت الشفتان وغارت العينان وأرعدت الفرائص وانقلب الغضب خوفا .

وإن كان غضبه على من هو فى منزلته تولدت فيه حال تجمع بين الحالتين السابقتين ، إذ يضطرب الدم : فتارة يستكن فى القلب وينقص فى ظاهر البدن فيصفر الجلد وهذا إذا استشعرت الخوف منه وعدم القدرة عليه ، وتارة ينتشر فى ظاهر الجسم فيحمر الجلد وهذا إذا هم بالتنكيل به وأحس من نفسه القدرة عليه .

أسباب الغضب

لايخفى أن الناس فى تركيب أمزجتهم يختلفون سرعة وبطئا فى تولد الغضب إلا أن هذا ليس بشىء فى جانب مايعتورهم من الأسباب الطارئة التى تزيد فى تولد غضبهم كالمرض وضعف البنية والانهماك فى العمل ومداومة السهر واشتغال البال بالمطامع والمطالب إلى غير ذلك مما يهيئ التنازع فى الجسم والنفس ، ويكون كالبذور للغضب ؛ ولكن السبب الأقوى هو تعوده ، فإذا تعود الإنسان الغضب أصبحت العادة مساعدة على نمو بذوره . أما الاستعداد الطبعى فى سرعة الغضب فلاسبيل إلى محوه بالكلية ، وأما الأسباب الطارئة فإنها تعالج أولا بإصلاح مافسد من الجسم كيلا يتولد منه كدر النفس ، ثم تأخذ فى دفعها واحدة إثر أخرى :

فمنها تأثر النفس من شعورها بالإهانة ، ويجب لدفع هـذا ألا يعجل الإنسان في الحكم على شيء ، ولا يأخذ بظواهر الأمور لأول وهلة ، لأنه ربما وجد في طياتها مايغير منها ، وتكون الحقيقة على خلاف ماتصور في بادئ الأمر .

وكذلك يجب على الإنسان أن يتجنب على قدر طاقته ماهو قائم في كل نفس من تسرعها في تصديق ما يكدرها قبل التمكن من الحكم الصحيح ، إذ الغضب ضرب من الجنون منشؤه ضعف النفس وارتخاؤها من طول التنعم والترف حتى صارت تتأثر بأقل مؤثر : كمثل الذى نهك الترف جسمه إلى درجة جعلته يتململ على فراشه من مس الأزهار المنثورة تحت ملاءته ، وليس الزهر هو الذى آلمه بخشونته ، وإنما آلمه رخاوة جسمه المسموم بالترف والتنعم . وكم من واحد منهم أخرجه الغضب عن طوره لعطسة عطسها الخادم أو سعال اعتراه فى حضرته ، أو من تقصير فى طرد ذبابة ، أو من وقوع مفتاح على الأرض أزعجه صوته .

ومنهم من تصدر عنه الأفعال الكثيرة التى يرتضيها لنفسه وإخوانه ، فإذا وقعت من خدمه وأهل بيته كان عليهم سوط عذاب لايقيلهم عثرة ولا يرحم لهم عبرة وإن كانوا أبرياء من الذنوب ، بل يتجرم عليهم ويهيج فيهم ، فيبسط يده ولسانه ، وهم لا يتجاسرون على رده ، بل يذعنون ويقرون بذنوب لم يقترفوها استكفافا لعاديته وتسكينا لغضبه ، وهو مع ذلك يستمر على طريقته ، لا يكف يدا ولا لسانا .

وقد شوهد منهم من يتجاوز به الغضب على البهائم التى لا تعقل والأوانى التى لا تحس فربما قام إلى الحمار أو الفرس فضربهما ولكزهما ، وربما كسر الآنية أو القفل إذا تعسر عليه إلى غير ذلك من الأعمال الطائشة .

درجات الغضب

إذا جاوز الغضب حد الشرع والعقل كان تهورا وهو مذموم لأنه خروج عن حد الاعتدال واتباع لهوى النفس الجامحة ، وقد يكون فى غير دفع مضرة أو جلب منفعة كالذى يثور غضبه إذا كابره مناظر ، أو نوزع فى مسألة لا يستند فى إثباتها إلى دليل من العقل أو الشرع أو أنكر عليه محدثه بعض حديثه ، وهذه حال كثيرة الوقوع بين الإخوان والأصحاب فى محادثاتهم ومجالس سمرهم ، فينبغى أن نتحراها ونعرف وجه الصواب فيها ولا نغضب لشيء منها غضبا يخرج بنا عن حد الاعتدال ، لأنها كثيرا ما تنتهى بالمغاضبة والمشاتمة والتقاطع .

والغضب الذى وردت الشرائع بذمه واتفق العقلاء على تنقصه هو الذى يجاوز حد الاعتدال إلى التهور ، ويكون لغير الله أو لغير الذود عن العرض أو النفس أو المال ، أو يكون لغير رد حق مهتضم أو دفاع عن وطن أغار عليه مغير أو انتقص أطرافه منتقص .

أما إذا نقص الغضب فى الإنسان عن حد التهور وصار فى درجة الاعتدال فإنه يكون محمود الأثر جليل الفائدة ، إذ يكون موقظا للنخوة منبها للحمية مثيرا للشجاعة : فالذى يغضب لتغيير منكر أو نصرة مظلوم أو محافظة على قانون عدا عليه عاد لم يكن غضبه مذموما ولا فعله مستوجبا للوم ، لأنه لم يجاوز حد الشرع والعقل .

وأما إذا نقصت هذه القوة فى الإنسان عن حد الاعتدال فإن هذا يكون من ذل النفس وفقد الحمية .

ومن استوت حالتاه قبل الإغضاب وبعده فقد فقد الشجاعة والأنفة والحمية وعزة النفس والدفاع عن الحرم والغيرة على الشرف ، ومن فقد هذه الصفات ذل ولم يكن لما اتصف به من فضائل النفس موضع ولا لحلمه موقع من النفوس ، وكثيرا ما يلتبس الحلم بالجبن ، فيظن بعض الناس أن الصبر عن الخسيسة يسامها واحتمال الضيم

ينزل به من صفات العقلاء والحلماء وهذا خطأ ، وإنما يكون الكف عن الغضب حلما إذا صحبته القدرة على الانتصار فأمسك عنه؛ إذ من اللوم عقوبة من لا يستطيع أن يدفع عن نفسه ، كما أن الترفع عن السباب فضيلة محمودة ، فشر الناس من يهوى السباب ، وهذا أمر يبعث عليه الترفع عن الدنايا أو الاستهانة بالمسىء أو الاستحياء من الاتصاف بصفات الجهال ، أو التفضل بالعفو عن السباب ، وإنما يكون هذا في العظماء وذوى البأس والسلطان .

ومن ضروب الكف عن الغضب تحين الفرص للإيقاع بالمسىء ، وهذا نوع من الدهاء والحكمة فى تصريف الأمور كالذى عرض لمعاوية بن أبى سفيان يستثير غضبه فلم يقدر ، فعرض لزياد بن أبيه إذ قال له : من أبوك أيها الأمير ؟ فقال زياد : هذا يعلمك بأبى وأشار إلى حرسيه فأخذه وقطع رأسه ، فلما بلغ معاوية ذلك قال : أنا الذى قتلته .لو أدبته على الأولى مافعل الثانية . ولهذا قالت الحكماء : غضب الجاهل فى قوله وغضب العاقل فى فعله .

فإن لم يكن الحلم عن واحد من هذه الأسباب كان ذلا ومهانة وعد صاحبه جبانا ضعيف القلب خائر العزم .

إن فى الناس صنفا طبع على ضروب من اللؤم أقلها أن يقبل يد ضاربه ويسىء إلى من أحسن إليه ، فهؤلاء يحسبون الحلم جبنا والاغضاء خورا وضعفا ، لهذا يجب أن تلبس لهم جلد النمر وأن تأخذهم بالشدة إذا كان الحلم لهم مفسدة والعفو فى نظرهم معجزة ؛ لأن الشدة تصلح شأنهم وتقوم أودهم وتردهم إلى صوابهم ، والعفو يضر بهم ويزيد فى طغيانهم وضلالهم ويغريهم بالباطل : قال بعض الحكماء : العفو يفسد من اللئيم بقدر إصلاحه من الكريم ، وقال الشاعر :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وفى الناس من يصلحهم العفو عنهم والتجاوز عن هفواتهم ويعدون هذا أنكى عقاب لهم :

وماقتل الأحرار كالعفو عنهم ومن لك بالحر الذى يحفظ اليدا

فيجب على العاقل أن يلبس لكل حال لبوسها وأن يعرف فرق ما بين الناس فى أخلاقهم وآدابهم ويعامل كل واحد بما يليق به ؛ فما يصلح لواحد لا يصلح للآخر : وفى هذا يقول الشاعر :

ولى فرس للحلم بالحلم مسرج ولى فرس للجهل بالجهل مسرج
فمن شاء تقويمى فإنى مقوم ومن شاء تعويجى فإنى معوج

وأنشد الجعدى بحضرة النبى صلى الله عليه وسلم :

ولا خير فى حلم إذا لم يكن له بوادر تحمى صفوه أن يكدرا
ولا خير فى جهل إذا لم يكن له حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

فلم ينكر النبى صلى الله عليه وسلم قوله .

والعاقل من يختار من أنواع العقاب ما يرى فيه الفائدة له والصيانة لشرفه وصلاح حال المعاقب : فبعض الناس يكفى فى عقابة الاغضاء ، وبعضهم الكلمة اللينة والاشاره اللطيفة ، وبعضهم عقابه الاقذاع فى القول والضرب باليد إلى غير هذا من الأساليب المتنوعة التى تختلف باختلاف منازل الناس ودرجاتهم فى الأخلاق والشعور . وليس لهذه ضابط معروف ولا أصل يرجع إليه غير العقل والتجربة .

أيحدث الغضب اضطرارا أم اختيارا ؟

الحق أنه لا يحدث إلا بإرادة النفس ؛ لأن المرء لا يستفزه الغضب إذا شتمه آخر إلا بعد أن يتصور ماهية الشتم ، وما يترتب عليه من الإهانة وما يقتضيه من الانتقام ممن شتمه ، فهو ليس من الحركات الطبعية القسرية التى هى فوق إرادة الإنسان ؛ لأن الحركات الطبعية مما لا يمكن العقل دفعها ولا التخلص منها : مثال ذلك حمرة الخجل وصفرة الوجل ، والانتفاض من الماء البارد ، والاضطراب لسماع ما يحزن ، والفزع عند الخوف ، والدوار عند النظر إلى هاوية ؛ فكل هذه حركات قسرية ، فلو كان الغضب من نوعها ما أمكن العقل أن يُلطف منه أو

يتغلب عليه ، إذ الغضب كما قدمنا لا يصدر إلا عن باعث من الفكر حصلت به الإرادة ، ولا مانع حينئذ من استعمال العقل لصرفه أو تلطيفه .

يقول بعض العلماء: إن الإنسان المعتدل لا يستفزه الغضب، ولا ينفعل بأثر الحوادث فى نفسه ، ولا فى غيره . ولكن كيف يصح ذلك والكمال يقتضى الفضيلة ، وصاحب الفضيلة يرضى بما يطابقها ويغضب لما يناقضها ؟ فحتم عليه أن يغضب لكل شر يراه بيد أن ذلك يترتب عليه أن تكون حياته غضبا وحزنا كلها ، فيصبح من أتعس الناس حظا فى هذه الدنيا ، وذلك مناف لأخص لوازم الفضيلة .

وهل يخلو العاقل إذا خرج من بيته أن يصادف فى طريقه كثيرا من أنواع الرذائل التى يتصف بها البخيل والسفيه ، والأحمق والكذوب ، والمنافق ، والسارق ؟ وهل يفتح عينه أو يغمضها على غير الاستقباح والاستنكار ؟ فهو على ذلك لن يخلو من الغضب طرفة عين . وكيف يكون حاله لو أمّ دار القضاء فوجد المئات من المتقاضيين : هذا يشكو أباه ، وهذا يتهم أخاه ، وهذا ينازع أمه ، وذاك يشهد الزور ، وسواه يدعى الباطل ، والمحامى ينتصر بمهارته لدعواه ، والقاضى يحكم بالعقوبات على ذنوب ربما كان هو أيضا منغمسا فى مثلها ؟

وكيف يكون حاله إذا شاهد فى المعاملات أن لا ربح لأحد إلا بخسارة آخر ، ورأى المجدود بين الناس محسودا مكروها ، والمنكود محتقرا مرذولا ، والقوى يدوس الضعيف ، والضعيف يدوس الأضعف ، وكل واحد ميال إلى ضرر أخيه ، يعتبر الهفوة منه ذنبا عظيما ، والزلة جرما كبيرا ، والخطأ عدوانا فظيعا والجميع فى ميدان حياتهم كالمتصارعين فى ميدان صراعهم ، بل لا فرق بينهم وبين الوحوش الضارية ، بل هم أحق منها بصفة التوحش ؛ فإن كل نوع منها يعيش فيما بينه بسلام وأمان ، ولا سلام ولا أمان بين نوع الإنسان ؟ ولقد رأينا الأسد الكاسر يتودد إلى من يطعمه بكل علامات التودد والتحبب فى حين أن الإنسان قد يكون أول فاتك بمن أحسن إليه :

وكيف تكون حال العاقل أيضا وهو يرى الرذائل والجرائم قد ملأت

الخافقين حتى أصبحت الشرائع والقوانين لاتقوى على وقفها عند حد ولا تطيق صدسيلها الجارف ولا تيارها الجارى ؟

وليست هذه الرذائل مقصورة على قوم دون قوم ، ولا فئة دون أخرى ، بل كأن الجماعة البشرية صاح فيها صائح الشر فلبّته من كل مكان ، فصار الضيف لا يأمن مضيفه ولا الصهر صهره ، وأصبح الأخ لا يود أخاه والابن يستطيل عمر أبيه ويعده بالأيام للميراث ، والزوج يفكر فى التخلص من زوجته ، والزوجة تدبر المكايد لزوجها ، والجار يخون جاره ، والشريك يغُشّ شريكه .

أضف إلى ذلك مطامع الشعوب بعضها فى بعض وما يقع بينهم من الحروب ونقض العهود وخلف الوعود والنهب والسلب ، فهل يريد أن يغضب العاقل ويسترسل فى غضبه على قدر ما شرحناه لك من الرذائل والكبائر والجرائم والمعايب ؟

لا جرم أنه يكون حينئذ على حالة لا يفى التعبير عنها بكلمة مجنون . أليس الأولى بنا أن ننسب ما الناس فيه إلى الخطأ والغلط ؟ ولا يجدر بالعاقل أن يغضب ، كما أنه لا يغضب على مُماشيه إذا عثر فى الظلام ، أو نادى خادمه ولم يجبه لعارض أصابه فى سمعه ، وكما لا يغضب على من نهكه المرض والتعب والشيخوخة ؛ فإذا كان يجدر به ألا يغضب من هذه الأمراض الجسمانية فكذلك يجدر به ألا يغضب من هذه الأمراض النفسية التى تعمى عن الصواب وتوقع فى الخطأ ، ولننظر فى هذه الحالة إلى الجماعة البشرية نظرة شفقة ورحمة لا نظرة قسوة ونقمة

مواطن الغضب

قال بعض الحكماء : « إن للغضب مواطن يجب استعمال جزء منه فيها لأنه ينبه من النفوس حميتها ، ويدفع بالمرء إلى اقتحام الأخطار فى ميادين الحروب ، وإذا لم يكن ثمة غضب فلا يكون لشجاعة الأبطال فى المعارك من شأن يذكر ، وإن فى قدرة العاقل أن يقف منه عند الحد الذى يستعمله فيما يجب استعماله فيه وقال « أرسطو » : أى انتصار ينال فى الحرب بلا غضب ، وهو المحرك

للحمية ، المولد للشجاعة ؟ ولكن يجب أن يستعمل كاستعمال الجندى يقاد لدى الرئيس الذى يقوده »

حرى بالعاقل أن يغضب إذا رأى أباه قتيلا ، أو ابنه جريحا أو وطنه مسلوبا أو دينه مهانا وأن يباشر ذلك بالتبصر ، والتروى وصحة الحكم ، لا بالتهور والتهيج والثوران ، وما شابه ذلك من لوازم الغضب . وكم أضل الغضب صاحبه عن نيل غرضه وتأدية واجبه ، وعمى عليه وجه الصواب ؟ فهو كبقية الأهواء النفسية التى كثيرا ما تكون بنفسها مانعة لقضاء بغيتها .

عواقب الغضب

كم فتح الغضب أبوابا للسجن ، ونصب أعوادا للصلب ، وفتل حبالا للخنق ، وبسط النطع ، وسل السيف ، وأضرم نارا للحرب . وقد يستر العقل آفات النفس ورذائلها إلا الغضب ؟ فإنه يستر العقل ولا يتغلب على ظهوره شىء ، بل تراه يشق الجسم ، ويبرز منه شاكى السلاح ، فيقطع أواصر القربى ، ويفصم عرا الأبوة والبنوة ، بل عرا الإمامة والنبوة .

ليس الغضب من ضروريات الإنسان :

الإنسان من بين سائر الحيوان أطبعها على اللطف ، وأميلها إلى الرفق مادام باقيا على فطرته وغريزته ، ومن كانت هذه حقيقته فلا قسوة فيه ، والغضب قسوة . ولا نرى محبة أكمل من محبة الإنسان للإنسان والعداوة كل العداوة فى الغضب ، والإنسان حريص على السعى فى بقاء نوعه وفناؤه فى الغضب ، والإنسان ميال بطبعه إلى التجمع والغضب يشقه عن الجماعة ، والإنسان يرغب فى نفع غيره حتى يكاد يرمى بنفسه فى الأخطار لخلاص من يعرفه ومن لا يعرفه والغضبان يرضى أن يقع فى النيران إذا جر معه غيره : تأمل أثر الغضب فى عبد الله بن الزبير لما اعتنق مالكا فى الميدان ونادى قومه :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

الغضب شعبة من الجنون

لو نظرت إلى الغضبان وهو فى اختلاط عقله واختباط جسمه وتقلص شفتيه وبحة صوته وازدحام أنفاسه واحتدام وجهه وانتفاخ أوداجه وارتعاش يده واضطراب أعصابه وخفقان قلبه وغليان دمه وقذف فمه بالزبد وعينه بالشرر ـ لحكمت حكما قاطعا بأن المجنون أسلم عقبى ، وأقرب منه إلى الحسنى . ولو أبصر الغضبان وجهه فى المرآة وهو على هذه الصورة المنكرة التى تقذى العيون بالنظر إليها لاستحيا من نفسه ، ولخجل ممن يراه .

ولو جعلت لأحد المترفين المتأنقين الذين يقيسون خطاهم بمقياس ويتبسمون بمقدار ويتلفتون بميزان ـ ضيعة من الضياع على أن يُقطب وجهه، ويقلص شفتيه ، وينكر صوته ، ويتابع زفراته، ويغص بريقه ـ لاستنكف لنفسه أن يفعله. ولكن أغضبه فى دانق تضحك من هذه الصورة أمامك .

الغضب شر الرذائل

قد وجدنا أمما وشعوبا تسلم من بعض الرذائل فلا تكتنفها : فمنها التى يمنعها فقرها من رذيلة الفضول فى العيش ، ومنها التى يحول طبيعة بداوتها دون البطالة والكسل ؛ ومنها التى لا تعرف الغش والخداع لسلامة أخلاقها الفطرية ، ولكنك لا تجد أمة سلمت من رذيلة الغضب وبوائقه ؛ فهو شديد الأثر عند العرب ، كما هو شديده عند العجم ، وشديده فى المدنية ذات القوانين والشرائع ، كما هو شديد فى الجاهلية الجهلاء .

وقصارى القول أن سلطة الرذائل النفسية تتناول الأفراد والجماعات ، فما سمعنا أن أمة بأسرها شُغفت بهوى امرأة أو أنها ابتليت كلها بآفة البخل إلى غير ذلك ، ولكن كثيرا ما سمعنا أن الغضب استولى على أمة بأجمعها فساقها تحت رايته رجالا ونساء شيوخا وغلمانا عظماء وأدنياء ؛ فجعلوا ينفرون سراعا إلى ميدان الغضب وتكفيهم الخطيئة الواحدة والصرخة النافذة للهياج والثوران .

ومن العجب فى هذا الشأن أن المثير للغضب والمشعل لنيران الثورة والنازل المتقدم لا يلبث أن يكون مسبوقا بعد أن كان سابقا ومقودا بعد أن كان قائدا ، فتنفر الأمة نفرة واحدة تلقى بنفسها بين النار والحديد ، فتحارب جارتها إن لم تحارب نفسها بنفسها ، وتخرب وطنا بحمقها واندفاعها .

أمن الميسور تطهير النفوس من الغضب؟

الحق أنه ليس فى الدنيا شىء من المصاعب والمشاق إلا وفى قدرة الإنسان أن يتغلب عليه بطول الرياضة والممارسة ودوام التثقيف أو التهذيب ، فيلين له كل صلب ، ويسهل لديه كل صعب ، وليس من هوى من الأهواء النفسية ـ وإن اشتد وتعاصى ـ إلا فى الطاقة إخضاعه على طول الزمن بالدأب على المعالجة والتدريب . وقوة الإرادة ، وثبات العزيمة ـ لا يتعاصى عليهما أمر ، ولا يعجزهما بلوغ غاية ، وقد وصل الناس بهما إلى مالا يكاد يصدقه العقل :

فمن الناس من حكم على نفسه ألا يضحك طول حياته ، فبقى عابسا ما عاش .

ومنهم من امتنع عن الطعام الأيام والأسابيع ،

ومنهم من حاول الوقوف على رجل واحدة ، فوقف عليها ليالى وأياما ،

ومنهم من يمد ذراعه فى الهواء فلا يثنيها زمنا طويلا ،

ومنهم من تراه يمشى على الحبل الممدود فى الهواء كما يمشى على بسيط الأرض ،

ومنهم من يحمل الأثقال التى تنوء بالعصبة أُولى القوة ،

ومنهم من يطوى البسيطة مشيا على الأقدام ،

ومنهم من يغوص إلى قاع البحر فيبقى ممتنعا عن التنفس تحت اللجة زمنا يبحث عن الأصداف إلى غير ذلك من الأعمال التى يطول الاستشهاد بها فى قوة الإرادة ، وثبات العزيمة مع طول الممارسة ، ودوام الرياضة ، مع أن

الفائدة العائدة منها قليلة ضئيلة لا تذكر فى جانب ما تحمله صاحبها من المشقة فى مزاولتها .

وبالقياس على ذلك يمكنه أن يستعمل قوته هذه فى التغلب على الغضب ، فيدفعه فيذلله ؛ فى التغلب عليه مالا يحصى من الفوائد العظيمة التى منها راحة الفؤاد ، وسكون البال وصفاء الخاطر وسعادة النفس ، وليس فى الأمراض النفسية ما يستعصى علاجه على طول الزمن ؛ فإن القدرة الإلهية أودعت النفس البشرية استعدادا كامنا لقبول الفضائل ، وبقوة هذا الاستعداد يمكن الإنسان أن يصلح ما اعوج من أخلاقه ، والتوى من طباعه إذا عقد العزيمة ، وراض نفسه على مغالبة الرذيلة مع الدأب والمواظبة ؛ حتى تصبح عادة وملكة لا يحس تعبا أو نصبا ، ويهون عليه بذلك كل صعب .

وسائل علاج الغضب

(١) ــ من علاج الغضب أن تنصح الغضبان ليقف وقفة فى غضبه ، فإذا وقفها ، وكان ممن يفكر ويتدبر خف غضبه ثم زال ، وليس من الميسور أن تنتزعه من يد الغضب دفعة واحدة ، فذلك ما لا سبيل إليه وإنما يزول الغضب شيئا فشيئا حتى يذهب أثره

(٢) ــ ومن وسائل تسكين النفس عند الغضب أن تتذكر المغضوب عليه يدا فى المعروف أسداها إليك ، فيكون ما أتى به من الخير فيما مضى غافرا لما فعله من الشر فيما حضر .

(٣) ــ ولا تنس ما يعقب العفو والحلم من حسن السمعة وجميل الشهرة ؛ وكم من صديق حميم اشتريته بالعفو والحلم ، ولا شىء أبدع من استخراج الصداقة من العداوة ، وأبلغ القول فى هذا الباب ما جاء فى الكتاب الكريم : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ » وقوله أيضا : « وَيَدْرَءُونَ

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ .

(٤) — ومن أقوى مسائل تسكين الغضب أن تتذكر وقوفك بين يدى من لا يرحمك ، ولا يعفو عنك ، فإن أرضاك ماتراه من القسوة عليك فلك أن تعامل بها من وقف بين يديك ؟ وكم من مرة رفضت فيها العفو عن سواك ، فأنزلك الدهر إلى العفو منه ، ورماك الزمن تحت أقدام من كانوا يلتمسون منك بالأمس ، وإذا قيل لك إن فلانا قلب النحاس ذهبا ، والحصا درا طال إعجابك به ، وإعظامك له ، وعددت ماصنعه من الخوارق ، ولكن من يقلب العداوة صداقة والبغض محبة والحرب سلما والمكافحة مصافحة أولى بالإعجاب ، وأحق بالإعظام .

(٥) — ومن وسائل تسكين النفس أن تتصور ماتكون عليه هيئة الغضبان من تشويه الوجه واضطراب الأعضاء فى ظاهر الجسم ، فما بالك بما تكون عليه النفس فى باطنه : تأمل قول بعض الحكماء : إذا غضبت فأسرع إلى النظر فى المرآة .

ومن الجنون أن يغضب الإنسان لدرهم ، فيصاب من الغضب بمرض لا يكفى ماله كله لعلاجه ، فحدة الغضب يقع شرها على الغضبان أكثر مما يقع على المغضوب عليه ، فيضرب الغضبان نفسه ، ويمزق ثيابه ، وينزع شعره ، ويعض يديه ، ويلطم وجهه .

(٦) — حرى بمن كان سريع الغضب أن يخفف عن نفسه من الاشتغال بالعلوم العقلية العويصة ، فلا يذهب فيها إلى درجة تشق على العزيمة ، وتكد النفس ، فتتعبها ، وتهد قوتها ، فتضعف وتقتل ، وتصبح قابلة لسرعة التأثر ، ويعين ضعفها على تسلط الغضب عليها ؛ فكما أن الجسم إذا أجهدته بالحمل الثقيل والعمل الشاق ، ولم تجعل له فترة لراحته وتجديد قوته — حل به الضعف

واستعد لنزول الأمراض به : كذلك النفس إذا لم ترفق بها أحست نفسك الضجر والسأم من مزاولة العلم والدرس ، فعليك أن تروضها بمطالعة رقيق الشعر ، وأنيق النثر ، ونكت التاريخ ، ومُلح الأدب ؛ وجل بها جولة في روائع الصنائع ، ومحاسن النفوس : وقد كان « فيثاغورس » شيخ الفلاسفة إذا أحسّ من نفسه الضجر والاضطراب في اشتغالها بالعلوم عمد إلى تسكينها وتهدئتها بسماع الألحان الموسيقية والأنغام المطربة . ثم اجتنب ما استطعت أن تزج بنفسك في باب التشاحن والتشاجر ، والتنازع والتخاصم والتشاكي والتقاضي ، فتصبح موزع النفس ، دائم الهم .

(٧) ـ يجب ألا يحرم الجسم حاجاته الضرورية ، ولا يترك عرضة للجوع والظمأ وطول السهر ، فيفسد نظامه ، ويختل توازنه مع إدمان النظافة والاغتسال ورياضة الأعضاء ، لأن النفس السليمة لا تسكن إلا الجسم السليم ، وأكثر ما يصدر الغضب عن ضعاف البنية من الصبيان والشيوخ والمرضى والزمنى والعجزة والمقعدين .

(٨) ـ ومن أفضل الطرق في منع تولد الغضب ألا يكون الإنسان شديد التطلع ، كثير السؤال أُذُناً لكل قائل وناقل ، فلا يندمج في صف أولئك الذين لا يقر لهم قرار ، ولا تسكن لهم حركة إلا إذا وقفوا على ما يقوله الناس فيهم ، فيجلبون على أنفسهم ما يوقد جذوة الأحقاد في صدورهم .

الحكمة كل الحكمة أن يسمع قول السوء بأذنه ويرى الإساءة بعينه ، فيغضي عنها كأنه لم يسمعها ولم يرها ، لا أن يبحث وينقب للوقوف على ما يقال فيه في غيبته مما يسوءه سماعه : قال تعالى : « وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا » .

هل سمعت أحداً سلم من ألسنة الناس ، ومن لومهم وتفنيدهم ؟

ألم يكذبوا على الأنبياء ويفتروا على الحكماء ؟ على هذا درجت القرون وكرت العصور ، فإن كنت فاضلا فلا تتأثر بما يقوله الجاهل فيك لجهله ؛ فإنه لما عجز عن الارتفاع ليساويك فى الفضيلة حاول أن يحطك إلى درجته لتساويه فى النقيصة يفتريها عليك ، فإن أنت تأثرت بأقواله كنت جديرا بالنزول إلى مرتبته ؛ لأنك قد ساعدته على بلوغ مأربه . وحسبك أن تحصل على جميل الأحدوثة من رجل واحد من أهل الفضل ؛ فهو أرجح وزنا من آلاف رجل من ذوى الجهل ، واعتبر نفسك الفائز الرابح لأن شهادة الفاضل خالدة وتقولات الجهال زائلة .

اذكر سقراط إذ خرج يوما للتنزه فاعترضه أحد الجهلاء فضربه على رأسه ، فالتفت « سقراط » ضاحكا إلى من حوله وقال لهم : الآن علمت أن من الخطأ والجهل أن يخرج الإنسان من بيته وليس على رأسه خوذة تستر رأسه وتقيه العوارض .

(٩) — مرور الزمن من أنجع العلاج فى سكون الغضب ، فإذا هو ثار ثائره فلا تطاوعه فيما يمليه عليك فى الحال ، بل تربص ، ولا تأت أمرا من الأمور إلا بعد أن يمر عليه وقت ؛ فإنك لا تقدر على تبصر الصواب وتمييز الرشد من خلال دخانه فى التهابه ، وتعوذ بالله من الغضب مع القدرة وإطلاق اليد بقوة اليأس ؛ فإنه لا يقف عند حد ، بل يتدفق كالسيل الجارف ، وينقضّ كالشهاب الثاقب من شناعة الظلم وفظاعة البغى .

نعم قد روى لنا التاريخ خبر بعض من ملك نفسه عند الغضب ولم يجعل له سلطانا عليه ، مع ماله من حرية التصرف المطلق فى النفوس والأرواح :

فمن ذلك أن أحد الملوك سمع اثنين من حراسه يذمانه ويهجوانه

من وراء خيمته ، فرفع الستار عنه وقال لهما : « أبعدا قليلا ؟ فقد يجوز أن يسمع الملك كلامكما » والأمثلة فى هذا الباب كثيرة .

فإذا كان مثل هذا الملك يعالج نفسه من الغضب بهذه الكيفية مع قدرته على التشفى والانتقام بلا ضرر يخشاه ولا أذى يهابه فكيف لا ينتزع أى إنسان غضبه من صدره ، ومن ورائه الأضرار البليغة والعواقب المكروهة ؟

(١٠) — ومن دواء النفس لتطهيرها من الغضب حسن الاكتفاء فى المعيشة ، والرضا بالحالة التى أنت فيها ، فلا تشغل قلبك هما بما ليس فى يدك ، ولا تكن كالسواد الأعظم من الناس لا يلتفتون إلى التمتع بما هم فيه من نعمة ، بل ينسونها ويذهلون عنها بالتطلع إلى ما فى يد غيرهم فلا هم يحمدون ما لديهم ، ولا هم يبالغى مافى أيدى الناس ، فتنقلب النعمة عليهم نقمة ، وتُقضى حياتهم فى هم ونكد ، وشقاء وحسد :

وأتعب خلق الله من بات حاسدا لمن بات فى نعمائه يتقلب

وقل أن نرى من يرضى بقسمته مهما يعظم شأنها إذا نظر إلى قسمة أخيه مهما يصغر قدرها ، فتجد صاحب المنصب الذى يحسده عليه الحاسد كئيبا حزينا ، لا هو راض عن نفسه ولا هو راض بمنصبه بل لا ينفك يشكو سوء الحظ وسواد البخت مادام يرى فوقه أعلى منه منصبا ولو كان فردا واحدا ، ولا يلتفت لحظة إلى من دونه من الذين اعتلى عليهم بمنصبه ولو كانوا ألوفا . وتلك شيمة سيئة من شيم الإنسان يشقى بها طول حياته ، إذ لا يحمد أبدا على الكثير الذى يناله ، بل يغضب للقليل الذى يحرمه ، ويظل هكذا حتى تنقضى حياته ، ولما تتم مآربه .

الانتقام وأثره فى الأفراد والأمم

نقل بتصرف قليل من مجلة الهلال (عدد إبريل سنة ١٩٣٥)

لحضرة الأستاذ أديب عباس

الغريزة فى خدمة الفرد والنوع :

يسيطر على الحى من الناس منذ ولادته إلى أن يواريه رمسه حافزان قويان أشد القوة ، شاملان أوسع الشمول ، وقد جرى الاصطلاح الحديث على تسمية أحد الحافزين غريزة حفظ الذات والحافز الآخر غريزة حفظ النوع أو الجنس ؛ غير أن الأصح الأصلح أن يطلق عليهما غرائز حفظ الذات والنوع ؛ إذ لا يوجد على التحقيق غريزة فذة تقوم بمفردها على صيانة الفرد من عوادى الدهر وبوائق الزمن ، وكذلك ليس ثمة واحدة مفردة تستقل بالعمل على صيانة النوع من الفناء المطلق وتؤكد استمراره بل هناك غرائز — لا غريزتان — تتآخى وتتحد فى العمل على حفظ ذات الفرد أو جنسه : فغرائز الحرب والقتال والتسود وخلافها تخدم حياة الفرد وتعين على توقى الأعداء وعوامل الطبيعة من حر وبرد وجوع وعطش وكل مؤثر آخر يضعفه أو يفضى به إلى الهلاك ، والغريزة الجنسية وغريزة الأبوة وما إليها من غرائز حفظ النوع تعمل جهدها لوقاية الجنس من العدم وصونه من النفاد .

على أن هذا لا يعنى أن الجماعة الواحدة من هذه الغرائز لا تتعدى حدودها مطلقا بحيث لا تعمل غرائز حفظ الذات فى غير دائرتها ولا غرائز حفظ النوع فى خلاف نطاقها ، والواقع أن من الغرائز ما يعمل فى الوقت نفسه على صيانة الفرد وحياة الجنس معا كغريزة القتال مثلا ، فهى فى معظم أحوالها أداة مسخرة لحفظ حياة الفرد ، ولكن غير منكور أن هذه الغريزة ذاتها كثيرا ما تستعين بها الحياة لحفظ الجنس ؛ فالمرء إذ يقاتل ما يقاتل دون ذراريه وصغاره ، ويشق ما يشق فى الذود عن زوجه الراهنة ، يحفزه إلى هذا وذاك نداء الجنس الصارخ وصيانة النفس معا

وصيانة الجنس تجىء من ناحية ما يتخيله المرء أو يرجوه من قيام الصغار الذين يدفع عنهم ويمدهم بالقوة بدرء الأذى عنه وجلب القوت له متى أمسى عاجزا قعدة لا يملك نفعا لنفسه ، وأضحوا هم أقوياء ذوى أيد وحيلة ، وهذا الأمل قد يكون عنده طافيا على وجه الشعور أو مستسرا متخفيا فيما وراء الشعور ، ومن هنا نرى أن بعض التعميم فى مجال التقسيم بشأن الغرائز أولى من التخصيص ، بيد أنه لا يعنى أننا لا نستطيع أن ندرس الغريزة الواحدة على أنها غريزة همها الأول ومجالها الأوسع خدمة الفرد والنوع ، إنما الذى نعنيه أن الغرائز تشتغل مستقلة أو متساندة فى خدمة الفرد والجنس .

يعلم دارسو علم النفس أن الغريزة من الغرائز إذا استثيرت ودعيت للدفاع عن حياة الفرد أو الجنس صحبتها حالات شعورية تتراوح بين أقصى اللين وأقصى الشدة هذه الحالات الشاعرة التى تصحب الغرائز حين تدعى للعمل هى ما يسمى بالعواطف : فغريزة القتال مثلا إذا استثيرت صحبتها عاطفة الغضب ، وغريزة الحرب متى أهيب بها صاحبتها عاطفة الخوف ، وغريزة التسوّد متى تستنفر تلازمها عاطفة الاستعلاء أو التصاغر ، وغريزة الجنس إذ تستثار تصحبها عاطفة الحب (بالمعنى الجنسى) ، وغريزة الأبوة والأمومة تصحبها عواطف الحنو والشفقة والعطف وهكذا فيما عدا هذه من غرائز حفظ الذات وغرائز حفظ النوع .

هذه العواطف التى ذكرناها وما يؤججها من غرائز لم تدخل فى حساب الأقدمين بوصفها عوامل من عوامل الدفع فى العمران . ويعذر الأقدمون لأنهم كانوا يعزون كل حادث من حادثات الطبيعة والحياة إلى قوى خارجة من نطاق الإمكان الطبيعى ، ولأنهم لم يكونوا يعرفون لهذه الغرائز وما يصحبها من عواطف خصائص معينة ثابتة يستطيعون أن يرجعوا إليها فى التفسير والتعليل إلا أنه ما عتم أن اتجه العلم الحديث إلى الإنسان يدرسه دراسة تحقيق لا دراسة حدس وتخمين حتى احتلت غرائز الإنسان وعواطفه مكانة أولى بين العوامل التى تسجى العمران فى نواحى التقدم واطراد السير . وليس اليوم باحث يحترم نفسه ويحترم عقول الناس

يستطيع أن يغفل من حسابه عامل الغريزة والعاطفة في تفسير نشوء الحضارة وترقيتها .

مم تتألف عاطفة الانتقام ؟

وعاطفة الانتقام التي سقنا من أجلها هذا التمهيد على الرغم من أن علماء الأخلاق يمقتونها كانت ولا تزال ذات آثار خطيرة في النشوء والعمران ؛ وهي من العواطف المركبة التي تلازم أكثر من غريزة واحدة ، فهي تتركب من عاطفتين أساسيتين طالما استنفرتا معاً هما : عاطفة الغضب والاستعلاء الأساسيتان : فعاطفة الغضب لا تكفي لتبعث في المرء رغبة الانتقام ، لأن هناك مئات الأشياء تستنفر غضبنا ، وهي مع ذلك أبعد ما تكون عن إثارة الميل إلى الانتقام فينا ، وكذلك من الواضح أن ما يثير عاطفة الاستعلاء وحدها فينا لا يكفي ليثير فينا شهوة الانتقام : فأنت لا تفكر في الاعتداء على شخص لمجرد كونك أقوى منه ولشعورك بالاستعلاء عليه ، بل تحتاج استثارتك إلى الانتقام منه إلى استثارة غضبك عليه فوق شعورك بالاستعلاء عليه . وقد تجتمع للمرء مثيرات الغضب ومثيرات الاستعلاء ولكنها مع ذلك لا تستثير فيه الميل إلى الانتقام ؛ لأن الواقع يشهد بأن عاطفة الانتقام قد تتهيأ لها أسبابها وتظل راكدة لوجود عامل أو عوامل خارجة عن نطاق الشخص المستثير أو المثار كخشية العقاب الديني أو الدنيوي ، ومحاسبة الضمير والإحساس الأدبي أو خلافها . على أن المرء قد تتيسر له أسباب الانتقام جميعا والنجاة من عواقبها ، ولكنه مع ذلك يتجاوز عن ذنب المسيء ولا ينتقم ، وهذا في الغالب لا يكون إلا في الأحوال التي يستطيع المرء فيها أن يثبت للملأ أنه يتجاوز ويعفو ليس عن ضعف بل عن مقدرة . وهذا هو معنى العفو عند المقدرة ، وإلى مثل هذه الحقيقة النفسية يشير بيت المتنبي المشهور :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجئ إليها اللئام

إنا نستطيع أن نقرر أن عاطفة الانتقام مركبة عنصراها الأساسيان عاطفة الاستعلاء وعاطفة الغضب اللتان ترجعان إلى غريزتي التسود والقتال ، وهما من أقوى

الغرائز البشرية وأكثرها آثارا فى العمران ، فلننظر فى بعض هذه الآثار .

الأثر النشوئى :

الأثر النشوئى يجىء فى أول هذه الآثار التى تُرَد إلى غريزة التسود والقتال وما يصحبهما من عاطفة الانتقام المركبة : ذلك بأن أدوار الحياة الأولى وما كان سائدا فيها من تنازع شديد على البقاء ومغالبة قوية على أسباب العيش واعتداء غير محدود على الأموال والأرواح ـ يسرت فرصة البقاء للأجناس والجماعات القوية التى كانت قادرة على رد الأذى عن النفس أو الجنس حيث كان يخلو المكان من قوة عامة مسيطرة تكبح من جماح القوى وتحد من اعتدائه على الضعيف ، وهذا معنى قول سبنسر : « إن أقل الأمم ميلا إلى التعدى كان أقل الأمم نصيبا فى الحياة وأكثرها ميلا إلى الانقراض » وما يصدق على الأمم القديمة يصدق على أمم العصر الراهن ، فلا القوانين ولا غيرها من مثل الحياة العليا استطاعت أن تخمد فى الجماعات هذا الميل الذى سوف يظل يفعل فعله على ما يبدو ما زالت الأرض الأرض وما زال تنازع البقاء قانون الحياة العام يسيطر على الأمم فى أدوار الطفولة والنضج من نشوئها على السواء .

الأثر الفردى :

وثم الأثر الفردى لعاطفة الانتقام ، وهو أثر واضح غير ملتاث : تبدأ هذه العاطفة بالخنجر أو المسدس أو خلافهما من وسائل العنف والقهر ، وتنتهى غالبا فى غيابات السجون وعلى أعواد المشانق ، ولقد حاول المصلحون أن يخففوا من الغلو فى ممارسة هذه العاطفة ويحدوا من نتائجها الوخيمة فى الأفراد ، لكنهم فى اعتقادنا لم يزيدوا على أن يقنعوا شطرا من الناس إقناعا نظريا فى الأكثر بأن هذه العاطفة من العواطف الوحشية التى لا يصح للرجل المهذب أن يمارسها ويلجأ إليها فى الوصول إلى حق من حقوقه ، وكذلك قد نجحوا فى نقل حق الانتقام من الفرد إلى الجماعات ممثلا فى القانون والمحاكم ، فوضعوا بذلك حداً لفوضى الاعتداءات والغلو فى

الانتقام حتى لا يصيب الأبرياء والمذنبين على السواء . وعلى كل سوف يظل التقتيل والسجن والتشنيق نتائج هـذه العاطفة فى الأفراد مافتئت النفوس على شرتها ، ومابقيت هذه العاطفة على شدتها وغرامها ، ومازالت أسباب الاستثارة وبواعث الأحقاد بيننا تملأ الصدور حقدا وضغينة .

أطوار عاطفة الانتقام :

ومن الناحية التاريخية الاجتماعية يلحظ الباحث أن عاطفة الانتقام تمر فى أطوار ثلاثة يتميز كل طور منها عن تاليه ببعض الخصائص البارزة :

ففى الطور الأول يكون هدف المنتقم مبهما غير تام الجلاء ، فيكتفى المنتقم بأن يلحق الأذى بأناس وأشياء لا صلة مباشرة لهم ببواعث الانتقام فى صدره ، وحال المرء فى هـذا أشبه ما تكون بحال الطفل يستثار فينهال على كل شىء يقع فى سبيله تحطيما وضربا وتخديشا ولطما قد يناله هو نفسه منه حظ غير يسير ، ويصعب نوعا أن تتبين الصلة بين فعل الانتقام يمارس على هـذا الشكل وبين ما أشرنا إليه فى فاتحة هذا الفصل من أتجاه جميع العواطف والغرائز فى ناحيتى الدفاع عن النفس أو الجنس . والتفسير الوحيد الذى نراه يستقيم مع هـذه المظاهر الغريبة لعاطفة الانتقام فى هـذا الطور هو أن المنتقم لشدة رغبته فى الانتقام وعدم وجود أية سلطة أدبيـة أو مادية رادعة تذكره وتقفه عند حد معقول من الاستجابة لدواعى هـذه العاطفة ـ يفقد قوة التمييز بين المعقول وغير المعقول ، ويطوح به زخم العاطفة إلى ماوراء هدفه كالجواد الجموح يندفع وراء الطريدة ، فيخلفها وراءه لشدة جريه وقوة اندفاعه . ويزيدنا ارتياحا إلى هـذا التعليل أن هـذا النوع من الانتقام غير المميز لا يكون إلا بين الشعوب البدوية المتقهقرة التى لم تزل من نشوئها العقلى فى دور الطفولة ، والأمثلة على ذلك من حياة الشعوب المتأخرة كثيرة : فبعض القبائل المتأخرة تكتفى ـ إذا اعتدى عليها بالسرقة ـ بسرقة مال أى سارق ، وعنـد قبائل « المورى » إذا قتل أحد فإن ذويه يكتفون بقتل أول شخص يسوقه سوء الطالع إلى طريقهم سواء أكان من ذوى قربى المعتدى أم لم يكن ! ! ! وفى جزائر

أنداماً إن إذا استثير أحدهم فإنه يتلف ثروته كما يتلف ثروة الآخرين !! .

والطور الثانى يبدأ منذ يأخذ هدف المنتقم يتميز ويتخذ وجهة معينة وتصبح ممارسته أقرب إلى تحقيق أغراض الغريزة من حفظ الذات أو النوع أو كليهما معاً. فى هذا الدور يكون هم المنتقم إضعاف الخصم فى أمواله أو فى رجاله ، فينهب ما ينهب من أموال العدو ، ثم يعمد إلى الخصم ، ويصب على رأسه جام غضبه المركز ، وإذا لم تنله يداه فأحد أقربائه يقوم مقامه ، لأن العصبية القَبَلية فى هذا الدور تجعل الضرر الحال بفرد من أفراد القبيلة ضرراً يقع على القبيلة كلها ، فإضعاف زيد إنما هو إضعاف لعمرو ، وإضعاف عمرو إضعاف لزيد ، وقد ظل هذا النوع من الانتقام شائعاً فى الجزيرة العربية إلى أن جاء الإسلام واستبدل بعصبيات الجاهلية ومُثُل البداوة النازلة عصبية الإسلام ومُثُل الجهاد العليا ، وأضحى خصيم البدوى من يخالفه فى المبدأ فقط إلا أن هذا التحويل لتيار الخصومة فى البدوى من مجراه الضيق وأفقه المحدود إلى أفق الجهاد الوسيع قد وهن وخالف المسلمون مبدأ دينهم الحكيم ، فعادت العرب عصبياتهم القديمة وخصوماتهم المتوارثة ، وأضحت وبالاً عليهم فى خراسان والشام والأندلس ، وقوضت بنيان ملكهم الشامخ من الأساس ولم تنفك عصبيات الدم تمتد وترتد إلى الوراء حتى أضحت على مثل ما كانت عليه فى إبان الجاهلية شدة وقسوة .

ويذكر أكثر القراء أن غسل العار بالدم كان قاعدة فصل الخصومات فى معظم أنحاء الجزيرة العربية إلى عهد قريب جداً . ومن أقوال البدو الشائعة : « الذى لا يأخذ بالثار هو ردى الخال ، ومن أخذ بالثار بعد أربعين عاماً لا يكون استعجل !! »

والغفلة عن الانتقام تعد عند البدوى أكبر العار ، وإذا قتل قتيل عندهم يخلع الرجال العُقل (علامة الرجولة) إلى أن يؤخذ بثأره . ومن أساطير الجاهلية أن من كان يقتل ولا يؤخذ بثأره يخرج من رأسه طائر يدعى الهامة ولا يزال صائحاً : « اسقونى ! اسقونى » إلى أن يُؤْخذ بثأر هذا القتيل ، وهذا

الاعتقاد لا يزال سائدا بين قبائل شرقى الأردن بدوها وحضرها ، ولكن بشيء قليل من الاختلاف ، فهم يعتقدون أن المرء إذ يقتل تظل الأرواح ترود قبره صائحة صاخبة . ومن غريب الاتفاق أن الأمم الجرمانية القديمة كان لها مثل هذا الاعتقاد بشأن القتيل يقتل ولا يؤخذ بثأره .

ويبدأ الطور الثالث لعاطفة الانتقام حين يصبح للشعب رأى عام مثقف بعصر التثقيف ، فيصبح المذنب وحده هدف الانتقام ، وكان حق الانتقام فى بدء هذا الدور للفرد ثم انتقل منه إلى الجماعة ، وانتقال حق الانتقام من الفرد إلى الجماعة يعد بحق الركن الركين فى بناء صرح العدالة ونواة المحاكم الحاضرة النظامية ، ولعل الباعث الأول على نقل حق الانتقام من الفرد إلى الجماعة أن الجمهور كان يشاهد أن القوى لا يقف عند حد من الانتقام إذا آنس ضعفا فى خصمه وقوة فى نفسه ، وأن الضعيف كان دائما يهدر حقه إذا كان خصمه قويا لا يستطيع أن يطوله بأذى . وهذا كان معناه إغراء للأقوياء بالضعفاء وإضاعة لحقوق الأكثرية لأن الأقوياء هم دائما الأقلية والأكثرية هم الضعفاء . وهذا يفسر عبارة (نيتشه) الذى يقول فيها : « إن القانون قيد يخترعه الضعفاء ليقيدوا به الأقوياء » هنا انتزع حق الانتقام من الفرد إلى الجماعة التى افترض فيها الحياء والنزاهة ، فتجىء أحكامها أقرب إلى فكرة العقل وأكثر إرضاء لضمير الرأى العام الذى أخذت الأحداث المختلفة توقظه من سباته ، وتحرضه على تضحية بعض مصلحة الفرد فى سبيل مصلحة الجمهور . هذا ويكاد معظم الباحثين فى نشوء قوانين الجزاء يجمعون على أن هذه القوانين ترجع فى أصولها الأولى إلى ألوان من العادات والعرف كانت تمارسها جماعات الإنسان الأولى فى الاقتصاص من المجرم والانتصاف للمتأذين من المؤذين : ودليلهم أن الشعوب المنحطة يقوم العرف والعادة عندها مقام القانون ، بل كثيرا ما يكون ذلك فى أمريكا فى حوادث الاعتداء على الزنوج وتشنيقهم وتحريقهم قبل أن يقول القانون كلمته الأخيرة فى الجرم المنسوب إليهم وفى انجلترا والهند أكبر الأثر للعرف والعادة فى القانون المعمول به هناك ، وفى

شرائع يونسيان إشارة صريحة إلى أن تلك الشرائع فى أصلها كانت عادات تأكدت واستحكمت على الزمن ، وفى اليونانية كلمة (عادة) ترادف لفظ القانون . وليس هذا من فقر فى اللغة اليونانية بل دائما يرجع إلى ما كان متأصلا فى نفوس القوم من اقتناع شديد بعلاقة العرف والعادة بالقانون .

ويجب أن نذكر أن القانون الذى لا يحترم عادات القوم وعرفهم لا يحترم ، وهذه حقيقة أغفلها كثير من المصلحين المتحمسين ، فباءوا بالخيبة حينما أرادوا أن يضعوا قوانين وعادات لا توافق بيئاتهم وعرفهم .

الانتقام وآداب القدماء :

لعاطفة الانتقام حظ وافر فى آداب القدماء وفنونهم لاسيما فى أطوار جاهليتهم ، وفى جاهلية العرب واليونان تصطبغ آداب الشعبين بفكرة الانتقام أشد الاصطباغ ، وهذه حرب داحس والغبراء والباسوس وما يروى حولها من أشعار وهذه الالياذة وما اشتجر فيها من حروب تلونها عاطفة الانتقام ألوانا واضحة قوية . وحوادث الانتقام الناشئ من الغيرة أو خلافها لها حظ وافر فى القصة والرواية (والدرامة) فى هذا العصر . وأدب النقد والتصوير الهزلى لا شك متأثر إلى حد بعيد بعاطفة الانتقام ، فليس جميع النقاد منزهين عن مستوى الأحقاد والخصومات الشخصية . ولا يعنى هذا أن النقد يجىء دائما جائرا زائغا بعيدا عن الحق ، فقد يكون مع الخصومة ميل شريف إلى الانصاف ، فيجىء رأى الناقد مرا بعض الشىء ، ولكنه غير بعيد كثيرا عن الحق ، على أن النقد يكون أقرب إلى الانصاف كلما بعد الزمن بين الناقد والمنقود ؟ إذ لا يرى الناقد إلا الأثر الفنى أو الأدبى الذى يتصدى لانتقاده .

هذه بعض آثار عاطفة الانتقام ، ولا جرم أن أشد آثارها وأروعها هو أثرها العام فى الشعوب بما تنشبه من خصومات وتوقده من حروب ، ففى نارها تتلاشى عواطف الود بين الأمم ، وفى أتونها تصهر الصداقات وتنقلب نارا حامية

تصلاها الشعوب حروبا مهلكة ومجازر مروعة : كتلك التي شاهدناها في الحرب الكبرى ، وكهذه التي يترقب العالم بين يوم ويوم أن يصلاها . ولعل شبح الحرب المخيف كان ينزاح من أفق الحياة لو أزيلت شهوة الانتقام والرغبة في غسل العار بالدم والحديد والنار من صدور الساسة وأهل التجارة في الأسلحة والذخائر ، ولكن كيف تزال ومن يزيلها ؟ ! .

الظلم

الظلم مجاوزة الإنسان حده واستطالته بالجور على غيره ، وهو إحدى طبائع النفس تظهره القوة ويخفيه الضعف :

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

وإذا تأملت كل شيء في الوجود تجد للظلم أثرا فيه :

انظر إلى النبات تجده يعدو قويه على ضعيفه ؛ فيمتص غذاءه ويحرمه قوته ويتركه ذابلا يتصوح ثم يصير هشيما تذروه الرياح .

وانظر إلى الحيوان في مستقره في البر والبحر ترد يأكل قويه ضعيفه ويهتك كبيره بصغيره حتى لتكاد تبيد بعض فصائله وتذهب من الوجود باعتداء بعض أنواعه على بعض . وهذا ما جعل نفور بعضه من بعض طبعيا ، وقد قيل : إن من الطيور ما لا يحضن بيضه وإن إناثه تضع بيضها في وكور بعض الطيور ، فتضمه هذه إليها حتى إذا فقس ونما قليلا وأحس من نفسه القدرة عدا على فراخ الطير الذي احتضنه وقذف بها من العش فتقع فتموت ليخلو العش له ، وهذا نوع من الظلم يخفى مكانه على اللبيب الفهم . خبرني بربك : من ذا الذي علم هذا الفرخ الضعيف العقوق وهداه إلى الغدر والخيانة حتى جعله يقذف بفراخ التي آوته وصارت تغدو عليه بما تسعى به لأفراخها ؟ لم يكن التعليم ، وإنما هداية الفطرة وكامن الظلم . وقد شاءت قدرته جل شأنه أن يجعل لكل نوع من أنواع الحيوان سلاحا يدافع به عن نفسه :

فمنه ما جعل له الناب والظفر ، ومنه ما جعل له قرونا في رأسه مثنى وفرادى :

ومنه ما أحاط ظاهر جلده بشوك إذا انقبض انتصب وكان كالإبر الحادة،

ومن عجائب خلق الله حيوان ذَفِر يعرف بالظربان سلاحه نتن ريحه وذفره فإذا اقتحم عليه جحره حيوان ليفترسه أطلق عليه من ريحه شيئا فأماته لفوره .

والإنسان يظلم وينال بظلمه مادنا ونأى ، وأول من يصيبه بظلمه نفسه التى بين جنبيه ، فإن ماتنطوى عليه من الشرور وماىخالط قلبه من الأثرة وحب الاستبداد يجد ألمه ووخزه كلما تحركت فيه الأثرة وحب الاستئثار بالمنفعة ، وكثيرا مايقتصر ظلم الإنسان على نفسه ولا يتعداه إلى غيره كالذى لا يؤدى واجب نفسه ، ولا يعمل صالحا يعود عليه نفعه فى الدنيا والآخرة ، وقد يظلم أهله فلا يحسن معاشرتهم ولا ينفق نفقة أمثالهم ويسوسهم بالقسوة والغلظة ، وهذه حال كثير ممن يتوهمون أن سوء معاملة الأهل من موجبات الاحترام وأن الخوف أقوم سبيل لتأديب الأولاد ، وهذا رأى سقيم وخطة قضت عليها أساليب التربية الصَّحِيحَة ، وليس لها من قبل حظ من تأييد العقل والشرع ، وأين هذا من عمر بن الخطاب وقد دخل عليه أحد عماله فوجده مستلقيا على ظهره وصبيانه يلعبون حوله ، فأنكر ذلك عليه فقال له عمر : كيف أنت مع أهلك ؟ فقال : إذا دخلت سكت الناطق. فقال له : اعتزل عملنا فإنك لا ترفق بأهلك وولدك فكيف ترفق بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ! !

ومن هذا ماروى فى صحيح البخارى أن الأقرع بن حابس رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقبل الحسن بن على فقال : إن لى عشرة أولاد ماقبلت واحدا منهم . فقال عليه السلام : « مَنْ لاَ يَرْحَمْ لاَ يُرْحَمْ » وفى رد النبى صلى الله عليه وسلم على الأقرع بن حابس ماينبئ بخطئه وشدة ظلمه لأهله ومقت النبى صلى الله عليه وسلم إلى فعله وتنبيهه إلى سوء عاقبته .

ومن ظلم الإنسان لأهله ألا يريهم مقتضيات الزمان حتى يعدهم للكفاح فى

الحياة بتعليمهم العلم النافع الذى يسهل لهم كسب أرزاقهم ومزاحمة غيرهم أو يضمهم إليه على نحو ماترى فى القرى ، ولا يكل لكل واحد منهم عملا يعمله تدريبا له على أعمال الحياة وحضا له على الكسب ، ويستقل هو بالقيام بكل شئونه حتى إذا مات أو عجز عن العمل عجزوا عن تصريف الأمور على وجهها ، وأضاعوا ثروتهم وكل ما صار إليهم من ثمرات أبيهم . على أن كثيرا من الناس ينصفون أبناءهم بتعليمهم ، ويظلمون بناتهم بإهمال تربيتهن ، وهن فى حاجة إليها ؛ فإن البيت وشئونه وحسن تربية الأولاد وتهذيبهم والقدرة على تحسين حال الأسرة وتوفير الراحة لها والطمأنينة والسعادة كل هذا يقتضى علما جما وأدبا كثيرا وخلقا صالحا وعقلا راجحا ، وهذه أشياء لا تحصل بغير التربية والتعليم .

ولقد كان كثير من الناس يغالون فى إهمال بناتهم فيجعلونهن دون الحيوان فى المنزلة ، فقد يعنى أحدهم بتربية أبقاره ورياضة أفراسه ، ولا يعنى بتربية بناته ، وهذه حال زالت أو كادت ، ولم يبق لها من أثر فى غير العامة التى لا تعرف شيئا من معنى العلم وفائدة التربية .

ومن ضروب ظلم الأهل أن يظلم زوجته ، فينظر إليها نظره إلى متاع بيته وهى أم ولده والقائمة على تدبير شئونه والحافظة لغيبه ، فيروضها على الذل ومهانة النفس والصغار ، فتبث فى نفوس أولاده رذائل الأخلاق ، وتنقل صفاتها إليهم بحكم التقليد ، فيكون ظلمه لها ظلما لأولاده وأمته بما تلد من عبيد وإماء فى ثياب أحرار .

ويظلم جيرانه فلا يقوم بحق الجوار لهم ، فلا يواسيهم فى محنتهم ولا يساعدهم فى شئونهم ، ولا يفرح لهم إذا فرحوا ولا يحزن معهم إذا حزنوا ، ولا يحب لهم من كل شىء ما يحبه لنفسه .

ولقد أوصى الله سبحانه وتعالى بالإحسان إلى الجار كما أوصى بعبادته والإحسان إلى الوالدين ، وهما على ماتعلم أحق الناس ببرنا وأولاهم بعطفنا

وحسن رعايتنا : قال تعالى : (وَاعْبُدُوا اللهَ وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ)

ومما يدل على معرفة حق الجار والوفاء له والعمل بما أوصى به الدين فى شأنه ماحكى عن بعض ذوى الأخلاق الطاهرة أنه اشتكى كثرة الفيران فى داره ، فقال له بعض من سمعه : لو اقتنيت هرا لذهب عنك الفيران . فقال : أخشى أن يسمع الفأر صوت الهر فيهرب إلى دار الجيران فأكون قد أحببت لهم مالا أحبه لنفسى !!

ومما يدل على التنفير من سوء معاملة الجيران وما أعده الله لمن لا يحسن معاملتهم ماروى أنه قيل للنبى صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ فُلاَنَةَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ وَهِيَ سَيِّئَةُ الْخُلُقِ تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا فَقَالَ : لاَ خَيْرَ فِيهَا هِيَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ)

ويظلم الناس فيستطيل عليهم بلسانه ويده ، ولا يوقر كبيرهم ، ولا يرحم صغيرهم ، ولا يعطف عليهم ولا يساعدهم بفضل ماله بأن يتخذ لفقرائهم ومرضاهم والعاجزين منهم المدارس والملاجئ والمستشفيات، وللمتعطلين كالأحداث الشرد ومن تغص بهم المشارب وفى كل حى وشارع المصانع والمعامل والمشاغل يعملون فيها فينفعون وينتفعون .

ويظلم خدمه فيكلفهم ماهو فوق طاقتهم ولا يؤدى لهم أجورهم فى وقتها ولا يعفو عن زلاتهم ولا يرأف بضعيفهم ولا يحسن جزاء المحسن منهم .

وأشد أنواع الظلم وأدعاها للويل والثبور ظلم الحاكم فيمن ولى عليه وإطاعة هواه ؛ فإن هذا يسلب من الناس الأمن على الأرواح والأموال والأعراض ، وينشر فى المحكومين الفساد وسوء الأخلاق ، وينقل إليهم ما اتصف به من رذائل ؛ فإن كان من صفاته التجسس والميل إليه وهو مايحبه الظالمون دائما رأيت

حاشيته يسعون إليه بالأبرياء ، ويبتغون الزلفى عنده بالإيقاع بالناس كذبا وبهتانا ، فتنفر منه القلوب وتجتمع على بغضه والكيد له ، وتتهيأ النفوس للأخذ بالثأر منه وانتهاز الفرصة فيه وإنها لممكنة ، لأن الزمان قلب ، وغيره تصيب الحذر من مأمنه .

ومن أضر أنواع الظلم بالشعوب وأفتكه بها أن يستبد الحاكم : بأن يجعل إلهه هواه وإرادته شرعا وقانونا ، فلا يحكم إلا بما يرى فى نفسه ، فتذهب حرمة النفس والمال ، ويتقلص ظل الأمن من البلاد وتنقبض الأيدى عن العمل ، فتقل الثروة ويتسع نطاق الجهل بما يسعى إليه دائما من إطفاء نور العلم الذى يصوح الاستبداد وأهله ويدك بنيانه ويقوض أركانه وينسخ آثاره ، ولا جرم أنه بإطفاء نور العلم تنحط الأخلاق وتفقد الأمة الشجاعة والحمية ، وينتشر فيها الملق والنفاق والكذب والغيبة والنميمة والرشوة ، ويكون عاقبة أمر الظالم أن تعصف به ريح هوجاء من الفتن فتثل عرشه ، وتذهب بملكه وأمنه :

أُعطيت ملكا فلم تحسن سياسته كذاك من لا يسوس الملك يُخلعه

ومثله كمثل النار إذا أصابت يابس الهشيم لا تذر منه شيئا إلا أتت عليه ، ثم تضمحل وتخمد ، فهو مهلك ثم هالك ، وهذا الذى حصل فيمن غبر من الأمم التى استبد بها حكامها .

والباعث للمستبد على الاستبداد القسوة أو الجراءة أو الكبر أو عدم الاعتداد بالأمة أو ما تظهره من الخضوع لإرادته فى كثير من الأحوال أو وجود بطانة السوء حوله ممن يزينون له القبيح ويصرفونه عن الحسن ولا يألونه خبالا مادام فى شىء من هذا مصلحة لهم .

ويظلم الحيوان فيحمله فوق طاقته ويعذبه أو يمثل به وقد حرمت الشرائع ذلك كله : فهراش الديكة ونطاح الثيران والكباش وغير هذا مما يأتيه الجهلة من العامة للتسلية مما يحرمه الإسلام ، وتعافه النفوس الكريمة .

وقد جاوز فريق من الناس الحد فى ظلم الحيوان وتعذيبه ، فهؤلاء الاسبان

وهم أمة لها حظها من المدنية الحديثة يجتمعون فى كل عام فى أكبر ملاهيهم فى احتفال جامع ليشهدوا صراع الآساد والثيران في ميدان واسع أعدوه لذلك وأحاطوه بسياج من الحديد المنيع فإذا انطلق الأسد والثور فى ذلك الميدان الفسيح تجاولا وتصاولا ساعات فإذا كان الأسد هو الغالب رأيت جلد الثور يتمزق وأحشاءه تتقطع وتتناثر فى كل ناحية من الميدان ، وإذا كان الثور هو الغالب رأيته وقد شد الأسد بقرنه ، فبقر بطنه وحمله على رأسه ، وضرب به الأرض فمزقه تمزيقا وداسه بحوافره ، والناس بين ذلك يصفقون ويعجبون ويطربون .

تلك حال دونها حال الحيوانات المتصارعة ، ومدنية أرقى منها وحشيةُ الأمم الضاربة فى بطاح إفريقية ومجاهلها وغابات أمريكا وأدغالها .

ومن الأغنياء من يتخذ الحيوان للصيد والتلهية ، فيختار له أرضا واسعة ويوكل به من يعنى بتربيته حتى إذا أراد أن يروح عن نفسه ويدخل السرور على قلبه انطلق إلى تلك الأرض ومعه أسلحته وخدمه وحشمه فإذا تأهب للصيد وتقلد سلاحه أخذوا يهيجون الحيوان من مكمنه ، وكلما بدا له شىء منه يتلقفه ببندقيته ورصاصه حتى إذا ذهب عنه همه وسرى عن نفسه عاد جذلان مسرورا يتحدث لأصدقائه وأحبائه بما كان منه فى يومه وما وجد من دواعى الغبطة والسرور فى نزهته .

الظلم أنفى للظلم

لست تجد أجدى عليك من دفع عدوان المعتدين وظلم الظالمين ولا أنفى لجورهم من الجور عليهم وظلمهم :

من ظلم الناس تحاموا ظلمه وعز عنهم جانباه واحتمى

ذلك لأن الظلم فعل سيئ والفعل السيئ أشد ما يكون تأثيرا فى النفس بما يتركه فيها من أثر الخوف والرهبة بخلاف غيره من الرذائل كالغيبة والكذب ونحوها

فإنها ليست أمورا عملية ولا أثر للقوة فيها ، لذلك كان الكذب لا يدفعه الكذب ولا الغيبة تكفها الغيبة ، فمن لم يدفع عن نفسه وعرضه وماله ذوى النفوس الشريرة الذين لا يخضعون لغير القوة ولا يدينون لغير سلطان القهر بالالتجاء إلى الظلم لا ينجو من ظلمهم وشرهم :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

ومن نظر فى أحوال هذا النفر والذين على شاكلتهم من اللصوص وقطاع الطرق وسفاكى الدماء فى القرى والأرياف وجدهم أمنع جانبا وأعز منالا ممن يملكون الدور والقصور والعقار والمال ، وتجدهم يفرضون الإتاوات على الأغنياء ، فيؤدونها عن يد وهم صاغرون إلا من اتخذله دريئة من الأشقياء يؤويهم ويطعمهم ويسقيهم ليحموه من عسف أولئك الفجرة وجورهم ، فيعزبهم جانبه وتقوى شوكته . ولا تجد شقيا من هؤلاء يعتدى على آخر مثله لما يعلم من قدرته على الانتقام منه ورد اعتدائه باعتداء مثله أو أشد منه ، ولهذا قيل : من لم يكن ذئبا أكلته الذئاب.

والظلم مركب خشن لا يصلح فى كل موطن ولا مع كل إنسان ولا فى الأمم التى ساد فيها النظام وحكم القانون ، أما فى القبائل المتبدية والأمم التى لا تزال على حال من الهمجية والحكم فيها للقوة دون الاعتماد فى ذلك على قانون سماوى أو وضعى فالالتجاء إلى الظلم وكف المعتدى بالاعتداء عليه أمر مرغوب فيه ، إذ لا وسيلة للمحافظة على الشرف والنفس والمال إلا به ، وتلك ضرورة اقتضتها حال الاجتماع على هذا النحو ، وكثيرا ما تبيح الضرورات المحظورات :

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبا فلا رأى للمضطر إلا ركوبها

العدل والظلم

الظلم فى أصل معناه اللغوى وضع الشيء فى غير موضعه وتحويله عن موقعه ، ثم غلب استعماله فى أن يتعمد الشخص تحويل حق الآخر عنه وإضاعته عليه ومنعه من التمتع به ، وهذا يكون بأحد طريقين : إما بأن يقسره على ما يريد من ظلمه قسراً وهو ظلم الجبابرة ، وإما بأن يتوسل إلى ظلمه باسم القانون أو الشرع وهو ظلم الحكام . والظلم أيضاً يختلف باختلاف عموم الحق وخصوصه ؛ فقد يكون الحق عاماً راجعاً إلى مجموع الأمة ومصالحها السياسية والاقتصادية ، فيظلمها ظالم فى هذه المصالح والحقوق ، ويحول بينهما وبين التمتع بها بإحدى الطرق ، وليس هذا من موضوع بحثنا فى هذا الفصل .

وقد يكون الحق خاصاً متعلقاً بالأشخاص ، فيتشاحنون عليه ويظلم بعضهم بعضاً فيه ، ثم يرجعون إلى الحكام فيعدلون فيهم أو يجورون ، وهذا المعنى هو الذى عقدنا له هذا الفصل ونريد أن نسرد النصوص الدينية الدالة على تحريمه وتشدد الشارع فى النهىَ عنه والوعيد فيه .

وضد الظلم العدل ، وهو التوسط والاستقامة وعدم الميل إلى أحد الجانبين : إن استحسان العدل واستقباح الظلم أمران مغروزان فى فطرة البشر ، وقد أصبحوا على اختلاف أديانهم وأجناسهم يعتقدون أن العدل أساس العمران وأن الظلم مؤذن بخرابه مقوض لبنيانه ، وإنما الصعوبة كل الصعوبة فى العمل بهذا الاعتقاد والجرى عليه فى المحاكم وفى ضروب المعاملات ، وإذا أمر الإسلام بالعدل ونهى عن الظلم فإنما يريد فى خطابه كل واحد من الناس ، لكنه يخص الحكام أحيانا بالذكر ؛ لأن الظلم منهم أعم ضررا وأسوأ أثرا وأشد تدميرا للبلاد وتشتيتا لشمل العباد: قال تعالى: (إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) ،

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ » وقال تعالى : « وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » ، « وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ » ، « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ » ، « وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ » :

في هاتين الآيتين تهديد للظالمين بأن انتقام الله سيحل بهم مهما يتأخر عنهم ، وانظر كيف أخبر القرآن في آية أخرى عن قوم حل بهم ذلك الانتقام الإلهي ، ثم هنأ الأكوان بالخلاص منهم فقال تعالى : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » : أي أنهم هلكوا وبادوا فكان على البشر أن يحمدوا خالقهم على لطفه بهم مذ أراحهم من شرهم .

أما الأحاديث الشريفة الواردة في العدل والظلم فأكثر من أن تحصى ، وحسبك منها قوله صلى الله عليه وسلم : « اتَّقُوا الظُّلْمَ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، « وَلَوْ بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ لَدُكَّ الْبَاغِي » ، « وَأَحْسِنُوا إِذَا وُلِّيتُمْ » هذا خطاب للحكام الذين يتولون الحكم في الناس بأمرهم بالإحسان .

ومن آداب الإسلام حماية المظلوم والوقوف في وجه الظالم فمتى يحس المسلم من أخيه ظلما وجورا في معاملة الآخرين يجب عليه أن ينهاه عنه ويحذره سوء مغبته : كما إذا رأى أخاه يظلمه ظالم ، فإنه يجب عليه أن يبادر إلى دفع الظلم عنه بمختلف الوسائل . وقد جمع الأمرين معا الحديث الشريف ، وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم : « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا » قيل : كيف أنصره ظالما يارسول الله ؟ قال : تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره

وينبغي أن تستفيد من هذا الحديث أمرا جديرا بالتدبر والانتباه : ذلك أن في إطلاق النصوص الدينية جملا وأساليب بليغة لا يتفطن لها إلا بعد التأمل فيها والرجوع إلى النصوص الأخرى التي وردت في موردها ، فلو لم يستشكل

السائل نصرة الأخ الظالم ويفسره صاحب الشرع لاتهم الإسلام بأنه يأمر بحماية الظالم وإعانته على ظلمه مع أن الأمر ليس كذلك؛ لأن إعانة الظالم لاتجوز بحال، وقد توعد عليها الشارع فى قوله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَنْ أَعانَ ظالِمًا سَلَّطَهُ اللهُ عَلَيْهِ» بل يصح لنا أن نقول: إن الشارع لولم يفسر لنا معنى نصرة الظالم لوجب علينا أن نحمل كلامه عليه؛ لما تحقق لدينا من سلامة أصول الإسلام واطراد مدلولاتها فى تأييد الحق والخير والفضيلة وحمل الكافة على العدل ومكارم الأخلاق، وقد علم من قواعد الإسلام الكبرى أنه لا يأمر بالفحشاء ولا المنكر ولا البغى، وإعانة الظالم على ظلمه من أقبح أنواع البغى فكيف يأمر به الشرع الحكيم؟! فيجب أن يكون المراد من الحديث حجز الظالم عن ظلمه كما فسره صلى الله عليه وسلم.

الحسد

الحسد حال فى النفس تثيرها آلاء الله فى عباده وحباؤه لمن اصطفاه من خلقه، ولا تستقر حتى تزول تلك النعم، وهو غير المنافسة والغبطة؛ لأن المنافسة محاكاة غيرك فى أعماله وطلب التشبه به من غير إدخال ضرر عليه، وتكون بالسعى فيما يرفع شأن الإنسان ويقدمه وهى محمودة لأنها من أسباب المسارعة إلى فعل الخير ومحاسبة النفس على ماتأتيه من الأفعال، فما كان منها حسنا استبشرت به وازدادت منه، وما كان منها سيئا أو فيه تقصير نزعت عنه أو أصلحته، فيدوم بهذا تقدمها نحو الغاية التى تسعى لها وهى إدراك المنافس لما يأتيه من جلائل الأعمال.

والمنافسة من أسباب تقدم الصناعة والعلوم ورقى التجارة وازدهار الحضارة والعمران والجود بالنفس والمال فيما يعقب فخرا أو يخلد ذكرا مما فيه منفعة عامة للناس، ولهذا كان من الحسن إثارتها فى النفوس وإيقاظها بالأساليب المختلفة كمنح الألقاب والأوسمة والثناء الطيب والإشادة بمدح من يقوم بعمل نافع للناس

فى الصحف وعلى ألسنة الخطباء فى المحافل والمجتمعات، وقد حث الله سبحانه وتعالى عباده المجدين على التنافس فى طلب الخير وفعل البر : قال جل شأنه: « وَفِى ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ »

ومن هذا يتبين أن المنافسة غير الحسد لاختلاف غايتها؛ إذ غاية الحسد الإضرار بغيرك وترقب زوال النعمة عنه والفرح بما يصيبه من شر، وغاية المنافسة كسب المحامد من طريقها مع عدم الإضرار بالناس ولا توقع الغير بهم.

وأما الغبطة فهى رغبة النفس فى أن يكون لها مثل ما لغيرك، وهى ممدوحة أيضا، لأنها تنتهى غالبا بالمنافسة إذا صحبتها العزيمة وحب العمل. وقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: « الْمُؤْمِنُ يَغْبِطُ وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ »

والحسد أول خطيئة اقترفت فى السماء، وأول معصية ظهرت فى الأرض، خص بها أفضل الملائكة فعصى ربه وغوى واستكبر كما جاء فى القرآن الكريم: قال: « أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً » ولم تهدأ ثائرة حسده ولا طفئت جذوة حقده بإخراج آدم وزوجه من الجنة فطلب أن يتعقبهما وذريتهما فى دار الدنيا بالإغواء والإضلال: قال تعالى: « قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً » فاستجاب الله دعوته فيمن ضل من عباده قال: « اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُوراً وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً »

وأما فى الأرض فإن بنى آدم حسد أحدهما أخاه إذ قربا قربانا فتقبل من

أحدهما ولم يتقبل من الآخر ، فقتله فأصبح من الخاسرين . فأنت ترى أن الحسد قد حمله على القسوة وبلغ به أقصى درجات العقوق ، وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمُ الْبَغْضَاءُ وَالْحَسَدُ هِيَ الْحَالِقَةُ حَالِقَةُ الدِّينِ وَلَا حَالِقَةُ الشَّعْرِ وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَمْرٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ » فقد أخبر النبى عليه الصلاة والسلام بأن التحاب ينفى الحسد وأن السلام يبعث على التحاب . وقال تعالى : « ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ »

وما خالط الحسد قلبا إلا عجز عن ضبطه وكتمانه وتمرد عليه بظهوره وإعلانه، فهو أغلب على صاحبه من كل شيء حتى لقد يغلب على من اتصف بالدهاء وعرف بالعقل والأناة ، فيظهر فى كلامه وفلتات لسانه وأسارير وجهه ، ولولم يكن من ذم الحسد إلا أنه خلق دنيء لايكون إلا للأكفاء والأقارب والمخالط والمصاحب لكان التنزه عنه محمدة والاتصاف به منقصة ، فكيف وهو مضر بالجسم والنفس حتى لقد يفضى بصاحبه إلى التلف من غير نكاية فى عدو ولا إضرار بمحسود : قال معاوية بن أبي سفيان : « ليس فى خصال الشر أعدل من الحسد يقتل الحاسد قبل أن يصل إلى المحسود » وقال حكيم : عقوبة الحاسد من نفسه .

بواعث الحسد

وللحسد بواعث :

منها بغض المحسود لفضيلة فيه أو لعمل مجيد أتاه فاستحق من أجله الشكر أو الارتقاء من منزلة فوق منزلته ، وهذا أقبح أنواع الحسد لأنه يكون خاصا بالأصحاب والأدنين من الأكفاء والخلطاء .

ومنها أن يظهر من المحسود فوق فى أمر ، فيعجز الحاسد من متابعته فيه أو اللحاق

به ، فيحسده على تقدمه وسبقه ، وهذا النوع من الحسد لا يتعلق إلا بذوى المنازل الرفيعة ، ومن هذا النوع منافسة العاجز الذى لا يجد من نفسه مواتاة على محاكاة منافسه ومسابقه .

ومنها التزاحم على غرض واحد كالذى يكون بين أرباب المهنة الواحدة كالنجارين وغيرهم ، ويكون الحسد فى الطوائف ونحوها أشد وأبين أثرا كلما ضاقت البلد كما هو مشاهد فى القرى وبعض المدن الصغيرة ، ويضعف أثره ويخفى مكانه بينها حتى يكاد يكون معدوما فى المدن الكبيرة لاتساعها وقلة التعارف فيها وكثرة الأعمال فى أطرافها الموجبة لانصراف كل واحد إلى عمله وعدم التفكير فى غيره ؛ فإن اختلفت الطوائف امتنع الحسد فيها ، فلا تحاسد بين النجارين والحدادين والبنائين لاختلاف سبل الارتزاق باختلاف الأعمال ، وهذا بعينه يصح أن يكون السبب فيما هو حاصل فى القرى بين الفلاحين لاشتراكهم فى عمل واحد وضيق القرى وكثرة الروابط المختلفة بينهم .

ومنها ما يجده بعض الناس فى نفوسهم من كراهية لنعم الله على عباده ، فمنهم من تراه دائما ساخطا على قضاء الله ونظامه فى خلقه كارها لما خص به غيرهم من نعم يرون أنهم أحق بها وإن كانت نعم الله عندهم أكثر وفضله عليهم أوسع ، ويكثر هذا بين أهل القرى وبعض المتعلمين الذين لم يسالمهم الدهر ولم يواتهم الحظ ، فلم يظفروا من دنياهم بما ظفر به إخوانهم الذين هم فى منزلتهم أو دونهم .

وهذا النوع من الحسد أشد أنواع البخل لأن البخيل يمنعك ما فى يده وأما هذا فإنه يمنعك ما فى يد الله :

قال صلى الله عليه وسلم : « إِنَّ لِنِعَمِ اللهِ أَعْدَاءً فَقِيلَ وَمَنْ هُمْ ؟ قَالَ : الَّذِينَ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ » وهو أيضا أخبث أنواع الحسد وأعمها وصاحبه فى عناء دائم وهم ناصب لا يرضيه إلا أن

نزول نعمة الله عن محسوده ، فإن صادف هذا منه قدرة ونزوعا إلى الشر كان بوارا ومهلكة ، وإن صادف منه عجزا وذلا كان مجهدة له وحربا بينه وبين نفسه لا تهدأ ثورتها ولا تسكن حتى يكون حرضا أو يكون من الهالكين .

وبمقدار ما يصيب الإنسان من فضل الله ونعمته يكون حساده وحسد الناس له إذ ما من نعمة إلا لها حاسد : قال عمر بن الخطاب : ما كانت نعمة الله على امرئ إلا وجد لها حاسداً ، ولهذا كان الذين اختصهم الله بحظ وافر من العلم والعقل فى كل أمة وعصر هدفا لحسد الحاسدين وكيدهم « والسيل حرب للمكان العالى » تراهم ينتقصون فى كل مجلس ويتعرضون لهم بالمثالب ليحطوا من قدرهم ويصرفوا الأمة عنهم . وأكثر ما يتوجه عليهم الطعن من حسادهم فيما امتازوا به من الصفات التى جمعت قلوب الناس عليهم ونالوا بها المكانة فيهم ، فيكون عملهم هذا سببا فى إذاعة فضلهم وتوفير الناس على نشره : وفى هذا يقول أبو تمام :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عرف العود
لولا التخوف للعواقب لم يزل للحاسد النعمى على المحسود

نتائج الحسد

للحسد حسرة وألم يجدها الحسود فى نفسه ويظهر أثرها فى صحته وجسمه ولا يجد لهذا الألم انتهاء ولا عنه مصرفا ما دامت نعمة الله تترى على عباده : قال ابن المعتز : « الحسد داء الجسد »

ومن آثاره انحطاط درجة الحاسد وانصراف الناس عنه ونفورهم منه لاشتهاره بالحسد إذ يرون فى الدنو منه عناء وفى البعد عنه راحة لهم وخلاص بال .

وفى الحسد إسخاط الحاسد ربه بما يظهره من معارضته لقضائه فى خلقه وتوزيعه نعمه فيهم ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ » وعن الحسن أنه قال : « الحسد

أسرع فى الدين من النار فى الحطب اليابس »

وهو سبب كل قطيعة ومفرق كل جماعة ، وإن تمكن من إنسان أفسد عليه أخلاقه وسهل عليه الكذب والغيبة والنميمة والغدر والخيانة والسعاية إذا وجد فى واحدة منها ماينال غرضه من محسوده ، وكثيرا مايحمل صاحبه على فعل المنكر مما يخالف الدين والعقل فيقتل ويسرق، وينال جزاء هذا راضيا مسرورا لأنه شفى بعض مايجد من الألم فى نفسه من محسوده ، وقد يدفع الإنسان إلى المكابرة فى الحق وسلوك سبيل الضلال وهو عالم بذلك : كما حصل من مشركى قريش؛ فإنهم لحسدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرفوا عن الحق وهم به عالمون ورضوا بأن يكونوا من الأخسرين الذين غضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا ، وهو الذى أغرى إخوة يوسف به ففعلوا به مافعلوا ليخلو لهم وجه أبيهم ويفوزوا بمحبته ويكونوا من بعده قوما صالحين .

ولا تزال آثاره تعمل فى هدم الأسر وتأريث نار العداوة والبغضاء بينها ، ومن أسباب هذا أن يخص والد أحد أبنائه ببعض ماله لمزية يراها فيه أو إحسان يقدمه إليه أو لسبب آخر غيرهما فيثير هذا حسد إخوته عليه ، فيعملون على الكيد له ويضمرون له ولأبيهم الشر ، ويوقعون بهما السوء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ، فيكون ما اختص به ابنه وبالا عليه وعلى ذريته من بعده .

ومن شأن الحسود إن كان المحسود غنيا أن يغمز فيما جمعه من المال ، ويظهر للناس أنه ما صار إلى هذ الغنى إلا من طريق الحرام ، وما جمعه إلا من سحت وباطل ، ويعرض به بذكر حسبه ونسبه وما كان يعمله قبل غناه مما يعده منقصة ، ويعده الناس مفخرة .

صفات الحاسد

من صفات الحاسد أن يسعى بين المرء وأهله الذين هم عدته فى البلاء وزينته فى الرخاء ، ويحرش بعضهم ببعض حتى يسد لهم بقرابتهم عداوة وبمودتهم جفوة وبلينهم غلظة وقسوة .

ومن صفاته أنه إذا استشير كان غير أمين ولا ناصح فى رأيه ، وإذا أُسْدِىَ إليه معروف كفره ، وإن رأى عيبا فى محسوده أذاعه ونشره ، وإن حضر مدحه قدعه ، وإن رأى حسنة أخفاها ، وإن اطلع على سيئة أذاعها ، وإن كان عالما تنقصه من جميع جهاته وجعل محامده كلها مذام وفضائله عيوبا : فإن كان ذا رأى فى الدين قال مبتدع ، وإن كان ورعا ذا نسك ودين قال محتال ، وإن كان محسنا قال مراء ، وإن كان مجدا فى طلب دنياه قال نهم جشع يستهلك دينه فى جمع أطراف دنياه ، وإن كان زاهدا قال عاجز ضعيف ، وإن كان حليما قال جبان رعديد ، ومامن صفة تراها فى الناس حمدا إلا يراها فيه ذما وله عيبا ونقصا .

وأمارات الحسد يتبينها المحسود فى وجه حاسده ، فيعرفه بتغير لونه والإعراض عنه والإقبال على غيره والخلاف عليه فى كل جليل وحقير وصغير وكبير ، وإن اتفق أن رأيت حاسدا يصوب لمحسوده رأيا أو يقل الخلاف عليه فاعلم أنه لا يزال فى نفسه أثقل عليه من الدين الفادح والداء العياء ، ولا يتودد إلا لمن يبغض المحسود ، ولا يعادى إلا من يحبه ، ولا يتقرب من أحد يعرفه إلا ليتنقصه عنده ، فهو عدوه فى الباطن وصفيه فى الظاهر ، ولذلك أمرنا الله بالاستعاذة من شره والتحصن من أذاه : قال تعالى بعد الاستعاذة من شر ما خلق : « وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ »

كيف تعامل الحسود ؟

إذا أحسست من أحد خلطائك الحسد فأقلل من مخالطته وابتعد عنه فإن هذا أدعى إلى السلامة من شره والتحصن من كيده ، وحصن سرك منه فلا يطلع منك على خفى من الأمور فيكون أعلم بما يضرك ويؤذيك ، ولا تغتر منه بما يبديه من مودة ظاهرة تنطوى فيها عداوة باطنة وابتسامة متكلفة تنم على سخيمة كامنة .

طرق علاج الحسد

مما يحسم الحسد أو يذهب بعضه أن يأخذ الحاسد بآداب الدين ويراقب الله فى كل ما يفعله فإن فى هذا زجرا للنفس وتقويما لها ورياضة وتمرينا على ترك الحسد وهو إن عانى مشقة هذا فى أول أمره سيحمد مغبته ،

ومن ذلك أن ينظر فى نتائج الحسد ويستنكف من هجنته فيتركه أنفة وكبرا وتحاميا من الاتصاف بسىء الأخلاق ، وأن يدفع بالحزم ما تغالبه عليه نفسه من حسد يكده ويكدره لتطيب نفسه ويسلم له عيشه .

ومنها أن يخاف الحاسد الناس على نفسه أو عرضه ، فيتألفهم بإصلاح خلقه ومعالجة نفسه من دائها وأن يستسلم للقدر ويرضى بقضاء الله خيره وشره ويقف عند حد النظر والاعتبار بما يجزيه الله فى ملكه ، ويعتقد بأنه الحكم العدل يضع الأمور فى مواضعها لحكمة قد تعلمها ، وقد يخفى علينا مكانها ، فلا نهتدى إليها ، فمن وفق إلى إصلاح نفسه باجتناب الخلق الذميم فقد استبدل بالنقص الكمال وصرفها عما فيه هلاكها إلى ما فيه سلامتها وراحتها .

واجب الآباء والمربين

يثور الحسد فى الأطفال من اختصاص أحدهم بشىء دون باقيهم أو تمييزه بمعاملة خاصة؛ فيجب على الآباء تجنب هذا كله وإنزالهم كلهم منزلة واحدة فى العطف والمعاملة، وعلى المربين ألا يدعوا سبيلا للعداوة بين الأطفال وأن يؤلفوا بين قلوبهم حتى لا يجد الحسد إلى نفوسهم سبيلا، وألا يغالوا فى أن يخصوا واحدا منهم بعناية تجعل له دالة على إخوانه؛ فإن هذا يفسد أخلاق الذين معه فيحسدونه، ويلتمسون للإيقاع به الأسباب المختلفة، فيكذبون ويغتابون وينمون، وتلك سبيل الشر والضلال البعيد.

الحسد والحقد

تقدم القول مفصلا فى الحسد وبواعثه ونتائجه، أما الحقد فهو شبيه بالغضب، وقد يفرق بينهما بأن الغضب عارض وقتى تظهر آثاره على الغاضب فى حركته وصوته وملامحه، لكن الحقد غضب فى النفس لا تظهر آثاره إلا فى وقت معين ينتقم فيه الحاقد من المحقود عليه وينزل الأذى به، فالحقد إذاً غضب مخبوء فى أعماق القلب إذا انفجر خرب ودمر، وهو ليس من خلق المؤمن بدليل قوله عليه الصلاة والسلام: « المُؤْمِنُ لَيْسَ بِحَقُودٍ »: أى لا ينبغى له ذلك، وإنما عليه أن يجتهد فيروض نفسه على العفو والصفح والإغضاء.

والحقد ينشأ أحيانا عن حسد المرء لغيره على ما أُوتى من نعمة ورزق وجاه فيحسد الحاسد ثم يحقد ثم يُفْسد وقد يكون سبب الحقد أن تجارى آخر بالشر لأذى وصل منه إليك، فتغضب عليه وتحقد ثم تتربص به الأيام، وبعد عناء طويل فى حمل ذلك الحمل الثقيل إما أن تفوتك فرصة الانتقام وتكون أضعت عمرك فى الهم والكمد وتتبع الهفوات والعثرات بخصمك فلا تجدها، أو تسنح لك الفرص فتنتقم وتشفى غيظك منه، وبعيد جدا أن يكون خصمك مقصوص الجناح إلى حد أن

قللت من شره أولا يفكر فى أمرك ، فهو فى نوبته أيضا يحقد عليك ويأخذ فى تدبير المكايد لك وانتظار الفرص للانتقام منك ، وهكذا يقضى المتحاقدون أعمارهم فى الخصام ومحاولة الانتقام كما كان شأن عرب الجزيرة قبل الإسلام حتى جاء محمد عليه الصلاة والسلام ، فعلمهم الخير والفضيلة ومكارم الأخلاق وحضهم على العفو والصفح والحلم : قال تعالى فى صفة الأبرار : «وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ» «وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى» وقال صلى الله عليه وآله وسلم فى ترك الحقد والحض على العفو والصفح : «أَفْضَلُ أَخْلَاقِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ» وقال أمير المؤمنين كرم الله وجهه : «إذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكرا للقدرة عليه» وسرقت لعبدالله بن مسعود رضى الله عنه دراهم فجعل الناس يدعون على من أخذها فقال عبدالله لهم : «اللهم إن كانت حملته على أخذها حاجة فبارك له فيها ، وإن كان قد حملته على سرقتها جرأة على الذنب فاجعله آخر ذنوبه» ومثل ذلك فى التحمل والحلم قول بعض الحكماء : إذا قالوا لك : إن فلانا ثلبك وانتقصك ـ فقل لهم : إنه لا يعرف جميع نقائصى ، وإلا ما اقتصر على ما قال .

كدر النفس

إن الكدر والغم من أشد أدواء النفس وأعظم أمراضها ، فهو إذا أنشب أظفاره فيها أصبحت لاغية محاولة العرا ، فترتبك على الإنسان معيشته وتضطرب عليه حياته حتى يرى الدنيا فى عينيه أظلم من الدجى ، وأضيق من سم الخياط .

ولما كان هذا الداء عصىَّ العلاج أبىَّ المراس وجب أن يعمد الحكيم فى علاجه إلى أقوى ما يكون لديه من الأدوية المختلفة ؛ فللمرض الشديد الدواء الشديد .

وأول شرط فى نفع الدواء للبدن أن يواظب المريض على تناوله ليكمل سريانه فيه ، ولا خفاء فى أن البدن مرتبط بالنفس ، كما أن النفس مرتبطة بالبدن ، وأن

مرض النفس يؤثر فى البدن فيمرض البدن ، ومرض البدن يؤثر في النفس فتمرض النفس ، وأول مراقى السعادة: « النفس السليمة فى الجسم السليم » .

ومما يدلك على ذلك أنك ترى الشيء فى حال انتظام صحتك ، فترتاح إليه نفسك وتستملحه ، ولكنها إذا رأته فى حالة من حالات الجسم المعتلة انقبضت منه ، ونبت عنه ، والشيء هو واحد لم يتغير ، وإنما الذى تغير نظام الجسم : ومن هنا قول الحكماء : إن الأشياء الخارجة عن الانسان لاقيمة لها فى ذاتها ، وإن طريقة نظرنا إليها ، وكيفية استقبالنا إياها ـ هى التى تلبسها لباس الحسن أو القبح .

ولذلك كان من سوء الرأى وخبل العقل أن يهمل الانسان أمر بدنه ، ويشتغل عنه بسفساف الأمور ، وينهكه فى سبيل المطالب الباطلة ، ويجعله فدية للسعى وراء المال أو الجاه أو العلم العقيم أو المجد الزائل .

وتنقسم معالجة النفس من أكدارها قسمين : الأول معرفة حقائق الأشياء فى ذاتها ، والثانى معرفة ما تلبس بالأذهان من الأوهام الباطلة التى تُغَشّى على الحقيقة وتشوهها ، فتوقعنا فى الضلال ، وتورثنا الشقاء والبلاء . ولما كان من نتائج شفاء النفس من أحزانها وأكدارها الوصول إلى راحة الحياة فقد تعين علينا البحث أولا عن حقيقة هذه الراحة فى معيشتنا ، وعن حقيقة الألم وحقيقة الخير ، وحقيقة الشر ، ثم أهذه الدار دار ألم وشقاء خالية من أسباب السعادة والهناء ، أم فيها راحة للعيش ، وسعادة للحياة ؟ فنقول :

إن الله جلت قدرته لم يرد بخلقه شرا فى هذه الدنيا ، ولم يجعلها مستقرا للألم ومستودعا للعذاب ؛ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، بل جعلها لأوليائه وهم أهل الفضيلة دار سعادة فانية يرحلون منها إلى دار سعادة باقية : قال الله تعالى : « أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ » .

ولقد اشتبهت علينا الأمور واختلفت فى نظرنا الأشياء وأخذنا بتضليل المضلين وبطلان المبطلين ، فصرنا لا نفرق بين الخير والشر والطيب والخبيث والنافع والضار واللذة والألم ، بل أخذنا هذا مكان ذلك ، وصبغنا الضد بصبغة ضده ،

وحولنا الأشياء عن أصولها ، فوقعنا فى شر العذاب .

ومن خالف الحقيقة أعنى فطرة الله التى فطر الناس عليها وانسلخ عنها ـ فما أحراه ألا يلقى فى دنياه راحة ، ولا فى حياته سعادة ، فنحن الذين نجلب الشر لأنفسنا ، ونخرب بيوتنا بأيدينا ، ونشكو الزمان ومافسد الزمان ، وإنما نحن الفاسدون : قال الشاعر :

يقولون الزمان به فساد وقد فسدوا ومافسد الزمان

وكما أنه لا يمكن طبيب الأبدان أن يعرف علاج الأمراض وشفاءها إلا بعد معرفة تركيب الجسم والوقوف على وظيفة كل عضو فيه : كذلك لابد لحكيم النفوس من تشريح الفكر ، ومعرفة وجوه الخطأ والصواب فيه لانتظام صحة النفس ، فاختلال صحة الفكر مبعثه الخطأ فى الحكم على حقائق الأشياء والغلط فى التقدير وضعف التمييز بين الصحيح والفاسد .

من أجل ذلك كان توازن الفكر ، وصحة التمييز وسداد الحكم ومعرفة الأشياء من ذاتها مجردة عما يشوبها من الخطأ والوهم ـ هو ما نسميه عقلا ، وهو أحد أركان الفضيلة التى لا تنال السعادة والراحة فى الدنيا بدونها .

وهذه السعادة التى سبق القول عليها مفصلا فى الجزء الأول هى التى كانت الشغل الشاغل لجماعة الفلاسفة والحكماء منذ الدهر الأول ، فذهبوا فيها مذاهب شتى ، واختلفوا فى كنهها اختلافا بينا دعا إليه حب الجدل وانتصار كل واحد منهم لرأيه ، حتى بلغ بهم الأمر أن جعلوا لما يسمونه السعادة العظمى مائتين وتسعين وجها كل واحد منها يختلف عن الآخر .

والرأيان الغالبان بين تلك الآراء المختلفة :

أحدهما أن سعادة الحياة هى ذات الفضيلة ، وأنه ينبغى للإنسان أن ينشدها بكل وسيلة سواء أوصل إليها من طريق الألم أم من طريق اللذة .

والآخر أن السعادة العظمى فى اللذة يبلغها الإنسان من طريق الفضيلة ، فالفضيلة هنا واسطة ، وهناك غاية .

ومن تأمل هذين الرأيين وجب عليه أن يأخذ بالأقرب منهما إلى الطبيعة البشرية والفطرة الإنسانيـة وهو ثانيهما ؛ لأننا إذا تأملنا أطوار الإنسان كلها وجدناه يأنس إلى اللذة منذ نشأته فى الوجود ، ويميل بطبعه إلى التمتع بها ، ويجدها خيراً عظيما ثم هو ينفر كل النفور من الألم ويتقيه ، ويسعى جهده فى دفعه عنـه ، ويراه من أكبر الشرور .

وقـد آن أن نبين غلط الناس فى حكمهم على الأشـياء وضلال رأيهـم ؛ إذ يعتبرون الخير منها شرا ، والشر منها خيرا ، وأكبر خطأ يتملـكهم هو خوفهـم وفرقهم من الموت الذى هو رافع الأسقام ومزيل الآلام ، فيعدونه أعظم الخطوب وأكبر الشرور ؛ ولذلك كان من أول هداية الأنبياء للناس تذكيرهم الموت ، ومن أكبر همّ الفلاسفة تذكيرهم به ، وبسط القول فى أن الحياة باطل ، والموت حق .

فمن منتهى غباوة الإنسان وجهله أن يتخذ فى كل منبت شعرة من جسمه حبلا من الأمل يعلقه بالبقاء فى الحياة الدنيا ، ويمحو من ذاكرته كل سبب يربطه بصفائح القبر .

والناس بالنسبة إلى ذكر الموت قسمان :

قسم لا يتذكر الموت ، ولا يجرى له على خاطر ؛ كأنه قد رسخ فى ذهنه أن لا فناء مع البقاء ، ولا هلاك مع الوجود ، وهو لا يحس هذه الحقيقة أم الحقائق فى الدنيا إلا عند المشاهدة والعيان ، ولا يذكر الموت إلا ريثما تنقضى عنه المشاهدة : كأن يشتد به مرض يذكره بالموت ؛ فإذا قام من مرضه لم يتذكر الموت بعده ، وإذا شاهد الموت بعينه فى أهله وجيرانه لم يبق لديه إلا ريثما يطرأ عليه شغل من مشاغل الحياة يصرفه عنه ، فيعود إلى ذهوله الأول وعماه المستديم .

وقسم يذكرونه دائمـا لخشيتهم من وقوعه ، وخوفهم من نزوله ، فيتولاهم الرعب ، ويترقبون وقوعه فى كل حين ، ويعتبرونه هادم اللذات ، ومقوض بناء السعادة ، وأكثر ما يذكرونه إذا خلوا من أشغالهم ، وانتقلوا إلى أوقات فراغهم ،

فيكدرون صفاءها ، ويسودون بياض عيشتهم بالتخوف الدائم من زوالها ، وأشدما يكون عذابهم من ذكرى الموت إذا أردف الله عليهم النعمة فى إثر النعمة وزادهم من متاع الدنيا وزينة الحياة ، فلا يبصر أحدهم ولده يلعب أمامه إلا ويغلب على فكره التخوف عليه من الموت ، أو الترحل قبله ، ولما يتمتع به ، ولا ينظر إلى ما اكتنزه من مال واقتناه من زخرف إلا انظر المغشى عليه خشية الحرمان منه بالانصراف عنه ، ومايكون مصيره بعد رحيله وما آله بعدزواله.

هذا الصنف من الناس فى هم دائم وعناء مقيم للتوقى من الأخطار والتحرز من أسباب الهلاك ، ولا يكتفون فى ذلك بما يدخل فى طوقهم الاحتراس منه ، بل ليجاوزونه إلى معالجة مالادافع له من الأقضية المحتومة ، والنوازل الطارئة ، والبلايا العامة كالطواعين والأوبئة وغيرها من أمراض العدوى ، وكالزلازل والصواعق والعواصف .

ومنهم من لا يركب السفينة خشية الغرق ولا القطار خوف المصادمة .

مما تقدم يتبين خطل القسمين ، والخطة المثلى أنك إذا أخذت فى جسمك بقانون الصحة ، وعالجت نفسك وعودتها دقة النظر ، وحسن التبصر ، وصحة القياس ومعرفة حقائق الأشياء ، وحلت بينها وبين التدرج فى الهواجس والوساوس وأبعدت بها عن الاستسلام للأوهام والأخيلة ، وتذكرت الموت فى كل حين وأنه بمقربة منك فى كل لحظة ، وعند كل لفتة — إذا فعلت ذلك كله — هانت عليك الدنيا ، وصغرت فى عينيك ، ولم تحفل بنزول النوازل ، وحلول النوائب ، ولم تتأثر من شرور الخلق ، وتذكر دائما عند كل خطب ينزل قوله تعالى مخاطبا صفوة خلقه : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » وكن فيهم مثل ذلك الحكيم الذى مثل أمام قضاته ليحاكموه ظلما على إنكاره عبادة الأوثان ، فلما قضوا عليه بالموت قال لهم : أنا أيضا قدقضيت عليكم بالموت .

الحياة المضطربة

من مقتضيات المدنية الحديثة تخبط المتحضر فى كل لحظة من حياته ونظامه فى شواغل تنغص عليه عيشه سواء فى قضاء لباناته الضرورية أو فى لذاته الكمالية .

وقد زالت مخايل اليسر من كل شىء من الفكر والعمل واللهو ، حتى الموت ، وترحم الكثيرون على الماضى ليسره وخلوه من شوائب هذا الطلاء الكاذب ، إذ يجدون فى حضارة هذا العصر تعددا للحاجات المادية واطرادا لزيادتها واستشراء لفسادها .

ولو قيل للسالفين ــ وقد كان حسن الظن رائدهم ــ إن المدنية ستصل يوما بالإنسان إلى حيث يسخر البخار والكهرباء ويذلل الصعاب لخالوا إنسان هذا العصر كأنما دخل الجنة بلا بعث ولا حساب .

ولو أن صورة هذا العصر بما فيه من الرقى الفنى مرت على أذهانهم لتوهموا أن هذا الرقى هذب أخلاق الناس وصفى نفوسهم ولكن الواقف على أسرار المجتمع الإنسانى واثق من أن شيئا من هذا لم يتحقق ، والمخدوع من يحسب أن حالتنا المعاشية الآن أدعى للرضا من حالة أسلافنا الغابرين .

وليس الغرض هنا كشف الأسباب المؤدية إلى هذه النتائج بل إيراد حقيقة الواقع ، وتعرف الإجابة عن هذا السؤال وهو : آلإنسان سعيد اليوم ؟ أهو أكثر ارتياحا لغده من سلفه ؟ .

الجواب كلا ! فلم يمر على الإنسان حين أزعجته فيه هذه الوساوس كهذا العصر الذى ظهرت فيه الإنسانية فى ثوب مبهرج ، لأن من يمعن النظر فيما ذكر ويوازنه بما يناله من أن الحاجات المادية تزيد زيادة مطردة مع الثروة والكسب يقررون تردد أن الجشع استولى على النفوس ، فطمس البصائر ، وأن الاشتغال بشئون الغد سلبها لذة حاضرها ، وجعلها تمعن فى طغيانها .

وماعلمنا أن فقر الغابرين ساقهم إلى المساوى والمخازى التي تورط فيها أهل هـذه الحضارة لجشعهم وأثرتهم وانصرافهم إلى إرضاء شهواتهم الذاتيـة والسياسـية .

لاجرم أن الميول المتنوعة مدعاة للأحقاد والخصومات ، وكل من يقف نفسه ومواهبه على شهوات النفس يضاعفها حتى يضعف أمامها وتقوى عليه فتستعبده .

وكل أماني الإنسان الذى تعبدته شهوته تنحصر فى نيل ماتنصرف النفس إليه واستلاب مافى يد الناس ، وذلك يفتح باب الخصومة والشحناء .

وجلى أن قيمة الإنسان ليست فيما يملك ، وإنما قيمته ذاته وصفاته ، ولكن أكثر أهل هـذا العصر ماديون لاقيمة فى أعينهم لغير المـاديات ، ولذلك هم على ضلال فى معرفة أقدار الناس والاحتفاظ بـكرامتهم . ولوفقهوا لاستبان لهم أن آية الرقى الصحيح هو أن تنكف النفس عن طلب السعادة من غير طريقها ، وأن الحضارة الحقيقية والتمدين القويم أن يعيش الإنسان فى بيئة تناسبه ، وعلى قـدر ماتسمح به موارد كسبه وابتعاده عن الظهور الـكاذب .

ومن آيات الرقى الصحيح السير على سنة البساطة واليسر فى كل شىء حتى التعليم والحرية ، ولانريد بذلك الحض على إهمال التعليم وتحصيل المعارف ولا إيصاد أبواب دور التعليم ، بل الوثوق من أن التعليم وجميع وسائل التحضر ليست إلا ممهدات للمدنية تختلف فيها الفائدة والضرر باختلاف خلق المتحضر وسلوكه ، وكذلك الحال فى الحرية ، فهى إماضارة وإماصالحة تبعا للملابسات وطبائع القائمين بطلبها أو المتمتعين بها .

الحرية روح حياة راقية يتغذى بها المرء ويدامع تدرج النفس فى طريق الكمال وهى من مقتضيات النظام ، لأنه ضرورى للحياة والـكائنات .

وإذا وقف الإنسان عند حده وعرف كيف يطيع وحى ضميره كان الإنسان الجدير بالحرية ؛ وغنى عن البيان أن من أهم أركان الحرية الطاعة للنظام العام ، وليس هذا من زخارف الحياة أومن مقتضيات ميول بعض ذوى النفوذ والسلطان ،

وإنما هو أمر محتوم تنحنى أمامه أرفع الرءوس .

ولنكن على بينة من أن التعلم والحرية والرقى والتمدين ليست إلا اعرضا ، أما جوهر الأمر فهو الاهتمام بالضمير والخلق والإرادة ، فتلك تشف عن صميم الذات ، وكل ماعداها أعراض كمالية لاجواهر ضرورية ·

من أجل ذلك وجب علينا أن نجرد الحياة من الأعباء الباطلة ونحررها من رق البهرج والتمويه ، ونؤذن أن أقوم السبل لترقية النوع البشرى العناية بتهذيب الخلق ، وتطهير الضمير ؛ فكما أن قيمة المصباح ليست فى حسن زخرفه ودقة صناعته ونفاسة معدنه ، بل بمقدار ضوئه : كذلك لا يجوز تعيين مرتبة الإنسان وقدر قدره بما ملكت يداه ولا بسعة عيشه ولا ببسط جاهه ولا بطول باعه فى العلميات والفنيات ، بل بخلقه وأدبه وحياة ضميره .

الغيبة والنميمة

الغيبة

الغيبة جنبك الله أذم الأفعال مقصدا وأخبث الأقوال معتقدا وأسوأ الأخلاق مذهبا وأصعب الأحوال مركبا ، تدل على الحسادة والبغى ، وتدخل مدخل النميمة والسعى ، وتنبئ عن غائلة وحقد ، وتكشف عن خبث طوية ، وقد قرنها الله عز وجل بأكل الميتة فقال سبحانه : « وَلاَ تَجَسَّسُوا وَلاَ يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ »:

روى أن امرأتين صامتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانتا تغتابان الناس فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : « صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللهُ لَهُمَا وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَاحَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِمَا » ووفدت امرأة عليه صلى الله عليه وسلم تستفتيه فلما قضت حاجتها وفرحت قالت عائشة رضى الله عنها : ما أقفرها!! قال لها صلوات الله وسلامه عليه : « مَهْلاً يَاعَائِشَةُ إِيَّاكِ وَالْغِيبَةَ قَالَتْ:

يَارَسُولَ اللهِ إنَّمَا قُلْتُ مَافِيهَا . قَالَ : أجَلْ لَوْلاَ ذَلِكَ لَكَانَ بُهْتَانًا ».

وقال معاوية بن قرة : لو أن رجلا أقطع مر بك فقلت إنه أقطع كنت قد اغتبته . فذكر ذلك لأبي إسحاق الهمزاني فقال : صدق .

النميمة

النميمة من أكره الخلال الذميمة ، تدل على نفس سقيمة وطبيعة لئيمة مشغوفة بهتك الأستار وإفشاء الأسرار وإدخال الأضرار ، وربما أدت إلى سفك الدماء وانتهاك المحارم واستباحة الأموال : روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : شر الناس المثلث . قيل : وما المثلث ؟ قال : الساعي بالنميمة فإنه يهلك نفسه ومن سعى به ومن سعى إليه . وقال أيضا في قول الله سبحانه : « وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ » : هو المشاء بالنميمة بين الإخوان . وقال مجاهد في قول الله عز وجل : (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ) : كانت تمشي بالنميمة . وقال الله عز من قائل : (وَلاَ تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ) وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ) وفي رواية أخرى (نَمَّامٌ) والمعنى واحد . وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : (شَرُّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ذُوالْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأتِي هَؤُلاَءِ بِحَدِيثٍ وَهَؤُلاَءِ بِحَدِيثٍ) وقال عطاء : قدمت مكة فلقيني الشعبي فقال : يا أبا زيد أطرفنا بما سمعت . قال : سمعت عبد الرحمن بن عبد الله يقول : لا يسكن مكة سافك دم ولا آكل ربا ولا مشاء بنميمة . فعجبت منه كيف عدل سفك الدماء بالنميمة ، فقال الشعبي : ما يعجبك من هؤلاء ؟ هل تسفك الدماء وترتكب العظائم إلا بالنميمة ؟ .

موازنة بين النميمة والغيبة

النميمة جامعة بين النم والغيبة ، فكل نمام مغتاب ، وليس كل مغتاب نماما .

ومن بعض وصايا الحكماء فى النميمة : إياك والنمائم فإنها تزرع الضغائن وتورث الإحن .

وذكر حميد أن رجلا ساوم عبدا فقال بائعه : إنى أتبرأ إليك من النميمة . قال : نعم أنت برىء منها . فاشتراه وأتى به إلى منزله فجعل العبد يقول لامرأته : إن زوجك يريد أن يتزوج عليك ويتسرى ، فلو تحيلت وأخذت شعرة من حلقه لصنعت لك بها شيئا يعطفه عليك ويصلحه لك . ثم قال للزوج : إن امرأتك قد شغلت بغيرك وهى تريد قتلك إذا أنت نمت . فأتى الرجل منزله وهب يتناوم ، فلما رأته قد نام أخذت الموسى ، وأتت لتحلق شعرة من حلقه ، فلما وصلت إليه قام فقبض على يدها مع الموسى ، فأخذها من يدها وهو لا يشك فيما قاله الغلام فقتلها بها ، ولما جاء أهلها قتلوه بها ، ثم أسفر التحرى عن كيد الغلام ، فقتل ، فهذا من المثلث الذى تقدم ذكره .

والغيبة ذكرك أخاك فى غيبته بما يكره ، وإذا لم يكن فيه شىء مما غبته به سمى قولك افتراء وبهتانا وكان إثمك أشد وأعظم من الغيبة ، وبشاعة ذلك كله واستنكار أمره ومبلغ ضرره فى تأريث نار الفتن وتقطيع روابط الألفة بين الناس ـ أمر مستفيض لا يحتاج إلى بيان ، وقد نهى الشارع عن الغيبة ، وحض على تجنبها ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَيَّ حِفْظُ اللِّسَانِ طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ » .

وخليق بأهل الفضل ألا يلقوا بأنفسهم فى تيار الغيبة مع الذين يغتابون الناس ، بل لتكن فيهم شجاعة أدبية يقفون معها موقف الحق والاعتدال ، فيحسنوا محضر المغتاب ، ويدافعوا عنه أو يقوموا من المجلس .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : « لِيَرُدَّكَ عَنِ النَّاسِ مَا تَعْلَمُ مِنْ نَفْسِكَ » : أى إذا أردت الطعن فى الناس ففكر أولا فى نفسك تجد فيها عيوبا ربما كانت أبشع وأسوأ مما تذكر عنهم ، وإذ ذاك تنزجر وتكف عن الوقيعة فيهم . وهذه الطريقة من أنجع أدوية داء الغيبة لمن وفقه الله .

ومن أقبح أنواع الغيبة هجو الناس شعرا فإن الشعر أسير فى الناس وأعلق بالأذهان ، فيكون ضرره أعم والإيذاء فيه أتم ، وقد نهى صلى الله عليه وسلم عن هذا النوع من الغيبة خاصة فقال : « أَرْبَى الرِّبَا شَتْمُ الأَعْرَاضِ وَأَشَدُّ الشَّتَائِمِ الْهِجَاءُ وَالرَّاوِيَةُ أَحَدُ الشَّاتِمِينَ » .

وبالجملة فإن الغيبة مما حظره الإسلام . قالوا : إلا لصلحة شرعية يتوقف تحقيقها على ذكر الآخر بعيوبه وقبيح أعماله :

فمن ذلك أن يظلمك رجل فتصف من ظلمه لولاة الأمور كى ينصفوك منه . هذا فى المصلحة الخاصة .

أما فى المصلحة العامة فكأن يكون الرجل مجاهرا بأعمال منكرة أو مزاعم باطلة ينشأ عنها فساد وفتنة فلك إذ ذاك أن تصف من أعماله وسوء مقاصده كى يساعدك الحكام أو الرأى العام على تدارك أمره وكف شره . وهذا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم : (أَتَوَرَّعُونَ عَنْ ذِكْرِ الْفَاجِرِ أَنْ تَذْكُرُوهُ بِهِ ؟ اذْكُرُوهُ يَعْرِفْهُ النَّاسُ)

وجلى أن تكون الحكمة رائد العاقل حتى يعرف كيف يذكر هذا الفاجر ويتوصل إلى كف شره ومنع أذاه عن الناس وإلا كان السكوت أسلم وانتظار الفرص أفضل وأحكم :

عاب رجل رجلا عند بعض الأشراف فقال : قد استدللت على كثرة عيوبك بما تكثر من عيوب الناس لأن طالب العيوب إنما يطلبها بقدر مافيه منها أما سمعت قول الشاعر :

لاتهتكن من مساوى الناس ماستروا ... فيهتك الله سترا من مساويكا
واذكر محاسن مافيهم إذا ذكروا ... ولاتعب أحدا منهم بما فيكا

وقيل لعمرو بن عبيد : لقد وقع فيك أيوب السختيانى حتى رحمناك . قال : إياه فارحموا . وقال ابن عباس : اذكر أخاك إذا غاب عنك بما تحب أن تذكر به ودع منه ماتحب أن يدع منك .

الكذب

الكذب رأس الذنوب ، هو يؤسسها وهو يتفقدها ويثبتها ومراحله النفسية ثلاث :

الأمنية والجحود والجدل : يبدو لصاحبه بالأمنية الكاذبة فيما يزين له من الشهوات ، فيشجعه عليها بأن أمره سيخفى ، فإذا ظهر من صاحبه قابله بالجحود والمكابرة ، فإن لم يفلح فى ذلك ختم بالجدل ، فخاصم عن الباطل ووضع له الحجج وكابر فى الحق .

وما الكذب إلا الإخبار عن الشيء بخلاف ماهو عليه ، فهو جماع كل شر لسوء عواقبه وقبح نتائجه ، ولذلك تواترت الشرائع عن الصد عنه ، وظاهرها العقل على منعه والنفور منه : قال تعالى : (إِنَّمَا يَفْتَرِى الْكَذِبَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللهِ) وقد صح عند النبى صلى الله عليه وآله وسلم أن يتصف المؤمن بالجبن والبخل (وهما على ما تعلم من أقبح الصفات) ولا يتصف بالكذب : روى ابن صفوان قال : قيل للنبى صلى الله عليه وسلم :(أَيَكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا ؟ قَالَ : نَعَمْ . قِيلَ : أَفَيَكُونُ بَخِيلاً ؟ قَالَ : نَعَمْ . قِيلَ : أَفَيَكُونُ كَذَّابًا ؟ قَالَ : لاَ) .

وقال بعض الحكماء : عليك بالصدق فما السيف القاطع فى كف الرجل الشجاع بأعز من الصدق . والصدق عز وإن كان فيه ماتكره ، والكذب ذل وإن كان فيه ماتحب ، ومن عُرف بالكذب اتهم بالصدق ؛ لأن الصدق شرف والكذب

خسة ونذالة ، والشرف أولى بالمحافظة عليه وإن أعقب ذلك شرا ، والخسة أولى بالاطراح وإن أعقب ذلك خيرا ، وهو مع مافيه من الموبقات تأباه النفوس الأبية والطباع السليمة ؛ لأنه مذل للنفس مضيع للمروءة : قال ابن السماك : (ما أحسبني أوجر على ترك الكذب ؛ لأني أتركه أنفة) وقال آخر : لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة لكان بذلك جديرا فكيف وفيه المأثم والعار ؟ .

أسباب الكذب

(١) يكذب المرء لجلب نفع متوهم أو دفع ضرر متوقع اعتزازا بخدع النفس الأمارة بالسوء واستسلاما للهوى ، فيكون ذلك أبعد لما يرجو وأدنى مما يخشى ، وكم كاذب أتاك محتالا بكذبه عليك حتى إذا تبينت كذبه صدفت عنه وأغفلت أمره ، وكم صادق لم يجد من صدقه مواتاة عاجلة كانت العاقبة له والظفر حليفه : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (تَحَرَّوُا الصِّدْقَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ فِيهِ الْهَلَكَةَ فَإِنَّ فِيهِ النَّجَاةَ ، وَتَجَنَّبُوا الْكَذِبَ وَإِنْ رَأَيْتُمْ فِيهِ النَّجَاةَ فَإِنَّ فِيهِ الْهَلَكَةَ) .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لَأَنْ يضعني الصدق ـ وقلما يضع ـ أحب إلي من أن يرفعني الكذب ، وقلما يفعل)

(٢) ويكذب المرء ليكون حديثه مستعذبا وكلامه مستظرفا إذا لم يجد في الصدق حديثا يعذب ولا كلاما يستظرف ، وهذا النوع من الكذب صادر عن مهانة النفس وانحطاط الهمة أو عن الاحتيال لكسب الرزق والزلفى ممن يجد في الازدلاف إليهم منفعة من ذوي الثراء الذين يتلهون عادة بسماع أحاديث مثله وإن كانت كاذبة ، وإن من يفعل هذا لا يلبث أن يصير موسوما بالكذب تنسب إليه شوارده وتضاف إليه أكاذيب غيره ، فيجمع بين معرة كذبه وكذب غيره ومضرة كذبه وكذب غيره :

حسب الكذوب من البليـــة بعض ما يحكى عليه

فإذا سمعت بكذبة من غيره نسبت إليه

وهؤلاء تجدهم ينتقلون من مجلس إلى مجلس ومن بيت إلى بيت يذيعون أحاديث الناس من غير أن يتحروا الصدق في نقلها ، وربما تعمدوا أن يدخلوا الكذب فيها ليسروا جلساءهم ويضحكوهم .

(٣) ويكذب للتشفي من عدوه والنكاية به ، فيصفه بالقبائح وينسب إليه أقوالا وأفعالا يرى في نسبتها إليه غما له أو إيقاعا بعدوه أو حطا من شأنه أو صرفا للناس عنه ، وهذا شان كثير من الناس يحمل الرجل منهم على الرجل في غيبته ، فيسمه بأقبح مايسم به إنسان إنسانا ، ويلمز به في عرضه وشرفه ، وينال منه ليصرف عنه الناس ويعطفهم عليه ، فإذا ظفرت بصاحبه في مجلس رأيته يتحدث فيه بمثل حديثه ، وحينئذ يلتبس عليك الحق بالباطل ، ولا تدرى أيهما الصادق وأيهما الكاذب وأيهما الظالم وأيهما المظلوم .

(٤) ويكذب لأن الكذب صار عادة له بتواتر أسبابه وترادف دواعيه ، وإن مثل هذا لو رام الصدق والبعد من الكذب يرى ذلك عسيرا عليه ، لأن العادة أملكُ ، ولهذا قال بعض الحكماء : (من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه)

(٥) ومن غريب شأن الكذاب أن يكذب الكذبة ، فتضطره إلى كذبات لمداراتها ، وقد يضطره هذا إلى متابعة الكذب ، فيسوق من الأقوال والأحاديث الكاذبة مايؤيد رأيه ، فيستحيل كلامه إلى هذيان وهراء من القول حظ الناس منه الضحك والسخرية به .

كما يكذب في كثير من المواضع على نفسه : كالذى يحدثك ويحلف جاهداً أنه أدى مايجب عليه ، ولم يقصر في شيء مما كلف أداءه ، وهو يعلم يقينا والناس كذلك أنه كاذب فيما ادعى كما يحصل من الكسلان والجبان

والبخيل الذى يحتال فى الأعذار إلى نفسه بأنه ما كسل ولا بخل ولا جبن ليخدعها ويغشها ويصرفها عن طلب الحق أو لوم الضمير ، وهؤلاء تنتهى بهم الحال إلى أنهم لا يستطيعون فيما بعد أن يفرقوا بين الحق والباطل والصدق والكذب .

(٦) ويكذب لنقص فى دينه وزمانة فى مروءته ؛ لأن الشرع يحظر الكذب وإن جر نفعا ودفع ضرا ؛ فذو الدين لا يجد من نفسة ما يساعده على الكذب فلا يكذب بخلاف من نقص دينه فإنه لا يجد من دينه مايمنعه الكذب الذى فيه انتهاك حرمة الدين والآداب وانتقاص المروءة

(٧) ويكذب جريا على قولهم أعذب الشعر أكذبه : مقالة أرسلها قائلها ، ففهمها الناس على غير وجهها ، وتأولوها على غير مايريده صاحبها ، وجرت عندهم مجرى الأمثال ، وليس ما عذب من قول الشعراء واستحسن من مبالغاتهم حتى صار كذبا صراحا ـ استحسانا للكذب فى العقل ؛ لأن العقل يوجب قبح الكذب فى جميع مظاهره ، ولا سيما إذا لم يجلب نفعا أو يدفع ضرا فمن ذلك قول الشاعر :

ومر بقلبى خاطرا فجرحته ولم أر شيئا قط يجرحه الفكر

فهذا القول بسلوك الشاعر فيه سبيل المبالغة والتشبيه والاقتدار على صناعة الشعر أخرجه من أن يكون كذبا ، ولا سيما أن شواهد الحال تجعله لا يلتبس بالكذب ، ولهذا حسن فى الصناعة ، ولم يقبح فى العقل وإن كان الكذب فيه مستقبحا .

أمارات الكذاب

للكذاب أمارات تنبئك عن حاله وترشدك إليه قبل أن تجربه : من ذلك أن تراه يسمع الحديث فى مجالس فيُوردُه بعد قليل على غير ما سمعه ، وأنه إذا روجع فيما ينقله من الأحاديث ودقق معه فى البحث فيها حصر وارتبك

وأنكرها أو نسبها إلى غيره أو قال : (هكذا سمعتها) : وفى هذا يقول سيدنا على : (الكذاب كالسراب)

ومن أماراته أنك إذا دققت النظر وهو يتحدث إليك ظهر لك فى أعطاف قوله وأسارير وجهه واختلاج عينيه ما ينم على كذبه وريبته ؛ لأن الكذب حالة تبدو على المحدث إذا أخفاها أثارها الطبع اللهم إلا قليلا ممن لهم قدرة على أن يلبسوا الحق ثوب الباطل ويزينوا القول حتى يحسبه السامع صدقا وماهو بالصدق يساعدهم على هذا قحة وجوههم ومرانة ألسنتهم على تلفيق الأحاديث المكذوبة.

ضروب الكذب

أولا : ما كان منه متعلقا بأموال الناس وأعراضهم وأنفسهم ، وهذا من أشد الكبائر وأقبح الجرائم التى تضر المجتمع الانسانى وتقضى على العدل والنظام ؛ فإن الذى يقول الزور ليقتطع حقوق عباد الله أو يثلمهم فى أعراضهم أو يؤذيهم فى أنفسهم لأضر على نفسه وعلى المجتمع الانسانى من كل مايضر الانسانية ويؤلمها ، وقد عرض بذلك نفسه لغضب الله تعالى ومقته ، وكان سببا فى بث الفوضى وتحريض المجرمين على اقتراف الجرائم ، فينالون من أعراض الناس وأموالهم مايشتهون وهم آمنون من العقوبة ؛ لأنه يجد شاهد الزور يساعده على الافلات منها ، وفى ذلك خطر عظيم وبلاء شديد .

لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وكان متكئا : « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ : الإِشْرَاكِ بِاللهِ وَعُقُوقِ الْوَالِدَيْنِ ، ثُمَّ قَعَدَ فَقَالَ : وَقَوْلِ الزُّورِ » متفق عليه

ولا فرق بين أن يكون ذلك الحق الذى اعتدى عليه الكاذب كبيرا أو صغيرا ، وسواء أكد شهادته باليمين أولا إلا أنه إذا كان الحق كبيرا كان تأثيره على نفس المعتدى عليه شديدا ، أو كان مؤكدا بالحلف بالله تعالى ؛ فإنه يكون أشد جرما وأعظم إثما .

لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ لَقِيَ اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ» قيل : يارسول الله ، وإن كان شيئا يسيرا . قال : « وَإِنْ كَانَ سِوَاكًا مِنْ أَرَاكٍ »رواه الشافعي فى مسنده بهذا اللفظ .وفى هذه الصورة أمور ثلاثة :

الأول : الكذب وهو تعمد الإخبار عن الشيء بغير الواقع . الثانى : الجرأة على الله تعالى باستعمال اسمه الكريم كذبا ، الثالث : الاعتداء على حق الناس .

ولا ريب فى أن اجتماع هذه الثلاثة من أكبر الكبائر .

ثانيا : ما كان منه غير متعلق بحقوق العباد ، ولكن الحالف أكده باليمين ، وهذا كبيرة أيضا لما فيه من الجرأة على الله تعالى والاستهانة بالكذب : يشير إلى ذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَا حَلَفَ حَالِفٌ بِاللهِ فَأَدْخَلَ فِيهَا مِثْلَ جَنَاحِ بَعُوضَةٍ إِلاَّ كَانَتْ نُكْتَةً فِى قَلْبِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ » رواه الترمذى والحاكم وصححه :

ومعناه أنه إذا أدخل فى يمينه شيئا من الكذب والإخبار عن الشيء بغير الواقع أثر ذلك فى قلبه كما تؤثر النكتة السوداء ، وكذلك شأن الجرائم والموبقات ؛ فإنها تتراكم على القلب نكتا سوداء فتكون كالطابع فلا يؤدى وظيفته ، وهذا يدل على أن الحلف بالله كذبا كبيرة من الكبائر .

ثالثا : ما كان منه غير متعلق بحق الناس ولم يؤكد باليمين ، وهذا تارة يقصد به المزاح والسخرية ، وظاهر الحديث يقضى بأنه كبيرة : فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « وَيْلٌ لِلَّذِى يُحَدِّثُ بِكَذِبٍ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ ، وَيْلٌ لَهُ ، وَيْلٌ لَهُ » رواه الترمذى وأبو داود والنسائى وغيرهم ؛ لأن الذى يفعل ذلك قد استهان أولا بأمر الكذب واستلذه ، فلا يلبث مثل هذا أن يكون الكذب عادة له ويصبح من الكاذبين الذين يتكرر كذبهم ولا يصدق لهم أحد حديثا حتى لو كان صادقا ، والشريعة الإسلامية حريصة دائما على

الاحتياط فى دره الفساد ، فمن أجل ذلك كرر رسول الله كلمة الويل التى تدل على العذاب والسخط فى شأن من يكذب ليضحك الناس .

رابعا : ما كان منه متعلقا بالله ورسوله : كأن يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كاذبا متعمدا ، وهذا من أخش الكبائر وأشدها خطرا على الدين ، وليس لهذا جزاء سوى أن يتبوأ مقعده من النار .

وكل هذه الأمور ليست من خلائق الاسلام ؛ لأنه إنما يدعو إلى الفضائل وينهى عن الرذائل ، فطبيعته الكريمة تأبى سفساف الأمور وتحرم الاضرار بالناس ، وقضاياه تنطوى على ما فيه مصلحة المجتمع الانسانى وبقاؤه وتنمية العمران :

لهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كُلَّ خَصْلَةٍ يَطْبَعُ أوْ يُطْوَى عَلَيْهَا الْمُسْلِمُ إلاَّ الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ » رواه ابن أبى الدنيا وغيره .

وقالت عائشة رضى الله عنها : ما كان من خلق أشد على أصحاب رسول الله صلى عليه وسلم من الكبر ، ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطلع على الرجل من أصحابه على الكذبة فما تنحل من صدره حتى يعلم أنه قد أحدث لله عز وجل منها توبة : رواه أحمد وابن أبى الدنيا .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يَنْظُرُ إلَيْهِمْ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » وكررها رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات. فقال أبو ذر رضى الله عنه : خابوا وخسروا ، من هم يارسول الله ؟ قال : « الْمُسْبِلُ إزَارَهُ ، وَالْمَنَّانُ الَّذِى لاَ يُعْطِى شَيْئًا إلاَّ مِنَّةً ، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْفَاجِرِ » : والمسبل إزاره هو الذى يجر أثوابه فخرا واختيالا ، أما المنان فهو ساقط المروءة ؛ لأنه إن أحسن إلى فقير أضاع إحسانه بالمن عليه ، وربما تأذى بالمن عليه أكثر من منفعته بما أخذ منه ،

وإن أعان صاحبا أوجامل أحدا بمعروف أخجله بمنه ونغص عليه عيشه وكدر صفوه ، وقد يكون ضرر ذلك عليه أكبر مما استفاده منه .

وهنالك ضروب من الكذب قد اتخذت أسماء خاصة : فمنها :النفاق : وهو أن يظهر الإنسان غير ما يبطن: اشتقته العرب من النافقاء،وهو إحدى جحر اليربوع، يكتمها ويظهر غيرها ليلجأ إليها عند الحاجة :

ومن هذا سمى الرجل الذى يظهر الإيمان ويبطن الكفر منافقا ، فهو كذب عملى . ومن هذا النوع من يظهر الصداقة ويبطن العداوة ، وكل من يظهر بمظهر ينافى حقيقته فهو منافق مذموم .

ومنها الملق أو التملق : وهو أن تمدح آخر بما لا تعتقده فيه ؛ لتدخل على قلبه السرور رجاء أن تنال منه منفعة أو نحو ذلك ، وهو من أقبح الصفات والمتملق شر ممن يجاهر العداوة ويذم علانية ؛ لأن هذا يسهل اتقاء شره .

وضد النفاق والملق الصراحة : وهى أن نفتح قلوبنا لمن نخاطبهم وأن نصدق فى التعبير عما تكنه ضمائرنا : والكلمة مأخوذة من قولهم : « لبن صريح » إذا ذهبت رغوته وكان خالصا : والصريح من الناس من يخلص من الغش ويظهر لمن يحدثه حقيقة ما فى نفسه .

وقد يخطئ قوم فى فهم الصراحة فيظنون أنها تقتضي أن يقول الإنسان كل حق لكل إنسان ، وهذا ليس بصحيح : فهناك مجال للقول ومجال للسكوت ، وليس من الصراحة أن تجرح إحساس الناس وتؤلم مشاعرهم من غير حاجة تدعو إلى ذلك ، كما أنه ليس من الصراحة أن تفخر بأعمالك أو تفشى ما تعرفه من أسرار نفسك أو بيتك أو جيرانك أو أصدقائك ولو كان ما تحدث به حقا .

ومنها خلف الوعد : فمن وعد آخر وعدا وفى نيته عند وعده ألا يفى فقد كذب ، وكذلك من كان فى نيته الوفاء ثم أخلف لا بعذر أو لعذر يستطيع التغلب عليه :

لا جرم أن فى خلف الوعد إضرارا بالموعود كإضاعة وقته أو ضياع أمله أو نحو

ذلك ، والوعد دين : فكما يجب إيفاء الدين يجب وفاء الوعود ، ويجب الاقتصاد فيها حتى لا يعد الإنسان وعدا إلا وفى عزمه أن يعمل ، وفى استطاعته أن يفى .

ولا يحق لإنسان بحال من الأحوال أن يفتح على نفسه باب الكذب ، بل ينبغى أن يلتزم الصدق فى جميع أقواله وأعماله .

مسوغات الكذب

فى أخلاقنا الاجتماعية ناحية تكاد تكون عامة بين جميع الطبقات وهى الكذب فى الحديث والرواية والعمل لا لشىء سوى التخلص من عتاب صديق أو عناء زيارة واجبة أو دفع تبعة محتملة : كاعتذارك عن تلبية دعوة بداعى المرض مع أنك لم تكن مريضا ، أو قولك لخادمك عند زيارة أحد تكره مقابلته : قل له : إنى لست فى الدار مع أنك فيها .

وكتجاهل أمر تعرفه أو التغاضى عن شىء تكره إفشاءه والتمارض السياسى الذى يتظاهر به بعض الساسة ـ كل ذلك من هذا القبيل .

والمصانعة والمداهنة والرياء والتقية وإن اختلفت أسماؤها ـ هى فى الحقيقة لا تخرج عن حد الكذب مادام الكذب هو الإخبار بشىء على خلاف ما هو عليه مع العلم به: فالمصانع والمداهن والمرائى جميعهم يقولون بخلاف ما يعتقدون ، وهو الكذب بعينه ، والذين يستعملون التقية وهى إظهار خلاف ما يبطنه المتكلم دفعا لضرر يظنونه لاحقا بهم إن هم صارحوا بالحقيقة — ليسوا سوى كذابين أيضا .

فلماذا يرتكب الناس هذا النوع من الكذب ويفرون من مواجهة الصراحة ولا يرون فى ذلك غضاضة عليهم ولا حرجا ؟ أليست لهم مندوحة عن الكذب بالعدول عنه إلى ما يؤدى الغرض منه ؟ وهل هناك حالات يغتفر فيها الكذب وما هى ؟

هذه قضية جديرة بالبحث والتمحيص لمساسها بناحية دقيقة من نواحي أخلاقنا الاجتماعية :

إن الكذب هو بلاريب من أقبح الخلال وأوضعها ، ولهذا نهت عنه جميع الشرائع والأديان ومقتته العقول ، وكفى بالكذب شيناومهانة أن صاحبه مرذول محتقر لا يصدقه الناس ولو صدق . ولا حاجة بنا إلى سرد ماقيل فى شناعة الكذب والكذابين فذلك مما يطول شرحه ، وحسبنا أن نبين : هل تسوغ الغاية الشريفة هذه الواسطة الوضيعة فى نظر العقل والشرع ؟ وإن سوغتها فما هو مدى هذه الغاية ؟ :

إن الشرع قد أجاز لنا ارتكاب بعض المنهيات للضرورة : فأجاز للمضطر أكل مال غيره لدفع الجوع متى خشى الهلاك ؛ عملا بالقاعدة الفقهية : (الضرورات تبيح المحظورات) كما أجاز ارتكاب أخف المفسدتين واختيار أهون الشرين متى تعارضا : فأباح لمن أكره بالقتل التكلم بالكفر مع اطمئنان قلبه بالإيمان ولكنه مع ترخيصه بهذه المنهيات قد قيدها بالقدر الذى تندفع به الضرورة : فنص على أن (الضرورات تقدر بقدرها) : فلا يجوز للجائع أن يأكل من مال غيره إلا بالقدر الذى يحفظ حياته ويدفع عنه الهلاك ، ومتى أمكن دفع الضرر بالإخافة والتهديد أو الضرب العادى فلا يصار إلى دفعه بالقتل ، لأن القدر الزائد عن الضرورة مساو للاعتداء بل زائد عليه ، فلا يسوغ لنا التجوز فى الرخص وارتكاب مانهى عنه الشرع فى سبيل مصالحنا وشهواتنا تحت ستار الضرورة . وهكذا الكذب فهو وإن كان حراما ـ قد يباح فى بعض الأحيان للضرورة متى كان فى الجهر بالصدق خشية ضرر أو فتنة أشد شرا من الكذب .

يقول العلماء : إن الكذب ليس حراما لعينه ، بل لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره ، وربما كان واجبا فى بعض الأحيان :

أرأيت لو أن رجلا سعى خلف آخر بالسيف ليقتله فدخل دارك ، فانتهى إليك الرجل يسألك : هل رأيت فلانا ؟ ـ فماذا كنت قائلا ؟ ألا تقول :

ما رأيته ؟ وهذا كذب ، ولكنه خير من الصدق ، بل واجب عليك، لأن فيه حقن دم .

ذكر الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين : إن الكلام وسيلة إلى المقاصد فكل مقصود محمود يمكن الوصول إليه بالصدق والكذب معا ـ فالكذب فيه حرام ، وإن أمكن التوصل إليه بالكذب دون الصدق فالكذب فيه مباح إن كان تحصيل ذلك القصد مباحا ، وواجب إن كان المقصود واجبا ، كما أن عصمة الدم واجبة .

فمتى كان في الصدق سفك دم امرئ قد اختفى من ظالم فالكذب فيه واجب ، ومتى كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجني عليه إلا بكذب فالكذب مباح إلا أنه ينبغي أن يحترز منه ما أمكن ؛ لأن الإنسان إذا فتح باب الكذب على نفسه يخشى أن يتداعى إلى ما يستغنى عنه وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة ، فيكون الكذب حراما إلا الضرورة :

روى عن أم كلثوم قالت : ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاث : الرجل يقول القول يريد به الإصلاح ، والرجل يقول القول في الحرب ، والرجل يحدث امرأته والمرأة تحدث زوجها. وقالت أيضا :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لَيْسَ بِكَذَّابٍ مَنْ أَصْلَحَ بَيْنَ اثْنَيْنِ فَقَالَ خَيْرًا أَوْ أَنْمَى (١) خَيْرًا) وروى عن أبي كاهل قال : وقع بين اثنين من أصحاب النبي كلام حتى تصارما ، فلقيت أحدهما فقلت : مالك ولفلان ؛ فقد سمعته يحسن عليك الثناء ؟ ثم لقيت الآخر فقلت له مثل ذلك حتى اصطلحا ، ثم قلت : أهلكتُ نفسي وأصلحتُ بين هذين . فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (يَاأَبَا كَاهِلٍ ، أَصْلِحْ بَيْنَ النَّاسِ وَلَوْ) : أي

(١) أذاع

بالكذب .

فهذه الثلاث وردفيها صريح الاستثناء وفي معناها ماعداها إذا ارتبط به غرض مقصود صحيح للقائل أو لغيره :

أما ما كان له : فمثل أن يأخذه ظالم ويسأله عن ماله فله أن ينكره ،

وقال صلى الله عليه وسلم : (مَنِ ارْتَكَبَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ) : وذلك أن إظهار الفاحشة فاحشة أخرى ؛ فللرجل أن يحفظ دمه وماله الذى يؤخذ ظلما وعرضه بلسانه وإن كان كاذبا .

وأما الكذب لغرض غيره فبأن يسأل عن سر أخيه فله أن ينكره وأن يصلح بين اثنين أو يعتذر إلى إنسان وكان لا يطيب قلبه إلا بإنكار ذنب وزيادة تودد فلا بأس ، ولكن الحد فيه أن يقابل بين الكذب والصدق بالميزان القسط ، فإذا ظهر له أن المحذور الذى يحصل بالصدق أشد وقعا فى الشرع من الكذب فله أن يكذب ، وإن كان ذلك المقصود أهون من مقصود الشرع فيجب الصدق . وقد يتقابل الأمران بحيث يتردد فيهما ، وعند ذلك الميل إلى الصدق أولى ؛ لأن الكذب يباح لضرورة أو حاجة مهمة ، فإن شك فى كون الحاجة مهمة فالأصل التحريم فيرجع إليه ، ولكن بالنظر لغموض إدراك مراتب المقاصد ينبغى أن يحذر الإنسان من الكذب ما أمكنه ، وكذلك متى كانت الحاجة له فيستحب له أن يترك أغراضه ويهجر الكذب ، فأما إذا تعلق بغرض غيره فلا تجوز له المسامحة لحق غيره والإضرار به . وأكثر كذب الناس إنما هو لحظوظ أنفسهم ، ثم هو لزيادة المال والجاه ولأمور ليس فواتها محذورا . . .

فيظهر مما ذكره حجة الإسلام الغزالى أن الكذب قد رخص به للضرورة فى بعض المواطن دفعا لضرر لا يمكن اجتنابه إلا بالكذب ، فيباح حينئذ ، ولكن هذه الرخصة يجب ألا تتعدى حدود الضرورة .

وكان السلف يعدلون عن الكذب إلى المعاريض ويرون فيها مندوحة عن الكذب عندما يضطرون إليه: ومثال التعريض أنه إذا بلغ الرجل عنك شيء فكرهت أن تكذب تقول: إن الله تعالى ليعلم ماقلت من ذلك من شيء: فيكون قولك (ما) حرف نفي عند المستمع، وعندك للإبهام.

وكان معاذ بن جبل عاملا لعمر رضي الله عنه فلما رجع قالت له امرأته: ماجئت به مما يأتي به العمال إلى أهلهم؟ وما كان قد أتاها بشيء. فقال: كان عليّ رقيب قالت: كنت أمينا عند رسول الله وعند أبي بكر، فبعث عمر معك رقيبا!! وقامت بذلك بين النساء واشتكت عمر فلما بلغه دعا معاذا وقال له: أبعثت معك رقيبا؟ قال: ماأجد ما أعتذر به إليها إلا ذلك. فضحك عمر وأعطاه شيئا فقال له: أرضها به. قد أراد بالرقيب الله تعالى.

وكان النخعي إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو في الدار قال للجارية: قولي له: اطلبه في المسجد، ولا تقولي: ليس ههنا لئلا يكون كذبا.

وكان الشعبي إذا طلب وهو في المنزل وهو يكره الخروج خط دائرة وقال للجارية: ضعي أصبعك فيها وقولي: ليس ههنا.

وهذا كله في موضع الحاجة. وقالوا في توجيه هذا النوع من المعاريض: إن المحذور من الكذب تفهيم الشيء على خلاف ماهو عليه في نفسه إلا أن ذلك مما تمس إليه الحاجة وتقتضيه المصلحة في بعض الأحوال، وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر من الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار الملك؛ فمن اضطر إلى شيء من ذلك فهو صادق وإن كان كلامه معهما غير ماهو عليه؛ لأن الصدق ماأريد لذاته، بل للدلالة على الحق والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته، بل إلى معناه. ففي مثل هذه المواضيع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ماوجد إليه سبيلا.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفر ورّى بغيره حتى لا ينتهي خبره إلى الأعداء، وليس هذا من الكذب في شيء.

وقد أباحوه أيضا فى المزاح لما فيه من المطايبة على أن لا يتجاوز حد الاعتدال . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يمازح بعض الصحابة والصحابيات ولكنه لا يقول إلا حقا :

روى عن الحسن أنه قال : أتت عجوز إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله ، ادع لى بالمغفرة . فقال لها : (لاَ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَجُوزٌ) فبكت ، فتبسم وقال لها : إنك لست بعجوز يومئذ : أما قرأت قوله تعالى : (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَاراً عُرُبًا أَتْرَابًا)

فانظر إلى هذا المزاح اللطيف الذى لا يخرج عن قول الحق ، ومثل النبى قادر أن يمزح ولا يقول إلا حقا . فأين هذا من مزاح بعض الناس الذين لا همّ لهم إلا أن يضحكوا الناس من قولهم كيفما كان ؟

ويغتفر الكذب فى الشعر أيضا عن طريق المبالغة حتى قالوا : (أعذب الشعر أكذبه) وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصارى بهجاء الكفار والتوسع فى المدح ، فإنه وإن كان كذبا لا يلتحق بالكذب الحرام كقول أبى تمام فى وصف الخليفة المعتصم :

ولو لم يكن فى كفه غير روحه   لجاد بها فليتق الله سائله

فإن هذا عبارة عن الوصف بمنتهى الجود والسخاء ، فإن لم يكن صاحبه سخيا كان كذبا ، وإن كان سخيا فالمبالغة من صنعة الشعر .

وقد أنشدت أبيات بين يدى رسول الله لو تتبعت لوجد فيها مثل ذلك فلم يمنع منه :

قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله وكنت جالسة أغزل فنظرت إليه ، فجعل جبينه يعرق وجعل عرقه يتولد نورا قالت فبهت ، فنظر إلىّ فقال : مالك بهت ؟ فقلت : يارسول الله ، نظرت إليك فجعل جبينك يعرق وجعل عرقك يتولد نورا ، ولو رآك أبو بكر الهذلى لعلم أنك أحق بشعره . قال : وما يقول ؟ قلت : يقول :

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

قالت : فوضع ما كان بيده وقام إلىّ وقبل ما بين عينىّ وقال : جزاك الله خيرا ياعائشة ماسررت منى كسرورى منك .

ولما قسم النبي صلى الله عليه وسلم الغنائم يوم حنين أمر للعباس بن مرداس بأربع قلائص فاندفع يشكو فى شعره وفى آخره :

وما كان بدر ولا حابس يسودان مرداس فى مجمع

وما كنت دون امرئ منهما ومن تضع الأيام لا يرفع

فقال صلى الله عليه وسلم : (اقطعوا عنى لسانه) . فذهب به أبو بكر الصديق حتى اختار مائة من الابل ، ثم رجع وهو من أرضى الناس فقال له النبي : أتقول فىّ الشعر ؟ فجعل يعتذر إليه ويقول : بأبى أنت وأمى ، إنى لأجد للشعر دبيبا على لسانى كدبيب النمل ، ثم يقرصنى كما يقرص النحل فلا أجد بدا من قول الشعر ، فتبسم النبي وقال :(لا تَدَعُ الْعَرَبُ الشِّعْرَ حَتَّى تَدَعَ الابِلُ الْحَنِينَ) ومثل هذا فى أشعار العرب وغيرهم .

فالمبالغة فى الوصف تغتفر على شرط أن يكون فى الموصوف بعض هذه الصفات .

ومثل إطراء الممدوح فى حفلات التكريم والتأبين : فإنك تلاحظ فى أقوال الخطباء إطراء يخرج عن حدود الحقيقة ولكن الناس يغتفرون ذلك ويرونه ضروريا لتطييب قلب المحتفل به أو مواساة لأهل الفقيد ، بل يعدونه من المجاملات الاجتماعية التى لابد منها .

وكذلك تجاهل العارف هو فى حقيقته كذب ، ولكنه من الصناعات الأدبية فى الأدب العربى .

ومن الكذب الممدوح ما يقصد به الايثار على النفس وهو نادر ، ويعد من مكارم الأخلاق كما فعل ذلك الأنصارى الذى جاء إلى النبي فوجد عنده ضيفا ، ولم يكن عند النبي ما يقدمه إلى ضيفه ، فذهب الأنصارى بالضيف إلى أهله ، ثم

وضع بين يديه الطعام وأمر امرأته بإطفاء السراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام ، فلما أصبح قال له رسول الله : لقد عجب الله من صنيعك الليلة إلى ضيفكم ونزلت آية : (وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ) فياحبذا الكذب من هذا النوع .

هذا وإن الناس قد فتحوا باب الكذب على مصراعيه وتجوزوا فيه في غير محال الضرورة حتى كاد يكون خلقا من أخلاقنا الاجتماعية : فإذا أردت ابتياع سلعة أو استصناع حذاء مثلا قال لك التاجر أو الصانع : إن رأس مالها كذا قرشا وراحا يعززان قولهما بأغلظ الأيمان وهما كاذبان في قولهما ويمينهما ، وهكذا تغلغلت خصلة الجبن في نفوسنا حتى صارت عادة مستحكمة تصدر عنا عفوا وبلا تأمل كأنها من الغرائز الطبعية .

ولو حللنا عوامل هذه النقيصة الخلقية تحليلا نفسيا لم نجد لها سببا سوى الجبن أو الأثرة : فالكذاب يقصد بكذبه سواء أكان صريحا أم عن طريق المصانعة أو المداهنة أو الرياء أو التقية اتقاء شر يخافه أو جلب خير يرجوه ، وكلاهما يتلخصان في الخوف والأثرة .

نعم إن الحياة الاجتماعية قد تلجئ المرء في بعض الأحيان إلى الكذب والمصانعة كما قال زهير بن أبي سلمى :

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

إلا أن ذلك يجب أن يقصر على مواطن الحاجة والضرورة وعلى الأحوال التي لا مندوحة فيها عن الكذب ، فلا يسوغ لنا أن نسرف فيه إسرافا يخرجه عن هذا القدر ويصرفه عن مقصد الشارع في الترخيص به ؛ فالكذب والمصانعة وما جرى مجراهما من ضروب المين بمثابة السم الذي يستعمله الطبيب لمعالجة بعض الأمراض فإن أعطى المريض منه مقدارا زائدا على الحد المقدر له طبًّا أودى بحياة المريض .

وهكذا الكذب يخشى إذا نحن أسرفنا في التجوز به أن يوردنا موارد العطب

والملكة لاسيما وأن تقدير مواطن الضرورة فيه من أدق الأمور وأصعبها ، بل هو من مزالق الأقدام ، ولذلك كان السلف يحتاطون فى الترخيص به ويقولون : لا يجوز للرجل أن يكذب لصلاح نفسه ؛ فما عجز الصدق عن إصلاحه كان الكذب أولى بفساده .

ولسنا ننكر أن التزام الصدق فى كل ما يقول ويفعل يستلزم مشقة كبيرة ويحتاج إلى عناء ورياضة نفس وصبر وشجاعة : ذلك لأنه يعرض للإنسان فى حياته اليومية مسائل دقيقة يرى فيها قصار النظر أن الكذب أنفع وأنه لا مفر منه ، ونحن نورد لك أمثلة منها ونبين حجتهم فى الكذب ، ثم نبين وجه الخطأ فيها :

(١) ناشئ ابتدأ يتعلم فن شعر ، عرض عليك قصيدة له لم تستحسنها : أفتصدق وتقول : إنها قصيده سقيمة المعانى ظاهر فيها التكلف ، سخيفة النسج ؟ وحينئذ تكون قد آلمته وجبهته ؛ وقد يكون قولك سببا فى تركه الشعر مع أنه لو شجع لكان شاعرا مجيدا .

أم من الخير أن تكذب وتقول : إنها قصيدة جميلة ، فتدخل على قلبه السرور وتشجعه على السير فى طريقه حتى يبلغ غايته ؟ والجواب أن هناك مندوحة عن الكذب : فإنه إذا كان المعروض عليه لا يجيد الشعر ، ولا يستطيع الحكم عليه يمكنه أن يقول بحق : لست من الشعر بالمنزلة التى تخولنى الحكم .

وإن كان يجيده أو يستطيع أن يميز بين جيده ورديئه فليستحسن من الأبيات ماهو حسن فى نظره ، ولينتقد بلطف وأدب مواضع النقد عنده ويرشده إلى طريقة التخلص من عيوبه ، فهذا صدق لا يؤلم ، وفيه من الفائدة ما ليس للمدح الصرف الكاذب ، إنما يؤلم النفس احتقار الشىء جملة ، أو أن يقال الصدق بخشونة وفظاظة ، أما النقد اللطيف فأشهى إلى نفس طالب الحقيقة من القول الكاذب المزوق .

(٢) الكذب فى الحروب : فقد ترى أمة محاربة لأخرى أن تكذب عليها للإيقاع بها : كأن تقول : إنها ستهاجمها من جهة كذا ، أو تشرع بالفعل فى

الهجوم من ناحية وفى عزمها الهجوم من ناحية أخرى ، تريد بذلك التعمية عليها : فهل يصح أن نلزمها الصدق ، فنضيع عليها النصر مع أن الحرب خدعة ؟

والجواب أن الكذب فى الحروب ليس كذبا فى الحقيقة ؛ لأن الأمة بإعلانها الحرب على أمة أخرى قد أعلنتها بأن لا تفاهم بينهما ، ومتى انقطع التفاهم امتنع الكذب ؛ لأن معنى إعلانها الحرب أنها ستفعل معها ما تستطيع من الإيقاع بها ولو بالخديعة .

فمثلها مثل من قال لآخر : سأقص عليك خبرا كاذبا ؛ ثم قصه عليه ؛ فليس هذا بكذب ؛ لأنه لم يخبره بغير ما يعتقد ، فإن اعتقد السامع صدق الخبر فاللوم عليه .

(٣) وأدق من هذا وأصعب ما يحدث أحيانا : كأن يكون لامرأة ولد مرض بالسل وهى التى تمرضه وتعنى بشئونه وكان قد مرض لها ولد من قبل بذلك المرض ، ومات منه ، استدعت الطبيب ففحصه وعرف مرضه وسألته : أهو مصاب بالسل ؟ : سألته وهى مرتبكة مرتجفة تخشى أن يكون الجواب نعم : أفليس من الحكمة أن يقول الطبيب : إنها نزلة شعبية ؛ حتى تسترد قوتها وتعنى بالولد الذى هو فى أشد الحاجة إلى عنايتها ؟ أم يقول الحق وتفقد قواها وترتبك فى تمريض الولد ، وقد يؤدى ذلك إلى موته ؟

إن الناظر إذا قصر نظره على هذه الحادثة فى وقتها رأى أن الكذب قد يكون واجبا ، بيد أنه إذا أفسح مجال النظر تبين له أن هذا الولد قد يبرأ من مرضه وأن أمه قد تعلم بعد شفائه أن مرضه كان السل لا النزلة الشعبية ، وأن الطبيب قد كذب عليها رحمة بها .

فإذا مرض هذا الولد ثانية وسألت أمه الطبيب فإنها لا تثق بقوله مهما يؤكد لها أن المرض ليس سلا ، وإن كان فى الحقيقة كذلك .

أضف إلى ذلك أن الأطباء عامة لو سلكوا هذه الطريقة لفقدنا الثقة بهم . فهذا الكذب قد أضاع معانى اللغة ، وأزال الثقة بين الناس .

والقاعدة العامة أنه ينبغي للإنسان عند الحكم على شيء أن يتمثل في ذهنه ما يترتب عليه من الأضرار في المستقبل القريب والبعيد ، والحكمة توجب على الطبيب أن يتخير الألفاظ التي يستعملها لأداء الخبر ، وأن يفتح للمريض وأهله باب الأمل بالقدر الذي يعتقده ، ولكن لا يحيد عن الصدق .

على أنه إذا كان الصدق قد يودى بحياة بعض الأفراد والكذب ينجيهم — وإن كنا لم نعثر في حياتنا اليومية على شيء من هذا — فَلِمَ لا تضحى هذه الأنفس القليلة في سبيل الحق ، وفي سبيل المحافظة على معاني اللغة وثقة الناس بعضهم ببعض وهي كلها ركن عظيم من أركان العمران ؟

وإذا كان من الصواب أن تضحى آلاف النفوس للمحافظة على مملكة — أفلا يكون من الحق أن نضحى نفوسا معدودة وأضرارا محدودة للمحافظة على الحق ؟

الواجب علينا خلقيا أن نأخذ أنفسنا بقول الحق في كل حال .

والواجب على قادة الرأي فينا من علماء وأدباء وكتاب أن يعالجوا هذا المرض الوبيل في معالجة دقيقة ، ويصفوا له الدواء الشافي أو الواقي .

ولعل خير ما يصنعون أن يكثروا من المحاضرات والمقالات في هذا الصدد ، فعسى أن يكون من وراء ذلك ما يحقق الغرض من تقويم اعوجاج نفوسنا وتطهيرها مما علق بها من أدران وأوضار ؛ فنحن أحوج ما نكون إلى تجدد خلقي يبنى عليه صرح نهضتنا القومية التي نسعى إليها ، وكل رقي لا يشاد على أساس الفضائل الخلقية فمصيره السقوط والانهيار ورحم الله القائل :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

مضار الكذب

أكثر الخرافات الباطلة وحكايات المردة والعفاريت والأغوال وما يتصل بها من صفاتها المزعجة المنفرة التى أماتت فى كثير من الناس الشجاعة وأحيت فى نفوسهم الجبن والفزع — أثر من آثار الكذب وبعضها راجع إلى ضعف الفكر وقوة الخيال .

وأثر هذه الحكايات فى النفوس لم تقو قواعد العلم الصحيحة على محوه . ولا يزال كل منا يجد هذا الأثر فى نفسه على الرغم مما تعلمه من العلوم النافعة .

استطال الكذب على الأديان وأبرزها فى صور ناقصة يخالطها كثير من الأوهام والظنون الفاسدة ، فانصرف كثير من الناس عن الخير ، وجرى العامة والجهلاء فى أقوالهم وأفعالهم على ما يوافق أهواءهم اعتمادا على رأى فاسد أو كذب مشهور .

كذلك التاريخ لم يسلم من الكذب فى كثير من مواضعه ، وقد سوغ هذا أنه يتصل بالسياسة فى جميع نواحيها ، وما دخلت السياسة شيئا إلا أفسدته وقلبت حقيقته ، وقد اشتغل كثير من العلماء بتهذيب حوادثه وتنقيتها مما يخالطها من كذب موضوع وحكايات ملفقة رغبة فى تحقيق غاية خاصة أو إرضاء لشهوة أمير أو سلطان ، ومن أولئك العلماء العلامة ابن خلدون فى مقدمته ، ومثله فى هذا سائر العلوم العقلية والنقلية فإن للكذب فيها مجالا متسعا لا نزال نقاسى آلامه ونستقصي الحقائق بالتمحيص وإعمال الفكر وقياس الغائب على الشاهد لعلنا نصل إلى الحقيقة .

وليس لأحد غرض من هذا إلا تخليص العالم من بعض شرور تلك الرذيلة وما أصاب الناس من أرزائها .

والكذب رذيلة لم تترك أمرا من الأمور إلا استطالت عليه فالمعاملات والنظام والسياسة وحركة العالم فى كل شىء خالطها الكذب حتى كاد يفسدها ،

ويخرجها عن الغرض المقصود منها .

وهذا القضاء فى كل أمة وبلد يعانى الآلام الكثيرة فى سبيل الوصول إلى الحقائق وإقامة العدل بين الناس .

والعالم والتاجر والزارع والصانع كل أولئك أضر بهم الكذب حتى ساءت حالهم ، وإن أكثر معاملات الناس فى البيع والشراء والإجارة أفسدها الكذب ، ولو أحصيت كم من الزمن يضيع الناس فى سبيل الوصول إلى حقيقة أغراضهم لوجدته يربو على ثلاثة أرباع أعمارهم ! !

وإن المنازعات التى تثير البغضاء والشحناء فى النفوس وما تجلبه من المضار سببها الكذب وخلف الوعد فى المعاملات .

وقد أدى هذا إلى أن تهن صلات الناس وتذهب ثقة بعضهم ببعض وتقل معاملاتهم حتى لا يجد أحد من أحد معونة ومساعدة فى نائبة تنوب ، فذو الحاجة يتعسر عليه أن يقترض من المال ما يدفع به الحاجة الماسة والضرورة الحافزة ، لأنه أضاع ثقة الناس فيه بكذبه .

الكذاب لص ، لأن اللص يسرق المال وهذا يسرق العقل بل الكذاب أفتك من اللص لأنه يحاول أن يفسد عليك عقلك ويسلبك فكرك ، وهو شىء لا يجزئه المال ، ولا يقوم فيه عرض

الكذب فى الأحداث وعلاجه

إذا رأيت الطفل يكذب لكثرة كلامه ألزمه الصمت ، وإذا كان كذبه لخوف شىء من القسوة فى معاملته رفقت به ، وإذا كان لطمع فيه ورغبة فى إدراك رغبة له حيل بينه وبين ما يريد ، وإذا كان كذبه لغرض الإيقاع بغيره عاقبته بما كان يعاقب به ذلك الذى أراد به السوء ، وإذا كان كذبه لصحبة أطفال يكذبون منع مصاحبتهم .

مايجب على الآباء والمربين

على الآباء والمربين ألا يكذبوا أمام الأطفال فى شىء ولو فى هزل فإن كذبة واحدة تحمل الطفل على متابعة الكذب اقتداء بأبيه أومربيه ، وأن يطابقوا بين أقوالهم وأفعالهم ، وأن يسوقوا من الحكايات فى حديثهم مافيه مزدجر للأطفال عن الكذب ، وأن يظهروا لهم الثقة بهم فى أعمالهم وعدم الشك إلا على وجه لطيف لايرون فيه تكذيبا لهم وإلا كان هذا إغراءلهم بالكذب ، وأن يغضوا النظر عمن يعتادون الصراحة فى أقوالهم وإلا أثرفيهم الخوف فانصرفوا عن الصدق إلى الكذب ، وألا يسوقوا لهم من الأقوال ما يناقض بعضه بعضا ؛ فإن هذا من عادة لهم على استمراء الكذب واطراح الصدق .

وقد شدد الإسلام فى النهى عن الكذب وتعيير الكاذبين والحض على الصدق وتقريظ الصادقين فى غير ما آية وحديث : من ذلك قوله تعالى : « إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ » وقال تعالى على لسان طائفة من الأبرار يبرءون إلى الله من أن يكونوا ارتكبوا مانسب إليهم من الكذب : « مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ » . ويروى أن قائلا قال : يارسول الله ، أيكون المؤمن جبانا؟ قال: نعم : قال أفيكون بخيلا ؟ قال : نعم: قيل أفيكون كذابا ؟ قال: لا. فانظر كيف جعل الكذب لا يجتمع مع الايمان أبدا ويشبه هذا قوله صلى الله عليه وسلم : (يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى كُلِّ خُلُقٍ إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ) ، « لا تَجْتَمِعُ خَصْلَتَانِ فِي مُؤْمِنٍ الْبُخْلُ وَالْكَذِبُ » ، « آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ ، كَبُرَتْ خِيَانَةً أَنْ تُحَدِّثَ أَخَاكَ حَدِيثًا هُوَ لَكَ بِهِ مُصَدِّقٌ وَأَنْتَ لَهُ بِهِ كَاذِبٌ » ، « عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّهُ مَعَ الْبِرِّ وَهُمَا فِي الْجَنَّةِ ،

وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّهُ مَعَ الْفُجُورِ وَهُمَا فِي النَّارِ » ، « أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ » ، « وَيْلٌ لِلَّذِي يُحَدِّثُ فَيَكْذِبُ لِيُضْحِكَ بِهِ الْقَوْمَ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ وَيْلٌ لَهُ » ، « إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنَّ الْكَذِبَ لَا يَصْلُحُ لَا فِي الْجِدِّ وَلَا فِي الْهَزْلِ » ، « وَلَا يَعِدُ الرَّجُلُ صَبِيَّهُ ثُمَّ لَا يَفِي لَهُ » :

نهاك الشارع عن الكذب مطلقا حتى مع طفلك الصغير ، فهو لم يجوز لك أن تعده بشيء ثم تخلفه ؛ فإنك بذلك تدربه على الكذب من جهة ، وتفتح على نفسك باب تعب من جهة ثانية ، فإن حاجات الصغير لا تنفد وتكليفه لك لا ينقطع ؛ فإذا كذبت عليه مرة لم يعد يصدقك ، فهو يلح عليك بطلب حاجاته ، وكلما وعدته شك في وعدك ، وكرر الطلب والاشتياق منك إلى ما لا نهاية :

كذبت ومن يكذب فإن جزاءه إذا ما أتى بالصدق ألا يصدقا

ويروى أن يعلى بنت أبي حثمة نادت ابنها الصغير قائلة : ياعبد الله ، تعال خذ . فقال لها صلى الله عليه وسلم : وما تعطينه ؟ قالت : تمرا . فقال : « أَمَا أَنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ كُتِبَتْ لَكِ كَذْبَةٌ »

وإن ما نصح لنا به صلى الله عليه وسلم من النهي عن الكذب على الصغير « ومثله المرأة » إلا فيما استوجبته مصلحة المعيشة كما تقدم — هو الحق والخير في راحة البيت ونظام الأسرة ، وإن المرأة أرفع شأنا من أن يكذب عليها وينظر إليها كالطفل الصغير وهي متأهلة إذا اعتني بتربيتها أن تبلغ أعلى درجات الكمال والفضيلة والقيام بالواجبات الشخصية والاجتماعية معا .

على أن ربة البيت والطفل والخادم إذا آنسوا من رب البيت كذبا وخداعا جاروه في هذا المضمار ، وغنوا بأبشع الأنغام على هذا المزمار ، ولا شيء يضمن الراحة والهدوء في الأسرة مثل أن يجعل ربها عماد معاملته لأفراد أسرته الصدق والإخلاص وتحري الحق في القول والعمل : ومن أحسن أبيات الحكم

فى الحض على الوفاء بالوعد والاحتياط فى أمره قول أبى الأسود الدؤلى رضى الله عنه :

وإذا وعدت الوعد كنت كغارم ... دينا أقر به وأحضر كاتبا
حتى أنفذه على ماقلته ... وكفى على به لنفسى طالبا
وإذا منعت منعت منعا بينا ... وأرحت من طول العناء الصاحبا

يقول: إنه إذا وعد آخر التزم وعده وأكده على نفسه كما يلتزم المدين أداء دينه بالإقرار به وتسجيله فى صك عن يد كاتب حتى ينفذه فى أجله المعلوم ، وإنه لا يحتاج إلى من يذكره بالوعد ولزوم الوفاء به فإن نفسه هى الكفيلة بذلك ، ثم إنه إذا أحس من نفسه العجز عن الوفاء لصاحبه بالوعد الذى وعده بين له من أول وهلة أنه غير قادر على الوفاء والإنجاز ، ويكون بذلك قد أراح صاحبه من التعب والعناء وطول المراجعة . فنعم هذا الخلق الكريم من أبى الأسود ، وحبذا لو حاكاه فيه الكثيرون من الناس .

ونختم هذا البحث بما رواه القاضى عياض فى الشفاء عن عبد الله بن أبى الحَمْسَاء قال : بايعت النبى صلى الله عليه وآله وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية « أى من المبيع » ، فوعدته أن آتيه بها فى مكانه أى حيث عقد البيع ،فنسيت ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام ، فجئت فإذا هو مكانه فقال : يافتى ، لقد شققت على ، أنا ههنا منذ ثلاث أنتظرك .

شهادة الزور

مما يترتب على شهادة الزور إعطاء المال غير مستحقه وكثرة الجرائم والمظالم والتباغض وتخريب البيوت العامرة وزوال الأمن على الأرواح والأموال ، وفى ذلك فساد المجتمع .

لذلك يجب التباعد عنها لأنها من الكبائر ، وقد نهى الله عنها فقال تعالى : (وَاجتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ) وجعلها رسول الله صلى الله عليه وسلم تعدل الإشراك

بالله وعقوق الوالدين ، وكان متكئا فجلس ، وقال : ألا وقول الزور وشهادة الزور . فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت .

فعلينا أن نؤدى الشهادة على وجهها وأن نحث عليها بقدر استطاعتنا ؛ حتى لا نكون عرضة لعذاب الله تعالى وعقوبة القضاء وانتقام الناس .

كتمان الشهادة

شهادة الحق تحفظ الحقوق وتساعد على انتشار العدل وتوطيد دعائم الأمن وتوقف كل إنسان عند حده .

وقد نهى الله تعالى عن كتمان الشهادة وحكم على كاتمها بالإثم فقال : (وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ)

ولا جرم أنه يترتب على كتمان الشهادة أو تغييرها ضياع الحقوق وعقاب البرىء والبغضاء وذهاب الأمن والنظام .

الرياء

الرياء عصمك الله من أعظم الكبائر وأخبث السرائر ، ومازال صاحبه ممقوتا مخزيا بغيضا مقليا مبعدا عن كل خير منفيا، قد شهدت بمقته الآيات والآثار ،وتواترت بمذمته القصص والأخبار ، ومازال الرياء مبطلا للأعمال مفسدا لجميع الأحوال :

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه: قال : « إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ قِيلَ وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ ؟ قَالَ الرِّيَاءُ »

ويقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جازى العباد بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون فى الدنيا هل تجدون عندهم الجزاء ؟

واعلم أن الرياء شهوة من الشهوات العظام يجد لها صاحبها لذة كلذة الشراب والطعام ، فهو الداء الدوى الذى لا يسلم منه إلا صديق أوولى ،

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : للمرائى أربع علامات : يكسل إذا كان وحده، وينشط إذا كان بين الناس ، ويزيد فى العمل إذا أثنى عليه ، وينقص

منه إذاذم به .

ألوان الرياء

والرياء يفترق على معان كثيرة لا تحصى وله درجات مختلفة لا سبيل إلى أوصافها لكثرة أصنافها، وكلها مذموم وصاحبها بالنقص موسوم ،وسنذكر منها ماتيسر مما فيه دلالة على الأكثر ، ونقتصر منها على لمع يقع للناظرين فيها الاكتفاء :

فأكبر أحوال الرياء عند الله وأعظمها جرأة على الله الذى يظهر الإسلام وباطنه مشحون بالكفر ، : كما قال الله تبارك وتعالى : « وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ »

وطائفة أخرى ترائى بعمل الطاعة فى العلن ، وتتخلى عنه فى السر ، وتؤثر الانزواء والعزلة ؛ لتوسم بالخير ، وتتحلى بالعبادة، وباطنها مقصر عن ظاهرها .

وطائفة تبدى أحوال الطاعة ، وتظهر منها غاية الاستطاعة ؛ لتؤتمن على الودائع ، ويلقى إليها النظر فى الصنائع ، فتجعل ذلك ذريعة لأكل أموال الناس بالباطل .

وطائفة تأتى ما تأتى من التعبد وطلب العلم ابتغاء المنزلة وحرصا على الجاه وعز الجانب والاستكثار من الدنيا ، وهذه الدرجة الغالبة على أكثر الناس، لأنها يستشرف إليها طوائف من أهل الثروة ومن أهل الإقلال :فأما أهل الثروة فلنيل العزة وطلب المنزلة والتمكن من الرفعة والوقوف عندأمرها ونهيها لتعضد القوة بالقوة ، وتصل إلى أرفع درجات العزة والحظوة .

وأما أهل الإقلال فيطلبون العلم ويتسمون بالخير والصلاح ليجعلوها بضاعة تفيد لهم العيش :

فمنهم مستمسك بالطاعة فى بعض أحواله ، ومنهم من جعلها لطلب الدنيا وقصد بها نيل درجاتها العليا ولم يتمسك بعروة من عرا الشرع ، ولا انطوت

أضلاعه على شيء من التورع .

وطائفة يكاد أمرها يخفى على كثير من الناس مثل الذى يتوخى الدخول فى المساجد الخالية والمواضع المقصورة بعمل الطاعة ؛ فإن دخل عليه أحد ترك العمل ، وتركه من أعظم أبواب الرياء . وكالذى يمشى الهوينى ويقارب الخطا ويخفض الصوت ويظهر السكون ويؤثر الخمول ، فإذا جلس فى الملأ أكثر السكوت وأبدى غلبة النعاس الدالة على قيام الليل !!

النفاق شعبة من الرياء

ومن أسوأ ضروب الرياء النفاق ، وهو ضد الجهر بالحق والأمانة والإخلاص:

أما نسبته إلى الكذب فهو أخوه الأفسد وصنوه الأنكد ، إذ هما معا يرميان إلى غرض واحد أعنى تغيير الحقيقة الثابتة وتحويلها عن صورتها التى خلقها الله عليها . والكاذب يخبر بلسان مقاله تارة وبلسان حاله تارة أخرى عن أمر يزعم أنه منطو عليه وثابت فى نفسه ، ولا يكون ذلك واقعا أيضا .

والنفاق شبه بالخيانة ، ويفرق بينهما بأن الخيانة رجوع عن إنفاذ عهد عاقدت عليه غيرك ثم يعلم هو أنك نقضت عهده ، فيغضب عليك ثم يستريح ؛ أما النفاق فهو خيانة مستورة متجددة يستمر فسادها حينا من الدهر إلى أن يكشف أمرها .

معاداة الناس

لا جرم أن ترك العداوة على الأحوال كلها أحوط للعاقل من الخوض فى سلوكها ، فعليه ألا يكافئ الشر بمثله وألا يتخذ اللعن والشتم على عدوه سلاحا ؛ إذ لا يستعان على العدو بمثل إصلاح العيوب وتحصين العورات حتى لا يجد العدو إليه سبيلا .

والمعاداة للعاقل خير من المصافاة للجاهل ، والعاقل يقارب عدوه بعض المقاربة

لينال حاجته ، ولا يقاربه كل المقاربة فيجترئ عليه ، ولا يعادى ماوجد إلى المحبة سبيلا ، ولا يعادى من ليس له منه بد .

وأحزم الأمور فى أمر العدو ألا يذكره بسوء إلا عند الفرصة ، وإن من أكبر الظفر بالأعداء اشتغال بعضهم ببعض ، وإن مما يستعين به المرء على عدوه مجانبة من يعاشره ومصاحبة عدوه ، والعاقل لا يخاطر بنفسه فى الانتقام من عدوه ، والمعاداة بعد الخلة فاحشة عظيمة لا يليق بالعاقل ارتكابها ، فإن دفعه الوقت إلى ركوبها ترك للصلح موضعا .

التلون فى المودة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لاَ خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لاَ يَرَى لَكَ مِنَ الْحَقِّ مِثْلَ مَا تَرَى لَهُ) وقال رجل من الأعراب : (أعجز الناس من قصر عن طلب الإخوان ، وأعجز منه من ظفر بذلك منهم فأضاع مودتهم ، وإنما يحسن الاختيار لغيره من أحسن الاختيار لنفسه) وما أبلغ قول بعض الحكماء : إذا رزقك الله ود امرئ صحيح الود فحافظ عليه وتمسك به ، ثم وطن نفسك على صلته إن صرمك ، وعلى الإقبال عليه إن صد عنك ، وعلى البذل له إن حرمك ، وعلى الدنو منه إن باعدك ، حتى كأنه ركن من أركانك .

وإن من أعظم عيب المرء تلونه فى الوداد قال الشاعر :

وكم من صديق وده بلسانه   خئون بظهر الغيب لا يتندم
يضاحكنى كرها لكيما أوده   وتتبعنى منه إذا غبت أسهم

والعاقل لا يقصر فى تعاهد الوداد ، ولا يكون ذا لونين وذا قلبين ، بل يوافق سره علانيته وقوله فعله ، ولا خير فى متآخيين ينمو بينهما الخلل .

وإن من أعظم الأمارات على معرفة صحة الوداد وسقمه ملاحظة العين إذا لحظت ، فإنها لا تكاد تبدى إلا ما يضمر القلب من الود ، ولا تكاد تخفى ما يجنه الضمير من الصد ، فالعاقل يعتبر الود بقلبه وعين أخيه ، ويجعل له بينهما

مسلكا لا يرده عن معرفة صحة شيء تخيله .

حقيقة العداوة وضروبها

العدو هو الذي يتحرى اغتيال الآخر ، ويضاده فيما يؤدى إلى ضرره : ومنه تعدى فلان : أى فعل فعل العدو . وهو من قولهم : مكان ذو عدو : أى متنافى الأجزاء ناب لمن حله . والعداوة ضربان :

باطن لا يدرك بالحاسة ، وظاهر يدرك بها :

فالباطن اثنان : أحدهما الشيطان : وهو أصل كل عدو . وقد حذرنا الله تعالى منه غاية التحذير فقال : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا » وقال :«أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَلاَّ تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ » وقال : « لاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ »

والآخر الهوى المعبر عنه بالنفس فى قوله تعالى : « إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ » وقول النبى صلى الله عليه وسلم : «أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ » وكذلك الغضب إذا كان فوق ما يجب

ولكون هذه القوة فى الإنسان إذا أثيرت طريقا للشيطان فى وصوله إلينا وكونها كالخليفة لها — سماها النبى صلى الله عليه وسلم باسمه فقال : « الْهَوَى شَيْطَانٌ وَالْغَضَبُ شَيْطَانٌ » وقال تعالى : حكاية عن موسى عليه السلام : « هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ »

وأما الظاهر من الأعداء فالإنسان وذلك ضربان :

ضرب هو عدو مضطغن للعداوة قاصد إلى الإضرار إما مجاهرة وإما مساترة وذلك اثنان :

واحد يعادى كل أحد : وهو إنسان وحشي الطبع ، خبيث الطينة ، مبغض لكل من لم يحتج إليه فى العاجل ، بغيض إلى كل نفس ، يهاوش كل من يخافه

كما قال الشاعر :

يسطو بلا سبب وتلـــك طريقة الـكلب العقور

ومثله هو الذى عنى تعالى بشياطين الإنس .

والآخر خاص العداوة : وذلك إما بسبب الفضيلة أوالرذيلة كمعاداة الجاهل العـالم ، وإما بسبب نفـع دنيوى كالتجـاذب فى رياسة ومال وجاه ، وإما بسبب لُحمَة ومجاورة مُورّثة للحسد كمعاداة بنى الأعمام بعضهم لبعض ، وذلك فى كثير من الناس كالطبعى

والضرب الثانى فى عدو غير مضطغن بالعداوة ، ولـكن يؤدى حاله بالإنسان إلى أن يقع بسببه فى مثـل ما يقع من كيد عدوه ، فسمى عدوا لذلك : كالأولاد والأزواج : ولذلك قال عز وجل : « إنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلادِكُمْ عَدُوًّا لَـكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » وقال عليه الصلاة والسلام : « لَيْسَ عَدُوُّكَ الَّذِي إِنْ قَتَلْتَهُ آجَرَكَ اللهُ فِي قَتْلِهِ وَإِنْ قَتَلَكَ أدخَلَكَ الْجَنَّةَ ، وَلَـكِنْ أَعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْكَ ، وَامْرَأَتُكَ الَّتِي تُضَاجِعُكَ ، وَأَوْلادُكَ الَّذِينَ مِنْ صُلْبِكَ »

وجعل عليه الصلاة والسلام هؤلاء أعداء الإنسان لما كانوا سببا لإهلاكه الأخروى ؛ لما يرتكبه من المعاصى من أجلهم ، فيؤدى ذلك إلى هلاك الأبد الذى هو شر من إهلاك المعادى المناصب إياه .

البخل

حقيقته وسببه

قال بعض الناس : حد البخل منع الواجب ، فمن أدى ما وجب عليـه فليس ببخيل ، وإنمـا البخيل المستصعب للعطاء ، ولا تسمح به نفسه على حال . وهـذا

من الكلام الذى ليس فيه إقناع ؛ لأن الواجب لابد من تأديته طوعا أو كرها ، فمؤديه إنما أكرم نفسه من الحمل عليها وصانها عن الإكراه ، فلا محالة أن اسم البخل واقع عليه إذا كان مواصلا للحرمان بما فى يديه ، ولا يسمح إلا بما أوجبه الشرع عليه .

وأما المستصعب للعطاء فى واجب وغير واجب فذلك أبخل البخلاء بلا مدافعة ولا منازعة ، كما أنه إذا سمحت نفسه بالبذل فى غير الواجب وكان عطاؤه فى وجوه يستوجب بها الملامة فليس ببخيل ، بل هو جواد فى غير موضعه حملته على البذل المروءة النفسانية ومنعته الشهوة عن سلوك السبل المرضية .

والبخل الصحيح هو قصد المنع وإيثار الشح وامتناع البذل فى كل الوجوه ، فأصله حب المال وطول الأمل ، ويشرك معهما حب الأولاد ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ » فإذا بسط الله له أمله وحجب عنه أجله وتعلق به ولده — خامر قلبه خوف الفقر وقلة ثقته بما قسم الله له من الرزق ، فتعلق بجميع حبائل البخل .

هذا إذا كان مستمسكا بشعبة من شعب الإسلام متعلقا بحبل من حبائل الإيمان ،

وأما إن كان من أهل العصيان فبخل بما فى يديه ليستعين به على المعصية والخذلان وينفقه فى غير الطاعة والإحسان فذلك الذى خسر الدنيا والآخرة

وقد يكون البخل حب المال لذاته ؛ فإنا نجد من الناس الرجل المسن الخلى عن الولد عنده من المال مالو سمحت به نفسه وتجاوز الحد فى بذله مع انتهائه إلى أطول أعمار أهل زمانه لوسع ذلك ما عنده ، وهو مع ذلك لا يسمح بأداء زكاته ولا بالإحسان إلى نفسه فيما لاحرج عليه فيه ، وإنما جميع لذته وجل أمنيته ورغبته رؤية دنانيره ليستعذب وجودها فى يديه وهو عالم أنه يموت ، وربما علم أنه لمن يتربص .

مأثور القول فيه

البخل قد ذمه الله عز ذكره فى غير ما آية من كتابه الكريم ، فقال سبحانه: (وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »

وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ، فقال : (اللَّهُمَّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ »

وقال عليه الصلاة والسلام : (إِيَّاكُمْ وَالشُّحَّ فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَسَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ وَدَعَاهُمْ فَقَطَعُوا أَرْحَامَهُمْ) وقال عليه الصلاة والسلام : (لاَ يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالإِيمَانُ فِى قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ) .

من ضروب البخل الحرص والشره

أما الحرص فهو شدة الكدح والإسراف فى الطلب: قال صلى الله عليه وسلم : (لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ ذَهَبٍ لاَبْتَغَى لَهُمَا ثَالِثًا وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلا التُّرَابُ)

وأما الشره فهو استقلال الكفاية والاستكثار لغير حاجة : قال صلى الله عليه وسلم : (مَنْ لاَ يَجْزِيهِ مِنَ الْعَيْشِ مَا يَكْفِيهِ لَمْ يَجِدْ مِنَ الْعَيْشِ مَا يُغْنِيهِ) : وقد قيل : الناس رجلان : طالب لا يجد ، وواجد لا يكتفى .

وقال بعض العلماء: لا تخرج نفس من الدنيا إلا بحسرات ثلاث : لم تشبع مما جمعت ولم تدرك ما أملت ، ولم تحسن الزاد لما قدمت عليه .

وقيل لبعض الحكماء : ماالغنى ؟ قال : قلة تمنيك ورضاك بما يكفيك . وخير ماقيل : استغناؤك عن الشيء خير من استغنائك به : قال الشاعر :

ما كل فوق البسيطة كافيا فإذا قنعت فكل شيء كاف

وقال بعض الحكماء : أغنى الأغنياء من لم يكن للحرص أسيرا ، وأفقر الفقراء من كان الحرص عليه أميرا ؛ لأن الحرص سبب لإضاعة الموجود عن مواضعه، والحرص محرمة كما أن الجبن مقتلة ، ولو لم يكن فى الحرص خصلة تذم إلا الحسرة الشديدة عند فراق الدنيا على ماجمع لكان الواجب على العاقل ترك الإفراط فيه .

على أن الحرص غير زائد فى الرزق ، وأهون مايعاقب الحريص بحرصه أن يمنع الاستمتاع بما عنده من محصول ، فيتعب فى طلب مالايدرى : أيلحقه أم يحول الموت بينه ؟ ولو لزم الحريص ترك الإفراط فيه وأجمل فى الطلب لوصل إلى مقصوده موفور الكرامة مصون الوجه .

الطمع

ومن الأخلاق الذميمة الطمع ، فمن الأمثال لبعض الشعراء : تقطع أعناق الرجال المطامع .

وقال آخر :

تعفف وعش حرا ولا تك طامعا فما قطع الأعناق إلا المطامع

أرسل عثمان بن عفان رضى الله عنه إلى أبى ذر الغفارى رضى الله عنه كيسا من الدراهم مع عبد له وقال : إن قبل هذا فأنت حر . فأتى الغلام بالكيس إلى أبى ذر وألح عليه فى قبوله فقال له : اقبل ؛ فإن فيه عتقى . فقال : نعم ، ولكن فيه رقى .

وقال المأمون لأحمد بن يوسف : إن أصحاب الصدقات تظلموا منك . فقال : والله يا أمير المؤمنين ما رضى أصحاب الصدقات عن رسول الله حتى أنزل الله تعالى فيهم : (وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ) فكيف يرضون علىَّ ؟ فضحك المأمون وقال له:

تأمل أحوالهم .

والباعث للإنسان على الطمع شيئان الشره وقلة الأنفة : فلا يقنع بما أوتى وإن كان كثيرا ، ولا يستنكف بما منع وإن كان حقيرا ، وهذه حال من لا يرى لنفسه قدرا ، ويرى المال أعظم خطرا ، وليس لمن كان المال عنده أجل ونفسه عليه أقل إصغاء لتأنيب ولا قبول لتأديب .

وروى أن رجلا قال : يارسول الله أوصنى قال : (عَلَيْكَ بِاليَأْسِ مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَإِيَّاكَ وَالطَّمَعَ فَإِنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ » وعن سهل بن سعد قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال: يارسول الله علمنى عملا إذا أنا عملته أحبنى الله وأحبنى الناس. فقال : « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبَّكَ النَّاسُ »

المسألة

عن الزبير بن العوام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:(لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلاً فَيَأْتِيَ بِحُزْمَةِ الْحَطَبِ فَيَبِيعَهَا خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَسْأَلَ النَّاسَ أَعْطَوْهُ أَوْ مَنَعُوهُ) وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : من سأل الناس ليثرى ماله فإنما هو رضف من النار يلقمه فمن شاء استقل ومن شاء استكثر .

وأوصى قيس بن عاصم بنيه فقال : يابنى إياكم ومسألة الناس فإنها آخر كسب الرجل .

والعاقل لا يسأل الناس شيئا فيردوه ، ولا يلحف فى المسألة فيحرموه ، ويلزم التعفف والتكرم ، ولا يطلب الأمر مدبرا ولا يتركه مقبلا

وقال أحد المريين : لا ينبل الرجل حتى يعف عما فى أيدى الناس ، ويتجاوز عما يكون منهم ، ولا يبذل العاقل وجهه لمن يكرم عليه قدره ، ويعظم عنده خطره ، فكيف بمن يهون عليه رده ولا يكرم عليه قدره ؟ ولو لم يكن فى السؤال خصلة تذم

إلا وجود التذلل فى النفس عند الاهتمام بالسؤال وإبدائه لكان الواجب على العاقل إذا اضطُر إلى أن يستف الرمل ويمص النوى ـ ألا يتعرض للسؤال أبدا ما وجد إليه سبيلا ، فأما من دفعته الحاجة الملحة إلى ذلك فسأل من يعلم أنه يقضى حاجته أو ذا سلطان فلا حرج عليه فى ذلك ، كما لا حرج عليه فى القبول إذا أعطى من غير مسألة .

طلب الممنوع

ومما جبلت عليه النفوس الحرص على الممتنع ، وقيل : النهى عن الشىء داع إلى تعاطيه . ومن الأمثال : المرء حريص على ما منع : وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : (لَوْ مُنِعَ النَّاسُ عَنْ فَتِّ الْبَعَرْ لَفَتُّوهُ) وقال بعض الشعراء :

منعت شيئا فأكثرت الولوع به   وحب شىء إلى الإنسان ما منعا

وإنما كان الإنسان حريصا على ما منع لأنه يطلب ما ليس عنده ، لأن تحصيل الحاصل محال ، والطلب إنما يتوجه إلى المعدوم لا الموجود ، فإذا حصله سكن وعلم أنه قد ادخره ، وأما الشىء المبذول الرخيص فإنما يرغب عنه ، لأنه معلوم أنه إذا التمسه وجده : تأمل قول على كرم الله وجهه : « ومن وثق بماء لم يظمأ به » والصائم فى رمضان يصبح جائعا تنازعه نفسه إلى الغذاء ، وفى أيام الفطر لا يجد تلك المنازعة فى مثل ذلك الوقت .

المراء والجدال

ومما جبل عليه الإنسان اللجاج ، وهو التمادى فى الخصومة ، وهو خلق يتركب من خلقين : أحدهما الكبر والآخر الجهل بعواقب الأمور ؛ وأكثر ما يكون عند أولى السلطان لما يأخذهم من العزة بالإثم .

وكذلك مما طبع عليه الإنسان المراء وهو كل اعتراض على كلام غيرك

بإظهار خلل فيه إما فى لفظه وإما فى معناه وإما فى قصد المتكلم :

فالاعتراض على الكلام فى اللفظ يكون بإظهار خلل فيه من جهة النحو أو اللغة أو النظم والترتيب بسوء تقديم أو تأخير

وأما فى المعنى فكأن يذكر أنه ليس كما يقول القائل وقد أخطأ فيه

وأما فى قصده فكأن يقول : هذا الكلام حق ولكن ليس قصدك فيه الحق ، وإنما أنت فيه صاحب غرض .

وهذا الضرب إن جرى فى مسألة علمية ربما خص باسم الجدل ، وهو عبارة عن قصد إفحام غيرك وتعجيزه وتنقيصه بالقدح فى كلامه ونسبته إلى القصور والجهل ، وآية ذلك أن يكون شبهته للحق من جهة مكروهة عند المجادل يقصد بها إظهار خطأ خصمه وفضل نفسه

وأما الخصومة فهى أمر وراء الجدال والمراء : فالمراء طعن فى كلام غيرك بإظهار خلل فيه من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقيره .

والجدال عبارة عن أمر يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها .

والخصومة لجاج فى الكلام يستوفى به مال أو حق مقصود .

وأما الباعث على المراء والجدال فهو الترفع بإظهار الفضل والعلم والتهجم على غيرك بإظهار نقصه وهما شهوتان باطنتان فى النفس قويتان فيها :

أما إظهار الفضل فهو من قبيل تزكية النفس وهى من مقتضى ما فى الإنسان من الطغيان ودعوى العلو والكبرياء ، وهى من صفات الربوبية ، وأما تنقيص الآخر فهو من مقتضى طبع السَّبُعية؛ فإنه يقتضى أن يمزق غيره ويؤذيه ، وهاتان صفتان مذمومتان ومهلكتان ، وكل من اعتاد المجادلة مرة وأثنى الناس عليه ووجد لنفسه بسببه عزا وقبولا قويت فيه هذه المهلكات ، ولا يستطيع عنها نزوعا إذا اجتمع عليه سلطان الغضب والكبر والرياء وحب الجاه والتعزز بالفضل ،

العجب

العجب دليل الجهل وأصل الغي، يورث التكبر وينشر الطغيان والتجبر، فلا يرى صاحبه أبداً إلا غليظاً فظاً لا يرى لأحد سواه في الفضل حظاً وكفى به شيمة مشئومة وخليقة مذمومة أهلكت القرون قديماً وحديثاً، وقد نهى الله عز وجل عنه وحذر منه، فقال عز من قائل: «فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى» وقال تعالى: (ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ) وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ثعلبة: (إِذَا رَأَيْتَ شُحًّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتَّبَعًا وَإِعْجَابَ كُلِّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِنَفْسِكَ) وقال بعض الحكماء: النعمة التي لا يحسد عليها صاحبها التواضع، والبلاء الذي لا يرحم منه صاحبه العجب. وقال صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ الْعُجْبَ لَيَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»

وصاحب العجب قد عمى عن مساويه، واستعذب الملق والكذب من مادحيه؛ لأن المدح أقوى أسباب الإعجاب وأشد دواعي الكبرياء، فإذا ضعف عقل عن معرفة عيوبه عمى عن نقصه، فرأى قبيحه حسناً وخطأه صواباً،

وكل من عظم في الدنيا قدره وجل فيها خطره ينبغي أن يكون للإعجاب مطرحاً وعن الكبر منتبذاً؛ فإن همة الرجل العاقل تستقل من الكثير وتستصغر الكبير، ومن أعظم هذه الطائفة مصيبة وأخسرهم صفقة من ساقه العجب إلى مدح نفسه ورأى بنشر خصاله إخراجه عن جنسه، يظن أن الناس قد غفلوا عن فضائله وسبقه، وجهلوا أمره وقصروا به عن حقه،

ارتباط الكبر بالعجب

العجب تصور الكمال في النفس والفرح به والركون إليه من حيث أنه قائم بصاحبها وصفة له مع الغفلة عن قياس النفس إلى غيرها بكونها أفضل منه، وبهذا القيد

ينفصل عن الكبر إذ لا بد في الكبر أن يرى الإنسان لنفسه مرتبة ولغيره مرتبة ثم زيادة مرتبته على مرتبة غيره ، فكل متكبر معجب ولا عكس .

والفرق بين العجب والتيه هو أن المعجب يصدق نفسه وهما فيما يظن بها ، والتياه يصدقها قطعا ، وهناك فرق آخر ، وهو أن المعجب قد يُعجب بنفسه ولا يؤذى أحدا بذلك ، والتياه يضم إلى الإعجاب الغض من الناس والترفع عليهم ، فيقتضى ذلك الأذى لهم ، فكل تائه معجب ولا عكس .

وأما الفرق بين الإعجاب بالعمل والإدلال به فهو أن العجب استعظام فقط ؛ فإذا أضيف إلى ذلك أن له عند الله حقا وأنه منه بمكانة حتى يتوقع لعلمه كرامة فى الدنيا ، واستبعد أن يجرى عليه مكروه ــ سمى هذا إدلالا بالعمل ، فكأنه يرى لنفسه دالة عند الله ، وكذلك قد يعطى غيره شيئا فيتعظمه ، ويمن عليه فيكون معجبا ؛ فإن استخدمه أو ترفع عن قضاء حقوقه كان مدلا عليه .

أقسام العجب

ينقسم العجب باعتبار إضافته إلى ما به العجب ثمانية أقسام :

الأول : يعجب ببدنه فى جماله وهيئته وصحته وقوته وصوته ، فيلتفت إلى جمال نفسه وينسى أنه نعمة من الله تعالى معرضة للزوال فى كل حال ، ويدعو ذلك إلى التنقيص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس كما يأتى بيانه .

الثانى : العجب بالمال كما قال الله تعالى إخبارا عن صاحب الجنتين إذ قال : (أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا) . ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا غنيا جلس بجنبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه فقال له : «خَشِيتَ أَنْ يَعْدُوَ إِلَيْكَ فَقْرُهُ !!»

الثالث : العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والغلمان والعشيرة والأنصار كما قال الكفار بلسان القرآن الكريم : (نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا)

الرابع : العجب بالبطش والقوة كما حكى القرآن الكريم عن قوم عاد حيث

قالوا : (مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ؟)

الخامس : العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أن الناس له موال وعبيد ويأنف من مخالطتهم ومجالستهم ، وعلامة هذا العجب التفاخر به ، فيقول لغيره ياإفريقى ، أومن أنت ؟ ، ومن أبوك ؟ وأين لمثلك أن يكلمنى أو ينظر إلى ؟

السادس : العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح الدين والدنيا ، وثمرته الاستبداد بالرأى وترك المشورة واستجهال الناس المخالفين له ولرأيه .

السابع : العجب بالرأى الخطأ قال تعالى : « أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا » وقال تعالى : (وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا) وعن هذا العجب يعبر بالجهل المركب، وثمرة هذا العجب المعصية والتخطئة للناس .

الثامن : العجب بالعلم : قال صلى الله عليه وسلم : (آفَةُ الْعِلْمِ الْخُيَلَاءُ) فلا يلبث العالم يعتز بعز العلم ويستشعر فى نفسه جمال العلم وكماله ويستعظم نفسه ويستحقر الناس .

التاسع : العجب بالعمل والعبادة ، وليس يخلو عن رذيلة العز والكبر واستمالة قلوب الناس زاهد أوعابد ، ويترشح منهم الكبر فى الدين والدنيا : أما فى الدنيا فهو أنهم يرون غيرهم بزيارتهم أولى منه بزيارة غيرهم ، ويتوقعون قيام الناس بقضاء حاجاتهم فى المجالس وتقديمهم على سائر أنواع الناس فى الحظوظ إلى جميع ماذكرناه فى حق العلماء ، وأما فى الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه حيا وهو هالك تحقيقا : قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم : (إِذَا سَمِعْتُمُ الرَّجُلَ يَقُولُ هَلَكَ النَّاسُ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ)

وأسباب العجب كثيرة ، وأظهرها سببان : المدح،واعتقاد الانفراد بالكمال : أما المدح والثناء فإنه يحرك العجب : كما روى أنه خطب خطيب فى البصرة خطبة أوجز فيها فنادى الناس من أعراض المسجد : أكثر الله لنا من أمثاله . فقال : لقد

كلفتم الله شططا ! !

وآفات العجب كثيرة وهى التفاخر واستجهال الناس والاستبداد بالرأى والإدلال والسفه على الناس ، وحسبك أنه يدعو إلى التكبر ، فقد قال على كرم الله وجهه : الإعجاب يمنع الازدياد ؛ وذلك لأن المعجب بفضيلته الداخلة كعلمه أو الخارجة كغناه وقنيته يعتقد أنه قد بلغ الغاية ، وهذا الاعتقاد يمنعه عن طلب الزيادة منــه .

السفه

السفه من الشيم المبغضة والخلال المجفوة ، ومازال صاحبه أبدا مشنوء الجانب مذموم المقاصد ، والسفاهة هى الخفة والاضطراب إذ أن صاحب السفاهة لا يثبت على حال ولا يقف على حقيقة من الأفعال والأقوال ، وكفى بهـذا غاية فى النقصان وتمسكا بحبل المهانة والامتهان ، ولذلك سمى الكلب سفيها لمهانة نفسه وخساسة جنسه .

وقيل أيضا : السفه الجهل ، والسفيه الجاهل ، وسفه بمعنى جهل ، والسفيه المبذر الذى لا يصلح لإمساك ماله ، ولا يستقل بصلاح حاله لقلة نظره ومواصلة ضرره ، وكلها وجوه جامعة لمعانى السفه . والدرجة الأولى وهى حمل السفه على الخفة والاضطراب ـ أجمع لأسبابه وأبلغ فى جميع أبوابه ؛ لأنه قد يوجد مع الجهـل الصمت والثبوت حتى لا يظن بصاحبه جهلا إلا عنـد الاختبار ، ولذلك قالوا فى الحليم مقابلا للسفيه : فلان طود حلم ، وفلان أحلم من ثبير : فشبهوه بالطود لثبوته . وصاحب السفاهة ضده ؛ لأنه موصوف بالخفة والاستشاطة وسرعة الغضب وقلة التثبت وإنفاذ العجلة فيما بدا له .

وكانت العرب تسمى العجلة أمَّ الندامة ؛ لأن صاحبها يقول قبل أن يعلم ويجيب قبل أن يفهم . وقد عابت به الجن أنفسها فى قول الله سبحانه : « وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا » وقال عز من قائل : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ

إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » وقال تبارك اسمه : « قَالَ يَاقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ » وقال عز ذكره فى شأن المبذرين : « وَلاَ تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ » وقال الله تعالى : « أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا » .

ومن كلام بعض الحكماء : السكوت عن السفيه جواب والإعراض عنه عقاب ومباعدته ثواب .

وكل سفيه لامحالة جاهل لأن السفه كله جهالة ، وقد لا يكون الجاهل سفيها لأنه فى كثير من الأشياء يحزم ويحذر ويتحرز مخافة أن يوقعه جهله فيما لا طاقة له بدفعه ويوبقه فيما لا يقدر على التخلص منه لاسيما إذا علم أنه بين أهل المعرفة والنبل وأرباب النباهة والفضل فعند ذلك يكثر تحرزه ويعظم تحفظه .

والسفيه قد استوى عنده الخير والشر واقترن عنده النفع والضر ، فهو يمضى عزائمه على ما سولت له نفسه وينفذ آراءه على ما خيل له نظره وحدسه من غير روية ولا تفكر فهو لا يمل العثار ، ولا يستحي من العار ، ولا يرى ما يجنبه الاعتذار :

ومن ضروب السفه أن الإنسان يعرف أن زخارف الدنيا وبدائعها وذخائرها ورغائبها لا تساوى فى ميزان عقله دقيقة واحدة من عمره ، ومع ذلك يصرف الأيام والسنين فى الأسف والأسى والحزن والندم على مافاته من سافل مشتهياته حتى إذا حم القضاء ، وقرب الأجل من الانتهاء ـ تمنى أن لو أنفق ما فى الأرض جميعا لزيادة ساعة فى عمره ، وكان يجب عليه أن يتذكر ذلك والزمن فى ملكه وتصرفه ينتفع به فى وجوه المنافع ، لا أن يتذكر عند ضياع الفرصة حيث لا يجدى التمنى والترجى .

المكر

قال ابن سيدة : المكر : الخديعة والاحتيال . وقال : الليث : المكر : احتيال فى خفية . والخدع : إظهار خلاف ما تخفيه ، والخداع الحيلة . والمكر ضربان :

أحدهما مذموم وهو الأشهر عند الناس والأكثر :

وهو أن يقصد فاعله إنزال مكروه بالممكور به ، وإياه قصد صلى الله عليه وسلم بقوله : « الْمَكْرُ وَالْخَدِيعَةُ فِي النَّارِ » .

والآخر ممدوح : وهو أن يقصد صاحبه استمالة المخدوع والممكور به إلى مصلحة لهما : كما يفعل بالصبي إذا امتنع من فعل خير له : وفي التنويه بهما يقول بعض الحكماء : المكر والخديعة أمران لا معدى عنهما في هذا العالم ؛ ذلك بأن السفيه يجنح إلى الباطل ، ويستثقل الحق ولا يألفه لمنافاته لطبعه ، فلا مناص أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة بخدعة الصبي عن اللبن ، ولهذا قيل : كن مخراقا : والمخراق من الرجال الذي لا يقع في أمر إلا خرج منه .

وليس في هذا حث على تعاطي الخبث ، بل هو حث على جذب الناس إلى الخير بالاحتيال ، وقد جاء ضربا المكر في قوله تعالى : « وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ » وقوله : « فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلاَّ نُفُورًا اسْتِكْبَاراً فِي الأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ » وقوله : « أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الأَرْضَ » فخص في الآيات السيئ من المكر تنبيها على جواز المكر الحسن .

ومن معاني المكر : الكيد والمخاتلة ، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشر ، ومتى قصد به شر فهو مذموم ، ومتى قصد به خير فهو محمود : وعلى الوجه المحمود قال تعالى : « كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللهُ » .

ويدخل فيه الاستدراج ومنه قول الله تعالى : « سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ » فاستدراجه تعالى تواتر النعم عليهم حتى يظنوا أنها لطف من الله بهم فيزدادوا بطرا وانهما كا في الغي ، فيعمى عليهم سبل الحق فيهلكوا بالأسباب

التى أمدهم الله بها .

التهاون بالكثير المبذول

مما جبلت عليه النفوس التهاون بالكثير المبذول العام ، ولذلك ترى الناس لايشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة الحاجة إليها من حيث أنها عامة مبذولة ، ولا يجدون لذة بالنظر إلى مافى السماء من زينة ، وهى أحسن من كل بستان فى الدنيا لأنها لما عمت لم يشعروا بها ، وحينئذ فالنفيس لايعرف إلا بأمور ثلاثة : إما بانفراده ، أو بفراقه ، أو بمقاساة ضده : قال بعضهم فى الأول :

خلت الديار فسدت غير مسود ... ومن الشقاء تفردى بالسؤدد

وفى الثانى قال الآخر :

ترى الفتى ينكر فضل الفتى ... مادام حيا فإذا ماذهب
لج به الحرص على نكتة ... يكتبها عنه بماء الذهب

وماحكى من أن ابن الوعاظ لما دخل على هارون الرشيد وقال له : عظنى ـ قال : ياأمير المؤمنين إنك لو منعت شربة ماء عند عطشك بم كنت تشتريها ؟ قال : بنصف مالى . فقال له : لو حبست عنك عند خروجها . قال : بالنصف الآخر . قال : لايغرنك ملك قيمته شربة ماء .

وفى الثالث قيل :

ستذكرنى إذا جربت غيرى ... وتعلم أننى نعم الصديق

وقال بعض الحكماء : إنما يعرف قدر النعمة بمقاساة ضدها . فأخذه أبو تمام فقال :

والحادثات وإن أصابك بؤسها ... فهو الذى أنباك كيف نعيمها

ولاجرم أن الشىء النفيس لايعرف إلا بمقاساة ضده ، ولاتستبان النعمة إلا بمقاساة النقمة أو بعد فراقها ، وإلافعمومها وبذلها مؤد إلى جهل النفوس بقدرها ،

وهـذا غاية الجهل إذا صار شكرهم موقوفا على أن تسلب منهم النعمة ، ثم ترد عليهم في بعض الأحوال ، فلا ترى البصير يشكر صحة البصر إلا بعد العمى ، فعند ذلك لو أعيد بصره أحسه وشكره. ولما كانت رحمة الله واسعة عمت الخلق و بذلت لهم في جميع الأحوال ، فلم يعدها الجاهل نعمة ، وهـذا الجاهل مثله مثل العبد السوء حقه أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه حسبه منة ، فإن ترك ضربه على الدوام غلبه البطر وترك الشكر ، فصار الناس لا يشكرون الله إلا على المال الذي يعتوره النقص والزيادة وينسون جميع نعم الله عليهم :

فمن ذلك أن بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصائر فقال : أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا . فقال : أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا . فقال : أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفا ؟ فقال : لا . فقال : أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم ؟ فقال : لا . فقال : أما تستحي أن تشكو مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفا ! ! وهـذا الجهل عام عند جميع النفوس إلا القليل : قال تعالى : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُور » .

إيثار العاجل على الآجل

طبع الإنسان على حب العاجل وترجيحه على الآجل من غير نظر في الأصلح ؛ لأن ذلك راجع إلى العقل كما سيأتي : قال المتنبي : «والنفس مولعة بحب العاجل» وقد أخذه من قوله تعالى : (كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ) وقوله تعالى : (فَأَعْرِضْ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ) ولا سبب لذلك إلا حب العاجل ؛ لأن ثمرة الدين وإن كانت أكثر مؤجلة ، وأكثر الأبصار ضعيفة مقصورة على العاجلة لا يمتد نورها إلى مشاهدة العواقب ، ولذلك قال تعالى : (بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) وهو السبب في التسويف وعدم المبادرة بالعمل للآخرة .

ومن ثمرات حب العاجل الإصرار على الذنب؛ لأن اللذة الباعثة عليه ناجزة معجلة آخذة بالمخنق، وقد قوى واستولى بسبب الاعتياد، والعادة طبع ثان، والنفس كما تتأثر بالعاجل من الخوف لا تتأثر بالآجل منه.

ضروب من الأخلاق يعرض لها المدح والذم
حب المال

(ا) قيمة المال:

المال إذا اعتبر بكونه أحد أسباب قوام الحياة الدنيوية فهو عظيم الخطر، وإذا اعتبر بسائر القنيات فهو صغير الخطر؛ إذ القنيات ثلاثة:

نفسية وبدنية وخارجة، والخارجة أدونها، وأدون الخارجات المال، لأنه خادم غير مخدوم، وسائر القنيات خادم من وجه ومخدوم من وجه؛ لأن النفس يخدمها البدن، والبدن يخدم المأكل والملبس، وهما يخدمهما المال.

فالمال من حقه أن يكون خادما لغيره من القنيات، وألا يكون شيء من القنيات خادماله، وإن كان كثير من الناس لجهلهم يجعلون جاههم وأبدانهم ونفوسهم خدما للمال وعبيدا، وهم الذين ذمهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: « تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ »

ولعظم منافع المال فى الأمور الدنيوية قال تعالى: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ) وخوّف من أعجب باقتنائه فقال: « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ».

فحق الإنسان أن يعد المقتنيات الدنيوية آلات موضوعة فى فندق يصلح للانتفاع بها المسافر مادام نازلا فى ذلك الفندق، فيتناول منها مقدار ما يتبلغ به، ويتسلى عنها عند ما يرحل، ويستهجن لنفسه أن يكذب، ويغضب، ويحزن، ويرتكب القبائح فى سبيلها.

واعلم أن المال الذى هو العين جعله الله سبحانه سببا للتعامل به كما تقدم آنفا ، وخادما كما ذكرناه ، فقبيح بالحر المترشح لنيل الفضائل والاقتداء بالبارئ جل ثناؤه والوصول إلى الغنى الأكبر أن يتهافت على المال بأكثر مما يحتاج إليه ، ويجعل نفسه أقل رفيق وأخسه كما قيل : « فَرِقٌّ ذوى الأطماع رق مخلد » ويكون منعكفا زمنه على حجر يعبده كما قال تعالى : « يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ » :

تأمل قول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: « وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ » ـ تجد ـ كما رأى بعض المحققين ـ أن إبراهيم سأل ربه أن يحرسه وذريته من الأغراض الدنيوية الصارفة عن الله ؛ فمثله عليه الصلاة والسلام لا يتصور أن يعتقد فى حجر هو صانعه أو يعبده .

ويؤيد ذلك ماجاء فى موطن آخر مما يعم هذا المعنى وغيره ، إذ يقول الله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَالاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا » .

الحق أن المال فى أيدى الناس عارية ؛ لأن الله تعالى أوجد أعراض الدنيا بلغة فاعتدها الناس عقدة وصيَّر الدنيا مرتحلا وممراً فصيروها موطنا ومقراً إلا قليلا أنزلوها حيث أنزلها الله تعالى ، وهم الذين وصفهم الله تعالى بقوله : « وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ » تاجروا بها ربهم كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ »

وأعراض الدنيا من وجه عارية فى أيدى الناس مستردة كما قال الشاعر :

وما الناس والأهلون إلا ودائع ولابد يوما أن ترد الودائع

ومن وجه منحة منحها الانسان لينتفع بها فى حياته وينتفع بها غيره بعد مماته ، غير أن الانسان اغتر بها فظن أنها جعلت له هبة مؤبدة ، فركن إليها ولم يؤد أمانة الله تعالى ، ثم لما طولب بردها تبرم وضجر ، وسخط وجزع .

وبعضهم وهم الأقلون حفظوا ماعهد إليهم ، فتناولوها تناول العارية والمنحة والوديعة ، فأدوا فيها الأمانة ، وعلموا أنها مستردة ، فلما خرجت منهم لم يغضبوا ، ولم يجزعوا ، وردوها شاكرين لما نالوه منها ومشكورين لأداء الأمانة فيها .

وقد ذكر بعض العارفين فى ذلك مثلا فقال : إنما مثل أرباب الدنيا فيما أعطوه من أعراضها كرجل دعا قوما إلى داره ، وأخذ طبق ذهب عليه بخور ورياحين ، فكان إذا دخل أحدهم ناوله إياه لا ليتملكه بل ليشمه ، ويناوله لمن بعده ، فمن كان جاهلا ظن أنه يملكه ، فلما استرجع منه ضجر ، ومن كان عالما تناوله فشمه ثم أعاده بانشراح صدر .

(ب) تعلق النفوس به :

لاشك أن النفوس جبلت على حب المال : قال تعالى : (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) ، (وَيُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا) وهو أمر ضرورى لا يحتاج للبيان ولذلك سببان :

أحدهما : حب الشهوات العاجلة ، ولا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل ، فإن علم الإنسان أنه يموت بعد يوم فقد لا يبخل بماله ، وقد يبخل به إن كان له أولاد ؛ لأنه يقدر بقاءهم كبقاء نفسه ، وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم : « الْوَلَدُ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ مَجْهَلَةٌ » وقد يسخو مع ذلك إذا أحسن الظن بالله وتيقن الخلف : قال على كرم الله وجهه : من أيقن بالخلف جاد بالعطية . وذلك حق ؛ لأن من يوقن بالخلف يعلم أن مادته دائمة غير منقطعة : قال الشاعر :

من ظن بالله خيرا جاد مبتدئا   والبخل من سوء ظن المرء بالله

وآخرهما : حب عين المال ؛ فمن الناس من معه ما يكفيه طول عمره ويزيد على جميع مطالبه ، وهو شيخ بلا ولد ، ولا تسخو نفسه بإخراج شىء فى مصالح دنياه وآخرته ، ولا بمداواة نفسه عند المرض ، وما دفعه إلى ذلك إلا حبه للمال وعشقه له : ومثله فى ذلك كمثل رجل عشق شخصا فأحب رسوله لنفسه ، ثم نسى محبوبه

واشتغل برسوله ؛ لأن المال رسول يبلغ إلى الحاجات فصارت محبوبة ، وقد تنسى الحاجات ، ويصير الذهب محبوبا فى نفسه .

وحب المال لايخلو منه أحد ، وربما يكون كامنا فى النفس فتثيره مشاهدة النعمة عند غيره ؛ لأنها تثير الشوق إليه ، وتجعل الشخص يتنبه لألم الحرمان ، وقد كان غافلا عنه قبل ذلك ، وهذا من مقتضيات الأمور التى لاتدخل تحت الاختيار ، ولم يعر منه أحد عدا من عصم الله من أوليائه ؛ لأن ذلك من مقتضيات البشرية ، وإنكار حبه مكابرة ، وقد يتعدى حب المال والدنيا إلى حب أهل المال بالطبع : قال على كرم الله وجهه :

الإنسان عبد للدنيا ولمن فى يديه شيء منها .

ومن وجوه ذم المال أن الولع به قد يؤدى إلى أمور محظورة : كالبخس فى الوزن والتطفيف فى الكيل ، والجحود للحق ، والمغالطة فى الحساب ، والشتم والإهانة ، واحتمال أشباه ذلك طلبا للكسب ، واللؤم ، وهو الإمساك عن الإنفاق فى أبواب الجميل ، ويُؤتَى صاحبه من قِبَلِ أنه لايعرف طرق الجميل ، ومنها التقتير وهو التضييق فيما لابد منه كالإنفاق على الأبناء ووجوه الخير ويؤتى صاحبه من قِبَلِ أنه لايعرف الواجب ، والسرف وهو الانهماك فى الشهوات واللذات ، والبذخ وهو أن يتعدى المرء مايتخذه أهل طبقته مباهاة ، وسوء التدبير وهو أن ينفق فى غير ضرورة ، ويهمل الأهم من أموره ؛ ويؤتى من قبل أنه لايعرف مقادير النفقة .

ومن أراد أن يجانبه الذم فى شأن المال فليراع مايأتى :

(١) أن يعرف أبواب الجميل ويرغب فيها ويبتغيها .

(٢) أن يعرف الحق اللازم ويوجبه على نفسه .

(٣) أن يتوخى القصد فى الإنفاق على لذاته المشروعة .

(٤) ألا يتعدى مايفعله أهل طبقته .

(٥) أن يعرف استحقاق كل حال مما يحتاج إليه .

(٦) أن يكون إنفاقه كرما لاتبذيرا وإسرافا ، فإذا فعل ذلك نسب إلى كل

خلق محمود .

الحياء

(١) مايمدح منه :

الحياء انقباض النفس من فعل شيء أو تركه مخافة الذم الذي يعقبه ، فهو خاص بالإنسان دون الحيوان ، ويبدو في الأطفال متى بدأ التمييز يظهر فيهم ، والحياء من أمارات الخير في الإنسان وأقوى باعث له على فعل مايحمد عليه واجتناب مايذم من أجله .

وأكثر أفعال الخير وماتسمعه من حسن القول والإحساس بالشرف راجع إلى مافي النفس من الحياء ، ومادام الإنسان يخشى اللوم وتتطلع نفسه إلى الحمد فهو جميل السيرة حميد الأثر جليل الخطر :

فلا وأبيك مافي العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء
يعيش المرء ما استحيا بخير ويبقى العود مابقي اللحاء

والحياء خلة من خلال الخير التي ينسبها الناس لأنفسهم ويرون من العار نقصها فيهم أو أن يوصفوا بالتجرد منها في معرض الشتم والذم ولا غرو فهي جامعة لكثير من الفضائل ، وحسبك شاهدا أنك ترى الحيي خفيف الظل عذب الحديث كريم النفس ضعيفا في موطن الشر قويا في موطن الخير ، لايجترئ على سيئة يفعلها إلا أن يستغضب فيغضب دفاعا عن الشرف أو النفس ، وتراه أبعد الناس عن خلال السوء وسماع هجو القول وساقطه :

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه كأن به عن كل فاحشة وقرا

وكان الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه قد خص منه بأجل السهام ، وضرب فيه بأوفر الحظوظ والأقسام :

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه دخل عليه أبوبكر وعمر وعلي رضي الله عنهم وهو مكشوف الركبة فبقي على حاله ، فلما استأذن عثمان

رضى الله عنه غطاها ، فقيل له فى ذلك ، فقال عليه السلام : « إِنِّى لَأَسْتَحْيِى مِمَّنْ اسْتَحْيَتْ مِنْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَنِ »

ويروى أن علقمة بن علاثة رضى الله عنه قال : عظنى يارسول الله . فقال له : (اسْتَحْىِ مِنَ اللهِ اسْتِحْيَاءَكَ مِنْ ذَوِى الْهَيْبَةِ مِنْ قَوْمِكَ) : أى اترك مايسخط ربك عليك حياء منه تعالى ، كما أنك تستحيي أن تفعل شيئا قبيحا فى مجلس ضم عظماء عشيرتك والموقرين المحترمين من قومك ، وإن الله خالقك أحق وأجدر بهذا الاحترام منهم .

وأسباب الحياء كثيرة ، وأشدها تأثيرا سببان : الأمل ، والاستعظام :

أما الأمل فقد قال الباقر رضى الله عنه : من أمل رجلا هابه ، ومن قصر عن شىء عابه .

وأما الاستعظام فإن الإنسان متى استعظم أحدا استحيا منه ، فيكبر فى نفسه أن يطلع على عيبه ، ولذلك لايستحيي من الحيوان غير الناطق ولا من الأطفال الذين لايميزون .

والحياء فى الإنسان :

إما من نفسه ، وهذا يكون بالعفة عن الدنايا والترفع عن فعل ما يشين ولو فى خلوة ، وهذا لايتفق إلا لذوى العقول الكبيرة التى ترى الفضيلة حلية لذاتها والرذيلة منقصة لذاتها ، وهؤلاء فى الناس قليل ، وفى هذا يقول بعض الحكماء: ليكن استحياؤك من نفسك أكثر من استحيائك من غيرك ؛ فإن فى هذا دوام اقتناء فضيلة الحياء والبعد من القحة التى هى من أقبح ما اتصف به امرؤ فى حياته .

وإما من الله سبحانه وتعالى ، ويكون بفعل ماأمر به واجتناب مانهى عنه ، وبهذا يحرز الإنسان دينه ويفوز بسعادة الدنيا والآخرة .

وإما من الناس ، ويكون بكف الأذى واتقاء القبيح من قول وفعل ، وفى هذا مايرفع من قدره ويقربه من النفوس ، ويحببه إلى القلوب .

ومن ثمرات الحياء العفة فمن غلب عليه كان عفيفا بالطبع لا بالاختيار : وصف أعرابي امرأة فقال : « مازال القمر يرينيها فلما غاب أرتنيه » فقيل : فما كان بينكما ؟ قال : ما أقرب ما أحل الله مما حرم !! : إشارة فى غير بأس ودنو من غير مساس . وشعر العرب فى هـذا الباب كثير ، وهم يخبرون به عن سجاياهم وما جبلت عليه نفوسهم .

ومن ثمراته أيضا الوفاء : قال الأحنف بن قيس : اثنتان لا تجتمعان أبدا فى بشر : الكذب والمروءة . وللمروءة ثمرات منها الصدق والوفاء والحياء والعفة .

ويقابل الحياء الوقاحة ، وهى صفة مذمومة لأنها تحمل صاحبها على الانغماس فى الشر وعدم المبالاة بما يلحقه من الذم واللوم ، وقد ورد فى هـذا عن النبى صلى الله عليه وسلم : (إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ) ومثل هـذا لا يردعه عن جهله غير العقوبة الصارمة وأخذه بالشدة ؛ إذ من الناس من يخافون ولا يستحيون ؛ ولا غرابة فالقحة انسلاخ عن الإنسانيـة ، وحقيقتها لجاج النفس فى تعاطى القبيح : وما أصـدق قول الشاعر :

صلابة الوجه لم تغلب على أحد إلا تكامل فيه الشر واجتمعا

(ب) مايذم منه :

قد أسلفنا القول فى القدر المحمود من الحياء وها نحن نورد المذموم منه فنقول : إذا أفرط الإنسان فى الحياء بحيث يضطرب ويتحير أو بحيث تنقبض نفسه من فعل الشيء الذى لا ينبغى الاستحياء منـه ـ كان من أهل الخجل ؟ فالحياء كما تقدم ـ انقباض النفس عن القبائح وهو محمود ، والخجل الإفراط فى الانقباض وتجاوز الحد فيه وهو مذموم .

وهـذا كـكثير من الأخلاق التى يتجاوز فيها حدها المحمود إلى ضده كالسرف بالنسبة إلى الجود وكالتهور بالنسبة إلى الشجاعة وكالحرص بالنسبة إلى الكسب : وقد قال الحكماء : حياء الرجل فى غير موضعه ضعف .

والخجل ، وإن كان مذموما فى الرجال ـ محمود فى المرأة ؛ فإن التى لا تجد رادعا من حيائها عما يشينها أو ينتقص منزلتها لا تبالى أن تفعل كل ما تميل إليه نفسها ، وإنك حيث تمر أو تقف لا تجد غير وجوه سافرة وزينة بادية وثياب قصيرة مطرزة وحبرات مبرقشة وبراقع تشف عن كل شىء إلا الحياء : مما دل على أن فى النساء من لم تحرص على حيائها ، ولم تعبأ بأوامر دينها ، فلم تر بأسا فيما تفعله ، وإذا حُدثت فى شأنها زعمت أنها تقفو أثر أختها الغربية وتترسم خطاها فى الأخذ بأساليب المدنية الحديثة ؛ وإنها لحال تذيب حبات القلوب وتتصدع لها المرائر وتذهب النفوس فى أثرها حسرة وأسفا .

وللخجل نتائج : منها الحصر فى المنطق عند المرء إذا تكلم فى جمع من الناس : روى أبو الحسن المدائنى قال : صعد روح بن حاتم المنبر ، فلما رأى الناس قد رشقوه بأبصارهم وصرفوا أسماعهم نحوه قال : نكسوا رءوسكم ، وغضوا أبصاركم ؛ فإن المنبر أول مركب صعب ، فإذا يسر الله عز وجل فتح قفلا ثم نزل .

وخطب مصعب بن حيان خطبة زواج فحصر فقال: لقنوا موتاكم : لا إله إلا الله. فقالت أم الجارية : عجل الله موتك ! ! ألهذا دعوناك ؟

وواجب الآباء والمربين أن يحيوا فضيلة الحياء فى نفوس الأطفال ذكورا وإناثا بأن يراقبوهم فى أقوالهم وأعمالهم وينبهوهم إلى ترك ما يخالف الحياء من قول وفعل ، ويحذروا لهم من الرفقاء والإخوان من عرفوا بسمو الآداب ، ويجنبوهم معاشرة السفلة ولئام الناس والخدم ومن فى طبقتهم من الرعاع ، ويمنعوهم مطالعة الكتب التى تبعث فيهم الجرأة على فعل الشر وما فيه انتقاص للحياء ، وألا يشهدوهم مناظر الخيالة المفسدة للآداب وما فى معناها من التمثيل الهزلى فإنها تفسد الأخلاق وتذهب بالحياء ، وأن يختاروا لهم المربين ممن اتصفوا بكمال الخلق والحياء فإن العلم هو المثل المحتذى والقدوة الصالحة ، وعليهم كذلك أن يعالجوا الخجل عند الأحداث بما هدت إليه الخبرة والتجربة .

الزهد

هو قلة الرغبة فى الأموال والأعراض والغنى وإيثار القناعة بما يقيم الرمق والاستخفاف بالدنيا ومحاسنها ولذاتها وقلة الاكتراث بالمناصب العالية واستصغار الزلفى للحكام والعظماء وأرباب الأموال وأموالهم .

وهذا الخلق مستحسن كل الاستحسان من العلماء ورؤساء الدين والخطباء والوعاظ ، ومن يرغب الناس فى المعاد والبقاء بعد الموت . وليس بمستحسن من الملوك ورجال الدولة فى شئون المملكة ؛ لأن دولتهم لاتتم إلا باحتشاد الأموال وإنفاقها فيما يكسبها قوة ورهبة ويرفع مكانها عند الأمم ، وإظهار الزهد يضعفها .

(١) إننا تصفحنا تواريخ البشر فلم نجد بعد الأنبياء والرسل أكمل مثالا فى البشر من أولئك العشرة المبشرين بالجنة ، وكان منهم أغنياء لو قيسوا بأغنياء هذا العصر لكانوا فى مقدمتهم :

كان عثمان رضى الله عنه يجهز من ماله الخاص جيشا بأسره ، وكان الزبير صاحب أراض واسعة ومزارع تقوم بألوف ألوف من الدنانير ؛ وكان طلحة صاحب أملاك وعقارات وقد اقتنى البيوت حتى فى البصرة وفى الاسكندرية ، وكان عبد الرحمن بن عوف من ذوى اليسار الطائل ، وكانوا مع ذلك يعيشون عيشة أناس من عرض المسلمين ، ولا يستفيدون من هذه الثروات الواسعة لأنفسهم فتيلا . إنما كانت تنفق ثروتهم فى إسداء مكارم وأداء مغارم وفى ما ينفع الأمة .

وكان عبد الرحمن بن عوف إذا تأمل النعمة التى كان فيها يغلب عليه البكاء ويقول: عسى ألا تكون هذه النعمة فى العاجلة هى نصيبنا عن نعيم الآجلة ! !

لم يفكر أحد من الخلفاء الراشدين أن يورث الملك ابنه ولا حاول أن يتنعم منهم أحد بأقل شىء من بيت مال المسلمين إلا ما يكفيه قوته الضرورى له ولأسرته .

---

(١) مقتبس من مقال لأمير البيان الأمير شكيب أرسلان .

وتقتير عمر على نفسه وعلى أسرته أشهر من الشمس ، وقد جاع الناس عام الرمادة فبقى عمر وأسرته يأتدمون بالزيت طول مدة تلك المسغبة .

كان هؤلاء البررة يلبسون الخشن ولا يجيز أحدهم لبس شيء من الخز إلا لعلة ؛ وكانوا يأكلون الخشن ولا يعرفون الحلواء إلا نادرا على حين أن شذور الذهب من معدن بنى سليم كانت تقطع بالفئوس ، وبيت المال يغص بالذهب والفضة والياقوت والمرجان واللؤلؤ والعنبر والطيب يرونها بأعينهم ولا تشتاق أنفسهم إلى شيء منها بل ينظرون إليها نظرهم إلى التراب لشدة غنى قلوبهم وكثرة انصرافهم إلى ما هو خير وأبقى وامتلاء نفوسهم بمعالى الأمور .

كانت هذه صفاتهم الثابتة لهم بإقرار كل من عاصرهم من مسلم ومشرك وكتابى وعربى وأعجمى ، فلم تكن هذه الروايات عنهم أساطير كما يقول المتخرصون من الفرنجة ، بل كانت هذه الأخبار حقائق ثابتة لا يختلف فيها إلا من فى قلوبهم مرض ، وكل الأمراض لها علاج سوى أمراض القلوب .

ليأتنا المؤرخون فى شرق أو غرب بنزاهة كنزاهة الخلفاء الراشدين وبورع كورعهم ، وهم أولئك الذين دانت لسلطانهم ملوك العالم !!

الأمل

(١) وجه امتداحه :

علمت مما ذكرنا فى «بحث الصبر والشجاعة» ما لهما من الفضل والمزية والأثر البين فى حياة البشر ونجاح مساعيهم أفرادا ومجتمعين ، وقد بقى أن تعلم أن الصبر والشجاعة والثبات فى الأعمال لا يحييها فى نفس المرء إلا «الأمل» ، ولا يميتها إلا «اليأس» كن آملا فأنت شجاع صبور ثابت ، وكن يائسا فأنت جبان جزوع مضطرب .

الأمل قبس من نور يمشى أمامك فى مسارب هذه الحياة ، أما اليأس فسدفة من حالك الظلام تتكاثف أمام عينيك ، فتعمّى عليك السبل ، وتسد فى وجهك

أبواب النجاح .

الأمل روح العمل ، وكل عمل لا يتخلله أمل كان كالجسد الذى ليس فيه روح سرعان ما ينحل ويدركه الفساد ، فكيف لا يكون الأمل إذن من أكبر الفضائل النفسية ! وإن من طلب من نفسه الجلد والثبات فى العظائم وحين اشتداد الأهوال والمصائب وهو يائس قانط ـ كان كمن يزاول عملا بيد شلاء .

ومن ثم شدد القرآن الحكيم فى النهى عن اليأس وجعله من سمات الجاحدين فقال تعالى : « وَلاَ تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرِينَ » : وروح الله معونته ؛ فإذا كان اليأس منهيا عنه أو محرما فى الإسلام كان ضده وهو الأمل مأمورا به ومعدودا من كريم خصال الإسلام ، وفى معنى الأمل الثقة والرجاء والتوكل ، ومع هذا فلابد من أن نشترط لهذه الكلمات الأربع شرطا حتى يكون لمدلولها اعتبار وقيمة فى نظر الشرع والعقل : ذلك أن يكون لك (وأنت واثق ، راج ، آمل ، متوكل) ـ عمل أو سعى أو سوابق أو أسباب تستند إليها تلك الثقة ويبتنى عليها الأمل ؛ وإلا فإن كنت مفرطا ، مهملا ، متقاعدا عن العمل والسعى ومراعاة سنن الله فى خلقه وقلت فى نفسك إنك واثق راج متوكل آمل ـ عد هذا منك غنيا وغرورا وخداع نفس ، وهى صفات مذمومة شرعا وعقلا :

قيل للحسن البصرى : قوم يقولون : نرجو الله ويضيعون العمل !! فقال : هيهات هيهات !! تلك أمانيهم يترجحون فيها : من رجا شيئا طلبه ، ومن خاف شيئا اجتنبه .

فمحمود الأمل هو ما قارنه محمود العمل : قال تعالى : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلاً » : أى أن الأعمال الصالحة خير ما يعتمد عليه الآمل فى أمله.

وفى هذا النوع من الأمل المحمود قال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ الأمَلَ

رَحْمَةٌ مِنَ اللهِ لِلأُمَّةِ ، لَوْلاَ الأَمَلُ مَا أَرْضَعَتْ أُمٌّ وَلَدَهَا »

ومحصل القول أن الأمل المحمود هو انتظار أمر قد بذرت له البذور التى تنبته، ونصبت من أجله الشباك التى تمسكه :

فاغرس ، وتوقع ، وا كدح ، وارج الرزق ، أما إذا أملت فيهما من دون غرس ولا كدح كان فعلك باطلا وأملك كاذبا ، وإذا تعاطيت الأسباب قوى فى نفسك الأمل فى النجاح .

وأكمل ضروب الأمل وأوثقها أن تؤمل بالله تعالى الذى بيده الأمر كله ، وهو الذى منحك القوى والمشاعر ، ويسر لك الأسباب والوسائط ، وأقدرك على اتخاذها .

ومن الناس من يجعلون كل أملهم فى عزائمهم وقوى نفوسهم وإحكام ما دبروه من الوسائل والأسباب غير مستمسكين بالأمل فى الله ، وذلك جهل وغرور ؛ فقد تتوافر الوسائل وتتم الأسباب ولا تنجح المقاصد ؛ لأن الله لم يشأ تحقيقها : قال تعالى: «لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ »

ومن أقبح ضروب اليأس أن يتقاعد المرء فلا يتعاطى سببا فى جلب خير أودفع ضر توهما منه أن ذلك غير مجديه نفعا ، ولا منجيه مما هو فيه ، فيعيش كاسف البال حزينا ، وإذا تفشى هذا الداء الوبيل الأمم واستحكم فى نفوسها حتى صرفها عن النظر فى مستقبلها والعناية بمصالحها كان من أقوى العوامل فى تقويض بنيانها وتعفية آثارها وإدالة غيرها منها ، وليس عارا على الإنسان أن تصيبه نائبة من نوائب الدهر ، وإنما العار عليه أن يستسلم لليأس ويقنط حتى إذا سقط لم ينشط ، وإذا رقد لم ينهض، وقد أشار القرآن إلى أن خلق اليأس والجزع مما ركب فى فطرة البشر، لكن الموفق منهم من عاجله ، فعالجه بتربية نفسه وتقويم ما اعوج من أخلاقه : من ذلك قوله تعالى :

« إِنَّ الإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا إِلاَّ الْمُصَلِّينَ »

على أن من محاسن الأمل أنه سبب العمران فيحمل الناس على العمل ، ولولا أن الآخر يرتفق بما أنشأه الأول حتى يصير به مستغنيا لافتقر أهل كل عصر إلى إنشاء ما يحتاجون إليه ، فباتساع الآمال عمرت الدنيا وعم صلاحها ، وانتقل العمران من قرن إلى قرن ، فتمم الثانى ما أبقاه الأول ورم الثالث ما أحدثه الثانى من شعثها لتكون أحوالها على الأعصار ملتئمة وأمورها على ممر الدهور منتظمة، ولو قصرت الآمال ما تجاوز الواحد حاجة يومه .

(ب) وجه ذمه :

تقدم فى امتداح الأمل ما أبان عظيم منزلته . وجليل مزاياه ، بيد أن النفوس بما جبلت عليه من حب العاجلة تغلو فى الأمل لسببين : أحدهما الجهل ، والآخر الحرص على الدنيا :

أما الجهل فسببه أن الإنسان قد يغتر بشبابه ، فيستبعد قرب الموت مع الشباب، ولو فكر مليا لبان له أن مشايخ بلده لو عُدُّوا لكانوا أقل من عشر أهلها ؛ وإنما قلوا لأن الموت فى الشباب أكثر ؛ فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب . وقد يستبعد الموت لصحته ، ويستبعد الموت فجأة ، ولا يدرى أن ذلك غير بعيد ، وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد ، وكل مرض إنما يقع فجأة . على أن المرء لو تروى فيما يقع حوله لاستبان له أن الموت ليس له وقت مخصوص : من شباب، وكهولة ، ومن صيف وشتاء ، وخريف وربيع . ولكن الجهل بهذه الأمور دعاه إلى الغلو فى الأمل .

ومن غريب أمره أنه يعلم أن الموت بين يديه ، ولا يقدر نزوله به . ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « مَا رَأَيْتُ يَقِيناً أَشْبَهَ بِالْوَهْمِ مِنَ الْمَوْتِ » .

وأما الحرص على الدنيا فذلك لأن المرء إذا أنس بها وبلذاتها وعلائقها ثقل على قلبه مفارقتها ، وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه ، والإنسان مشغوف بالأمانىّ

الباطلة ، فيمني نفسه بما يوافق مراده ، وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا ، فلا يزال يتوهمه ، ويقدره في نفسه ، ويقدر توابع البقاء وما يحتاج إليه : من مال ، وأهل ، ودار ، وأصدقاء ، وسائر أسباب الدنيا ، فيعكف قلبه عليها ، ويلهو عن مفارقتها ؛ حتى إذا خطر له في بعض الأحايين أمر مفارقتها سوّف ، ووعد نفسه : وقال : الأيام بين يديّ كفيلة بقضاء لباناتي :

فما قضى أحد منها لبانته وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وليس بدعا أن يغلو الإنسان في الأمل ، فقد جاء في الأثر : « يشيب ابن آدم ، ويشب معه خصلتان : الحرص ، وطول الأمل » وفي رواية « يهرم ابن آدم ، وتبقى معه اثنتان : الحرص ، والأمل »

وخير ما يكون عليه الأمل أن يجري على ما جاء في قول سيد البشر : « احْرُثْ لِدُنيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَدًا ، وَاعْمَلْ لِآخِرَتِكَ كَأَنَّكَ تَمُوتُ غَدًا » ؛ فإنه صريح في حث المرء على عمارة الدنيا ؛ حتى يسكن فيها ويستمتع بها ، وينتفع بها من يجيء بعده ، كما انتفع هو بعمل من كان قبله . أضف إلى ذلك أنه إذا علم أنه يطول عمره أحكم ما يعمله ، وحرص على ما يكتسبه ، وإذا مثل له أن الموت يوافيه اليوم أو غدا أخلص في عمله ، واستنفد وسعه في إتقانه وسارع إلى إنجازه ، فينال السعادة في الدنيا والآخرة وذلك الفوز العظيم .


Bibliotheca Alexandrina
0464369